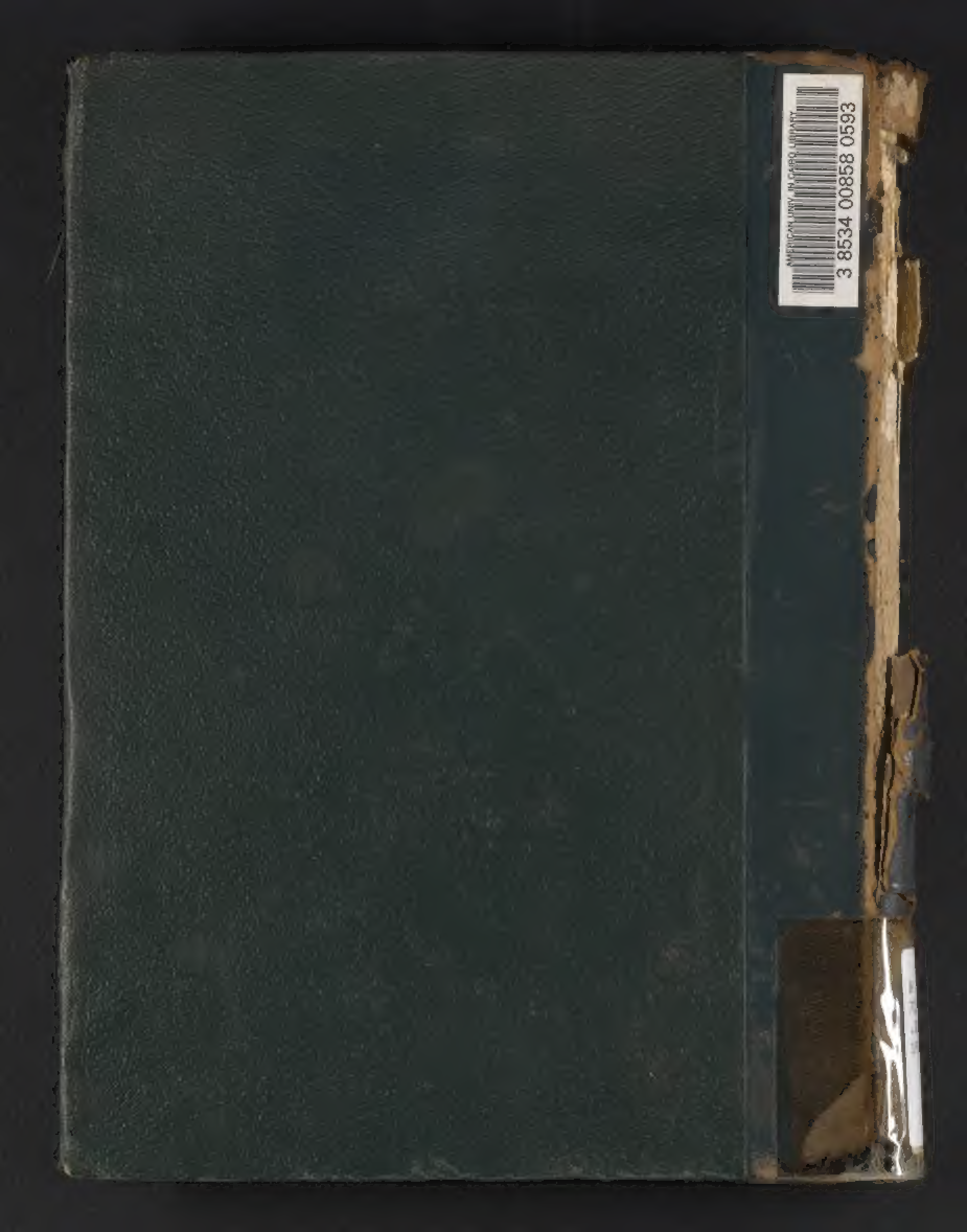

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00858 0593


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة


Lib
The Ameri
at Cairo
THE AMERICAN UNIVERSITY AT CAIRO
INCORPORATED
DISTRICT OF COLUMBIA
1919.
KNOWLEDGE
SERVICE
CHARACTER

مباهج الفلسفة

الكتاب الأول

إلى المستشرق القدير
الأستاذ كلفرلي
مع خالص تحية
أحمد فؤاد الأهواني
٥/٤/١٩٥٥م

نشر بالاشتراك

مع

مؤسســـة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

مباهج الفلسفة

الكتاب الأول

تأليف

ول ديورانت

تقديم

الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

ترجمة

الدكتور أحمد فؤاد الاهواني

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الانجلو المصرية ــ القاهرة

١٩٥٥

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف

ول ديورانت : ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين فى نورث أدامز بماساشوست ، حيث تلقى العلم فى المدارس الكاثوليكية ، وفى كلية القديس بطرس فى نيوجرسى ، وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك . ثم اشتغل مدة الصيف مخبراً فى جريدة نيويورك ، ولكنه هجر ذلك العمل المثير حين رأى أنه لايصلح له . واشتغل بعد ذلك بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة فى كلية سيتون هول فى جنوب أورانج بنيوجرسى (١٩٠٧ — ١٩١١) . وهناك التحق بمعهد الدراسات العليا الدينية فى عام ١٩٠٩ ، ثم هجره للأسباب التى ذكرها فى كتابه المسمى « الانتقال Transition » . وانتقل من هذا المعهد مباشرة إلى أكثر الأوساط تحرراً فى نيويورك ، وأصبح فى مدرسة فرر الحديثة(١٩١١— ١٩١٣) : « الرئيس والمعلم والمتعلم » ، وكانت تلك المدرسة تجربة فى التربية المتحررة . وفى ١٩١٢ طاف بأوربا من كيلارنى إلى يالتا على نفقة ألدن فريمان الذى اتخذه صاحباً وتعهد أن يوسع أفقه . وانقطع ١٩١٢ إلى الدراسة العليا بجامعة كولومبيا ، فتخصص فى علم الحياة على مورجان وكالكنز ، وفى الفلسفة على وودبردج وديوى ، وحصل على الدكتوراه ١٩١٧ ، ودرس الفلسفة مدة عام بجامعة كولومبيا . وفى ١٩١٤ بدأ يلقى تلك المحاضرات فى الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم والفن التى مهدت لكتابه « قصة الفلسفة » وذلك فى كنيسة برسبتيرية فى نيويورك . ولم تكد « قصة الفلسفة » تظهر حتى كانت أحسن كتب ذلك العام انتشاراً مما أثار دهشـــة مؤلفها وناشرها . فتحرر عام ١٩٢٧ من العمل المدرسى عقب نجاح « قصة الفلسفة » لينقطع إلى كتابة تاريخ الحضارة ، فطاف أوربا مرة أخرى فى ١٩٢٧ ، وحول العالم فى ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان . ومرة ثانية فى ١٩٣٢ لزيارة اليابان وكوريا ومنشوريا وسيبريا وروسيا . ثم أصدر فى ١٩٣٥ — بعد سبع

سنوات من الرحلة والدرس – كتاب « تراثنا الشرقى » وهو المجلد الأول من كتاب « قصة الحضارة » . ومع أنه زار اليونان وإيطاليا فى ١٩١٢ و ١٩٢٧ و ١٩٣٢ ، إلا أنه عاد إليهما سنة ١٩٣٦ ، فأضاف بذلك معلومات جديدة إلى الدراسة المنظمة التى تلقاها عن الحزويت فى اللغات والآداب القديمة . وأصدر فى ١٩٣٩ كتاب « حياة الإغريق » وفى ١٩٤٤ « قيصر والمسيح » . وأمضى فى ١٩٤٨ ستة أشهر فى أوربا والشرقين الأدنى والأوسط يدرس المعالم والآثار المسيحية والإسلامية من أدنبرة إلى شيراز . ونشر فى ١٩٥٠ كتاب « عصر الإيمان » وهو تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط – مسيحية وإسلامية ويهودية – منذ قسطنطين حتى دانتى . ثم أمضى فى إيطاليا وفرنسا سبعة أشهر درس فيها معظم المناظر والفنون الموصوفة فى عصر النهضة ، وهو موضوع المجلد الخامس ، وقد صدر فى ١٩٥٣ . وهو يعمل الآن فى كتابة المجلد السادس من المجموعة ، ويأمل أن يصدره فى ١٩٥٨ بعنوان « عصر الإصلاح الدينى » . وإنه ليرجو إذا واتته الظروف وأعانته الصحة أن يتم هذا العمل سنة ١٩٦٣ بإصدار كتاب « عصر العقل » الذى يمضى مع القصة حتى القرن التاسع عشر .

* * *

وليس ول ديورانت غريباً عن قراء العربية ، فقد ترجم من كتابه قصة الحضارة المجلد الأول فى خمسة أجزاء ، والمجلد الثانى عن اليونان فى ثلاثة أجزاء ، ويجرى الآن طبع المجلد الثالث ، وذلك على نفقة الجامعة العربية التى اختارت الكتاب ضمن برنامجها الثقافى ، وقد عهد بالترجمة إلى الأستاذين محمد بدران وزكى نجيب محمود .

* * *

ويسر مؤسسة فرانكلين أن تقدم له فى العربية الكتاب الأول من « مباهج الفلسفة » . ومع أن الكتاب فى طبعته الأصلية يقع فى مجلد واحد فقد دعت بعض الاعتبارات إلى إصداره فى العربية فى كتابين ، وترجو أن يصدر قريباً الكتاب الثانى الذى يشتمل على فلسفة التاريخ ، والفلسفة السياسية ، وفلسفة الدين ، والحياة والموت .

صاحب المقدمة

الدكتور ابراهيم بيومي مدكور : تم تعليمه في مصر . وأوفد في بعثة ١٩٢٧ إلى باريس فحصل على ليسانس الفلسفة . ودكتوراه الدولة من السوربون ١٩٣٤ ، وعاد إلى مصر واشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة القاهرة . حتى برز في ميدان السياسة فانتخب عضواً بمجلس الشيوخ ١٩٣٧ . حيث برزت مواهبه البرلمانية. وعين وزيراً ١٩٥٢ ، ثم رئيساً لمجلس الخدمات و عضواً بمجلس الإنتاج ، إلى أن استقال من رياسة مجلس الخدمات ليتفرغ لمجلس الإنتاج . وهو عضو بمجمع اللغوى ، وحوائز الدولة ، وغير ذلك من اللجان العلمية

له من المؤلفات بالفرنسية L'Organon d'Aristote dans le Monde Arabe أى « منطق أرسطو فى العالم العربى » و La Place d'AL Farabi dans l' Ecole Philosophique Musulmane أى « منزلة الفارابى فى الفلسفة الإسلامية » وبالعربية « دروس فى الفلسفة » مع الأستاذ يوسف كرم ، و « فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه » و « أداة الحكم » مع الأستاذ مريت بطرس غالى . وهو رئيس لجنة تحقيق كتاب « الشفاء » لابن سينا ، وقد صدر منه حتى الآن « المدخل » ١٩٥٢ و « الخطابة » ١٩٥٤ .

وعلى الرغم من اشتغاله بالمسائل العامة لم يقطع صلته بالفلسفة ، فألقى بجامعة السوربون باريس أثناء الصيف ١٩٥٤ وما قبله محاضرات فى الفلسفة الإسلامية .

صاحب الترجمة

الدكتور احمد فؤاد الاهوانى : التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أول إنشائها . فأخذ الفلسفة عن أعلامها الفرنسيين : بربيه ، ولالاند وريّ ، وحصل على الليسانس ودبلوم معهد التربية العالى والدكتوراه وعين بالجامعة لتدريس الفلسفة .

وله من المؤلفات خلاصة علم النفس ، والتعليم فى رأى القابسى (وهى رسالة الدكتوراه) وتاريخ المنطق والمنطق الحديث ، ومعانى الفلسفة ، وفى عالم

الفلسفة . والحب والكراهية . والخوف . والنسيان . وأسرار النفس . ونشر من المخطوطات : كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل . وكتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى . وإيساغوجي لفرفريوس الصوري . وأحوال النفس لابن سينا . واشترك في تحقيق « المدخل » من الشفاء لابن سينا (وهو أحد أعضاء اللجنة) . وترجم كتاب النفس لأرسطو وراجعه الأب قنواتي . وطريقة ديكرولي وراجعه الدكتور يوسف مراد . وآخر ما ألف كتاب « فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط » اعتمد فيه على جميع نصوص الفلاسفة التي نقلها إلى العربية .

مصمم الغلاف

رفيق البابلي : مهندس ، حصل على بكالوريوس الهندسة قسم العمارة ١٩٥٤ . نال جائزة فرانكلين عن تصميم غلاف كتاب « كيف تتكامل الشخصية » . قرأ « مباهج الفلسفة » في أصله الإنجليزي ليتبين الفكرة عنه ، فأخرجها في هـذا الرسم المطبوع على ظاهر الكتاب . وخطر له أن ديوجينس بمصباحه وهو يبحث عن الحقيقة رمز يمثل الفلسفة .

مقدمة

بقلم الدكتور إبراهيم مدكور

كانت الفلسفة لغة خاصة وشغل فريق من الناس، وغدت رمزاً بين المعنيين بالسرية والمضنون به على غير أهله. وقديماً احتفظ بها الأفلاطونيون في الأكاديمية، والمشاؤون في اللوقيون، وأتباع زينون في الرواق. وفي العصور الوسطى حوربت وصودرت كتبها وحرّمت دراستها. وإن أصبحت قصراً على نفر من كبار المفكرين ورجال الدين. وعُدّ خرقاً أن نتفلسف ونصبح سبة الدول. وفي التاريخ الحديث بقيت وقفاً على مدارس محدودة، وسلعة ممتازة لا يمكن أن تتداول في جميع الأسواق.

ويراد بها اليوم أن تنزل من صومعتها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم، وتنتقل من أرستقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطلق: فتيسر سبلها، وتكتسب لغة العصر وروحه، وتمثل للقارئ العادي بحيث يجد فيها من اللذة والمتعة ما يجده في ألوان الثقافة الأخرى. ولعل من أخص خصائص الأدب المعاصر أنه وثيق الصلة بالعلم والفلسفة. يمد إليهما وكلاهما تكأته الوثير اللين، وعليه تؤثر نزعتهما الخاصة وأفكارهما المتجددة. وهذا اتجاه عام أساسه أن يتفلسف الأدب وتتأدب الفلسفة. وأنصاره كثيرون، ويكفي أن نذكر منهم برتراند رسل بين الفلاسفة، وأندريه جيد بين الأدباء.

***

ويُعَدُّ وِلْ ديورانت — بحق — في مقدمة من ساهموا في هذا المضمار. فبقلمه السيال وأسلوبه العذب طوّع الفلسفة، وجعل مباحثها الدقيقة، ونظرياتها المعقدة، يسيرة المنال، سهلة الفهم. وكيف لا وهو أديب بقدر ما هو فيلسوف، يجتذب القارئ ببيانه، ويسحره بخياله وشعره. يصف ويشبّه، ويلجأ إلى المجاز والاستعارة، فتتحول الفكرة المجردة في يديه إلى حقيقة ملموسة. وهو فوق هذا كاتب ساخر، وسخريته لاذعة أحيانًا، ينقد هذا ويتهكم من ذاك. وفي السخرية ما فيها من عوامل التشويق وإثارة الانتباه. لهذا لم يكن غريبًا أن يسمى كتابه الذي نقدم لترجمته «مباهج الفلسفة». ولهذه التسمية قصة، فقد كان يسمى أولا «قصور الفلسفة»، ويوم أن أعيد طبعه اقترح له ناشره هذا الاسم، والناشرون أعرف ما تكون عيون القراء ورغباتهم.

وديورانت رحالة، طوّف في الآفاق ما طوّف، ومؤرخ حضارة عاش في الماضي بقدر ما عاش في الحاضر. وهو يرى أن حضارتنا الحاضرة أضحت مادية إباحية، استبدلت بالزهد الترف، وأحلت الأبيقورية محل الحرمان ومجاهدة النفس، تخاطب الجسم قبل أن تخاطب الروح، وتتنكر لما ورثته عن مثل عليا، وتحارب ما ألفته من عادات وتقاليد. وتحور هذا إلى معتقداتنا الدينية، فتحاول أن تنتزع منا أعزها. وأصبحنا وكأننا في بحر لجي تتقاذفنا فيه الأمواج، ولا ندري أين المقر، وأصبحت حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار، وحياتنا العقلية عرضة للتجديد كل يوم.

وما ذاك إلا لأن هذه الحضارة لا تقوم على دعائم عقلية، ولا تعتمد على أسس كلية. وما أحوجنا إلى أن نتفلسف فنلمّ شعثها، ونزيل تناقضها، ونكوّن من شتى مظاهرها كلاً متسقًا، ونرسم لها أهدافًا أسمى وأكمل. وسبيلنا إلى ذلك أن نرتاد علم الأخلاق لنكشف عن طبيعة الحياة الخلقية، وفي ضوئها نستطيع أن نعالج أسرنا المتحللة، وروابطنا المتراخية، ونخرج من الأثرة الضيقة الأفق

إلى إنسان كريم ، يعيش الناس تحت ظله إخواناً متحابين ، ويجدد في عصرنا بناء الأخلاق من جديد . وسيعتمد على ذلك ما تمليه فلسفة الدين والتاريخ من دروس ، وما يستمده من علم الجمال من نتائج ومُثُل .

وقد اضطلع ديورانت بهذا العبء ، وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة محكمة . أو كما يسميها « أخلاقاً طبيعية » عن مجال الأوامر الدينية التي عمل أثرها في سلوك الناس . ولا أظنه يزعم أنه قدم بهذا فلسفة جديدة ، أو مذهباً مبتكراً . وإنما أراد أن يعرض الآراء السابقة ليستخلص منها مذهبه . وهو في عرضه طليق كل الطلاقة ، فلم يلتزم تقسيمات الفلاسفة التقليدية ، ولم يتقيد بكتبهم المألوفة . وإنما عرض على النحو الذي بدا له . فجاء عرضه شيقاً جذاباً ، يؤذن باطلاع واسع وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ والعلم والأدب .

وإذا كنا نتفق معه على موطن الداء ، فقد نتساءل إذا كان من اليسير أن يقدم له الدواء ؟ وإذا كنا نقدر البواعث التي دفعته إلى إقامة « فلسفة الحياة » ، فإننا لا ندري إلى أي مدى وفق في تشييد صرحها .

* * *

ومهما يكن من شيء ففي كتاب « مباهج الفلسفة » جهد كبير ، وعرض شيق ، ودرس نافع . وسيجد فيه القارئ العربي لذة ومتاعاً عظيمين . لا سيما وقد عرف مترجمه كيف ينقله في صدق وأمانة ، وترجمه في وضوح ودقة . والمترجم الكريم في غنى عن التعريف ، وإنتاجه متصل ، وآثاره تأليفاً وترجمة يتداولها القراء دون انقطاع . وهو فوق هذا فيلسوف متخصص ، يعرف كيف يعالج النظريات والمصطلحات الفلسفية ، ويستطيع أن يتخير أكمل السبل لنقلها إلى العربية .

ويحق لي بعد هذا كله أن أقول إن مؤسسة فرانكلين للنشر أحسنت كل الإحسان في تخيرها لهذا الكتاب، وعرفت كيف تكل ترجمته إلى أيد أمينة، فأضافت بذلك حلقة ثمينة إلى سلسلة نشاطها المتواصل، وغذّت المكتبة العربية بغذاء ممتع. وإذا كنا نقدّم اليوم لترجمة الجزء الأول من كتاب «مباهج الفلسفة»، فإنا نرجو ألا يمضى زمن طويل إلا وقد وُضع جزؤه الثانى فى أيدى الباحثين والقراء.

محتويات الكتاب الأول

(*) الفصول المرقومة بنجمة فنية متخصصة .

صفحة

الفصل الرابع : هل الإنسان آلة ؟

الجزء الرابع
مشكلات اخلاقية

الفصل الخامس : أخلاقنا المتغيرة

الفصل السادس : الأخلاقية واللاأخلاقية

الفصل السابع : الحب

صفحة

الفصل الثامن : الرجال والنساء

الفصل التاسع : المرأة الحديثة

الفصل العاشر : انهيار الزواج

الفصل الحادى عشر : فى الأطفال اعتراف

الفصل الثانى عشر : إعادة بناء الخلق

صفحة

الجزء الخامس
علم الجمال

الفصل الثالث عشر : ما الجمال ؟

اعتراف

هذا الكتاب ، على الرغم من عنوانه الجديد ، مزيج ، طبعة منقحة من كتاب « قصور الفلسفة Mansions of Philosophy » الذي طبع سنة ١٩٢٩. وبعدت طبعته منذ عشر سنوات ، وبرغم الطلب عليه إلى الحد الذي يعتذر معه إصدار طبعة جديدة . وفي الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى ، وسوف يلمس القارىء عددا كثيرا من الأفكار في نحوها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضي لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تنبض بالعاطفة . ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسي أصدق تعبير . وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق . وخاصة في الفصل الثامن عشر وإذ كشفت أني غير معصوم من الخطأ . فقد ينبغي اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات . وإني لأعتقد أن في الكتاب على الرغم من هذه الأخطاء صفحات تعين على الحياة . لهذا السبب ألقيه مرة أخرى في خضم الحياة حتى يلتمس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح المؤتلفة في دولة العقل

ول ديورانت

نيويورك في ١٥ وفمبر ١٩٥٢

دعـــــــوة

هذا الكتاب محاولة لإعادة فحص ما نسميه بالحرية . فهو يسعى إلى أن يضع تحت أنظار القراء مجموعة من الكتاب قصة مختلفة أن يضعها بطريقة مختلفة شخصيات مختلفة ومذاهبهم . وأن نعرفهم إلى أفكارهم بعبارة الصوفية . وأن نقدمهم إلى جيل يتشوق للحديث . وسوف نلتقي من هذا الكتاب بقصص مختلفة ومأثورة في حقب من حقب الكتاب ولعل في الجزء الخاص بكل قصة من هؤلاء ما يشير إلى حقيقة هذه الأيام : ذلك أن موضوعنا بعيد عما هو غيب .

ونحن نلاحظ أن سلوك الإنسان ومعتقداته خضعت اليوم لتغييرات شديدة وأعظم خطر مما كانت عليه عند الثورة وصارت مختلفة وصارت المدنية الإغريقية متوارثة فتحولت في عصر مرة ثانية الحقيقة مهددة بالانهيار . وحياتنا العقلية يتغير مسارها وتتسع آفاقها . وذلك كله على حساب التقاليد والمعتقدات القديمة . وكل شيء سواء في أفكارنا أو في أعمالنا جديد وغريب . ولم يعد هنالك شيء مستقر أو مؤكد . ونحن نعيش الحاضر في زمن من جهة سرعته وتعقيده ونعده مثيلا في التاريخ حتى في أيام ... فقد تبدلت جميع أوضاع الحياة وصورها من حولنا . فأنشأت الآلات التي تقلب الأرض رأسا على عقب . والمحلات في الصور وتصنع ... خواص الأرض . إلى هذه التحديات في علاقاتنا ... . والأوهام ... على نفوسنا . وقد أدى الانتقال من الزراعة إلى الصناعة . ومن القرية إلى المدينة . ومن المدينة إلى الفضاء . إلى رفع شأن العلم . والحد من سلطة الدين . وتحرير الفكر . وأفول نجم الملكية والأرستقراطية . ونشأة الديمقراطية والاشتراكية . وتحرير المرأة . وانحلال الرابطة الزوجية . وانهيار القوانين الأخلاقية الموروثة . وتدلت بالزهد الذي ... وأخذت النزعة الأبيقورية تحل محل النزعة ... وتضمنت

الحياة المثيرة على الضوء والرصاص . وحدثت من كثرة الحروب والكتب أصبحت أعظم رعباً . واقتلعت من أنفسنا كثيراً من أعز معتقداتنا الدينية . وقدمت لنا في مقابل ذلك فلسفة في الحياة ميكانيكية وجبرية . فجميع الأشياء تجري كما يتدفق الماء في النهر . وليست لنا حيلة في التماس برّ أو مستقر .

ويظهر في كل حضارة نامية عصر يتضح فيه أن الطبائع والعادات القديمة لا تتناسب مع المؤثرات التي تغيرت . وعندئذ تهوى النظم والأخلاق العتيقة حين تدفعها مطرقة الحياة السائرة في طريق النمو . فتتهشم نحتها كما تتهشم القوقعة من الصدف . فقد انهارت أنواع النظم القائمة على الاستجابات التلقائية والطبيعية في مجال إثر آخر . بعد أن هجرت المزرعة والبيت إلى المصنع والمدينة والعالم . ولا يزال العقل مضطرباً في إجرائه تجارب ترشده عن وعي إلى طرق جديدة بدلا من سلوك أجدادنا الطبيعي البسيط وأساليبهم القديمة . فينبغي أن نفكر اليوم في كل شيء . ابتداء من « التركيب » الصناعي الذي نغذي به أطفالنا ، و « السعر الحراري » و « الفيتامينات » التي يعدها لنا علماء التغذية ، إلى الجهود المدهشة التي تبذلها الحكومات المعاصرة لتوجيه طرق التجارة التي تجري اعتباطاً وتنسيقها . لقد أصبح مثلنا الآن مثل ذلك الذي لا يستطيع أن يمشي دون أن يفكر في ساقيه . أو لاعب الكرة الذي يجب أن يحلل كل حركة وكل ضربة وهو يلعب . لقد ذهبت عنا تلك الوحدة السعيدة المستمدة من الغريزة ، وأصبحنا نتخبط في بحر من التفكير والشك . فنحن في غمار المعرفة الجديدة والقوة الطارئة في شك من أغراضنا وقيمنا وأهدافنا .

والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج من هذا الاضطراب هو أن نرتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء كي نتأمل الكل . لأن ما فقدناه قبل كل شيء هو هذه النظرة الكلية . وتبدو الحياة من التعقيد والتحرك بحيث يصعب علينا إدراك وحدتها ومفهومها . إننا نفقد صفة المواطن فلا نصبح سوى مجرد أفراد ، وليس لنا غايات تذهب أبعد من لحظة موتنا . فنحن بضعة من الناس ولا شيء سوى ذلك . ولا نجد اليوم أحداً يجسر على وصف الحياة في كليتها . والحل سريع والتركيب بطيء . ونحن نخشى الاختصاصيين في كل ميدان ، فنقصر أنفسنا طلباً

للسلامة في حدود اختصاصها . وكل منا يعرف دوره . ولكنه يجهل معناه بالنسبة إلى الرواية . بل الحياة نفسها تخلو حينئذ من معنى . حتى إذا بدت أكمل ما تكون أصبحت فارغة .

فلنخلع عنا خوف من الأخطاء التي لا يمكن تجنبها . ولنعالج جميع مشكلات أحوالنا محاولين رؤية كل جزء وكل معضلة في ضوء المجموع . من أجل ذلك سوف نعرف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذي ينشط الحياة ويحيل الاضطراب إلى وحدة . ولما كانت الفلسفة في عصرنا بقيت لعباً مدرسياً بالتصورات الميتة بعيدة عن اهتمام المجتمع والإنسان . فسوف نشتمل في هذا الكتاب على جميع المسائل التي تؤثر تأثيراً حيوياً في قيمة الحياة الإنسانية ومعناها . سنصرف النظر عن مقدماتها التاريخية مهما تكن يسيرة ولن نقف عند منطق إلا ريثما نتخلص نهائياً منه . أما نظرية المعرفة فسنمر بها مر الكرام الذين حدود العقل البشري . إذ لن نجد مثل هذه النظرية المعروضة إلا مكاناً متواضعاً هو الذي نحتاج إليه في قصور الفلسفة . ثم نقف بعد ذلك في الباب الميتافيزيقي بالأشياء فنتأمل المذهب المادي ونرى رأينا فيه . أيكون الفكر وظيفة للمادة . أم أن الاختيار خداع آلة حية سريعة الزوال . ومن هذه الزاوية نرتاد علم الأخلاق ، ونبحث في طبيعة الحياة الفاضلة ، فنتلمس أسباب أخلاقنا المتغيرة وما يترتب عليها من نتائج ، وننظر في واجب الحب ، وروابط حبنا وتراخيه . ونناقش أمر المرأة الحديثة التي فقدت دلالها وتخلت عن شهوتها للانتقام . ونفاضل بين زينون وأبيقور باحثين عن مواطن السعادة . ثم نشق الطريق الذي يجمع بين قضاياه في التربية وإعادة بناء الأخلاق . وسوف نقف عند علم الجمال لحظة لنبصر في معنى الجمال ومطامع الفن . وسوف نتأمل التاريخ ونبحث عن دروسه وقوانينه ، ونسأل عن صفة التقدم ، ونرى مصير حضارتنا . فإذا تناولنا الفلسفة السياسية رأينا أنفسنا مسوقين كما كنا نفعل في حماسة الشباب إلى مناقشة مشكلات الفوضوية والشيوعية والاشتراكية والتقليدية والديمقراطية والأرستقراطية والدكتاتورية . أما فلسفة الدين فسوف تعود بنا إلى تلك المباحث القديمة عن الخلود والله . ثم نحاول أن ننظر إلى ماضي المسيحية ومستقبلها من خلال تاريخ سير العالم . وأخيراً سوف

نصبح متشائمين ونعيش في ضعف، ونجد أنفسنا منفصلين عن تعليم حياة الإنسانية وآلامها، ثم ننظر بصورة كلية مجردين من استخلاص قيمة حياتنا ومعناها. إنها حرية في الأبدية (1).

ونحن نعرف أنه يجب أن نضحك ونئن من كل هذه الفلسفة؟ إنه سؤال محزن، فنحن لا نستطيع أن نسأل عن الشعر الذي يعطي تحية حية للعالم ليس معروفاً معرفة كاملة، وإن كان الشعر يكشف لنا عن جمال الذي تحفظه أعيننا غريزة. وكانت الفلسفة تهب الحكمة التي تنفعهم وتعظم. فما في الفلسفة شيء، بل أكثر مما في العلم من ثروة. ولن تعلم الفلسفة أهدافنا أو ترفعها إلى منزلة شاهقة في دولة ديمقراطية، بل إنها على العكس قد تجعلنا نهمل هذه الأمور بعض الشيء. إذا أردنا أن نضحي بأهدافنا ونرتفع إلى منزلة عالية ثم نصل مع ذلك في سياسة ... لم ... ولم نستطع السلوك ... ولم نستقر في الأخلاق، ولم نتقدم في زعامة ... ونصل في فلسفة الحياة؟

وإذا كان يصح أن نقول ذلك، فمعنى الفلسفة، يمكن أن نخلصها في أن نهاية السلامة وحدة النفس، لأن تفكيرنا في غاية التشويش والتناقض. فنحن نخلو أنفسنا، ونجمع قوى من شتات، ونحاول أن ننتهي إلى رغبات أو اعتقادات متعارضة. وقد نخرج من هذه الوحدة في العمل إلى وحدة الهدف والخلق. تلك الوحدة المكونة للشخصية، والتي تخلع على حياتنا بعض النظام والكرامة. والفلسفة هي معرفة مؤتلفة التي تؤدي إلى حياة مؤتلفة. إنها تنظيم النفس الذي يرفع إلى الصفاء والحرية. والمعرفة قوة، ولكن الحكمة وحدها هي الحرية.

وتقدمنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض. وقد ذهب توازن العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني. وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقيتنا، ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب. إننا نواجه مرة أخرى تلك

(1) يقتضي الترتيب المنطقي هذه الخطة التي تضع الموت أولا. ولكن بعض القراء الذين أقبلوا على الفلسفة حديثاً أن يبدأوا بالفصل الخامس والسادس ثم يعودوا من الأول إلى الرابع بعد ذلك.

المشكلة التي أقلقت بال سقراط ، نعني : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة أي سوف نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض ، وترتب سلّم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب . وعندنا مائة ألف سياسي وليس عندنا « رجل حكيم » واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر في ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ، ولن ننجو منها بغير الحكمة .

ول ديورانت

الجزء الأول

مدخـــــــل

الفَصْلُ الأَوَّلُ

فتنـــــة الفلســـــفة

---

١ — تمهيـــــد

لماذا لم تعد الفلسفة اليوم محبوبة ؟ ولماذا فقدت أبناؤها — في [illegible] — ميراثها ، وألقوا بها خارج الدار ، كأنها الملك لير Lear ، في حقوق شتى قسوة من رياح الشتاء ؟

كان أقوى الرجال في قديم الزمان على استعداد لأن يبذلوا أرواحهم في سبيلها . فقد آثر سقراط أن يكون شهيداً لها من أن يعيش موفور [illegible] أعدائه . وخاطر أفلاطون بنفسه مرتين [illegible] . واشتهر مرقس أوريليوس أكثر من [illegible] وكانت الفلسفة [illegible] مصدر خوف للعروش [illegible] حتى لا [illegible] الأمر [illegible] . [illegible] الإسكندر [illegible] وخطب [illegible] ، [illegible] من بلادهم . ثم [illegible] عصره [illegible] وأصبح ديوجينس [illegible] أفلاطون [illegible] الإسكندر [illegible] في التاريخ [illegible] فرانسيس بيكون [illegible] لأكثر في منتصف [illegible] . شعراء [illegible] والفلاسفة [illegible] أوسع ممالكهم غير محدودة [illegible] .

كانت [illegible] الأمم عصر عظمة [illegible] . [illegible] في [illegible] كل معرفة تحت جناحها . و [illegible] في كل مكان صنوف [illegible] كل [illegible] في ذلك الوقت . إذ لم يكن شيء يعد أشرف من محبة الحق . ووضع الإسكندر ديوجينس في أول مرتبة بعده هو فقط . وأمر ديوجينس الإسكندر

أن يتنحى جانباً حتى لا يحجب جسمه الملكيُّ الشمسَ. واستمع الحكام والمفكرون والمعنيون في سرور إلى أسبابه، وحج عشرة آلاف من الطلبة إلى باريس ليأخذوا العلم على أبيلارد. لم تكن الفلسفة حينذاك العانس ذات الحياء التي تحبس نفسها داخل الأبراج بعيدة عن أعمال الدنيا. لم تخش عيون الفلسفة الصافية ضوء النهار، بل أقدمت على العيش في خطر. وحدقت بعيداً إلى أغوار مجهولة. أكانت تقنع أبداً في تلك الأعوام التي تقررت فيها من الملوك أن تحدد نفسها في هذه الحدود الضيقة التي تقيدها اليوم؟ لقد كانت يوماً من الأيام ضوءاً متعدد الألوان تملأ أغوار الأنفس حرارة ونوراً. ولكنها الآن تابع مظلم يدور في فلك العلوم والمذاهب السياسية. لقد أتى عليها حين من الدهر كانت أعظم عروس في سائر العالم العقلي، وشمخت على خدامها سعداء. أما الآن وقد تجردت من جمالها وسلطانها فإنها تقف منعزلة بائسة لا يخطبها أحد[1].

ليست الفلسفة محبوبة اليوم لأنها فقدت روح المغامرة. ذلك أن ظهور العلوم الناشئة سلبت منها واحداً بعد الآخر عوالمها القديمة الشاسعة. فأصبحت «الكوزمولوجيا» علم الفلك والجيولوجيا، و«الفلسفة الطبيعية» علم الحياة والطبيعة، وتحولت «فلسفة العقل» في هذه الأيام إلى علم النفس. لقد هربت منها جميع المشكلات الموضوعية والمثيرة. ولم تعد تعنى ببحث طبيعة المادة وسر الحياة والنمو. أما «الإرادة» التي دافعت عن «حريتها» في مئات من المعارك الفكرية فقد انهمكت في عجلة الحياة الحديثة الآلية، والدولة التي كانت مشكلاتها ذات يوم من مختصصاتها فهي ميدان لنفوس صغيرة وقل أن تطلب شرف النصائح الفلسفية. ولم يبق لها إلا علم الميتافيزيقا باردة. والأمر الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) الصبيانية. ونزاع أكاديمي حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية. بل حتى هذه المخلفات سوف تنتزع منها، حين تنشأ علوم جديدة تغزو هذه الميادين بمبضع ومجهر ومسطرة. ولعل العالم نسي أن الفلسفة كانت موجودة. وأنها حركت الشعوب وأرشدت العقول

(١) يجب أن ننوه ببعض الاستثناءات، فقد حظي برجسون بإعجاب المستمعين بفصاحته، وكان لبرتراند رسل شرف حنق إحدى الحكومات

٢ — أصحاب المعارف Epistemologs

والفلسفة على النحو الذي دونت به خلال مائتي العام الأخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الإغفال. كيف أصبحت الفلسفة بعد موت بيكون وسبينوزا؟ أصبحت في الشطر الأعظم منها إبستمولوجيا (١) . (نظرية المعرفة)، وهي التي كان يبحثها علماء الكلام في العصر المدرسي. إنها معرفة سرية ومستورة Esoteric . إنها نوع غامض وغير مفهوم حول وجود العالم الخارجي. لقد انصرف ذلك العقل الذي كان يمكن أن يصنع شيوخ الفلاسفة إلى تعمق البحث في تحليل الأدلة التي تؤيد أو تنفي إمكان وجود شجرة وغيطان واسكتلندا والجيرة في حالة عدم إدراكها. وقد استمرت هذه المعركة التي تشبه المعركة بين الضفادع والفئران مائتين وخمسين عاماً دون أن تخرج بثمرة ذات قيمة في الفلسفة أو الحياة. وبالنسبة لأي شخص إنهم لا قيمة لهم ككتب.

ويرجع بعض اللوم في هذا كله إلى عبارة ديكارت البسيطة التي تكاد تبلغ حد السذاجة: «أنا أفكر. إذن أنا موجود» ذلك أن ديكارت كان يأمل في أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات. فامتحن «بالشك المنهجي» جميع اعتقادات الناس، بل بديهياتهم، وحاول أن يبني مذهباً متماسكاً للمعرفة من هذه المقدمة الوحيدة «أنا أفكر. إذن أنا موجود». وقد كان من الخطر العظيم أن يجعل الوجود معتمداً هكذا الاعتماد على التفكير. والبعض يقولون عن أن هذا الأساس يجعل الوجود اعتباراً مستعرضاً. وقد يذهب المرء إلى فصل سلطان ذلك الأساس إلى حرمان الناس الحكمة. لا من النفس فقط (كما أراد أن يفعل ذلك فاينجر Weininger) بل من الحقيقة.

(١) Epistemology هي نظرية المعرفة، Theory of Knowledge ، والاصطلاح من اللفظة اليونانية Episteme أي علم، ويمكن أن تترجم الى علم المعرفة. وقد ترجمت لفظه «المعرفة» من «علم»، ويمكن أن نؤثر تسمية المعرفة دون العلم لأن لفظة العلم أصبحت تطلق في معنى Science ونظرية المعرفة تبحث في أصل المعرفة وحدودها وصحتها لا من الناحية السيكولوجية ... ومن أمثلة هذه المباحث هل المعرفة فطرية أو مكتسبة (المترجم)

أما الخسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة . إذ أن هذا التصور للعالم على هذه الحقيقة وهي أن شخصاً واحداً يفكر . جدير بأن يخلق مثل هذه شبكة من الصعوبات التي ظل أصحاب المعرفة عشرة أجيال يتخبطون في حلها بغير نتيجة . ومن كل شيء هذه « الأنا » في عبارة ديكارت مما كانوا يتصورونه « نفساً Soul » روحية لا مادية . ثم إن الجسم . فيما نفترض . لا يمكن أن يتحرك إلا حين يتصل بغيره من الأجسام ، فكيف إذن يمكن أن يؤثر هذا الروح اللاجسماني في حركات المخ المادية ؟ ونشأت من هذا المأزق نظريات عجائب مذهب المادية والمثالية والتوازي المنطقي . واحتج صاحب مذهب التوازي بأن العقل والمخ مختلفان اختلافاً كبيراً . وأن أحدهما لا يمكن أن يؤثر في الآخر . وأن سلسلتي الأحداث المادية والعقلية ، الحية والفكرية ، يجب أن تكونا مفترقتين منفصلتين بحيث لا يؤثر أحداهما في الأخرى ، بل هما متوازيتان بشكل عجيب . واحتج المادي بأن « العقل » ما دام يؤثر أثراً لا ينكره أحد في الجسم ، فينبغي أن يكون شيئاً تمده الجسم . فالعقل جسماني ومادي كالمرارة التي تفرز الصفراء . واحتج المثالي بأن ما دامت الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نثق بها هي تلك التي تبدأ ديكارت منها . الحقيقة المفكرة . فجميع أنواع الوجود الأخرى ليست حقيقية بالنسبة إلينا إلا بمقدار ما هي مدركة حسياً ومدركة عقلياً . فالجسم إدراك حسي . والمادة ليست إلا حزمة من الأفكار .

ونشأت بعد ذلك حروب عنيفة . ولم تبق اليوم إلا حرب فقط وذهبت نتيجته . وقد يظهر بين حين وآخر فيلسوف من أصحاب المعرفة تشرق الفلسفة على كتاباته مثل برادلي ووليم جيمس . وقد يظهر في بعض الأحيان من يفهم أن « الفلسفة » ليست إلا لعبة . فهو يعجب بعبارة عينية مثل ديفيد هيوم . أما سائر الباقين فقد بعثت رؤوسهم حتى الموت . وأصبح الفلاسفة من جون لوك حتى رودلف إيكن Eucken وغيرهم . وزادت مع كل جيل طولاً ، حتى تستقيم مع مذاهبهم الكثيفة . وأعلن الأسقف بركلي أنه لا شيء يوجد إلا حين يدركه الإنسان أو الله . ولم يبتسم الأسقف بقدر ما نعرف . ولو أنه يشك في أمر هذا الإيرلندي الماهر .

أما أنه لا شيء يوجد في « أي عقل » بل في « هذا » العقل الذي يدركه . فلا ريب أنها حقيقة تبلغ مبلغ السذاجة والسخف ونحو ولكن ما أبعد العلم عن هذه العبارة التي نتلبس علينا بها . وهي أنه لا شيء يوجد إلا إذا كان مدركاً . وقد كان ذلك اللبس لازماً وحتمياً لأولئك الفلاسفة الذين انزعجوا من المادية الخشنة ، مادية هولباخ ، وموليسكوت ، وبوخنر . ولقد كان بركلي بارعاً حين تخلص من كل مادية بضربة واحدة في تصميم بإثبات أن المادة لا توجد . لقد كان عمله بناء شاهقاً فريداً في بابه من الشعوذة المنطقية . ويدهشنا بحق إلى أن الذين يدرسون الفلسفة يجب أن يفتحوا أعينهم على الفيلسوف ولكن غشه كان بسيطاً . وكان ينبغي على الأسقف أن يتردد إزاء هذا الغش التقي ومن أقوال أناتول فرانس : « إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الكذب والأدب » (1) والآن كم من هذه الإبستمولوجيا مشابه يندرج تحت باب الأدب ؟

ليس معنى ذلك أنه لا توجد مشكلات في نظرية المعرفة . ويعلم الله أن فيها مشكلات كثيرة لا تتسع لنا الفرصة لبيانه . ولكن هذه الأخيرة خاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع ، والطريقة التي يعرف بها العارف المعروف ، والعنصر الموضوعية والذاتية في المعرفة ، وموضوعية المكان والزمان ، والصفات التي نخلعها على الأشياء إلى أي حد تتعلق بالأشياء وإلى أي حد تتعلق بالعقل الذي يدركها — وهذه كلها تخضع تفصيلاتها خاضع لعلم النفس ، وميدان للملاحظة والتجربة المتكررتين المضبوطتين . ولم تعد مشكلات خاصة بالفلسفة ، كما خرجت عن نطاقها أسرار التحول الكيماوي Metabolism أو كيمياء قطعة مشوية من اللحم . وكل مشكلة تتعلق بالفلسفة كهذه المشكلة التي لا تتعلق بها إلا من جهة اتصالها بسائر غيرها . ومن الخطأ أن يختص ممثل واحد في هذه الدراما الكبيرة للأفكار جميع الأدوار . وأن يتبنى وحده جميع المعارف في تمثيلية الفكر الفلسفي الحديث .

Brousson, J. J. Anatole France en Pantoufles. p. 134 (1)

٣ — اللاهوتيون Theologians[1]

ويكاد يشبه ما سبق سوءاً الزعم بأن وصيفة فلسفة القيافة تسور مناقب للمنهج العلمي . وهذا أيضاً نزعة تتسلل لتحتضن الفكر . ذلك أن الأساتذة المدافعين عن اللاهوت حين عجزوا عن بيان لا حقيقة Unrealty المادة نحوا إلى إظهار اللاثقة بالعلم . وقد ذهب إليه ماخ Mach ، وبيرسون Pearson ، وبوانكاريه Poincaré من أن نتائج العلم ليست إلا صيغاً « مختصرة » « لعدد من » عن طبيعة لا يمكن أن نلاحظ ملاحظة كاملة أبداً ، وأن هذه النتائج قد تنقض وتستبعد عقب ملاحظات أوسع — قد تلقفها قوم للدفاع عن علم اللاهوت فهذه فرصة ذهبية لبيان نقص العقل ووقوعه في الخطأ . وأن العلم لا يقدم لنا يقيناً بل الاحتمال فقط . وبناء على ذلك يمكن أن نستخرج جميع العقائد العزيزة علينا في صندوقنا من المتحف . ثم نكسوها بثياب جديدة من عبارات غير مفهومة . ونبيع للجيل القادم على أنها بضاعة لم يصبها إلا تلف يسير . وهبّ قوم من كل مكان يفحصون في حماس بديهيات الرياضة ، ومفهومات المكان والزمان . والعدد والقياس . والكم والكيف . ونشهد بعد النظر إلى التعاليم القديمة Abracadara[2] إلى وجود مهدي منتصراً . أو سانتا كلوز

فلا غرابة بعد هذا الخداع المعيب أن ينبذ فضلاء الناس الفلاسفة . إذ ما جدوى كل هذا المنطق إذا لم تكن قيمته إلا ستاراً غير أمين يخفي وراءه آمالنا الحمقية ؟ وفي ذلك يقول برادلي Bradley « الميتافيزيقا هي الكشف عن أسباب باطلة لما نعتقده بالغريزة . ولكن الوقوف على هذه الأسباب غريزة كذلك[3] ». وقد تكون الميتافيزيقا في بعض الأحيان هي إيجاد أسباب باطلة لما نود أن يعتقده الآخرون . وكان هوبز مُحِقاً حين قال إنه يرغب أن يؤمن صديقه وخادمه

(١) يسمى [illegible] علم اللاهوت Theology ، أو العلم الإلهي ، [illegible] [illegible] على أن [illegible] علم اللاهوت ، وهو [illegible] (مترجم)

(٢) كلمة سحرية تكتب في عدة أسطر بحيث كل سطر ينقص حرفاً حتى يبقى حرف واحد ، وتتكون من كلمة تشكل مثلث [illegible] ، وكانوا يستعملونها تعويذة من المرض (مترجم)

(٣) Appearance and Reality, p. XIV

بالمعتقدات التقليدية لزمانهم ومكانهم . وقد حاول أن يجد أسباباً عقلية لشيء فرضه سلفاً بجوهرته أو تسليم ضعفه . وقد قال لوتزه Lotze إن النظرية الفلسفية محاولة لتسويغ نظرية أساسية عن الأشياء سبق اعتناقها في فجر الحياة(١) . وكتب نيتشه الأمر بقوله : « إن جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم قد كشفت بطريق جدل يمشي في داخل نفسه ، وهو جدل هادئ نقي محايد ، لا صلة له بهم ، على حين يبنون موقفهم على فكرة مبتكرة أو قضية أو فرض هي في عموم رغبة قلوبهم قد تجردت وتهذبت ، ثم يحاولون الدفاع عنها بالأدلة التي يجهدون في الحصول عليها بعد نشأة الفكرة »(٢) .

ولعلك تجد هذه الرءوس الأخطاء في نشوء الفلسفة ، فهي تبدأ من حقيقة في الوقت الذي تبحث عنها ، وتصبح المدافعة عن عقيدة موقوتة . وتقصر مع الأسف عن ذلك التفسير العقلي . وذلك لاحترام القصر لطلب الوضوح . وذلك للانتماء التفسير إلى الأحوال السلبية ، مما يتميز به عقل مثل همبولد Humboldt أو داروين ، أو فيلسوف « ذكي » غير محترف مثل ليوناردو أو جيته . وقد كان المدرسيون Scholastics الذين يشغلون حيزاً في سلك الفلاسفة ، لاهوتيين في مبدأ أمرهم ، فقد أحدثوا بدعة إخضاع البحث عن حقيقة الشر للإيمان . وكانت أعظم تآليفهم الجوامع Summas عبارة عن كتب صفراء رسمية تصدر عن مكتب الرقابة في الفاتيكان بحروف الزرقة . وكانوا يعلنون بصراحة إن الفلسفة تمهد للاهوت «Philosophia ancilla theologiae» والفلسفة خادمة اللاهوت . ومع أن [illegible] الفلسفة الحديثة العظام — بيكون وديكارت وسبينوزا — قد احتجوا على هذه الخطبة الفلسفية ، فقد سلم أحفادهم في هذا العصر إلى حد كبير بتلك التبعية .

وأحدث أخطاء الفلسفة الأخرى نمو من هذه الفلسفة اللاهوتية كما يتربى بشكل عام [illegible] بنشئه عن مرض موروث . وإذا لم يكن غموض الفلسفة راجعاً إلى نقص صدقها ، فما الشيء الآخر الذي يعزى هذا الغموض إليه ؟ ولا ريب أن بعض [illegible] في هشي التفكير الحديث ترجع إلى جدة الحقيقة ، وعوزه للعبارات الكونية . على أن الغموض إذا كان من هذا الضرب وحده فلا ينبغي أن يقف حجر عثرة في سبيل اهتمام الإنسان . فهما شلي Shelley

(١) In Muirhead, Contemporary British Philosophy, p. 15.

(٢) Beyond Good and Evil, I, § 5.

غامض . ولكن من منا لا يحدثه على الأقل بقلبه ؟ . والمرأة غامضة ، ولكن أى رجل لا يفتنه هذا الجانب من النقص فيشغل نفسه على الدوام بالنفاذ إلى لب ذلك الغموض وحل ذلك اللغز ؟ كلا . وفى الفلسفة الحديثة غموض آخر يختلف اختلافاً بيناً . عندما يحاول الرجل يكون فهمه للغزل أكثر صعوبة منه حين يحكى حقيقته . إذ الكل وقعة أكثر من تصور ممكن ، والبارع وحده هو الذى يستطيع أن يجعل باطله متماسكاً كالحق . ولكن البارعين فى التزييف لا يصبحون فلاسفة . لأن السلك السياسى فى أمس الحاجة إليهم . وتبقى الفلسفة الإلهية فى أيدى روائيين من طبقة دنيا تنحل عقدتهم الروائية عند أول اتصال بهذا العالم الحى

وجملة القول إن هذا الكذب الأولى هو الذى يولد المذهب الفكرى Intellect-nalism يقيم ستار النظر الحاصر . ومن لا يثق فى وحدة عقله يتجنب المشكلات الحيوية للمعيشة الإنسانية . إذ فى أى لحظة قد يكشف مجهر الحياة الكبير عن أكذوبته الصغيرة ، ويتركه عارياً يرتعش فى وجه الحقيقة . ومن أجل ذلك يبنى لنفسه برجاً عاجياً من المؤلفات المستورة والمجلات الفلسفية المدنية ، التى لا يجد الراحة إلا فى صحبتها ، بل إنه ليخشى وقع مداخله المثيرة . إنه يقيم بعيداً ، وبعيداً جداً عن زمانه ومكانه ، وعن المشكلات التى يستغرق فيها أهل وطنه وعصره . ولا تعنيه بل تفزعه الأمور التى تتصل حقاً بالفلسفة . ولا يحس بأى هوى يدفعه إلى ربط بعض الأشياء بعضها بالآخر . ولا إلى وضع شىء من النظام والوحدة فى فوضى عصره الكثيرة . ولكنه ينزوى جاثماً فى ركن صغير ، ويعزل نفسه عن العالم بطبقة فوق طبقة من الاصطلاحات الفنية ، وعندئذ يبطل أن يكون فيلسوفاً ويصبح من أصحاب المعارف Epistemologist

ولم يكن الأمر على هذا النحو فى اليونان . حيث كان الفلاسفة أقل اصطلاعاً بالتدريس وأكثر اشتغالاً بالتفكير . ولقد حوّم بارمنيدس بتفكيره حول لغز المعرفة . ولكن الفلاسفة السابقين على سقراط ظلت أعينهم مفتوحة بمنطق معتدل على الأرض الثابتة . وآثروا الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة عن توضيحها بالجدل ، فلم يكن بين الإغريق من ينطوى على نفسه إلا القليل .

ولنتأمل صورة ديمقريطس ذلك الفيلسوف الضاحك ، ألا يكون قد خطر
لأولئك المدرسين الحاضرين الذين حولوا مرح حوله وقعية عنه حتى إن
مقالات ذهبت في عصر وسيط عن عدد من الحروب التي يمكن أن تستقر فوق
رأس إبرة ؟ ولنستحضر صورة طاليس الذي تحدى الحكماء الفيلسوف الذي دعا
إلى الفلسفة قوة شبه . فحقق ثروة كبيرة في عام واحد ولنتصور صورة
أكسنوفان الذي صنع بالإغريق ما صنعه داروين . ولنحب بركليس من
سياسي عمي إلى مفكر وزعيم دولة ولنستعرض صورة سقراط الذي لم يرهب
الشمس أو النجوم . ولنفسه في مرح الشباب . وقلب الحكماء ترى هذا
يمكن أن نعمل هؤلاء الفلاسفة المشوهين المفيقين الذين نتكلم لأن تأتوا
تلك المسائلة التي كانت عقيدة في قديم الزمان لم تكن صورة معروفة عند
أفلاطون وعند أولئك الأصحاب من يتفق عليه . إلا منهم الفلسفة شيء
معروف الذي يسبق الحب . فقد يستمتع المرء بعصره المعرفة بسعد . ولكنه
لا يكون في نظره دون محب الحكمة . وحين جعل أفلاطون من حين إلى حين يعرض
في محاوراته القصيرة مشكلات الإدراك الحسي . والشكل . والمعرفة . ولكنه
كان يعد عصره في تآليفه الكبرى فوق ميدان أكبر سعة . وهي الفلسفة هذه
فاصلة . وأخذ يتفكر في صفة الإنسان ومصيره وأخذ تدرك الفلسفة عند
أرسطو في سائر ميادينها عن الوجود وتعقيد الإلهية . فقد كشف جميع
قصورها وحملها بنفسه . ووضع كل مشكلة في مكانها . فقد أتى بها فروض
الطبيعة للحكمة . لقد عرف أولئك القوم أن وظيفة الفلسفة ليست أن تلتمسها
في ظلمات الإستدلوجيا . بل أن تنتظم الشجاعة كل ميادين البحث . وأن
تلم بأطراف كل معرفة حتى تتسق الأخلاق الإنسانية وحياة البشر . وبقى
الضوء عليها . لقد فهموا أن ميدان الفلسفة ليس عن صغير حتى وراء البحث .
ويخلو من الاهتمام أو التأثير في أمور الناس . ولكن ميدانها هو مشكلة واسعة
شاملة لمعنى الإنسان وقيمته وإمكانياته في هذا العالم اللانهائي المتسق .

٤ — العلماء

وهناك هنا كلمة بصدد ما ليس للفلسفة . أو ما لا ينبغي أن يكون لها . فقد بقي لنا أن نعرف ما الفلسفة ؟ أو ماذا يمكن مثالياً أن تصبح ؟ أيمكن أن نعيد تمكين العلوم من ميادينها وقوتها الحقيقية ؟ أيمكن أن نتصور الفلسفة مرة أخرى على أنها معرفة موحَّدة وموحِّدة للحياة ؟ أنستطيع أن نضع تخطيطاً لنوع من الفلسفة قد يجعل عشاقها قادرين أولاً على حكم أنفسهم ثم الدولة . أولئك الذين يريدون حقاً أن يكونوا ملوكاً فلاسفة ؟ (١)

والفلسفة في الاصطلاح الذي كما عرفتها منذ زمن طويل ، هي « دراسة التجربة ككل ، أو دراسة شطر من التجربة في علاقته بالكل » (٢) . ويتضح في البحث الذي نتكلم فيه أنه يمكن أن تكون مادة للفلسفة بشرط أن تدرس من زاوية شاملة في ضوء سائر التجارب والنزعات الإنسانية . ذلك أن طابع العقل الفلسفي ليس في دقة النظر بمقدار سعة النظرة ووحدة الفكر . يجب أن نستبدل الأنواع الكلية بالأنواع الأزلية Sub specie totius Sub specie eternitatis التي ذهب إليها اسبينوزا . ولقد كنت أنتظر أن نتركز على النتيجة نفسها كما تنتقي العينان على شيء الأرض . غير أنه إذا كان في استطاعة الإنسان أن يجمع تجاربه في كل منظم نسبياً . فإن رؤية الأشياء من علٍ لأرب ميزة الآلهة الخالدين . ولعلهم غير موجودين

ولا نحتاج صلة العلم بالفلسفة إلى مزيد من الإيضاح . فالعلوم هي النوافذ التي ترى الفلسفة العالم من خلالها . أو هي الحواس لهذه النفس . وتصبح معارف العلوم بغير الفلسفة عاجزة مضطربة كالإحساسات التي ترد إلى الذهن المشوش فيؤلف منها الأبله فصاماً . لقد كان سبنسر على حق حين قال : الفلسفة هي أعم معرفة . ولكنه كان كذلك على خطأ لأنها ليست معرفة فقط . إذ تتضمن ذلك النظر السامي والنضج الذي ترتفع فيه مجرد المعرفة لتصبح نظرة شاملة تنظم

(١) تشير المؤلف إلى نظرية أفلاطون عن الملك الفيلسوف التي بسطها في « الجمهورية » (المترجم)

(٢) Philosophy and the Social Problem, p. 1

اضطراب الرغبة وتوضحها . إنها تشتمل على تلك الصفة العربية المتميزة التي تسمى حكمة .

والفلسفة تعتبر العلم عاجزة . إذ كيف تنمو الحكمة اللهم إلا على أساس المعرفة المكتسبة كسباً صحيحاً . بالملاحظة الأمينة وبحث الصدق . تسجلها وتوضحها عقول بعيدة عن الهوى ؟ وبغير علم تتدهور الفلسفة وتنحط . إذ تنعزل عن تيار نمو الإنسان . وتنغمس أكثر فأكثر في تحديدات مدرسية كثيرة . ولكن العلم بغير فلسفة لا يصبح عاجزاً فقط بل مخرباً ومدمراً . والعلم وصفي إنه ينظر بالعين أو التلسكوب . بالميكروسكوب أو الاسكتروسكوب . ثم يحدث عما يراه . ووظيفته أن يلاحظ الوقائع المعروضة بعناية . ويقدمها موضوعياً وبدقة دون نظر إلى نتيجتها بالنسبة إلى الإنسان . هذا النتروجلسرين أو غاز الكلورين . فمهمة العلم تحليلهما في هدوء . وإخبارنا من هذا المركب أو هذا العنصر بالضبط . وماذا يمكن أن يعمله كل منهما . من هلاك مدن بأسرها . أو تخريب أبهى صروح الفن الإنساني . أو إفساد حضارة كاملة وتحطيم جميع ما فيها من لطائف مدخرة وحكمة مدونة — يخبرنا العلم عن ذلك كله وكيف يمكن عمله علمياً . وسريعاً . وتترك نفقته لدافعي الضرائب إذا قدر لهم أن يعيشوا ولكن هل يجب أن نخرب الحضارات ؟ . أي علم يخبرنا عن ذلك ؟ أتكون الحياة أحلى حين تتضخم بالكسب وتتعلق بالملك . أم حين تستغرق في الإبداع والبناء ؟ هل الأفضل أن نبحث عن المعرفة ونشهد الحقيقة عارية عن الوهم . أو نطلب النشوة العابرة للجمال ؟ وهل يجب أن نحول أنظارنا عن جميع الخرافات العلوية Supernatural في حياتنا الخلقية ؟ أيجب أن ننظر إلى المادة من وجهة نظر العقل . أم ننظر إلى العقل من وجهة نظر المادة ؟ وما يقول العلم عن هذه المسألة ؟ وكيف نلقي الضوء على هذه الاختيارات القصوى في حياتنا . اللهم إلا إذا كان ذلك بنور تجاربنا الشاملة . وبتلك الحكمة التي ليست المعرفة إلا مادتها الخام . فتتحد جميع العلوم من خلال نظرة الحكمة الكلية المكتملة والنظام والمعنى المرشد ؟

والعلم هو الوصف التحليلي للأجزاء . والفلسفة هي التأويل التركيبي للكل .

أو هي تأويل جزء من الأجزاء من حيث مكانه من الكل . وقيمته بالنسبة إليه . العلم يحصي ويفرز الظروف والوسائل . والفلسفة تحلل مصادر الرغبات والمناهج . والوقائع والآلات لا قيمة ولا معنى لها إلا في علاقتها بالرغبة . فإذا كان لا بد للرغبات ذاتها أن تكون متماسكة . وأن تصبح أجزاء متصلة بشخصية مؤتلفة وحياة موحدة . فهذا أخص من مهام الفلسفة . ومن أعلى أهدافها .

والفلسفة بالضرورة أكثر اعتماداً على الفرض من العلم . حتى إن العلم نفسه يجب أن يستخدم الفرض . ولكن بشرط أن يكون مجرداً منه فقط . ويجب على العلم ليكون علماً بمعنى الكلمة . أن يتصدر في نوع من المعرفة التي يمكن تحقيقها تحقيقاً موضوعياً عن مشاعره الفردية أو هواه الشخصي . أما الفلسفة ، على العكس من ذلك ، فتتخذ من العلم والوقائع والمعرفة المحققة بدايات لها (فإذا لم تكن قد فعلت فقد حان لها أن تفعل) . ثم تشرع في افتراض فروض أوسع حول المشكلات القصوى التي لم نصل فيها بعد إلى حقائق مقررة نهائية . والفلسفة تكمن فيها خطر وخير معاً . فهي تملأ الفجوات الموجودة عندنا في معرفتنا العلمية بالعلم بافتراضات لا يمكن إثباتها تجريبياً . ومن هذا الوجه يعد كل إنسان فيلسوفاً ، ولو بالرغم منه . ذلك أن أكثر المشككين حذراً ، أو أشد اللاأدريين تواضعاً ، أو أعظم السلوكيين تمسكاً بالواقع ، يتفلسف في الوقت نفسه الذي يعلن احتجاجه بملء فمه أن الفلسفة مستحيلة . فلو فرضنا أن أحد اللاأدريين كان يعيش في حياة كاملة حيث لا يعتقد أو لا ينكر وجود الله . ولو فرضنا أنه قد يوزع أفكاره وأعماله دون تحيز بين القبول والإنكار . فقد يتوقف حكمه على عملية توقف لا حراك فيه ولا حس . أشبه ما يكون بالإغماء الفلسفي وحالة عدم الوعي بالكون . وهذا شيء عسير وبعيد عن الإنسانية . لأننا في الواقع نتحرك بين . . . أن نحيا في الإنكار أو نحيا في القبول . ونتصرف كما لو أننا قد اخترنا إحدى المتهمتين المتعارضتين اللتين تكونان عقيدته . فنحن نصنع الفروض ، ولو كما فعل نيوتن . ذلك أن غير المطلق يعذبنا دائماً .

أما أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ؟ وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة فلا يهدأ لهم بال حتى

يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية أو ما يهدئ به هذه الحرب ؟ ألا يهدم هؤلاء الفلاسفة بعضهم البعض ؟ انظر إلى عمر الخيام يقول في تجربته :

كنت أغشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء
وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقه
فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر
وكنت أخرج من الباب الذي أدخل منه .

أكبر الظن أن عمر الخيام كان يصور قصة ، ولعله لم يخرج حقاً من الباب نفسه الذي دخل منه . اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب مسجد كما يفعل المسلم الورع . ولست تجد أحداً يغشى صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ويوسع نظرته فيما يختص بآلاف من المسائل الحيوية . فماذا بدل يا ترى طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك في الجمال والخمر ؟ أليست الفلسفة هي التي تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة ؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين الجيئة والذهاب يتلاشى في غمار سعة وعمق إجماع العلم الأساسي وتدفق كلمته . إلى أي حد بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة التي يؤيدها علم الفلك الحديث . أو يسخر من وجهها القمر ؟ وأين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين ومينكوفسكي وغيرهما الكون رأساً على عقب بمذهب نسبية غير المفهوم ؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الفيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟ وأين أقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، لنرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعاداً جديدة بحسب أهوائهم . ويبتدعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه . ويثبتون في الميزيقا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟ وأين علم الأحياء اليوم لنرى البيئة الناشئة تحل محل الوراثة التي كانت إله العلم ؟ وأين جريجور مندل الآن ليشهد انصراف علماء الوراثة

عن وحدة الصفات . وأين داروين القديم الدقيق الذى كيف حدث طريقة التغيرات السريعة محل الاختلافات الثابتة والمتصلة فى التطور ؟ وهل هذه التغيرات هى الآثار المشروعة للاختلاف الفجائى ؟ وهل مضطر إلى الرجوع فى تفسيره للتطور إلى الوراء عند نظرية انتقال الصفات المكتسبة ؟ أخذ أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضى نعانق رقبة زرافة لامارك ؟ ومن نصنع اليوم بتعاليم الأستاذ فونط Wundt وباختبارات ستانلى هول ، حين لا يستطيع أى عالم نفسى من أتباع السلوكيين أن يكتب صفحة واحدة فى علم النفس الحديث دون أن يدين مخلفات أسلافه فى الهواء ؟ وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يصنع كل عالم فى تاريخ قدماء المصريين كشفاً بالأسرات ويرتبها على هواه . ولا يختلف عن كشوف غيره إلا بضعة آلاف السنين ؟ وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من تيلور ووسترمارك وسبنسر . وحيث يجهل فريزر كل شىء عن الدين البدائى لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟ قد أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قدسيتها وما فيها من حقائق أولية ؟ أيمكن أن تكون "القوانين الصحيحة" ليست سوى فروض إيجابية ؟ أم يعد هناك يقين أو استقرار فى العلم ؟

لعلنا إذ شئنا التماس الاستقرار فى العقل والنفس لوجدنا أنه أقل فى العلم منه فى الفلسفة ذلك أن اختلاف الفلاسفة يرجع إلى تغير مدلول الاصطلاحات فى عصرهم أكثر مما يرجع إلى العداوة بين أفكارهم . أو قل إن هذا الاختلاف يرجع إلى حد كبير إلى تقلب العلم نفسه . من جهة تعلقه بقوى فرض من فروض فترة من الزمن . ثم تشيعه به . ثم كراهته له ، وتحوله إلى وجهة جديدة لنظرية حديثة . وبعد . فأى تدفق عجيب يوجد فى حكم عظماء المفكرين عن المشكلات الحيوية للحياة الإنسانية عندما نجد أساليب كلامهم مختلفة فى تفكيرهم الأساسى . أما سقراط فإنه يعلن فى تواضع أن ليس عنده شىء يضيفه إلى أستاذه . وكل ما سيقدمه عبارة عن تطبيق لتلك الفلسفة القديمة على عصرنا الحديث . فهل يمكن أن يتحدث أى عالم طبيعى معاصر أو بيولوجى أو رياضى مثل هذا الحديث عن أى علم يونانى ؟ لقد نقض العلم الحديث اليوم علم أرسطو فى كل ناحية . ولكن فلسفته ستبقى مشرقة وعميقة فى الوقت الذى يصبح فيه علم اليوم موضعاً للاحتقار والسخرية عندما يلقيه جانباً علم مقبل وثيق لعصر جديد .

٥ – ملكة العلوم

قد نشعر إذن أن الفلسفة لا تزال ملكة العلوم Regina Scientiarum، ويجب أن يعترف لها كملكة في كل مكان قد لبست ثوب عظمتها القديم، وأحصيت جميع العلوم خدمها. وتجعل من سائر فروع المعرفة آلة قد يعلم موضوعها، ويكون ميدان تخصصها. ولكن كما أن الملكة الحكيمة تعين مهرة الحكام في الأقاليم المختلفة من المملكة، وتعهد هؤلاء الحكام بأن يضطلعوا بجمع الوثائق وتصريف الأمور الجزئية، على حين يقصر الحكام ومستشاروهم أنفسهم على تنظيم التدبير والسياسة. كذلك الفلسفة تقسم مملكتها إلى ميادين متعددة، وتوجد في حدتها قصور كثيرة

وأول ميدان في مملكتها، ودهليز في دارها، هو ذلك الذي يسمى باسم يخلو من السحر وهو «المنطق». وكأن الفلسفة قد أخفت عمدا محاسن إرادتها عن أعين الغرباء، وأوجبت على طلابها أن يمروا خلال هذه عتبة أولا حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة في مباهجها العزيزة. ذلك أن مباهج الفلسفة تشبه مراقي الحب التي لا تسمو إليها أي نفس وضيعة. وكيف نعلم الحقيقة حين ننظر إليها إذا لم نكن على أقل تقدير قد تعلمنا أن نتصور شبحها. ولم نكن قد تدبرنا شتى الاختبارات والامتحانات التي تؤمن أنفسنا من «حضورها الحقيقي»؟ كيف يمكن أن نجيب عن سؤال بيلاطس الخادع؟ أنتبع عقل الساحر المغرور، أم إلهامنا العميق الغامض، أم الحكم المشترك لأعيننا وآذاننا وأيدينا التي تتحسس؟ كيف نصفي حواسنا وفكرنا من جميع الآراء المتحيزة التي تشوهها، ومن سائر «الأصنام» الخادعة، مختصين بتمسيح العقل مصفاة حتى تجد كل حقيقة طريقها إليها، فنرحب بها، ونضعها في موضعها اللائق؟ كيف ندرب أنفسنا، كما يفعل الرياضيون، على طلب الحكمة ومحبتها؟

وثمة ميدان آخر لا يراه بعيداً عن عرش المملكة وقلبها، هو بيت ذلك التنين العظيم المسمى الإبستمولوجيا «نظرية المعرفة» Epistemology. وإذا كانت أقدامنا قد تعثرت في مغاور المنطق، فأعيننا في هذا ميدان لن تبصر في الظلام.

سوف نترنح فى أكثر من طريق ، وقد نهيم على مقربة شديدة من فم لتنين ، فتسحرنا لعنته العظيمة ، ثم تبتلع فجأة فى كهفه الفارغ ، ونصبح بعد ذلك من أصحاب المعارف فى الأبد . ولكن لا بد أن نواجه هذا الامتحان أيضاً ، وأن نجيب بطريقة مقبولة عن لغز المعرفة ، ومشكلة حقيقة العالم الذى ندركه ومبلغ صدقه . ولعلنا بعد ذلك نخطو إلى الأمام ونقعد فى تواضع فى بلاط الملكة العظيمة .

وهناك ميدان ملكى يدعى « الميتافيزيقا » ، وهو مظلم كذلك ولا يستضىء إلا بالنور الذى حبته له ، ولكنه زاخر بكنوز تتحدى بها النفس . وهنا نجد أن الطبيعة تخفى ماهيتها ببطئة وتحيرنا بما تقدمه من مئات الحلول . وهنا نجد أن الفلسفة تكشف لنا عن جانب من تلك « الأنغام السامية » التى كانت تعيها لفيثاغورس ، ذلك أن الطبيعة تصبح بوساطتها واعية ، وتنتقد أهدافها الخاصة ، وتصبح شيئاً له معنى . وهنا قد نستطيع أن نتعمق مشكلات الحياة ، والمخ والعقل ، والمادية والروحية ، والميكانيكية والحيوية ، والجبر والحرية . وما الإنسان؟ أهو شىء مركب من أسلاك وزنبركات وعجلات متشابكة تتحرك من خارج بقوى عمياء من الأرض والسماء ؟ أم هو إله خالق بطريقته الصغيرة المضحكة ؟

وميدان آخر هو « التاريخ » حيث يقدم لنا مئات الألوف من الدهماء وبعض عباقرة من بلاد بعيدة وأزمنة سحيقة حكمتهم ليتسنى لنا أن نتأملها موحدة ، ونتعلم دروسها . أهناك أى معنى فى الماضى ؟ أهناك أى قوانين لنشأة الدول وانهيارها نبين ، وقد تحدد ، قيام الأمم والأجناس والحضارات وسقوطها ؟ وهنا نعرض لمنتسكيو وباكل Buckle يتحدثان عن أثر الجغرافيا فى مصائر الشعوب . وهنا نجد كوندورسيه Condorcet وهو على فراش الموت يعزى نفسه بفكرة التقدم وقابلية الإنسان اللامحدودة للكمال . ونجد هيجل Hegel يعرض لنا ألعابه الجدلية ، وكارليل أبطاله ، ونجد المتطرفين من العلاة يعنون أنشودة قوة جنسهم ويلعنون ظهور المتبربرين . ونجد ماركس يحيطنا بجبال من الأرقام والحجج التى يسوقها للدلالة على نظرية الجبر الاقتصادى للتاريخ . ولعلنا نصادف فى طريقنا باحثاً أو أكثر يبصر هؤلاء المفتونين أن حقائقهم ليست إلا وجوهاً من الواقع ،

وأن التاريخ والطبيعة أكثر اختلافاً مما يوضحوا في وصفهم . وسوف تجد في ركن بعيد نيتشه المتشائم يغني أنشودته عن « العودة الأبدية » . وتجد شبنجلر ينشد جنازة ، يدير العالم عزفها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ميدان آخر فسنسمع حديثاً عن « السياسة » . سنفزع بعض الوقت حيث نكتشف أمريكا ولكن ليس ثمة ما يدعونا إلى الفزع ، لأن روادها يناقشون الديمقراطية بغير تفكير ، ويموتون بغير خوف . ونجد الاشتراكيين مع عشقهم يتكلمون ، ونجد الأرستقراطيين مع حنقهم على أصحاب المواهب غير ذات الحسب . وفي بعض الأحيان نستمع في حماسة الشباب عن بلاد جميلة تسمى يوتوبيا utopia (مدينة فاضلة) لا يحكمها إلا الحكماء ، وتزخر كل مدينة بالغنى والحب .

فهذه الكلمة الأخيرة التي لا تزال تتردد بعيداً تنساب بين شفاه الشبان ، وتشخص إلى الفلسفة ذاتها وهي تكشف ستورها عن الحق والخلود والخير . ذلك أن الفلسفة عبارة مكونة من « حب » ، ويبدو أن على شعبها الحق للجمال . وهنا ، لا في العلم ، نجد الفيلسوف العظيم الذي يسعى إليه ويقوم أمام الناس ولا يأبه له . وقد تخضع الحكمة في رقة وهي تسمع ثناء عشاقه أول من يبحث عن حقيقته . ذلك أن حقيقة الأرض تهرب من عشاقها حتى لا تكاد تسمح له بأن يلمس أطراف جلبابها ، على حين يرحب الجمال بمن يعلم أنه يقضي عمره يعدوه بالبحث ويكرسنا عليه . ولست تدرس الفلسفة الجمال في توضيح . أما الفن فيحاكيه ويحققه تحقيقاً . إن يتمثل الجمال في حرارة مودة الحب ، وفي عظمة سماء الليل ، وجلال أشكال التماثيل ، وحرارة الألوان ، وموسيقية الشعر ، وتناغم الأصوات العذب . أما الفلسفة فلا تعرف مع الأسف إلا مشكلات الجمال . ما مصدر الجمال ، وماذا يعني ، أيوجد في الصورة نفسها ؟ أم لا يوجد إلا في قلوب العشاق ؟ وهذا هو ميدان « علم الجمال » Aesthetics الذي جعلته عقول المدرسيين قروناً طويلة موحشاً ، ولكنه لا يزال رحباً بالعجب والبهجة .

وهنا أيضاً في قلب المملكة ميدان « علم الأخلاق » . وهو ميدان فسيح

بالتجريدات الأكاديمية. ولكنه من بعض الجهات أعني قصور الفلسفة، لأن فن الحياة أسمى حتى من حياة الفن، وعلم الأخلاق هو حكمة فن الحياة. وهنا نجد الفلسفة تسمو بمعارفها المتعددة إلى حكمة حية. وتجمع من قصورها الجزئية هداية للإنسانية. ونعلم ما هي أفضل حياة؟ وما منبع الخير. وأي حق يوجد في القوة؟ أنحن أسمى لمحصلتنا في حكمة سقراط، أو شجاعة نيتشه، أو سماحة مسيح؟ أنكون رواقيين مع زينون وسبينوزا، أو أبيقوريين مع أبيقور ورينان؟ أتكون الديمقراطية الحية؟ هل الحب يأتي بالأخلاق إلا وفق القانون؟ وما العدالة؟ وما رأي الفلسفة في عهد الصناعي؟ وهذه أكثر من أي مكان آخر مشكلات حيوية تجعل مصير حضارات بأسرها في كف القدر. هذه معضلات تمس كل دولة وكل قلب. وهي مشكلات يبدو بجانبها العلم بتسجيلاته ومختصراته ووسائله وصلته وغيره شيئاً يسيراً، وغير إنساني. شيئاً أدنى إلى الصلة بالموت منه إلى الأخذ بالحياة.

غير أن الموت يتعلق أيضاً بالفلسفة. وعندما يصمت لسان جميع المتكلمين، يتحولون للتفكير في خوف لينصرفوا إلى «العلو الأكبر» وتدخل الفلسفة أبواب «الغيب». واللاهوت Theology هو البحث في الكائنات العلوية Supernatural وصلتها بالإنسان. ولا تدلي الفلسفة برأي عن هذه الكائنات، ولكنها تتحدث عن علاقة الإنسان بجسمه الحياة ومجموع الأشياء. وعن أصله على هذه الأرض ومصيره الأخير. ولو أنها تتحدث حديثاً متواضعاً يتناسب مع الجهل البشري. إنها تتعلق بمسألة الخلود تلك المسألة التي تتعلق بكل نسيج حيوي. ولعلنا يمكن أن نعرف الفلسفة بأنها مسألة حياة وموت. وأخيراً فإنها تتعلق بالله. ولسنا نعني إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة. بل إله الفلاسفة، وهو قانون العالم وهيكله. وحياته ومشيئته. فلو كان ثمة أي عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسيره في الفكر مع الاحترام. فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضاً حتى تواجهه بغير خوف. هل النجوم ليست إلا تجمعات عابرة لسديم اعتباطاً؟ وهل الحياة عرض غروي Colloidal مستمد من تلقاء نفسه وفائض فيضاناً ذاتياً؟ وهل

الإنسان ليس إلا مركباً كيميائياً مصيره إلى الانحلال ثم الفناء تماماً ؟ وهل نشوة الفن ، وحكمة الحكيم الهادئة ، ونشهد القديسين بإراداتهم . كل ذلك ليس إلا لمحات بارقة فى البرعم البروتوبلازمية للأرض ؟ وما الموت إلا الخروج عن كل مشكلة ومصير كل نفس . إذن فعلى الفلسفة أن توحد هذا أيضاً ، وأن تسعى إلى إيجاد نخلص من الدلالة وسمو فى عبر الإنسان داخل هذه الدائرة الضيقة .

هل لنا أن نشرع فى البداية ؟

الجزء الثاني

المنطق والإبستمولوجيا

الفصل الثانى

ما الحقيقة ؟ (١)

---

١ — الإحساس فى مقابل العقل

يقول السيد نيتشه المتشبه بالقديسين متهجماً ما أمكنه إلى ذلك سبيلا : « لا تظهر فى العهد الجديد بأسره إلا شخصية وحيدة جديرة بالتبجيل ، هى شخصية بيلاطس نائب الإمبراطور الرومانى . . . . ذلك أن الاحتقار النبيل لأحد الرومانيين ممن كانت تبتذل أمامه لفظة « الحقيقة » فى غير خجل ، قد زود العهد الجديد بما فيه من عبارة وحيدة لها أى قيمة . « ما الحقيقة ؟ » (٢) وقد عدها أناتول فرانس أعمق سؤال أثير على الإطلاق (٣) ، إذ أى سؤال آخر لا يتوقف عليه ؟

وللمنطق صحفة صغيرة (طبق) من المشهيات فى مأدبة الفلسفة وهو يعلق ألف شهية فى مقدار شهية واحد يفتحها . إننا نحتقر المنطق لأننا تعلمنا أن معظم الاستدلال عبارة عن رغبة مغشّاة بغلالة رقيقة من التعقل Rationality . فنحن نزعم أننا نقيم صروحاً من التفكير المجرد ، على حين أننا فى الواقع لا نختار من الحقائق والأحكام إلا ما يعزز رغبة شخصية أو وطنية . إننا نحتقر المنطق لأن العصر الوسيط علمنا أن الحياة أوسع وأشد ثقة وأكثر عمقاً من قياساتنا ، والمنطق ساكن Static قائم على أساس من « الحقائق الثابتة » ، فى حين أن الحياة متدفقة ومتغيرة ، وتفاجىء جميع القوانين Formulas بما لا نتوقعه . « وإن عدد

---

(١) أنظر هامش الفهرست .

(٢) ضد المسيح Antichrist القسم ٤٦ ؛ يشير إلى القديس يوحنا ، XVIII ٣٨

(٣) الحياة والرسائل ، السلسلة الأولى ص ٨ .

الأشياء التي رفض العقل أول الأمر الاعتراف بها ثم قبلها في النهاية كمبرهنات»(1)
ولعلنا في الشرق قد حطمنا جميع قواعد التفكير السليم، فإذا بنا نجد أن درك المعرفة، والتعرف على الحقيقة، وحكمة الحياة، كل ذلك يقع بعيداً لبعد كله عن هذه الدائرة المحصنة تحصناً أنيقاً قد أسعدنا حين نلقي إلى الأبد بهذا المنطق الذي يجعل حتى الفلسفة حرفة وبغير روح، بدلاً من الاحتفاظ بها سداً يقف في وجه مشكلات لعلها ليست أساسية إلا بقدر بسيط، ولكنها أدخل في حياتنا وأكثر حيوية لها. ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نطرح المنطق، لأننا لا نستطيع أن نمضي في بحث عن الحقيقة بغير أن نحدد من قبل ماذا نبحث عنه، وما الطريق الذي نعتزم أن نسلكه له، وكيف نعرف أننا بلغنا ما نريد بلوغه. ولن يكون أي علم آخر منطقياً

وحين نجد في أطراف الدائرة مشكلة المنطق رئيسية وقد وضع أبعادها عينيها بوضوح، وأجاب عنها بوضوح، أولئك الفلاسفة الإغريق الذين لم يقدروا في معظم الأحيان حق قدرهم، وهي منهم السفسطائيين. فقد قالوا: (ويقال إن أولئك بعد أي عالم من زمنهم قد كشف ذلك) إن المعرفة تأتي من الحواس فقط، وبناء على ذلك فإن معيار Test الحقيقة هو الإحساس، وفي هذا جواب سؤال بيلاطس. فالحقيقة هي ما نذوقه ونلمسه ونشمه ونسمعه ونراه. أي شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك؟ ولكن أفلاطون لم يقتنع وقال: إذا كانت هذه هي الحقيقة فليس ثمة حقيقة، لأننا جميعاً نذوق ونشم ونسمع ونلمس ونرى الأشياء بشكل مختلف، وبناء على ذلك يكون الفرد مقياس الحقيقة كالحكيم سواء بسواء. ومن يفصل بينهما؟ لقد كان أفلاطون على يقين من أن العقل هو مستقر الحقيقة، فمعاني العقل بالنسبة إلى شهادة الحواس كالساسة بالنسبة إلى الشعب من حيث تجميعهم مراكز للنظام وسط جمهور فوضوي

ووافقه أرسطو في ذلك وجعل المنطق لأول مرة دراسة منفصلة، وذلك بالسعي إلى وضع قوانين عقلية، فلا يجب أن نحكم على أمر بأنه صادق إلا إذا

(1) بيوري: تطور فكرة، ص ٧٢.

أمكن أن نجعله نتيجة لقياس مضبوط . مثل ذلك : الإنسان حيوان عاقل (ولا تزال هذه القضية الساذجة مستعملة فى كتب المنطق) . وسقراط إنسان ، إذن سقراط حيوان عاقل . وقد أنكر فيرون [1] أن يكون الأمر كذلك . فكل قياس مصادرة على المطلوب . لأن المقدمة الكبرى لا يمكن أن تكون صادقة إلا إذا كانت النتيجة صادقة مقدماً . وليس من حقنا أن نزعم ذلك . وإذا لم نفترض أن سقراط عاقل فلا يجب أن نبدأ بهذه القضية وهى أن الإنسان (الذى يشمل سقراط) حيوان عاقل لأنه ليس إلا حيواناً يستعمل العقل . وبناء على ذلك فالعقل دائماً غير يقينى . وهنا قال أبيقور : حسناً ، فلنرجع إلى السفسطائيين ، ولنثق فى حواسنا . ولكن الشكاك Sceptics تساءلوا مرة أخرى وقالوا : كيف يمكن ذلك ؟ فالشمس فى نظرنا صغيرة كالبطيخة (القرعة) ، وقد تكون النجوم كالطفح المتناثر على صفحة السماء ، فهل نصدق حواسنا ؟ وانتهى فيرون إلى القول بأنه لا شيء يقينى ، وعندما توفى لم يحزن تلاميذه عليه بالرغم من محبتهم له ، لأنهم لم يكونوا واثقين من موته .

وظلت لعبة الحواس فى مقابل العقل تشغل أيام الفلاسفة ، إلى أن توارى اليونان والرومان من المسرح ، تاركين أوربا للمسيحية والكنيسة . وعندئذ نسى الناس السفسطائيين وأبيقور ، لأن العقائد الإلهية كانت تقسرهم على الإيمان ، فكانوا يعتقدون عن طريق التقديس فيما تنكره الحواس . ومع أن المدرسيين عرفوا الحقيقة بأنها مطابقة الفكر للأشياء ، إلا أنهم اتبعوا أفلاطون وأرسطو فى تمجيدهما للعقل . وعندهم أن التفكير القياسى Deductive هو أفضل تفكير لأنه يستخلص من عقائد محدودة وثابتة نظاماً متماسكاً للعالم . والمعانى حقائق أعظم من الأصوات والمرئيات ، لأن هذه الأشياء المجسدة ظهرت إلى الوجود ثم اختفت ، أما « الكليات » Universals أو الأنواع فإنها لا تموت ، وتوجد قبل الأشياء المعاينة ومعها وبعدها . وتتشخص بها . فالإنسان أكثر حقيقة من هذا الإنسان أو ذاك ، والجمال أكثر حقيقة من هذه الوردة أو تلك . بل إن ديكرت ظل عبداً لما حرر

(1) Pyrrho — ٣٦٠ — ٢٧٠ ق م — (أو عاش من ٣٦٥ — ٢٧٥ ق م . — فيلسوف يونانى من الشكاك كان يعتقد فى عدم إمكان معرفة الحقيقة) (المترجم)

الناس منه . فطلب من كل فيلسوف أن يطرح شهادة الحوس ، ولا يقبل شيئاً على أنه يقيني إلا الفكر الواضح

ويبدأ التحديد بإعادة الإحساس إلى عرشه ، مع جاليليو في العلم ، وبيكون في الفلسفة . فقد ضاعف الفلكي الحواس بالآلات ، وأدّب الفيلسوف العقل بالملاحظة . وساق أشد الاستدلالات قدسية إلى محكمة الاستقراء . ولو وجب أن يقرأ أحدنا المنطق فليبدأ قبل كل شيء بكتاب بيكون و الأورجانون[1] الجديد Novum Organum ، حيث يجد فيه المنطق مشرقاً كأنه منارة ، ويصبح التفكير مغامرة وفتحاً ، ويقرأ الفلسفة قصة بوليسية ، الحقيقة فيها هي اللص المطارد . وما أكثر ما نجد فيه من أمثلة وحكم ! انظر إلى استهلال الكتاب حيث يقول : « إن الإنسان باعتباره المهيمن على الطبيعة والمفسر لها يسيطر على نظام الطبيعة ويفهمه بمقدار ما تسمح له ملاحظته ، وهو لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف أكثر من ذلك » أرأيت قط تدبير حرب على كل تصوف ، وكل مذهب مظلم Obscurantism ، وكل حذلقة ، أكمل من هذا التدبير ؟ لقد كان هذا هو : « الناقوس الذي اجتمعت على رنينه العقول » وتنبّه الأذهان إلى خطر عصر النهضة .

ثم نشب جدال عنيف بين إنجلترا والقارة الأوربية ، ذلك أن ليبنتز وكانط وهيجل غشوا الحواس بالشكوك ، وأيدوا مزاعم العقل باعتباره الحاكم في كل شهادة للحس . وازدرى هوبس ولوك ومل كل عقل اجترأ أن يطلب الحقائق دون أن تكون في متناول البصر واللمس والذوق والشم والسمع . ولكن كانط قال لا ريب أن الرياضيات مستقلة عن الإحساس ، وأنها صادقة أولياً apriori، أي قبل التجربة . فإن مربع ٥ هو ٢٥ بقطع النظر عما يمكن أن تقوله الحواس . وأجابه مل بقوله : لا ، إننا لا نعتقد في أن ٢×٢=٤ إلا لأننا شعرنا أو رأينا أن ٤ هي نتيجة ٢ × ٢ مرة بعد أخرى في تجربة الأفراد أو في تجربة الجنس التي

(١) « أورجانون » يعني آلة ، وكان القدماء يعرفون المنطق بأنه آلة الفكر ، فجاء بيكون يعارضهم بآلة جديدة .

(المترجم) .

انتقلت حتماعياً وقد لوك أن كل معرفة مستمدة من حس - بل إن أعظم الاستنتاجات في الرياضيات العالية تظل مزعزعة غير يقينية حتى تدعمها تجربة الحواس بالتأييد.

ولم يلتفت أي صاحب إلى نهاية أغرب مما انتهى إليه هذا الجدل. فالمذهب الأولى Apriorism الذي يدافع عن وجود الحقائق مستقلة عن التجربة، مات في القارة، وهاجر إلى إنجلترا. والمذهب التجريبي Empiricism الذي يرجع كل معرفة إلى الإحساس باعتباره أصلها ومعيارها، مات في إنجلترا، وبعث في أمريكا. بعد كان اتجاه إنجلترا قروناً طويلة عملياً. وانعكست نتائج منطقها على قوة حياتها في صفة الوسطى. أما الآن فعلى الرغم من أن هذه الطبقة الوسطى ما زالت تواصل تفوقها على رجال ندوة. فإن المفكرين الإنجليز بعد أن أصبحوا فجأة مراوغين وغير مفهومين، واستوردوا جميع مخلفات كانط وهيجل، جعلوا الحواس لا تفيد شيئاً. وفهموا من التفكير التأملي قوانين جديدة للفكر لا تصلح بالمنطق فحسب، بل للعالم أيضاً. وسمى برادلي Bradley تجربته المطلق Absolute، ثم حللها بعد ذلك وسددها هباء. ورد بوزانكيت Bosanquet المنطق إلى استدلال نسقي، ثم عرف الاستدلال بصفة توتولوجية بأنه «هو الإشارة غير المباشرة لحقيقة الفصول المدخلة في كلي، بوساطة عرض هذا الكلي في الفصول التي ترجع مباشرة إلى الحقيقة»[1]. وصرف برتراند رسل عن تعريف المنطق بأنه «علم التفكير». وذهب إلى أنه «علم أكمل المجردات». وشارك هو والأستاذ هوايتهد Whitehead في بناء أسس رياضي من الحقائق القياسية اليقينية، وفصل هذا البناء فصلاً كاملاً عن كل تجربة. ثم أضاف إلى ذلك تعريفه للحقيقة:

«تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا كانت لها صلة معينة بواقعة Fact معينة. وأي صلة تلك وأية واقعة؟ إني أعتقد أن الصلة الأساسية هي ما يأتي: تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا انتهى الشخص العارف باللغة إلى هذه الصيغة حين يجد نفسه

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، مادة «منطق».

فى بيئة تحتوى على معالم هى دلالات تلك الأنماط . وتحدث هذه المعالم فى نفسه آثاراً من القوة بحيث يستعمل الأنماط التى تدل عليها »[1].

يا للأسف ! هل يتعلم البريطانيون إنجليزيتهم بالألمانية ؟ وهل نحن فى عصر آخر من الفلسفة المدرسية . . . . التى تطلب المعنى بغير صلتها فى التجربة أو نفعها فى الحياة ؟ كم من فكر معاصر يقوم على وضع ما يعرفه كل إنسان فى معرفة لا يمكن أن يعرفها أى إنسان ؟

وقد بدا لوليم جيمس ، وهو يستند إلى أرض أمريكا الفياضة بالعمل والتى لا تصبر على التجريدات ، أن الغموض ليس ضرورياً للفلسفة ، وأن معنى الحقيقة هو من البساطة بحيث يصاغ فى عبارات يفهمها حتى رجل الأعمال. فالحقيقة Truth هى ما كان فعالا Efficacy . وبدلا من الحكم على المعنى بالرجوع إلى أصوله ، أو بالاستدلال من مبادىء أولى ثابتة ، أخضع جيمس المعنى لاختبار العمل ، وتساءل عن آثاره العملية حين يطبق ، وأعاد وجه الفكرة مرة أخرى للأشياء . أما عند جون ديوى فقد بدا له أن الفكر أداة Instrument كالمعدة والرجلين ، ومعيار الفكر هو بناء على ذلك قيام الفكر بأداء وظيفته أداء صحيحاً ، أى فهم الحياة والتحكم فيها وهنا نجد أن التقاليد الإنجليزية الاستقرائية التجريبية قد عادت إلى الشباب . وأصبح البرجماتزم « اسماً جديداً لطريقة غريبة فى التفكير » . والبرجماتزم هو الصياغة الوحيدة لوجهة نظر بيكون من أن « القاعدة الأشد فعلا فى العمل هى كذلك الأصدق فى النظر » ، ولفلسفة بنتام الصناعية من أن المنفعة هى معيار كل شىء .

وهناك أخطاء كثيرة فى البرجماتزم ، لأن مبدعها العبقرى سمح لبسطاء العقول أن يفترضوا أن جميع معتقداتهم العزيزة عليهم صادقة إذا كان لها أى أثر فى معاونتهم ، ولعمل على راحتهم ضد عدالة العالم القاسية . ولكن ما من شك فى أن المنفعة الشخصية والمؤقتة لا تخلع على العقيدة رداء الحقيقة ، بل المنفعة الدائمة

---

(1) كتاب « الفلسفة » ص ٢٦٢ . ويجب أن نضيف أن هذا الغموض غير معهود فى شخص هو أوضح الفلاسفة المعاصرين وأكثرهم إصابة للموضوع .

والكلية فقط هي التي تجعل الفكرة صادقة . ولما كان هذا شرطاً لا يمكن تحقيقه تماماً ، فلم تصبح الحقيقة قط أكثر من احتمال . وعندما قال بعض البرجماتيين عن عقيدة إنها صدقت « مرة » لأنها كانت نافعة وقتاً ما ، فقد كانوا يتكلمون بعلم لا معنى له ، لأن تلك العقيدة كانت باطلة دائماً لا حقاً . وإن نكون دائماً على يقين من أن أغزر حقائقنا قد لا تكون كما يقول نيتشه إلا أنسب صور الخطأ عرفناه . فالعالم لم يخلق للعقل .

وهنا نعود مرة إلى المتشككين . فنجد أن النتيجة التي انتهينا إليها ليست إلا ما انتهوا إليه . نعني أن الحواس هي معيار الحقيقة . ولكن المعيار هو الحواس « كلها » . فقد تخدعنا حاسة واحدة . كما يخدعنا الضوء بالنسبة للألوان ، أو المسافة بالنسبة للحجم . ولا نستطيع أن نصحح ما تخدعنا به حاسة من حواسنا إلا بحاسة أخرى . « والحقيقة هي الإحساس الثابت » غير أن الإحساس يجب أن يشمل كل ما نعلمه من الآلات التي توسع من دائرة الحواس وتجعلها دقيقة كالمطياف (سبكترسكوب) والمكبر (تلسكوب) ، والمجهر (ميكروسكوب) والأفلام الحساسة ، وأشعة إكس . هي كلها وسائل لمضاعفة ما تبصره عيوننا وسمعنا . وسماعة الطبيب ، بل الراديو ، هي امتداد لآذاننا العجيبة . وأخيراً يجب أن يشمل الإحساس الحاسة الباطنة ، فشعورنا الداخلي بحياتنا الخاصة وبنفسنا ، هو شعور مباشر وصادق بهذه الحياة وهذه النفس كأي شعور يأتينا من أعضاء الحس التي تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي . وبعد ، فعلى الرغم من براعتنا في خداع أنفسنا ، فليس هناك شيء يعدل معرفتنا بأنفسنا ذاتها .

ومن الحق أن الإحساس يخطىء في إصابة اليقين ، وكذلك الحياة . ولقد كان هيوم على صواب . فالحواس لا تكشف عن أي « سببية Causality » غامضة ، ولكنها تبين فقط التتابع ، ولا يمكن أن نستيقن تماماً من أن « ب » سوف تقع بعد « ا » دائماً ، لأن « ب » كانت تتبع « ا » دائماً . فالإحساس لا يمكن أبداً أن يضمن أي لحظة في المستقبل . ويجب أن نخاطر برءوسنا اعتماداً على هذا الاحتمال ، وهو أن النظم الملاحظة في الماضي ستستمر في المستقبل .

وهذا هو كل ما نحتاج إليه ، غير أن المنطق يطلب أكثر من ذلك . فالعالم فيه من الاختلاف والتغير ما يجعل « حقائقنا » على الدوام ذات جانب واحد وناقصة. وليس ثمة أمور مطلقة ، بل أمور نسبية فقط . وعلينا أن نتعلم كيف نساير الأمور النسبية

وهناك غيرنا من الناس في هذا العالم ، ولن تتفق حواسهم دائماً ، وبالتالي حقائقهم ، مع حواسنا . فعندما تقول السنيورا شيني Cini في رواية بيرانديللو ، إنها سوف تصدق ما تراه بعينيها وتحسه بأصابعها ، يقول لها لوديزى Laudisi : « يجب عليك أن تظهري بعض الاحترام لما يراه غيرك من الناس بأعينهم ويحسونه بأصابعهم ، حتى لو كان ذلك هو الضد لما ترين وتشعرين » (١) . نعم ، عندما تختص الحقيقة بأكثر من واحد منا ، فيجب أن تكون إحساساً متماسكاً اجتماعياً . وعندما تختص بأكثر من لحظة من الزمان ، فيجب أن تكون إحساساً متماسكاً على الدوام . فالحقيقة عبارة عن قبة من البللور المتعدد الألوان ، ويرى كل واحد منا من ركنه الصغير تأليفاً مختلفاً من الألوان خلال نظارته اللونية. ولعل الحق ليس إلا الدليل المشترك لأوهامنا . ولعل اليقين خطأ يتفق عليه جميع الناس . ويجب علينا أن نقنع بذلك .

أين إذن موضع العقل من منطقنا الشعبي المضحك ، ذلك المنطق الذي يؤيد آراء رجل الشارع المتحيزة ؟ وظيفته هنا كما هي في كل مكان ، التنسيق ... ينسق الإحساسات إلى معان ، والمعاني إلى معرفة ، والمعرفة إلى حكمة ، والرغبات إلى شخصية الفرد ، والأفراد إلى جماعة ، والجماعات إلى سلام . إن عمل العقل في الظفر بالحقيقة ثانوي ولكنه حيوي ؛ إذ يجب أن ينسج فوضى الحواس المختلفة وما بينها من تناقض في نتائج موحدة ومنسقة ، تكون عرضة للتحقيق والتأييد أو الحذف بوساطة الإحساس المتكرر . ولست تجد ما يقرب من نصف اليقين كالإحساس . ذلك : « أننا حين نتخطى ما يعرض بواسطة الإدراك الحسي الحاضر ، فلا ريب أننا نستعمل نوعاً من الاستدلال » (٢) ، وكل خطوة استدلالية تبعد عن الإحساس المباشر تنقص من احتمال الحقيقة ، ولكن هذا

(١) Right You Are If You Think You Are, p. 161

(٢) براذلى : مبادىء المنطق ص ٢٢٥ .

أيضاً مغامرة يجب على الحياة أن تتبعها. إذ يجب أن نحاول التوفيق بين الحواس المتنافرة والآراء المتحيرة إذا شئنا أن نبسط فهمنا على العالم ونسيطر عليه. وكما أن قردة كوهلر Köhler كانت تبلغ أفضل تفكيرها وهي في تمام موقف ملائم، فكذلك الحقيقة التي نستدل عليها بالعقل بالنسبة إلينا. مثل الفلسفة والحكمة، والأخلاق والجمال، هي منظر كلي. هي الوحدة المنسقة للجزء مع الكل. إننا نقف على أقدامنا ثابتين على الأرض بواسطة الإحساس، ثم بواسطة العقل فإننا نرفع عين العقل إلى ما وراء دائرة الحس المحصورة، فنبصر حقائق جديدة قد تحققها الحواس يوماً ما. فالإحساس معيار الحقيقة، ولكن العقل هو مكتشفها.

٢ — سر المعرفة الغامض

هانحن نقف معرضين للخطر في كل ناحية، إذ يحدث أن يأتي الشاك فيحتقر صدق Veracity الإحساس وينكره، ويتساءل الصوفي عن صلاحية العقل للاعتماد عليه. فماذا نحن قائلون لهما؟

« بالعرف والعادة يوجد الحسن والقبيح، والحلو والمر، أما في الواقع فليس ثمة إلا الذرات Atoms والخلاء Void » — هذه عبارة أودعها ديمقريطس الفيلسوف المادي أساس نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا)، وأساس المذهب المثالي. فمن الواضح من ذلك النص الغريب أن الفيلسوف الضاحك[1] كان يذهب إلى «ذاتية الصفات المستمدة من الحواس»، بألا يكون اللون، والصوت، والثقل، والحرارة، والشكل، والطعم، والرائحة، والألم، موجودة في الأشياء التي نحسها بل في الكائن الذي يشعر بها. ولقد قال هوبس بعد عشرين قرناً من زميله اليوناني: « جميع الصفات التي نسميها حسية موجودة في الشيء الذي تنبعث منه حركات كثيرة متمادة، تلك الحركات التي تضغط على حواسنا بشكل مختلف ». فالصوت حركة الهواء، والضوء حركة الأثير أو تأثير الجسيمات على العين، والحرارة ليست إلا حركة جسيمات سريعة. ويعتمد اللون على سرعة أمواج الضوء

(١) اشتهر ديمقريطس في زمن القدم باسم الفيلسوف الضاحك، لأنه كان يسخر من الناس وتهافتهم على الشهوات. (المترجم)

وسعة انتشارها والجزء من الحدقة الذى يتأثر بها . « فالحقيقة الموضوعية » فى ذاتها ليست حارة ولا باردة ، ولا متهوسة ولا عادلة ، بل معتمة لا لون لها وصامتة . كيف يمكن أن يوجد ثمة ضوء لولا وجود عيون أو غشاء حساس فى العالم ، وكيف يمكن أن توجد أصوات لولا وجود آذان ؟ إن أحمر قوس قزح هو فى أبصارنا لا فى السماء .

ولندع مثالياً يتكلم . ذلك الذى يعتقد أننا لا نعرف شيئاً سوى المعانى ، فيقول : « هذا العالم الذى تفترض أنه موجود وجوداً مستقلاً عن حواسك ، هو أول كل شىء عالم من الألوان . ولكن الألوان ذاتية . . . إنها موجودة فيك لا فى الشىء الذى تراه . وهناك بعض الناس مصابون بعمى لبعض الألوان ، فلا يبصرون مثلاً أى لون أحمر فى الطبيعة . فلو أننا كنا جميعاً مثل هؤلاء ، أكانت الوردة حمراء ؟ ويتغير اللون كلما انتقلت من الفجر إلى الظهر إلى السحر إلى الضوء الصناعى . فأى هذه الألوان «حقيقى Real» ؟ أهو لون النسيج الذى تشترى به حين تراه فى الدكان ، أم لونه فى ضوء الشمس فى الهواء الطلق ؟ وتختلف عيون الحيوانات الدنيئة مثل القشريات Crustacea فى تركيبها عن أعيننا ، ومن المفروض أنها تسجل الأشكال والألوان بطريقة تختلف عنا ، فأى شكل أو لون هو « الحقيقى » ؟ ثم إن عيوننا لا تحس بمساحات كبيرة من الطيف ، على حين ترى بعض الحيوانات الأشكال والأطياف اللونية أكمل منا . فأينا يرى العالم « كما هو » الحيوان أم الإنسان ؟ وهذه المنضدة التى تقول عنها إنها مستديرة ، أحقاً تبدو لك مستديرة حين تنظر إليها بعين بعيدة عن المستوى أم أنها تبدو بيضاوية ؟ وهل جميع الأشكال ، مثل جميع الألوان ، تتوقف على إدراكك لها ؟ .

« وانظر إلى الروائح والطعوم . فهناك نجد طعاماً يستفيد منه شخص ، وهو سم لشخص آخر . وهناك آلاف من الناس يحبون الكافيار ، وملايين يزعمون أنهم لا يحبونه . ويستطيب فقراء الصينيين طعم السمك الفاسد ، وأغنياء الأوربيين طعم الجبن العفن . كذلك الحال بالنسبة للحرارة والبرودة : ضع إحدى يديك فى ماء حار ، والأخرى فى ماء بارد ، ثم ضعهما بعد ذلك فى ماء فاتر ، فيبدو هذا الماء بارداً بالنسبة لإحدى يديك ، وحاراً بالنسبة للأخرى . فأيهما يكون فى الحقيقة » ؟

وكذلك الأمر فى الشدة والألم . إذا قطعت الأعصاب التى توصل بين الحلق والمخ ، أو أصابها برد . لا نحس بطعم ما نأكله . فهل الطعم فى الغذاء أو الحلق ، أو المخ ؟ هل تتألم من سنك ؟ خدّر العصب الموصل بينها وبين المخ ، ولن تحس بألم السن . أهى السن التى تؤلم ، أم المخ فقط ؟ وكذلك الحال فى الجمال والقبح . أنت تقول هذه المرأة جميلة ، فهل هى تمثل هذا الجمال فى نظر أحبابها أو منافستها ، كما هى جميلة فى نظرك ؟ أيكون الجمال فى ذاتها أم فى رغبتك ؟ انزع عن العالم « الموضوعى » سائر هذه الصفات التى تخلعها عليه بوجودك وإدراكك ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ « الذرات والخلاء » ؟ — المادة والمكان والزمان ؟

« ولكن هذه المادة كيف تعرفها ، اللهم إلا بالإحساسات التى اجتمعت فى هيئة معان فى عقلك ؟ وما المكان إلا أن يكون الوراء والأمام ، والفوق ، والتحت ، وفى القمة ، وهنا ، وهناك ، وقريباً ، وبعيداً ، وكبيراً ، وصغيراً ، وما هذه كلها سوى مواقف للعقل المدرك ؟ تكون الأشياء فى ذاتها فى الأمام أكثر منها إلى الخلف ، هنا لا هناك ، كبيرة لا صغيرة ، أم أنها ليست كذلك إلا بالنسبة إلى أنفسنا ؟ « ا » تبدو « ا » للعين ، و « ب » للميكروسكوب ، و « حـ » للتلسكوب ، فما « ا » فى الحقيقة ؟ وقد كتب مسيو برجيريه . « يصبح سيدى أكبر حين يقترب ، وأصغر حين يبتعد ، أما أنا فالكائن الوحيد الذى يحتفظ بحجمه كما هو أنى ذهبت » . وما الحجم الحقيقى للبرتقالة . . حجمها بالنسبة إلى الذبابة التى تطير حولها . أو كما تبدو لى حين أمسكها بيدى ، أو كما تبدو للرجل الذى يعبر الطريق ؟ ولن تهرب من المشكلة حين تقيس الشىء بالمسطرة وتسمى هذا القياس حقيقة ، لأن البوصة فى مسطرتك أو مقياسك كالبرتقالة نفسها ، أصغر بالنسبة إليك منها بالنسبة إلى الذبابة ، وأكبر فى نظرك مما قد تبدو لمخلوق ضخم يزورنا من المريخ . حقاً : « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً » [1] وهو الذى يخلق معظم العالم الذى يدركه

« ويعلن أينشتين كنتيجة أساسية لنظريته فى النسبية : « أن البقية الأخيرة

---

(١) يشير إلى عبارة بروتاجوراس السفسطائى المشهور (مترجم)

لموضوعية الطبيعية توحد من المكان والزمان»[1] ما الزمان سوى شعورك بتقدّم وبتعدّد عن نقطة تقسم حركتك نفسها؟ وهل يكون ثمة قبل وبعد إذا لم يوجد أى عقل؟ لعل الإحساس بالزمان أحدٌ عند الحشرة التى تسحقها على الحائط منه فى حيانك لبطيئة حركة وفى زمن «حقيقى»؟ لقد شكى إنسان رحل فى قصة هوبتير من أن طول الحياة فوق ذلك الكوكب سريع الدوران لا يبلغ إلا حوالى آلاف سنة. فهذا يستطيع مرء أن يتعلمه أو يعمله فى هذه المدة القصيرة؟ إن سنة فى ترجر بالتجارب تبدو أطول من السنة التى لا نجد فيها وقفة لذكرى ويتصاعف زمن دقة فوق كرسى طبيب الأسنان. وحكى فلامريون قصة الرجل الذى رأى حوادث ثورة الفرنسية تتتابع مقلوبة على عكس نظامها فى الزمان، لأنه كان يبتعد من الأرض بسرعة تفوق سرعة الضوء. والمكان يغير الزمان كما يحدث ذلك فى رحلة على سطح المحيط، أو كما حدث للمسيو باسبرتو Passepartout فى «رحلة حول العالم فى ثمانين يوماً». والزمان يغير المكان: فالنجم الذى نراه فى أقصى الشمال من السماء ليس هناك، لأنه تحرك منذ أن أرسل الضوء الذى يصل إلينا الآن. فالزمكان[2] أمر معقد شديد التعقيد يتركب من الوضع والحكم، إنه ضرب من الإدراك وليس شيئاً خارجياً وعقدت عبارة عن شىء، ولا يمكن أن يعرف أحدٌ مقدار ما يعرفه من الشىء، أهو فى الشىء أو فى العقل الذى يعرف. فهذه هى الإحساسات التى يعطيك حكمها «حقيقة».

«كلا، لا يمكن أن يكون الإحساس معيار الحقيقة. فكل ما نعرفه هو أفكار، ولا يمكن أن نختبر هذه الأفكار بوساطة عالم خارجى ساهمت إحساساتنا فى صنعه مساهمة كبيرة. وكيف يمكن أن نكتشف حقيقة الشىء وقد اضطر إلى التخفى فى هذه الإحساسات البصرية والسمعية واللمسية والشمية والذوقية، وهى وحدها التى نعرفه من خلالها؟ وهذه «الأشياء» التى نفترض أنها أحكم المفكر هى من بناء المفكر نفسه، إنها المعانى التى نكونها من الإحساسات

(١) Cassirer, E. Substance and Function p. 356.

(٢) مركب مزجى من لفظى الزمان والمكان Space-time (المترجم).

المتعددة التي جاءت إلينا من طرق مختلفة أشد الاختلاف عبر أعصابنا . وقد تجمعت في خليط متعسف كالفسيفساء فنحن نجمع بين المرئيات والأصوات والضغوط والطعوم . ونسمي التكوين الناتج هذا الشيء أو ذاك ، إننا نخلق « الشيء » بإدراكه . والعالم الوحيد الذي لا شك في وجوده هو عالم العقل . عالم المعاني . وكل شيء عدا ذلك افتراض » .

أذلك كذلك ؟ قد يكون . فالفلسفة لا تختص بالأمور اليقينية ، ولا نستطيع أن نقول في نظرية المعرفة الكلمة الفصل . إلا أنه لا مكان في الذوق وفي نظر الشخص الذي يتحيز للوضوح بعض هذا الهذيان المثالي تعتبر خارجي عملا من أعمال العبث المنطقي لا يقنعه . وبقية من مخلفات سحر [illegible] وأسرار العصر الوسيط . ولا يمكن أن تكون التجربة هي كل شيء . إذ يجب أن نلتمس أصلها وراءها ؛ وهذا الأصل هو ما نسميه المادة . ولو أننا لا نستطيع أن نقول عنها أكثر مما قاله ستيوارت مل . إنها « الإمكان الدائم للإحساس » .

ويقوم السر في لعبة المثالي على الخلط بين المعنى وبين الوجود . فالأشياء التي لا يدركها أي كائن ليس لها معنى ، ولكنها مع ذلك قد يكون لها وجود سادج . ويقول برادلي : « يجب أن يقع الشيء في دائرة الإحساس حتى يكون حقيقياً ، أو حتى لمجرد أن يكون موجوداً »(1) ولكن ألم توجد النجوم البعيدة قبل أن تكتشف بوسطة تلسكوباتنا ؟ وهل يجب أن نقول إنه لا نجم يوجد الآن مما لم يدخل في نطاق آلاتنا ؟ لا ريب أن النجوم لم توجد ، ولا توجد كما نراها بالضبط . فهذه النقطة من الضوء التي نسميها الشعرى اليمانية قد تكون كتلة من المادة المعتمة ينبعث عنها جسيمات فيها من السرعة الحرارية البيضاء ما يجعلها تصبح مضيئة في الطريق . ولكن أصل الجسيمات يوجد « هناك » وليس التلسكوب خالقاً له . وقد تنبأ أحد الرياضيين بعد الحساب الدقيق بأن المراصد إذا وجهت تلسكوباتها في ساعة معينة نحو بقعة معينة في السماء ، فقد يكتشف نبتون كوكباً لم يعرف من قبل . ونظرت التلسكوبات ، واستولت على فريستها ، فهل خلق العلماء نبتون ؟ (2) .

(1) برادلي : المظهر والحقيقة . ص ١٤٤

(2) انظر دائرة المعارف البريطانية ، المجلد العاشر ، ص ٣٨٦

ويجب أن نسلم بأن وجود النجوم قبل رؤيتها ليس إلا استدلالا ، ولا استدلال مؤكد . ولكن الاستدلال الذى تحقق بالإحساس المباشر ليلة بعدأخرى آلافاً من السنين . فهو استدلال معقول جداً ، وكاف للحياة الإنسانية ، ولكل فلسفة ترجو أن تؤثر فى الحياة لا أن تلعب وحيدة على الدوم . عندما نبرح حجرة الدرس ، ولا يبقى فيها كائن حى (فيما نفترض) يدركها ، هل تقف الحجرة عن الوجود ؟ الأرجح أنها لا تقف ، لأنها مع الخط الغريب توجد هناك دائماً عندما نعود . ومما يبعث على الراحة أن نجد السيدة ماى سنكلير ، التى نسى نفسها إلى جانب كتابة قصص بالتأليف فى الدفاع عن المثالية ، تسلم بأنها لا تجد حجرتها حين تدخله (1). إن علم اللاهوت يمس حداع النساء ، ولكن الرجال يتحدثون كذلك بنظرية المعرفة .

ماذا تعنى ألفاظ « الموضوعى Objective » و « الذاتى Subjective » ؟ لعل اللغة تقوم على عدم تحديدهما ؟ سنسلم بما يقوله المثالى ، ونفصل عالم المعانى الذى يسميه وحده عالماً حقيقياً ، عن تلك الحقائق الأخرى التى توجد بالنسبة إلينا ، ولا توجد بالنسبة إليه . سيتألف العالم الذاتى من المعانى وحدها ، وكل شىء آخر سيكون « موضوعياً » . ولكن هنا تقع مشكلة ، لأن هذا العالم الموضوعى يشتمل على بدن الشخص المدرك ، بكل ما فى هذا البدن من أجهزة كالعينين والأنف واللسان والأذنين وأطراف الأصابع ، وحواسه ولا شك جزء من العالم الخارجى مثل رجليه ، ورجلاه ولا شك جزء من العالم مثل الأرض التى يقف عليها هذا الوقوف الغرضى . فإذا تبين ذلك ، فقد وضح أن الصفات المستمدة من الحس محدودة فى الأغلب بشروط موضوعية . فهلم بنا نر ذلك .

ماذا يحدد اللون ؟ أمور ثلاثة : أولا التكوين الفزيقى والكيميائى للسبب الخارجى فى إحساسنا . (إننا نفترض وجود هذا السبب الخارجى للأسباب المذكورة آنفاً . وسوف نسميه بعد ذلك « الشىء ») . والثانى مقدار الضوء وطبيعته وسقوطه ، ويدخل فى ذلك التركيب الكيميائى لأصله ، وسرعة موجاته وقوتها . والثالث العينان ، وأعصاب البصر ، ومراكز الإبصار فى المخ عند

(1) المثالية الحديثة ، ص ٥ (ماى سنكلير May Sinclair ١٨٧٠ – ١٩٤٧ قصصية إنجليزية مشهورة – المترجم)

الشخص الذي يدرك. ولا شرط من هذه الشروط «ذاتي». ومن الواضح أن المرء يستطيع أن يرى حدقته وأعصابه البصرية نفسها بل مراكز الإبصار في مخه، بوساطة آلات لا تزيد في دقتها عن تلك الموجودة عندنا. وهذه كلها جزء من «العالم الخارجي»، وليست جزءاً من الشعور أو المعنى المدرك.

وتكوّن هذه الشروط المحددة مجموع ما يمكن أن نسميه «الموقف الموضوعي» والذي يتركب من السبب والوسط والحاسة. ويختلف اللون وقد يتغير بسبب أي واحد منها. فيمكننا أن نجعل الحلوى حمراء بتركيبات كيميائية. ويمكن أن يحيل التبرّ (القماش) الأزرق أسود بالضوء الصناعي. ويمكن أن نجعل الحدقة تتلقى الإحساس بنجوم ذهبية دقيقة بالضغط على العين. فاللون صفة تختلف باختلاف الموقف الموضوعي. وليس اللون صفة لا تتغير لشيء. ولا هو من خلق العقل المدرك. ويعتقد المثالي خطأ في عدم وجود أي شجرة خضراء إذا لم تكن ثمة عين تراها. إنه يفترض افتراضاً خاطئاً أن إدراكه هو الذي يصبغ اخضرار الشجرة. إذا كان الأمر كذلك فقد يجعل إدراكه جميع الأشياء خضراء.. الشجر والسحب والورد والشعر الذهبي. والحل موجود دائماً: عندما تكون المتضادات موضع نزاع، فالحقيقة في الوحدة بينها.

وهذا صحيح بالنسبة للون. ومن الواضح أن الأمر لن يكون كثير الاختلاف بالنسبة للشكل، وكذلك بالنسبة للصوت. فهو يتحدد بموقف موضوعي يتركب من سبب خارجي (كأن يصطدم جسمان فجأة)، وأمواج الهواء المتوسطة، وعصب السمع. والأمر كذلك في الماء الفاتر الذي يكون بارداً وحاراً. فالحرارة التي نحس بها مزيج من أعصاب الحس والشروط الفيزيقية. ولما كانت إحدى اليدين فرضاً أدفأ من الأخرى، فإن الإحساسات الحاصلة تختلف بالنسبة لكل يد. ولكن الشروط، وهي الماء واليدان، موضوعية جميعاً، ولم يصنع العقل المدرك أي شرط منها. ما اللون الحقيقي، والشكل الحقيقي، ودرجة الحرارة الحقيقية، والصوت الحقيقي؟ لا يستطيع أحد أن يقول قولاً حازماً (دجماطيقياً) فحواس كل شخص تتدخل في الموقف، والحواس مختلفة. ويكفي لتحقيق أغراض الحياة أن نعتبر تلك الظواهر التي يدركها فرد مختص إدراكاً مثلاً

كأنه « حقيقية » . وقد نعتقد أن تلك العناصر التي يتفق في ملاحظتها أفراد مختلفون هي عناصر موضوعية ، مستقلة عن ذواتهم المنفصلة . فالحقيقة هي الإحساس المدعم اجتماعياً .

ولقد أرجأت القول في مشكلات المكان والزمان لأن الخلط بشأنها بلغ حد اليأس منها حتى سلم علماء مثل شتينمتز Steinmetz وأينشتين لكابط . فالمكان باعتباره الإحساس بالمسافة أو مقياسها هو في شطر منه ذاتي . ما دام الموضع والمسافة نسبيين لأنفسنا . غير أن المكان باعتباره مجموع كل خطوط الحركة الممكنة هو مع الأسف مستقل عن الإنسان . وقد نتصور أن المثالية في هذا الموضع قد أُفصحت عما فيه الكفاية مما بينه وليم جيمس ، متفقاً مع العقل السليم Common sense من أن العلاقات تدرك إدراكاً مباشراً كأي شيء آخر . وإذا لم يكن هذا القول كافياً . فإن تجارب كوهلر على القردة قد وضعت لهذا الأمر حداً إلى الأبد . فنحن ندرك التجاور ، واللامساواة ، والحركة ، والسكون . وحين نرى حشرة تتحرك على أرض ثابتة فإننا ندرك مباشرة الزمان والمكان معاً

ذلك أن الزمان من الحركة ، وإذا لم توجد أي حركة فلا يوجد أي تغير ؛ وإذا لم يوجد أي تغير فلا يوجد أي زمان. والزمان باعتبار أنه إحساس بالتقبل والتعاقب ، وشعور بالسيلان ، ذاتي ، والعقول وحدها هي التي يمكن أن تقدمه للعالم . والزمان باعتبار أنه تغير موضوعيٌ ، ولا ريب أنه ماض في سبيله حتى لو مات كل عقل . فالشجرة تبرعم وتزهر ، وتزدهر وتورق ، على توالي الربيع والخريف حتى تموت . على الرغم من عدم وجود أي عقل يدركها. والمد والجزر دائبان على مدهما وجزرهما . ولا تزال الغدران تذوب في البحار ، ولو أن أي عقل لا يشعر بها أو يقيسها . ولقد كان المحيط يموج قبل أن يأمره بيرون . وبعد أن عاش ليكتب آخر بيت في قصيدته . فالعالم ، وحتى الزمان والمكان ، واقع غشوم Brute ، يحس بالحكيم أن يقبله . ولا يقل صحة عما يعتقده الفيلسوف . ووجود العالم هو شرطنا ، وحدودنا ، وأصلنا . وما يعطيه العقل للعالم هو الدلالة وليس الوجود . وليس للعالم للأشياء من معنى إلا ما نصبه فيه . ولعل ذلك هو السبب في أنه غير مفهوم إلى هذا الحد .

إنا لنرجو أن ينتهى التحديد الإبستمولوجى (المعرفى) فى حركة فلسفة ، وأن نسمع من جديد قريباً القضايا الواضحة عن مشكلات الحياة والموت . ومع أن المثالية كانت ذات فائدة فى تتبع ما تحلله الحواس للعالم الذى يدركه الإنسان ، فقد كان فيها شىء من البلاهة . ولو أن حياة المثاليين كانت مضاهية لتعريفهم ، ولو أنهم سلكوا سلوك من يعتقد حقاً فى أن العالم الخارجى غير حقيقى ، فقد يمكن أن نمجدهم كما نمجد القديسين الذين يمارسون ممارسة روحية وهمهم نبيلة . ولكن الغريب أن هؤلاء المنكرين للعالم عاشوا وتمتعوا ككل واقعى Realist ، وهمت نفوسهم إلى الذهب غير الموجود بل إلى فضته . كم اقترحت مدام دى ستال ، لابد أنه شك فى لحظته المتواضعة أيكون قد حقق روحنه بإدراكه لها.

لقد جاءت هذه القصة الخرافية الكبيرة ، قصة العقل الذى خلق العالم ، من ألمانيا ، بلاد القصص الخرافية . ونشأت هذه الأسطورة من الحركة الرومانتيكية كرد فعل للشعور والحب ضد الواقعية والمادية والشكية ، وهى مذاهب التى سادت فى عصر فولتير . لقد كانت احتجاجاً ضد احتقار كوبرنيق للبشرية. ثم بدأت تضعف يوماً بعد يوم فى وجه الداروينية ، ولعلها تحتضر فى غريب . فنحن نسمع قليلا نسبياً عن المثالية فى فلسفة فرنسا ، فالناس هناك ميالون للإفصاح عن رغباتهم بغير نفاق . وهم لا يظنون أنهم لكى يصبحوا خالدين يجب أن يحصروا العالم حيث أن العالم كان موجوداً هنا قبل مجيئنا ، وسيظل باقياً بعد ذهابنا إلى العالم الآخر . إن العالم ليضحك حين يسمع أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، لأنه يعرف أن الإنسان ليس إلا بيتاً فى قصيدة أو ذيلا لصفحة . والفلسفة محاولة لرؤية الجزء فى ضوء الكل ، فلنكن متواضعين

٣ — العقل فى مقابل الغريزة

لقد عاجلنا هجوم المثاليين على الحواس من علٍ ، والآن يجب علينا قبل أن يقودنا المنطق إلى أنياب الحياة أن نواجه هذا الهجوم الموجه ضد العقل من أسفل . لقد لاحظ هيوم أنه حين يقف العقل ضد الإنسان ، يسارع الإنسان بالوقوف ضد العقل وإذا لم يستطع المفكر أن يعقل الرغبة فى ثوب من

المنطق . فإن نزعة قد تنكر في نهاية الأمر كل سلطان للفكر . ولقد كان من المتوقع في حياة تقوم على آمال تجاوز العقل تجاوزاً كبيراً أن يخترع الناس منطقاً لا يقوم على العقل بل يتبع أحلامهم .

وكما أن ديمقريطس المادي أرسى قواعد المثالية ، كذلك أعان زينون الشاك Sceptic (1) الإيلي على ظهور قضية متصوف . ذلك أن زينون الذي ظهر قبل سقراط بقرن من الزمان سخر من العقل بمتناقضاته التي ردته إلى الخلف . فهذا أخيل يعدو في إثر السلحفاة ، ولكن السلحفاة قد سبقته ، وإذن فلن يلحقها أخيل أبداً . ذلك أن أخيل حين يقطع المسافة من نقطة بدايته إلى حيث بدأت السلحفاة ، تكون السلحفاة قد قطعت مسافة معينة مهما تكن صغيرة . وعندما يقطع أخيل هذه المسافة تتحرك السلحفاة من جديد . . . وهكذا إلى ما لا نهاية له ، وبهذا نجد أن العقل لا يستطيع أن يثبت أي شيء ، وبناء على ذلك لا يثبت شيئاً على الإطلاق (2) وكذلك السهم المنطلق لا يتحرك ، لأنه ما دام الشيء في مكان واحد وفي المكان نفسه فهو في سكون ، ولكن السهم المتحرك هو في كل لحظة في مكان واحد فقط ، فهو إذن ساكن في هذه اللحظة ، فهو بناء على ذلك ساكن في كل لحظة من حركته . وينتهي أناتول فرانس إلى القول بأن « أي شيء يمكن إثباته بالاستدلال ، فقد برهن زينون الإيلي على أن السهم المنطلق لا حركة له . وقد يستطيع أحدنا أن يثبت العكس ، ولو أن ذلك في الحقيقة أصعب » (3) .

(1) من الغريب أن يصف المؤلف زينون بأنه من الشكاك ، وهذا ولا ريب تعسف منه ، لأن الصحيح أن زينون كان يهدف إلى تأييد مذهب بارمنيدس في ثبات الوجود ، لا في الشك فيه . (المترجم)

(2) تقوم مشكلته على افتراض أن حركة أخيل والسلحفاة يمكن أن تنقسم إلى ما لا نهاية له من « لحظات » . انظر الهامش اللاحق

(3) حديقة أبيقور ، لندن ، ١٩٢٤ ، المجلد الرابع ، ص ٦ . ويعتقد برتراند رسل أن زينون على صواب في قوله إن السهم ساكن في كل لحظة من انطلاقه ، ولكنه ينكر الاستدلال بأن السهم يظل في موضع نفسه — ولو أن الاستدلال يبدو منطقياً (مادة زينون في دائرة المعارف البريطانية ، وفي مبادئ الرياضيات ص ٣٤٦) ولعله من الأصح (إذا أراد المرء أن يتجنب هذه النتيجة) أن ننكر المقدمة القائلة بأن السهم الذي يكون في أي لحظة في مكان واحد وفي نفس المكان يجب أن يكون ساكناً . فهذا تفسير ستاتيكي للحركة يخرجها عن حركتها . فلا يوجد شيء يسمى « لحظة » بمعنى محطة أو وقفة في الزمان . فالزمان لا يقف في أي لحظة ، وله حركة وليس له حدود ، أما اللحظات فهي تقطيعات عقلية للزمان المتصل غير المتقطع .

لقد كان الإغريق والرومان رواقيين حتى حين كانوا أبيقوريين. فإذا وجدوا أن العقل يعارض نزعة قبلوا تحديد العقل في هدوء، وسعوا إلى إشباع عقلي، مع أنهم كانوا يتسممون مراعمه. ولكن قوى التصوف المتجددة نمت في عقل البشر نبعت من الشرق وتدفقت إلى بلاد اليونان. فقلبت حياة العقل التي ازدهرت هناك رأساً على عقب. تلك الحياة صعبة المعجزة. وجاء الإلهام والوحي الإلهي يبعثان الراحة إلى نفوس المغلوبين. وعندما خضعت بلاد اليونان وأصبح كل يوناني فقيراً، مات العقل، ووضع الإيمان (الذي لا يموت أبداً) حداً للعالم القديم. وأصبح ما يثبته المنطق قليل الأهمية، فقد تكلم الله بأمور عجيبة، وحتى لو بدت مستحيلة فكم يكسب المرء بتصديقها. وأصبح شعار الملايين من العبيد: «إني أعتقد في المستحيل Credo quia impossibile». وظلت الحقيقة تعرف خلال خمسة عشر قرناً من الزمان، لا بالإحساس أو العقل، بل بالرجوع إلى الأناجيل وعقد مجمع كرادلة.

ولقد أخطأت الكنيسة خطأ عظيماً حين سمحت بلعبة مدرسيين في إثبات الوحي بالعقل، إذ كيف أمكنها أن تعلم أن اللعبة ستمضي في طريقها، أو أن تصاعداً غير منتظر قد يستهوي ألمع العقول نحو جانب العقل؟ وهذا هو الذي حدث. فقد وقع ديكارت في هوى العقل، ومات اسبينوزا جوعاً في سبيله، واحترق برونو من أجله. ووجد الناس هذه الحبيبة الجديدة وهي العقل، وكلما زادت عشاقها عدداً أغروا بها. وأصبحت عبادة العقل نفسه ديناً وإيماناً، فقد وضع عصر التنوير على أساسه اعتقاده الديني في «كتاب التشريعة اللاهوتي». وأقامت الثورة الفرنسية الهياكل لربة العقل الجميلة. ولم يبق ثمة فضل لا يستطيع العقل أن يمنحه للناس.

ولم يكن روسو سعيداً في هذا الجو الخفيف الهواء. لقد كان يقاسي كثيراً وكان محتاجاً إلى اعتقاد كثير. وحين سخر العقل منه سماه مرضاً، فقال: «إني لأجرؤ على التصريح بأن حالة التأمل مضادة للطبيعة، وأن الإنسان المفكر هو حيوان فاسد». ومثلت رواية الإغريق والشرق من جديد. فقد سئم الناس الحياة وملوا الثورة والإرهاب والعصمة. وعادوا جماعات إلى حظيرة الإيمان،

وغطوا انسحابهم بالدعوة إلى الغريزة والشعور. وقال دى موسيه: «يجب أن نفكر». وقدم هيوم الفيلسوف الشاك معونة غير بارعة للعدو برده السببية والاستقراء والعلم إلى مستوى الزعم والاحتمال. أما كانط فهو أعدهم جميعاً منصفاً. فقد سار على نهج ريبون. وأعلن لأوربا أنها تستطيع أن تعتقد كما تشاء فى الله وحرية الإرادة والخلود ما دام العقل شيئاً ناقصاً لا يستحق أن يقبل من الإنسان تضحية السماء والمدينة الفاضلة. وأخضع شوبنهور خدمات العقل اليسيرة للإرادة. وأثبت فرويد بآلاف من الأمثلة سطحية العقل الذى يكسو أهداف دوافعنا الأساسية بأدلة محترمة. وسمى نيتشه الغريزة: «أذكى صور العقل». وأعلن برجسون — كأى فيلسوف هندى تكوينى — أن العقل عبارة عن سينما تعتقد فى صورها الاستاتيكية تفاصيل الحياة وروحانية النفس. فقد كان كل ذلك العصر الطويل من «إميل» إلى «تطور الخالق»، من روسو وكانط إلى شوبنهور ونيتشه، إلى برجسون ووليم جيمس، رد فعل رومانتيكى ضد عصر العقل. واليوم لا بد أن تنشب معركة من جديد، معركة الصراع بين كونفوشيوس ولاوتسى، بين سقراط وريبون، بين فولتير وروسو. ويجب أن تسوغ مناهج العقل مرة أخرى ضد الغريزة والحدس والتصوف والإيمان غير المفهوم.

«الغريزة»؟ إذا كان لنا أن نؤمن بآخر المذاهب فى علم النفس فيجب أن نستبعدها باعتبار أنها اسم لشىء ليس له وجود. غير أننا حين نرى أولئك الذين ألقوا «الغريزة» من الباب يعيدونها مرة أخرى من الشباك باسم «الاستجابة التى لم تتعلم» فقد نقتنع باستبقاء الزجاجات القديمة للخمر المعتقة، ونسمى بصريح العبارة غريزة ميولنا الموروثة إلى المشى والجرى، والأكل واللعب، والكفاح والهرب، والإلف والزواج، ومحبة البنين حين يولدون.

فهذه أنواع من السلوك مختصرة دفعة تطورت لمواجهة المطالب السريعة فى حياة الجنس دون انتظار بطء الروية. ولكن هذه الأنواع لا تلائم إلا ما بيننا وبين هذه المواقف القديمة الثابتة فقط. لقد قدمت لتسد حاجات معيشتنا الحيوانية وحياة الصيد. ومع أنها تحسن خدمتنا حين لا نجد وقتاً للتفكير،

إلا أنها تلائم الأمس أكثر مما تلائم اليوم . فقد يجرى الطفل من ثعلب ويعبث ببندقية محشوة . وقد يكون الرجل فيلسوفاً عميقاً ويربط نفسه إلى آخر حياته بلمية بلهاء – وكذلك تزوج سقراط اكزانثيب . وجونه كرستين . إننا بالغريزة « لا نخشى حملة الملاريا والحمى الصفراء . ولكننا نخشى الرعد والظلام . ولا نرثى الموهوبين المحرومين من العلم ، بل المشوهين ذوى القروح الدامية . ولا يثير ظلم كبير كما يثيرنا جرح بسيط . وبينما تزدرى الخادم إذا ما يأخذ حلوانا (بقشيشاً) أكثر مما نتألم من كسلنا وجهلنا وحماقتنا »(1) . لعل الغريزة كانت كافية حياة الصيد البدائية : « دوافعنا الطبيعية تلائم حالة الصيد أكثر مما تلائم حياة الزراعة . وإلى تلك الحالة نصبو فى رغباتنا الموسمية وجموح الشباب . نحو « الرجوع إلى الطبيعة » ولكن منذ أن قامت الحضارة أصبحت الغريزة غير ملائمة . وطرقت الحياة أبواب العقل .

متى بدأ العقل يسير سيرته ؟ لعل ذلك حين هبطت أمواج ضخمة من الجليد فى نطاق من القطب . فحملت برودة أجواء قارسة . وأهلكت الزرع فى كل مكان تقريباً . وأبادت كثيراً من أنواع الحيوان العاجزة القاصرة عن التكييف . ودفعت عدداً قليلا من الأحياء إلى الجنوب فى منطقة حارة ضيقة تعلقت عدة أجيال بخط الاستواء فى انتظار غضب الشمال أن يهدأ . أكبر الظن أنه فى تلك الأيام العصيبة . حين بطلت جميع أساليب الحياة القديمة مع غزوة البرد ، ولم تبق طرائق السلوك الموروثة أو التقليدية أى نجاح فى بيئة تغير فيها كل شىء . هلكت الحيوانات مع تزودها بسلاح كامل . ولكنه غير مرن . من الغريزة ، لأنها لم تستطع تغيير أنفسها من الداخل لمواجهة التغير فى الخارج . أما الحيوان الذى نسميه الإنسان وقد وهب مرونة مزعزعة . فقد تعلم فنون النار والطهى والنسج ، وقاوم العاصفة . وارتفع إلى منزلة يختار فيها بلا نزاع على سائر أنواع الغابة والسهل .

ونشأ التفكير البشرى – أكبر الظن – فى مثل هذه الحال الضارية من الحياة والموت . ونحن نرى اليوم نفس هذا القص وهذا التكييف لردود الأفعال الطبيعية

(1) ثورندايك : طبيعة الإنسان الأصلية ص ٢٨١

فى الطفل ، وهو تكيف يبيح له احتمال التعلم ، ولو أنه أدنى فى مستواه من وليد الحيوان – تقول هذه المرونة نفسها هى التى أنقذت الإنسان والثدييات الراقية ، على حين أن كائنات هائلة وقوية مثل الماموث والماستودون ، وهى التى كانت تتجول سيدة المنطقة ، رزحت تحت عبء التغير الجليدى ، ولم تصبح إلا موضعاً لاستطلاع علم الحفائر الحيوانية . وقد ارتجفت تلك الحيوانات وزالت على حين بقى الإنسان ضئيل . وهنا بدأ الفكر والاختراع ونشأ عن حيرة الغريزة المعطلة أول الفروض البسيطة ، وأول محاولة للجمع بين اثنين واثنين ، وأول التعميمات ، وأول الدراسات الشاقة فى تشابه الصفات وانتظام التتابع ، وأول ملاءمة بين الأشياء المتعسة وبين الموقف التى بلغ من جدته أن أخفقت الردود الغريزية والمباشرة إزاءها إخفاقاً تاماً . ونشأت عندئذ نماذج من العمل وتطورت إلى أساليب من التفكير وآلات للعقل : فأصبح ما كان ارتقاباً وتربصاً للفريسة انتباهاً ، وأضحى الخوف والهرب حذراً وروِّية ، وأمسى القتال والوثب استطلاعاً وتحليلا ، وصار العبث مايبد تجريبياً . وانتصب الحيوان فأصبح إنساناً لا يزال عبداً لآلاف الظروف ، وشجاعاً فى حنق إزاء المخاطر العديدة ، ولكنه مؤهل بطريقته المزعزعة إلى أن يكون سيد الأرض .

ونشأ العقل من مثل هذه البدايات حتى اليوم ، كما يقول جراهام ولاس ، ولكنه لا يزال إلى حد ما غريزياً فإذا عرض علينا موقف حديث ترددنا بالغريزة ، إلى أن تبعث أوجه المشكلة المختلفة أثرها فينا ، وتصبح استجابتنا سلوكاً معقداً ورداً كاملا نسبياً على موقف يكاد يكون تام الإدراك . وفعل المنعكس استجابة موضعية لمؤثر موضعى ، كما يحدث عندما نحك قرحة . أما الغريزة فهى استجابة عامة لعنصر واحد فى موقف من المواقف ، كالحال عندما نسرح فى النظر إلى وجه جميل . والعقل استجابة كلية لموقف كلى ، وعندئذ يحطم العقل الحب وقد يهلك الجنس . وكما تتجمع الإحساسات فى ظل الرغبة فتكون نظاماً من المعانى والفكر ، كذلك الغرائز والعادات تقع مع الاستجابات البطيئة بعد آلاف من التجارب والأخطاء فى هيئة من العقل . وليس بين الغريزة والعقل فرق فى النوع ، بل فى الدرجة . وكل واحد منهما يقدم للآخر عناصره ، فالروِّية بديل عن الدوافع

المتعارضة ، والتمييز أو الفطنة فصل الموقف إلى عناصره كمقدمة لرد الكامن ، والعقل تحليل المؤثر وتركيب الاستجابة .

والعلة فى عجز العقل هو هذه المهمة التى تتمخض عن ظهوره . وقد أهلكت المواقف كثيراً من الفلاسفة مضحين قبل تحليلها بما يرضيهم . ولقد قال جريفويلر Griffuehles النقابى : « إن أصلنا التفكير لم نتم شيئاً » . ومن أجل ذلك أحب نقابيو فرنسا مذهب الحدس Intuitionism البرجسونى . وقد اقترح برجسون أن نقفل باب الفكر ، وأن نبدأ بالنتائج والدوافع أولا ثم بالاستدلال بعد ذلك . . مع الفراغ الذى يعقب ذلك . هذا إلى أن العقل حين ينسى ولاءه للإحساس قد لا يؤثر الحجة البيّنة Evidence ، بل المراوغة Subtlety وعندئذ يصبح أشبه بالتاريخ المكتوب ، فيصبح المدافع الكاذب عن أى رغبة قوية فالعقل ، كما تخبرنا أى طالبة فى المدارس ، قد لا يكون غير فن تعقيل الرغبة . ونحن فى أغلب الأحيان لا نفعل الأشياء لأن عندنا أسباباً لعمل فعلها ، ولكننا نلتمس الأسباب لأننا نود فعلها . ومن أبسط الأمور فى العالم أن نبنى فلسفة تقوم على رغباتنا ومصالحنا . ويجب أن نحذر أن نكون شيوعيين لأننا فقراء ، أو محافظين لأن مصلحتنا فى جانبهم . وكلما أدخلت الفلسفة بهجة على أنفسنا ازداد حذرنا منها . وقد أحسن برتراند رسل حين قال : « ليست إرادة الاعتقاد هى ما نحتاج إليه ، بل الرغبة فى البحث ، وهو شىء على النقيض تماماً »(١) .

ومرة أخرى قد يفضى بنا التفكير إلى الشك ، والدهشة ، والسخف . فكل تفكير ينشأ عنه تفكير مضاد ويساويه يكاد يبلغ من الحتمية مبلغ القانون الثالث للحركة وفى ذلك يقول أناتول فرانس لبروسون Brousson : « هذا ولا ريب حق ، ولكن الضد حق كذلك »(٢) ثم ينقل عن باريس Barrès المتصوف قوله : « إن ما يميز الدليل عن اللعب بالألفاظ أن لا نستطيع ترجمة النوع الأخير »(٣)

(١) مقالات شكية ص ١٥٧ Sceptical Essays

(٢) Anatole France en Pantoufles, p. 45

(٣) On Life and Letters, Fourth Series. p VI

نعم . العقل آلة ناقصة كعلم الطب ، أو عين الإنسان . ونحن نستفيد منه أفضل استفادة فى نطاق ما أودعه القدر والطبيعة . ولا نشك أن بعض الأمور نحسن أداءها بالغريزة أفضل من الفكر . فلعل الأحكم فى حضرة كليوباطرة أن نطمأ مثل أنطونيو من أن نفكر كقيصر . ولعل الأفضل أن نحب ونفقد المحبوب من أن نحسن التفكير . ولكن لماذا يكون هذا أفضل ؟ أذلك لأن الغريزة أسد . ثم لأن ضرباً من الحدس الصوفى قد كشف لنا عن هذه حكمة ؟ كلا . بل لأن التجربة — وهى الإحساس مع مرّ الزمن — قد علمتنا أن ساعةً من النعيم تساوى سنة من التفكير .

وقد كنا نفكر فليس ذلك لأننا نهوى التفكير . بل لأننا يجب أن نفكر ؛ فعالم الحديث كثير التفرق والتغير بحيث لا يسمح بمواجهة الاستجابات الثابتة الطابع لعله لا تزال توجد طرق قديمة فى الحياة تفيدها الغريزة كالأمومة ، والزراعة ، والاستقرار فى البيت . ولكن حتى فى هذه الأمور يجب أن يتدخل العقل مثل مع الحمل لتحديد الأمومة الغريزية . هذا إلى أن المرأة قد خرجت من البيت البسيط إلى الصناعة المعقدة . وأصبحت المزرعة التى كانت يوماً ما منعزلة مقراً لشبكة من العلاقات مع الوسطاء والأسواق البعيدة ورجال المال المحترفين . أما نحن الذين نسكن المدن فإن الاستجابة المباشرة والغريزية تصبح يوماً إثر يوم خطرة . لأن لكل غريزة أنانيتها وإيثارها الخاص لنفسه ، وتسعى إلى إرضاء ذاتها بأى ثمن على حساب مجموع الشخصية . وكل غريزة هى جزء من يزعم السيادة على غيره . ولن نستطيع أن نحقق الوضوح والوحدة والصحة والعقل إلا بالتأليف بين هذه الأجزاء من أنفسنا .

انظر إلى الغريزة الجنسية : إنها تسوقنا إلى التناسل . ولعلها تسلمنا إلى الإباحية . ويضيق نطاق هذه الغريزة بما فيها من شدة . فلا تقف لتفكر فى النتائج . إننا نتزوج بالغريزة ، ونطلق بالعقل . وقد تلقى الغريزة بكل فتاة فى أحضان أول جندى يعترض طريقها . وقد تجعل من كل زوج فاسقاً . ومن كل أم مجرد أم فقط لا تكاد تفطم حتى تحمل . إنها تضاعف مقدرة الفم بالسرعة التى يضاعف بها العقل والاختراع إيجاد الأقوات . فيصبح آخر حالة للإنسان

سيئة كأول أحواله . وبالغريزة يبحث الإنسان الجائع عن الطعام ثم يذبح نفسه ويموت ؛ وبالغريزة يتعلم الطفل المشى فيمشى على قمة الدرج أو على حافة الطنف . وبالغريزة نرتعش فى خوف لا فائدة منه حين تزأر الأسود داخل أقفاصها فى حديقة الحيوان . وبالغريزة يصبح الجندى الحديث الخائف وحشاً فى المعركة ، حاد الأنياب والأظافر ، أعمى بالبغض واليأس ، معرضاً لميتة قذرة ، على حين يقف القائد المثقف المفكر آمناً فى المؤخرة يكتب قصة انتصاره ، ثم يعود إلى الوطن فيرث الأرض .

لذلك فنحن نترك لإخواننا الصابرين فى الدير إلهاماتهم التى لا يمكن تحقيقها ، وإيمانهم المريح ولكنه مزعزع ، كما نترك لأبناء عمومتنا فى الغابات والأحراش غرائزهم العالية فى دقتها وسدادها . ولقد قال كونفوشيوس : « لا يختلف الإنسان عن الحيوان إلا قليلا ، ومعظم الناس يطرحون هذا الشىء القليل » . أما نحن فنلقى نصيبنا من الإحساس والعقل ، قانعين بقبول الحياة كمعيار لتفكيرنا ، عازمين بقدر الطاقة على إضافة التفكير لحياتنا . سوف نقع فى أخطاء كثيرة ، وليس ثمة ضمان أننا نبلغ السعادة فى النهاية . إن بهجة الفهم الممزوجة بالألم مثل نشوة الحب . وسنطرح فى طريقنا الفكرى كثيراً من الغيبيات ، وستهوى كثير من الأوهام التى كانت تبث فينا الشجاعة . ولكن « الحياة بغير التفكير غير جديرة بالإنسان » . ونحن نؤثر أن نكون سقراط فى السجن من أن نكون كاليبان Caliban (١) على العرش . فلنمض معاً فى التفكير .

---

(١) كاليبان شخصية ابتكرها شكسبير فى رواية العاصفة ، وجعله ابن الشيطان ، مشوهاً ، وغداً .
[المترجم]

الجزء الثالث

الميتافيزيقا

الفصل الثالث

المادة والحياة والعقل

---

١ — مقدمة لا أدرية

ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته، وما مكوناته وهيكله، وما مواده الأولى وقوانينه؟ ما المادة في كنهها الباطن، وفي جوهرها ووجودها الغامض؟ ما العقل؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها، أم هو خادم مسخرات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين، العالم الخارجي الذي ندركه بالحس، والباطني الذي نحسه في الشعور، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية، كما قال الشاعر: « ما يكتبه الخالق في مطلع الصبح نقرؤه في آخر النهار »، أم أن في المادة أو في العقل أو في كليهما عنصراً من الانطلاق والتلقائية والحرية؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس، ويجيب عنها جميع الناس، وهي منابع فلسفاتنا الأخيرة التي يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شيء آخر في نطاق ما نسلك من الفكر. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض.

ولنسلم أنفسنا في الخطاب لإخفاق لا مفر منه، لا لأن هذه الناحية من الفلسفة تحتاج في إتقانها إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل. فهذه سفرة كئيبة وهي فتنة في هذه المغامرات اللطيفة ستبعد عن فكرنا جميع التبجح والادعاء. ويكفي أن نأخذ شيئاً قليلاً من التواضع، وشيء من الأمانة، لنتأكد من أن الحياة والعقل في غاية التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما. وأكبر الظن أن أكثر

نظريات تحيلا قد تكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء .

فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهول جهلنا . وكلما كثر عِلمنا . فتت معرفتنا ، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة وشكوك جديدة . فالجزيء ينكشف عن الذرة ، والذرة عن الإلكترون (الكهيرب) . والإلكترون عن الكوانتوم Quantum (الكويمية) ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا Categories وقوانيننا وينطوى عليها . والتعليم تجديد فى عقائد ونقص فى فن الشك . ولانا كما نرى مرتبطة بالمادة ، وحواسنا بالعقل . وفى خلال هذا الضباب يجب علينا نحن « الزغب على الماء » أن نفهم السحر

لذلك فنحن نقبل على هذه المشكلات كما يقبل القسيس على مذبح لأول مرة ليتلو سر القداس لن نحل هذه المشكلات . وأفضل ما نعمله أن نكشف فقط عما نوثره أنفسنا . فإذا أساء الدين إلينا نعظم معتقداته فقد نرتد محتجين إلى مادية مجردة ، كما فعل شللى الطائش ، الذى كان يعتقد فى الله وفى الخلود ، وسمى نفسه « ملحداً » ليقذف بتحديه فى وجه الكنيسة الرجعية المغرورة بنفسها . وإذا كنا من أصحاب العقول الرقيقة فسوف نتعلق بالإيمان ، ونعتبر أن عالماً ميكانيكياً بغير إله أمر يصعب وجوده . أو لعلنا نتقدم فى السن فنبسو أيوم ثورات شباب غير ضرورية ومسرفة . إن الحقيقة لتشرق مرة أخرى من الأفكار القديمة التى بدت يوماً ما خادعة وباطلة . ونحن نقبل مرحبين شاكرين أى أنباء من عالم علم أو التاريخ ، قد تعيد إليه بعض البصيص من معتقداتنا القديمة . ولن تكون علومنا فى الطبيعة والكيمياء والفلك والحياة سوى ميادين للصيد ، نقتنص فيها كرامة لمزعمنا ، أو الراحة لآمالنا .

ومع ذلك . .

٢ — المـــادية

كما أن المادية هى أول فلسفة يعتنقها ذلك الذى خلع عن نفسه رداء المعتقدات الغيبية . فهى كذلك أول تصور عن العالم يظهر فى أمة أخذ دينها

الرسمى فى الزوال . كان المفكرون قبل سقراط ، وهم الذين رفع بيكون ونيتشه من شأنهم على خلفائهم ، جميعاً من الماديين تقريباً . فقد فسر طاليس وأنكسمندريس وأنكسيمانس الكون على أنه من مشتقات الماء أو النار أو الهواء وقدم لوقيبوس وديمقريطس المادية تحت صورة الذرية التى أوضحت سائر الحركات الطبيعية [illegible] ، إلى أن تفتت الذرة تحت تأثير علمى الطبيعة والكيمياء الحديثين .

وظلت هذه الفلسفة التى تعد أبسط الفلسفات متمكنة [illegible] شك زينون ، وشك أنكساجوراس . ثم انصرف سقراط عن بحث العالم الخارجى ، واكتشف النفس التى بلغ من اختلافها عن [illegible] محصنة عن الموت . وسمى أفلاطون المادة « العدم » ، ووضع من شأن النفس فوق كل شىء ، وكان يرى أن العالم الخارجى خاضع لعقل [illegible] ، ويتمثل فى التركيب والعدل [illegible] مدرك بوساطة نفس خالدة . ووجد أرسطو البيولوجى نفسه [illegible] متحركاً ، ولم يستطع أن يرده إلى التراب والخلاء ، وجوهره هو [illegible] ([illegible] Entelechy) ، ففى كل مادة قوة حية لا تهدأ حتى تتحقق . وكل « صورة » هى « مادة » لصورة أعلى . وكل حقيقة فهى حامل للصورة [illegible] تصف وصفاً صالحاً هذه الحيوية المتفجرة . ونسى ديمقريطس [illegible] .

وتجسد ديمقريطس فى شخص أبيقور الذى يكاد [illegible] Planck وبور Bohr وكورى [illegible] فى الذرة مبدأ للحرية وعدم الثبات ، [illegible] رمزاً للهلاك والفساد [illegible] فجميع الأشياء حرة . وجميع الأشياء [illegible] وفرح لوكريتيوس وقد سئم الحياة بأن يسمو عن هذا الموت الأكيد [illegible] إليه أن القول بأن الشعراء أنفسهم مركبون من ذرات هو أمر [illegible] . وكذلك القول بأن كل كائن وكل ذرة إلى انحلال وزوال [illegible] من الأزل إلى الأبد .

ثم ظهرت المسيحية وغابت المادية خمسة عشر قرناً [illegible] فى فلسفة [illegible] وكانت بعض الفرق القديمة المخالفة لتعاليم الكنيسة قد تصورت النفس [illegible]

لطيفاً ، وأن الله نفسه غاز أكثر لطافة . . وهم بذلك يقتربون من تعريف هيكل Haeckel فى شبابه الألوهية بأنها « فقرية غازية » gaseous vertebrate. ولكن المادة فى الأغلب كانت الملاك الذى غوى ، وإبليس الفلسفة ، ومحنة الروح وسجنها . ومن الغريب أن المادة وجدت مكاناً رحبا فى فلسفة القديس توماس الأكوينى ، فجعلها قديمة بالقوة قدم الزمان ، وأصبحت « مبدأ التشخص » ، فيصير الواحد كثيراً خلال صورها وتحديداتها ، وينقسم محيط الروح إلى بحيرات صغيرة تسمى الأنفس الخالدة .

مهما يكن من شيء فلم تبدأ المادة تستعيد منزلتها حتى ظهور ديكارت ومن الحق أن الفيلسوف الفرنسى[1] الحذر لم يرتفع بالمادة حتى تصبح الحقيقة الواحدة . وحين استهل فلسفته بالنفس والفكر قائلا : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » فقد فتح الباب لتلك المثالية نفسها التى أصبحت أخبث عدو للمادة . ولكنه تصور العالم تصوراً ميكانيكياً ، وأشرف الحيوانات كآلات متومة . وكل شيء ما عدا نفس الإنسان يخضع لمبادىء طبيعية ، بل إن الظواهر المعقدة كالهضم والتنفس والإفراز والتناسل تدل على عظمة الميكانيكا . وفى هذه الكوسمولوجيا الديكارتية اكتسبت المادية فى شبابها الثانى .

وهناك حركتان كبيرتان فى الفكر الحديث ، دعوى Thesis ونقيضها Antithesis ، كما يقول هيجل . فى انتظار دعوى تركيبية Synthesis يجب على جيلنا الحاضر أن يشرع فى عملها . وتبدأ الحركة الأولى بالعالم الخارجى ، بالمادة ، والطبيعة ، والميكانيكا ، والرياضة . وهى تمثل ، وكأنها ثورة الفرد البرىء على الأوهام . أول رد فعل وأكثره تطرفاً ضد فهم الكون فهما غيبياً . وهى تصوغ قوانين الحقيقة من ملاحظة المادة ، ثم تفسر العقل فى عبارات مستمدة من هذه القوانين الموضوعية . ونتائجها بالضرورة هى المادية Materialism والميكانيكية Mechanism ، والحتمية Determinism ، والسلوكية Behaviorism التى تنحدر بحركة تطبيعى عن الانتقال من المادة إلى الشعور . وأبطالها هم جاليليو ، وديكارت ، وهوبس ، وسبنوزا ، وديدرو ، وهولباخ ، ولامترى ،

[1] فى الأصل « غالى » نسبة إلى بلاد الغال ، وهى الاسم القديم لفرنسا (المترجم) .

وهيكل ، وسبنسر ، ورسل ، ووصف ثم الحركة في تكشفها وتصاعدها فتبدأ من الشعور ، وترى نفسها عاجزة عن الانتقال منه إلى المادة . وهي تقف في داخل عالم ساطع وما فيه من عقل ونفس ومعرفة وأخلاق . وهي تمثل رد فعل متطرف ضد التصور الذي يكون تصوراً مادياً . وهي ترى جميع الأشياء كإحساسات وأفكار ، وترد من أجل ذلك المادة إلى حالة من أحوال العقل . ونتائجها بالضرورة هي الروحية Spiritualism ، والمثالية Idealism والحيوية Vitalism ، وحرية الإرادة . وأبطالها هم ديكارت (انظر ما سبق) وليبنتز ، وبركلي ، وكانط ، وفشته ، وهيجل ، وشوبنهور ، ونيتشه ، وبرجسون ، ووليم جيمس . وهكذا تتحارب الفلسفات المتعادية كالذكر والأنثى ، ولا تصبح مثمرة إلا حين يندمج بعضها في بعضها الآخر .

وتغلبت الحركة الأولى على تفكير الشعب الأوربي في القرن السابع والثامن عشر . أما سبينوزا فقد انتحى عن هذه الحركة جانباً ، وواجه المشكلة على هواه في برجه المنعزل ، وقدم لنا العالم مذهب وحدة النفس Panpsychism [1] حلاً للمشكلة : فالمادة والعقل هما الوجهان الخارجيان لحقيقة واحدة معقدة ، و « جميع الأشياء مهما اختلفت درجتها مملوءة بالحياة » . ولم تصدق أوروبا هذه المقالة ، على العكس من ذلك رد هوبس الحقيقة إلى المادة ، وزعم أن كل اصطلاح أو عبارة لا تدل على شروط مادية ، فهي قضية مدرسية وأثار جسندي Gassendi بأدب ضد ديكارت اعتراضات متعددة على تصوره الثنائي لاستقلال المادة عن التفكير ، وزعم أن الفلسفة لم تتقدم بعد عن نظريات ديمقريطس . وفي الوقت الذي كان نيوتن يمارس العادة بتقوى عظيمة ، ويكتب شروحاً غريبة على سفر الرؤيا ، حلل العالم الخارجي إلى قوانين في الحركة بلغت من البساطة والترتيب أنه حين حملت إلى فرنسا لم يستطع الفلاسفة المغرمون بالمنطق إلا التسليم بأن هذه القوانين تنطبق على كل شيء ، على سقوط التفاحة وعلى صلاة المرأة . وأخرج لامتري بشجاعة كتابه « الإنسان الآلة » ، وبين

(١) لا ندري لم عدل المؤلف عن وصف مذهب اسبينوزا بأنه وحدة الوجود Pantheism أي أن الله والعالم شيء واحد ، كما هو معروف ومشهور ، إلى القول بوحدة النفس (المترجم) .

كيف تؤثر الأحوال الجسمية المختلفة كالحماسة أو المرض على العقل ، فتكشف بذلك عن تكوينها العضوي . وأخضع هولباخ الإنسان والمادة على حد سواء في كتابه : « نظام الطبيعة » هذا النظام المنطقي الدقيق . ورد هلفتيوس الأخلاق والعصبية للقوانين العصبية ولم يكن ديدرو على يقين من أن نظرية المعرفة تستطيع تفسير الشعور ، واضطر إلى الخروج مع اسبينوزا بهذه النتيجة ، وهي أن المادة غريزة ممزوجة بالعقل ، إلا أنه صمم لمجرد الحكاية أن يسمى نفسه مادياً « حتى يشنق آخر رجل بأمعاء آخر قسيس » .

والمادية أخت الاشتراكية . فهي علم يرفعه الشباب الثائر والضال احتجاجاً في وجه الرجعية والاستبداد . وهي راية يطويها العصر الوسيط ويخفيها في هدوء عندما يرى الفكر السامى نحو النضج والتواضع التعقيد اللاعقلي في حياة العالم .

٣ – المثالية

وفى أثناء ذلك وجدت الحركة الثانية رسولها في الأسقف بركلى وقال الأسقف إنه على الرغم من كل شيء فإن هذه المادة التي نقول بها لا نعرفها إلا خلال الإحساس والإدراك . والموجود هو المدرك Esse est percipi ، أي أن الموجود إذا لم يدركه عقل من العقول فلن يوجد على الإطلاق (بمقدار ما نعرف) وأضاف كانط أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فهذه الإحساسات هي في ذاتها خبيط لا معنى له ، بل « الوحدة الأولية الشرطية Transcendental للإدراك » هي التي تمسح فوضى شهادة عدة حواس في عالم من الفكر المرتب . وأكبر الظن أن الترتيب والوحدة من عمل العقل . ويخلق نصف « الشيء » بإدراكنا له . فكيف يمكن أن يكون مثل هذا العقل التكويني نتيجة سلبية للمادة التي أبدع العقل صورتها نفسها ؟

وقال أرثر شوبنهور – أوضح رؤسائهم على الإطلاق – إنك على صواب ، فالحقيقة الوحيدة التي نستطيع ملاحظتها مباشرة وفي صلة وثيقة هي أنفسنا فإنها التي نتأملها تأملا باطناً ومن السخرية أن نرد ذلك الذى نعرفه مباشرة إلى «مادة»

لا نعرفها إلا على أنها معنى فى فكرنا . وإلا حالات لتوسط تحريف حواسنا الناقصة . ولعلنا إذا استطعنا أن نعرف المادة من داخل معرفتنا لها من الخارج كما نعرف أنفسنا ، فقد نجد فى قلب المادة طاقة من الإرادة أكثر شيء تقوى عقولنا الدقيقة من الميكانيكية الخارجية والحقيرة لأحداث . وفى مثل هذه الظروف تكون المادية فى ضوء المنطق الدقيق مستحيلة . أما بخنر Buchner ومولسكوت وفويرباخ فإنهم أغرار . وفى ذلك يقول شوبنهور

« إن المادية المتهافتة التى لا تزال حتى الآن فى منتصف القرن التاسع عشر تقدم تحت ستار الوهم الجاهل على أنها أصيلة . . لتنكر بحمق القوة الحيوية ، وتحاول أول كل شيء تفسير ظاهرة الحياة بالقوى الطبيعية والكيميائية ، ثم تفسر هذه القوى مرة أخرى بالآثار الميكانيكية للمادة . ولكنى لا أعتقد أبداً أنه حتى أبسط التركيبات الكيميائية تسمح بالتفسير الميكانيكى . فما بالك بخصائص الضوء والحرارة والكهرباء . فهذه تحتاج دائماً إلى تفسير ديناميكى »(١) .

وورث نيتشه هذه النظرة إلى المادة إلى جانب « إرادة القوة » . وهى صفة مسروقة من « إرادة » شوبنهور . ولن نجد رجلاً أشد عداوة للمادية من هذا الذى كان يحتقر المساواة وروح الدين . ويقول برناتشه التى لا نحل فيه بتوفيق على : « الإبعاد المطلق ميكانيكية ومادة . وكلاهما لا يكونان إلا صوراً من التعبير عن المراحل الدنيا . وهى أقل صورة روحية تتشكل بها إرادة القوة » . إنه يتقمص الموقف المثالى كله كأى مثالى طيب . ويرى أن المادة وهم وتركيب عقلى نصنعه لتفسير إحساساتنا . ويقول : « أما فيما يختص بالمذهب المادى فهو أيسر مذهب يسهل رفضه من بين جميع المذاهب التى ظهرت . وأكثر الظن أنك لا تجد فى أوربا اليوم أى شخص فى الوسط المتعلم يبلغ من سفاهة العلم حداً يجعله يخلع على ذلك المذهب دلالة جدية » . ثم ينتهى كما فعل شوبنهور إلى هذه النتيجة فيقول : « يجب أن نعترف بها بغرض ، وهو أن جميع الأعمال الميكانيكية من حيث إنها قوة تعمل من داخل ليست بالضبط قوة

(١) عالم كإرادة وفكر ، المجلد الأول ص ١٥١ ، المجلد الثالث ص ٤٣

الإرادة بل نتيجة لهـا ، فالذرة ليست إلا كميـة من طاقة (كوانتوم) إرادة القوة [1] .

ومن المدهش أن نرى مبلغ ما كان للمثالية من أثر في المثورين المرتاعين إلى المادية كسلاح ضد الاعتقاد الديني وفي ذلك يقول هربرت سبنسر : « إذا كان لنا أن نختار أحد هذين الأمرين وهما : ترجمة الظواهر العقلية إلى ظواهر طبيعية ، أو ترجمة الظواهر الطبيعية إلى ظواهر عقلية ، فالأمر الثاني أدنى إلى القبول »[2] ويكتب برتراند رسل في أيامنا هذه — وهو الرسول الممتع للقنوط — ما نصه :

« إن الاعتقاد في أن المادة وحدها حقيقية لن يسلم من دليل الشك المستمد من ميكانيكية الإحساس الفسيولوجية . . وقد نعد تاريخيا المادية نقداً من العقائد أعنى لحرية العقائد الأرثوذكسية . وتبعاً لذلك نجد أنه كلما انحلت العقائد القديمة أفسحت المادية الطريق أكثر فأكثر لمذهب الشك وفي الوقت الحاضر نجد أن أهم الممثلين للمادية هم جماعة من أهل العلم في أمريكا وجماعة من رجال السياسة في روسيا . لأن الديانة التقليدية في هذين القطرين لا تزال قوية »[3]

٤ — ما المـادة ؟

بعد أن مررنا بهذه الشكوك الإبستمولوجية — وقد نظرنا إليها بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة — ومع التسليم بأن العالم الخارجي « حقيقي موضوعي » ، هذا العالم الذي لا يفتك يذكرنا بوجوده بما يقدمه لنا من أشد المثيرات وأبعدها عن الشارع ، فلنمض إلى الأمام ، ولنبحث في تكوين المادة

وأول شيء نكتشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التي وصفتها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تندال وهكسلي غير

(1) Will to Power §§ 712 and 634 ; Joyful Wisdom § 109; Beyond Good and Evil, §§ 12 and 36.

(2) Principles of Psychology, vol i, p 159.

(3) Introduction to Lange's Histroy of Materialism, pp xi,xii.

فاسدة . فهي تقعد وتنام أثناء وضعها . كمثل الصبي البدين في قصة « أوراق بكويك »[1] . وهي تقاوم بكل ما فيها من وقر الحجم وثقل كل جهد نحو تحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أحدثت في حركة . وشيء برجسون في يسر شديد أن المادة في مثل هذا الجمود لا يمكن أن تفسر الحركة . ومن باب أولى لا تحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك . كما كتب برجسون ، كانوا في سبيلهم إلى هجر تصور المادة جامدة . وإن اكتشف فيها عن حيوية لا ريب فيها . فهذه مثلا الكهرباء لا يمكن أبداً تفسيرها في صيغ من الجمود والموت . ما هذه القوة الخفية التي نصف بها الكتلة فنزيد في صفتها ولكنها لا تضيف شيئاً إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسري الشحنة الكهربية في سمك أو في الهواء اللاسلكي ؟ أهي شيء يتحرك في داخل السمك والذرات . فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذي يتحرك في تلك الموجات الكهربية التي نكاد نتبع في سرعتها سرعة الضوء نفسه ؟ أهي الذرات ، أو « الأثير » ، أو لا شيء ؟ وفي أشعة إكس . عندما تمر شرارة كهربية في فراغ ، نجد أشعة تنبعث من جدران الأنبوبة وتغير من نوع حساس كيميائياً . فما هذه التي تمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندئذ بدت المادة نشطة لا تفرغ كما هو الحال في الراديوم . وبدت الذرات (التي لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى ما لا نهاية ، وأصبحت كل ذرة نظاماً كوكبياً من الشحنات الكهربية تدور حول شيء لا يزيد جوهره عن شحنة كهربية أخرى . فأي مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاذ ، وسائر تلك الخصائص الشبيهة التي صدرت بجوارها كل مفكر قويم واقعي . أفكان الجمود أسطورة ؟ أيمكن أن تكون المادة حية ؟

لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الصفة في المادة فالمغناطيس والكهرمان . والشعر ، كانت توحي بها . ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربية والمغنطيسية صوراً من « طاقة مدركة »

(1) Pickwick Papers قصة مشهورة لشارلز ديكنز ، وكان مستر بكويك بطل القصة . (المترجم) .

وهي ظواهر ترجع إلى حركة الإلكترونات الدائبة في الذرة. ولكن ما الإلكترون؟ أهو جزء من «المادة» يظهر في ثوب من الطاقة. أو هو مقدار من الطاقة منفصل تمام الانفصال عن أي جوهر مادي؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض الأخير. ويقول ليبون: «قد يمكن ولا ريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور الطاقة بغير مادة . . . . ولكن مثل هذا التصور في غير مقدورنا. فنحن لا نستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها في الإطار المشترك لأفكارنا. ولما كانت ماهية الطاقة مجهولة فنحن مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها»[1]

فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع، فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور الميكانيكية. وإذا لم ننصرف عنها كي ننظر في أنفسنا فإننا نتصور كل شيء كأنه مادية. ومع ذلك فإن أوستوالد Ostwald يصف المادة على أنها صورة من الطاقة وحسب. ويرد ردرفورد الذرة إلى وحدات من الكهرباء الموجبة والسالبة ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته ويقول ليبون ببساطة: «المادة صورة مختلفة من الطاقة»[2]. ويقول ج.ب.س هالدين: «يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين في العالم اليوم المادة كمجرد ضرب خاص من الاضطراب التموجي»[3] ويقول إدنجتون: إن المادة مركبة من بروتونات وإلكترونات، أي شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء. فالذرة: «هو في الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك»[4]. ويقول هوايتهيد: «إن مفهوم الكتلة في طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد باعتبارها المقدار الواحد الدائم في النهاية . . . فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة في علاقتها ببعض آثارها الديناميكية»[5]. وإلى هذه المرتبة الوضيعة سقط الحجر. ورجعنا إلى بوسكوفيتش Boscovich[6] الجزويتي القديم - بل تلك الفكرة غير المفهومة من أن المادة التي تشغل «المكعب» مركبة

(١) The Evolution of Matter p. 13

(٢) المرجع السابق ص ١٠

(٣) Possible Worlds, p. 296

(٤) The Nature of the Physical World, p 3.

(٥) Science and the Modern World, p. 149.

(٦) بوسكوفيتش (١٧١١ – ١٧٨٧) فيلسوف يوجوسلافي من دلماشيا أذاع في بلاده فلسفة نيوتن (المترجم)

من نقط لا وجود لها. وفي ذلك يقول نيتشه: «لقد كان بوسكوفتش وكوبرنيق حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحاً في دحض شهادة العيان» (١). فلا غرابة أن يستنتج ديوى أن: «مفهوم المادة الذى يوجد بالفعل فى تطبيق العلم لا يمت بصلة إلى مادة الماديين» (٢).

أيمكن أن يكون شيء أكثر غموضاً وغرابة من هذا القول الذى يقوله علماء الطبيعة من أن «المادة» بمعنى الجوهر المتحيز Spatial قد بطلت عن الوجود؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شيء من خصائص المادة. فهى ليست صلبة، ولا سائلة، ولا غازية، وهى ليست كتلة أو صورة. وانحلالها إلى إشعاع يبقى شكوكاً على أعز عقيدة فى العلم الحديث، أى عدم قابلية المادة للفناء. ولنسمع رأى أحد علماء الطبيعة مرة أخرى

«إن عناصر الذرات التى تنحل تفنى تماماً. فهى تفقد كل صفة للمادة بما فى ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسية. ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها، ولا شيء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة، فقد اختفت فى عظمة الأثير.. والحرارة، والكهربا، والضوء، إلى غير ذلك... تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها فى الأثير. والمادة التى تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها فى حالات متتابعة تنزع منها تدريجياً صفاتها المادية حتى تعود فى النهاية إلى الأثير الذى لا يمكن وزنه، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه» (٣).

الأثير؟ ولكن ما هو هذا الأثير؟ لا أحد يعرف. ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسماً على الفعل «يتموج» (٤) والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث فهو غامض غموض الشبح أو الروح. وافترض أينشتين وجود الأثير حين أعاد تفسير الجاذبية، وعزم أخيراً أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول:

(١) Beyond Good and Evil, § 12.

(٢) Experience and Nature, p. 74.

(٣) ليبون، المرجع السابق، ص ٧، ١٢، ١٤.

(٤) نقلا عن وليم جيمس فى كتابه (معنى الحقيقة) ص ٥٩.

«الأثير». ويقول الأستاذ دمجتون أحدث حجة فى هذا الموضوع: «ليس الأثير نوعاً من المادة. فهو لا مادى»[1]. ومعنى ذلك أن شيئاً لا مادياً يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات Contortions الغامضة (دوامات Vortices كما سماها لورد كيلفن). ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض، مادة متحيزة. ويمكن أن نتوزن أهو اللاهوت قد أعيد؟ أم هو علم مسيحى جديد؟ أم هو صورة من البحث الطبيعى؟ وفى الوقت نفسه الذى يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من الشعور حتى يرد العقل للمادة، يأسف علم الطبيعة فى تقريره أن المادة لا توجد. ولقد قال نيوتن متعجباً: «أيتها الطبيعة احفظينى مما بعد الطبيعة[2] (الميتافيزيقا)»[3]. فيا للأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك.

يقول برتراند رسل: «يقترب علم الطبيعة من المرحلة التى يبلغ فيها الكمال»[4] وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك. أما هنرى بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث فى حالة من الفوضى. فهو يعيد بناء جميع أسسه، وفى أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف. وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيراً تاماً فى العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كلتيهما. ولم تعد تسمح أبحاث كورى ورذرفورد وسودى وأينشتين ومينكوفسكى لأى تصور قائم على صيغة نيوتونية بالبقاء. وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف النظام الوحيد للعالم، وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكتشف. ولكن عالم نيوتن قد امتحى اليوم تماماً. ولم يعد التثاقل Gravitation مسألة «جاذبية» Attraction. وتفرقت «قوى» الحركة فى كل جهة بنظرية النسبية. وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم فى «الأشباح» والمجردات، وكان العلم يبحث فى المادة،

(١) المرجع السابق، ص ٣٢

(٢) نقلا عن برونسون: قانون فرانس دمبوس، ص ٢١٨.

(٣) ترجم العرب قديماً لفظة الميتافيزيقا بقولهم ما بعد الطبيعة، ولكن هذا الاصطلاح طويل وتصعب النسبة إليه، لذلك حذفت لفظة ميتافيزيقا. وهى من اليونانية ميتا أى بعد، وفيزيقا أى طبيعة (المترجم)

What I Believe, p 2. (٤)

أى « المحسوس » والحقائق « الواقعية » . لقد كان العلم نصيبة مجموعة مستورة esoteric من القوانين المجردة . « وفكرة المادة مفقودة بالكلية فى الدوائر العلمية » (1) . وكان على الطبيعة أن تمتحى تماماً (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال « خمسين عاماً ») أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . وكان — فى الوقت الذى يحصل رجل الشارع العلم ويفقد جميع أفكار الإلهام والدين التى كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة — يقال لنا فى تواضع إن « البحث العلمى لا يفضى إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة » (2) . وبدلا من ذلك يتحولون بنا إلى سلسلة متتالية تسير أسرع تبعاً للسرعة التى تحصل خلالها فى تفصيلها . ومن المستطرد قد نقول بعملية بسيطة هى تغيير موضعها من زاوية قائمة إلى خط مستقيم فى اتجاه حركة الأرض فعلينا أن نتواضع إزاء القوانين غير المفهومة التى حلت محل وضوح علم الطبيعة القديم . ومن يدرى لعلها تكون صحيحة ؟ ومع ذلك فمن غير العلم الذى يريد محمة يوماً بعد يوم . ويرقص فى يومه من كان فى أمسه فيوم يقدم لنا الذرات . ثم الإلكترونات . ثم الكوانتا (نظرية الكم) . وأخيراً صورة مقدسة لعالم مادى مبنى من الشحنات الكهربية تعبر بمسافات مادية
وكان اشبنجلر وحده من الشجاعة بحيث يسمى هذا الأمر باسمه الصحيح « كل نظرية ذرية هى خرافة وليست نظرية » (3)

ولكن على الحجر من اللاهوت أن ينتظر . حتى يجد صداه فى العلوم « المصنوعة » . ولعل المادة تستمر فى الوجود على الرغم من علمائنا الواسع الكثير الحيل . ولعل الحجر الذى اصطدم بإصبع الدكتور جونسون كان حقيقياً كالألم الذى أحس به . حقاً كان الحجر فى نظر الدكتور « حزمة من الإحساسات »

(1) إدنجتون ، ص ٢٧٤

(2) المرجع السابق ، ص ٣٠٢

(3) انحطاط الغرب . المجلد الأول ، ص ٣٨٧ . فقد سبقه بعض « عند مفكرين المعاصرين شديدى العمق والاضطراب تفتحة الكلمات ، و « أصبحت عندنا لا تعنى » لكن العلم فى نظر شبنجلر « خرافة مريحة » ، وميثولوجيا تحل فيها « الكهرباء » و « الطاقة الموضعية » و « القوى » و « النواميس » محل الأرواح والآلهة ، ويعد العلم مصير وقتت حية فى صورة من « الرياضة والميكانيك » . وستكون مهمة القرن العشرين التى تنتظر أن تتخلص من هذه المصطلحات على السنة الصحيحة ؛ المجلد الثانى ، ص ١٨٠ ، ٣٠ ، ٥٦ ، ١٤٤ ، ٣١

فقط ، كما كان هيوم يصفه ، ولكن عندئذ تكون هذه الحزمة هذه المقاومة الصاخبة لعضلاتنا وحواسنا — هي بالضبط ما تعنيه بالمادة . وقد نلقي بأنفسنا في هذا العلم المدرسي الحديد ، ولكننا في الحياة الواقعية سنتصر أن نحد كل طاقة مرتبطة بالمادة ، شيء متحير ، ذي ثقل ، « شيء يختلف عن أنفسنا هو الذي يبعث الإحساسات » .

ونحن لا نعرف إلى الآن ما المادة ، ولنقل ذلك حتى لا نقع في الخطأ . ولكننا على يقين من أمر واحد ، وهو أن هذه المادة العصية ليست هي المادة الجامدة التي كان العلم في القرن التاسع عشر يقول بها . إنها صورة الطاقات غير المحسوسة وسبلها . إنها حية بما فيها من التحام وجذب ودفع ، وعمليات الكترولية (أي قابلة للتحليل الكهربي) واسموزية osmotic (أي قابلة للانتشار) ، وحرارة وكهرباء وضوء . والإلكترونات ترقص ولا تستقر . فالحركة ، والطاقة ، والحيوية في كل مكان . ولسنا نجرؤ على تسمية أي شيء عديم الحياة . « إن جسماً صلباً في مظهره مثل كتلة من الحديد يمثل بساطة حالة من التوازن بين طاقته الداخلية نفسها وبين الطاقات الخارجية — الحرارة ، الضغط ، الخ ... — أي محيطه . . . وعندما نضع يدنا على مقربة من كتلة من المعدن تتعدل حركة جزيئاتها » (١)

ومن المفيد أن نضيف إلى ذلك التشبيه القديم الذي ذكره لوكريتيوس :

« عندما تهرب فرق الجيش القوية في استعراض تحاكي فيه الحرب فتملأ السهل ، ويرتفع بريقها إلى عنان السماء ، وتومض الأرض بالنحاس ، وتتصاعد ضجة وقع أقدام الجند ، وتتضارب الصيحات في الجبال فتنعكس أصواتها إلى النجوم في السماء . . ومع ذلك فلا ترى هناك بقعة في أعلى الجبل يبدو منها جميع هؤلاء الرجال متحركين واقفين بلا حراك . ويلمعون فقط كبقعة ساطعة في سهول » (٢) .

وكلما ازدادت دراستنا للمادة نقصت رؤيتنا لها كشيء أساسي ، وازداد

(١) ليبون : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩

(٢) في طبيعة الأشياء ، ترجمة ميرو ، الكتاب الثاني سطر ٣٢٣ وما بعده

إدراكنا لها كمظهر خارجي للطاقة فقط ، كما أن لحمنا هو العلامة الخارجية للحياة والعقل . ويقول دجنوب : « فيما يختص « بالفعل » فقد اصطنع علم طبيعة هذا الأمر ، وألح في اعتبار الفعل أساس كل شيء »[1] وبيّن عالم طبيعي هندي هو السير وجاديس شندرا بوس وجود « تعب » في المعادن – أي عجزها عن الاستمرار في رد الفعل بالنسبة لبعض المؤثرات فترة من الزمن – واختفاء هذا التعب بعد الراحة . ووضح كذلك حساسية المعادن لمثيرات . والمسكنات ، والسموم . وقد تكررت هذه التجارب وثبت صحتها في قارات ثلاث[2] وأصبح اصطلاح « حياة المادة » الذي كان يخلو من المعنى منذ خمسة وعشرين عاماً من الاصطلاحات الشائعة الاستعمال » وإنا نرى الآن علماء طبيعة والكيمياء يجرون وراء الأفكار البيولوجية وقد يكون امتداد التصورات البيولوجية إلى الطبيعة بأسرها أقرب مما كان يبدو متصوراً بضع سنين مضت »[3] . فنحن نسمع عن « تطور المادة » ويظهر أن الذرة تولد ، وتنمو ، وتفقد حيويتها ، وتموت .

ويدعون هذا العلم الحديث الطبيعي للطاقة إلى صياغة المشكلة القديمة الخاصة بالمادية في مقابل الروحية صياغة جديدة . أي مظهر للعالم الخارجي أكثر أساسية – المظهر المتحيز الممتد الذي كان علم الطبيعة يصفه « بالمادة » أو المظهر الفعال المحرك الذي نسميه الطاقة ؟ لا بد أن تكون الطاقة هي الجوهر والطاقة هي « ما لا يمكن معرفته » Unknowable ، و « الشيء في ذاته » و « المطلق »[4] وهل تكون الطاقة ذاتها شيئاً متحيزاً ممتداً . أي جوهراً مادياً ؟ لا يمكن أن نتصورها كذلك ، كما لا يمكن أن نتصور الفكر متحيزاً ومادياً . ويوجد في قلب المادة شيء غير مادي يهبها الصورة والقوة ، وهو شيء له تلقائيته الخاصة وحياته . وهذه الحيوية الطبيعية المستترة ، والتي تتكشف مع دقة على الدوام ، هي الجوهر الأخير لكل شيء نعرفه .

(١) ص ٢٤٠

(٢) بوس ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١

(٣) هنسين : الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠١

(٤) يشير المؤلف إلى سبنسر في « ما لا يمكن معرفته » وإلى كانط في « الشيء في ذاته » وإلى هيجل في « المطلق » (مترجم)

ولكن هذين المفهومين « قبل » و « في » استعارتان تميلان بنا إلى طريق أعمى . فلا ينبغي أن نسمح لأنفسنا بالتفكير في الطاقة كشيء مستقل عن المادة ، وتسكن فيها كالزئبق الذي كان يتأرجح في تماثيل ديدالس [1] حتى يمنحها الثبات والحياة الظاهرة . وليس هذا عنصر الحيوي . هذه الطاقة المعدلة ، كما يظن معظم أصحاب المذهب الحيوي أمراً منفصلا يمكن أن يعزل عن المادة ، بل هو مرتبط بها ولا ينفك عنها . كما يتصل العقل بالجسم . ويكوّن مع المادة المظهرين الداخلي والخارجي لكلٍّ واحد لا يقبل الانقسام والمادي بمعنى واسع على حق . فهو حين يُعَظِّم المادة إنما يعني التعبير عن إيمانه بعدم وجود انقطاع في اتصال النمو وتقدمه . وأن الفلاسفة نشأوا من قردة . وأن القردة قد تطورت عن البروتوزوا Protozoa (الحيوانات الأولية) . ونشأت هذه فرضاً من المواد غير العضوية . وهذه من أبسط البدايات ولكننا لا نستطيع أن نعتقد هذا الأمر إلا إذا اعتقدنا كذلك في وجود مبدأ للحياة . وقوة تقسر على التطور داخل جسم المادة الجامدة في الظاهر (لا يرد التشبيه المتحجر بتسرب) . فنحن لا نسد الثغرة بين المادة والعقل بأن نهبط بالعقل ، بل بأن نرتفع بالمادة . والعالم كما يظن المادي عالم واحد ، وكل جزئية فيه مكونة تكويناً مادياً ولكن في داخل كل جزئية من ذلك العالم المادي تعمل طاقة من تلقاء ذاتها تماثل الحياة والعقل ويعتمدان عليها . وقد نقول عن أحقر قطعة من الطين ما قاله هرقليطس عندما استقبل زواراً من علية القوم في مطبخه البسيط الشاذ : « أقبلوا . وادخلوا ، فهنا أيضاً توجد آلهة »

٥ — الحيــــاة

لقد حاولنا التوفيق بين الروحية والمادية بالربط بين الوضع الأساسي لإحداهما — أن جميع الأشياء أقرب إلى العقل منه إلى المادة — وبين وضعين أساسيين للأخرى — أن الحياة والعقل مرتبطان بالمادة ارتباطاً لا فكاك منه ،

(١) ديدالس Daedalus أحد مهندسي كريت قديماً ، وصفه هوميروس في أشعاره ، وكان يصنع تماثيل داخلها الزئبق ليحركها . فهو مثل فلاسفة النفس الإنسانية تصوروا أنها شيء يوجد في الجسم ويحركه مثل تماثيل دادالس . وانتقد أرسطو هذه النظرية في كتاب النفس (المترجم)

وأن جميع الكائنات الراقية (أي الأكثر تعقيداً) قد نشأت من كائنات أدنى أقل تعقيداً. وقد دافعنا عن وضع الأمور بكلام علماء الطبيعة أنفسهم. ولكن لا يزال علينا أن نواجه الصعوبات التي تثيرها القضية الأخرى ونشأة المشكلة الأخيرة. ولنبحث في الانتقال بين الصور العليا وما تحت من حقيقة.

إن كان هذا الانتقال يتضمن نظرية التولد الذاتي Abiogenesis أي نشأة الحياة من الأشياء غير الحية أو المادة غير الحية نفسها، فليس ثمة أي حالة معروفة لمثل هذه النشأة. ويبدو أن تجارب باستير التي أجراها في فترة تبلغ سبع سنين (١٨٦٢ — ١٨٦٩) لا تؤيد الفكرة القائلة بأن البروتوبلازم يمكن أن تنشأ من المادة غير العضوية. ويردد رأي العلم الحديث في صور مختلفة شعار سير وليم هارفي «كل بيضة تنشأ عن بيضة، وكل خلية عن خلية، وكل حياة من شيء حي». ويقول ج. س. هالدين «ليس ثمة أي احتمال بعيد لاستخلاص العضوي من غير العضوي»(١) ويقول جوستاف بونييه متعجباً «إن خلق المادة الحية؟ كيف يمكن أن نأمل في ذلك مع الأحوال الحاضرة للعلم، حين نفكر كم من الخصائص المجتمعة، وموروثة، ومستقبل المعقد بوجه في قطعة من البروتوبلازم الحية؟»(٢)

ولكن على الرغم من صورة هذه المشكلة، فلا أرتاب في أن هؤلاء المشككين يوازنون بغير شعور تقريباً بين المادة «الميتة» وبين الكائنات المعقدة وتقل الصعوبة حين نقصرها على الفجوة بين أبسط الكائنات وأعقد الغرويات(٣) Colloid وتنتج الكيمياء التركيبية اليوم ١٣٠،٠٠٠ مركب كربوني عضوي. والميكانيستي فقط الذي لم يتعلم بعد إمكانات المادة «المستحيل» هو الذي يقف على يقين من أن الكيمياء لن تحدث الحياة أبداً. وما تفعله الطبيعة ممكن. وقد يتعلمه الإنسان ذات يوم. ولكن عندما بدأت أشعة الشمس والمواد الكيميائية الموجودة في الأرض في عصارتها ونسجتها منهما فقط، ثم سحبت من المواد

(١) ميكانيكية الحياة والشخصية، ص ١٠٠.

(٢) نقلاً عن بيوت في كتابه «التطور الحيوي»، ص ٣٠٩

(٣) الغرويات: أو الغرائيات، مادة عضوية لا تذوب عادة ولا تتبلور (قاموس ...)

غير العضوية إلى المواد العضـــوية حقاً تتحول هنا وساطة الكائن الحي ، ولكن التحول مع ذلك حقيقي وهو المقابل الطبيعي وميزان تلك العملية التي يتغير بها العضوي إلى غير العضوي في فساده وموته ، وهي عملية غامضة كذلك، ولكن من الواضح أنها غير مستحيلة . ولعل العضوي وغير العضوي مظهران أو قطبان في عملية واحدة من التطور والاعلاء ومن يدري لعل المادة كما ذهب إلى ذلك شوبنهور إلا فساد للمادة الحية . وأن غير العضوي و « الميكانيكي » آثار وفضلات عن الحياة الماضية ؟

ومن المعروض أن الأرض كانت ذات يوم غير صالحة للكائنات الحية ، ومن المفروض أن الحياة لم تظهر على وجهها إلا حين تهيأت البيئة الملائمة . ولن يفيدنا أن نتبع أرينيوس[1] Arrhenius إلى النجوم البعيدة باعتبارها أصل الحياة . وتأجيل المشكلة هو اهرب من مواجهتها . ولنفرض أن كارثة قتلت سائر الحياة النباتية والحيوانية على ظهر الأرض ، ولنفرض أنه بعد فترة طويلة عاد إلى الظهور طقس يشبه في اعتداله ورطوبته ما يسود كوكبنا اليوم مع سائر الشروط الطبكيائية[2] Physico-chemical . أليس من المحتمل أن تعـــود الأرض فتنتج البكتريا . والبروتوزوا ، والنباتات ، وملايين الصور من الحياة ؟ فمتى سلمنا بالتطور لا نستطيع أن نحدده . فلا موضع في الخط من شكسبير إلى البارامسيوم Paramecium يمكن أن نقف عنده ونجر الانصاب لتدخل معجز . وكما احتج هكسلي بأن الثغرة بين الإنسان والشمبانزي ليست من السعة بمقدار الثغرة التي بين أدنى المتوحشين وأرقى الأفراد . فكذلك يمكن أن نقول إن الثغرة بين البروتينات التركيبية وبين الأميبا أضيق من الخط غير المنقطع الذي يفصل بين الأميبا والقديس ويربط بينهما .

إن التصور الجديد عن المادة بأنها « حية » يلطف من حدة التباين بين العضوي وغير العضوي ، ويخفف من صعوبة تصور التطور المتصل . والحياة

(١) أرينيوس كيميائي سويدي كان عميد جامعة ستوكهلم ، ومنح جائزة نوبل عام ١٩٠٣ في بحث عن نظرية الاعلاء الالكتروني ، وأصبح مديراً لجائزة نوبل منذ عام ١٩٠٥ ، ولد ١٨٥٩ وتوفي ١٩٢٧ (المترجم) .

(٢) مركب مزجي من لفظي الطبيعة والكيمياء (المترجم)

نتيجة لا لذلك المظهر الخارجي من الحقيقة التي تعطي لنا الثقل والصلابة والامتداد ، بل لذلك المظهر الداخلي الذي يقدم لنا طاقة الذرة ، وكهرباء «الأثير» التي لا تستقر ، والحيوية الحية التي نتحسس بها . لقد جعلت تصورات القرن التاسع عشر في الطبيعة والكيمياء الثغرة بين الحي وغير الحي مما لا يمكن عبورها . حتى إن سبنسر مع أنه كان يتوقع أن يجعل التطور كاملا إلا أنه اضطر إلى الهرب من المشكلة فكتب يقول : «نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الحياة في جوهرها لا يمكن أن نتصورها في اصطلاحات طبيعكيميائية»[1] وعندما تأخذ الطبيعة والكيمياء في التسليم بالتصور الخاص بالحياة على أنه موفق لنهاية التصور الخاص بالمادة ، حتى تقسيم الحقيقة وتشطيرها إلى قسمين لا يمكن التوفيق بينهما ، وتتحد المادة التي يكون لها الحيوية ، مع الحياة التي تكون صورتها المادة ، حتى يهبان العالم تلك الوحدة الكاملة والائتلاف التام اللذين بغيرهما لن يهدأ للعلم أو الفلسفة بال .

٦ — المادي يتكلم

ولكن إذا كان ثمة بعض الصعوبة في قبول فكرة تطور الحياة عن المادة غير العضوية ، فكم يبدو الأمر أكثر صعوبة في قبول فكرة التطور الطبيعي لما نسميه تسمية غامضة «العقل» . ولقد قال تندال : «إن نمو المادة (أسلوب قديم في التعبير) إلى شخص مفكر أمر مستحيل» . وسوف نجد هنا ، كما وجدنا من قبل ، أن تصور المادة جامدة يفضي إلى مأزق من الصعوبات لا يمكن التغلب عليه إلا بمصاحبة نظرية اتصال التطور . وتقدم لنا الروحية والمادية مرة أخرى أدلتهما التي لا يمكن دحضها ، ثم يتركاننا موزعين بين نصفين من الحقيقة لا يفعلان إلا أن يكونا جزأين من كل . فلنسمع هذين النصفين من الحقيقة بعض الوقت

يبدأ المادي بأن «يصنع الاتصال» . وتشير تجارب بوز Bose إلى حساسية خاصة في المادة ، فهو وضع قضيباً رفيعاً من البلاتين في مقياس

(1) مبادئ علم الحياة ، المجلد الأول ، ص ١٢٠

الشعاع (البلومتر bolometer) (١) لاستجابة لارتفاع في درجة الحرارة يبلغ واحداً من مائة مليون درجة (٢) . لا ريب أن هذه الحساسية مختتمة في نوعها محدودة في الكائنات الحية . وهي لا تؤدي إلى رد فعل متلائم يرتفع بقوة الكائن فوق بيئته . ولكنها توحي لنا بالطريقـــة التي سدت بها الطبيعة الثغرة بين المادة والعقل

وتظهر المرحلة الثانية في تطور العقل في حساسية رد فعل النباتات للوضع ، واللمس ، والحرارة ، والرطوبة ، والضوء . ويعتقد يركس **Yerkes أن أهم** خصيصة للعقل وقواها القدرة على التعلم ، والقدرة على الاستجابة استجابات مختلفة نتيجة تجربة — علامة تميز حتى أدنى البروتوبلازم . وقد روع « بوز » مرة أخرى (٣) الجمعية البريطانية لتقدم العلوم حين أوضح أمامها التشابه المفصل بين الجهاز العصبي في النبات والإنسان ، وقابلية عصارة النباتات للتأثر بالمؤثرات والمسكنات والسموم . واكتشف إدورد تاعل خيوطاً دقيقة من البروتوبلازم تمر في النبات من خلية إلى أخرى . ويعدها معظم النباتيين شبيهة بالألياف العصبية في الحيوانات (٤) . وهناك بعض النباتات شديدة الحساسية للضوء حتى لقد تحولت « ساعات نباتية » floral clocks وثمة خمسمائة نوع من النباتات آكلات الحشرات . ولبعضها كما بين دارون حليمات حساسة قادرة على كشف ما مقداره ١/٧٨٠٠٠ من الجرام (٥) . ونحن نجد أول بدايات محدودة للعقل في هذا التكيف النباتي لرد فعل نحو عقبات تقيد الكائن الحي .

وترتبط الحساسية مع قابلية التحرك . فليس على النباتات مع قوتها على تحويل المواد غير العضوية إلى غذاء أن تتحرك . فيما عدا الذهاب بجذورها في الأرض ، أو بسوقها في السماء . ولكن النباتات تدفع ثمن هذه الحياة البسيطة بتضحية كثير من قواها الخاصة بالاستجابات الموجهة . وأصبحت الحيوانات التي

---

(١) آلة دقيقة لقياس الشعاع الحرارية

(٢) ماكيب ، تطور العقل ، ص ٣٣

(٣) جلسة ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨

(٤) هوت ، فكرة الشعور ، ص ١٢٢ .

(٥) ماكيب ، المرجع السابق ، ص ٢١

كانت تتحرك الحيوانات . وتقدم فيها عضو الحركة ونشط الجهاز العصبى ، ذلك العضو الذى يلبس ويبوئه . ومع ذلك فإن أدنى الحيوانات لا يوجد فيها جهاز عصبى . إذ تعمها الحساسية — أو الاهتياج irritability كما يسميها بعض علماء الحياة المختصين فى الأعصاب وتظهر دون تمييز فى سائر أنسجة الكائن . ولكن حتى فى تلك العوالم الدقيقة يبدأ بعض التخصص . ففى عظم volvox وغيرها من البروتوزوا المتجمعة تظهر الخلايا الخارجية الحساسية بخلاف حيث تظل الخلايا الداخلية أقل حساسية غير حادة بسبب المؤثرات الخارجية . ويزيد التخصص فى الحساسية عندما ترتفع مرحلة أخرى فى السلم . ففى الحيوان البحرى المسمى « قرح البحر » Jelly fish ترتبط بعض الخلايا العصبية الخارجة من سطح الكائن الخلفة من « شبكة عصبية » مكونة من خلايا موجودة تدور حول حافة « ناقوس العوم » umbrella . وهنا نجد أن متخصصين قد قسمت الخلايا العصبية إلى نوعين . « أعضاء طرفية » end-organs حساسة ، وأنسجة عصبية موصلة . وهذا أول ظهور لجهاز عصبى . وهو آلة الحركة العضلية

أما الدودة المسطحة flatworm فحليتان عصبيتان من جانبيها ذات حجم غير عادى ، وتوفيرتان تمثل « المركز العصبى العقدى central ganglia أو الموجه للخلايا الأخرى من الجهاز . وقد يحقق تحديد هذه الحالة العقدية بالقرب من الفم والرأس وربما يرتبط لحماية الفم ، كما قد يجب حول المعدة لحماية عمليته الهضم ومساعدتها . وفى دودة الأرض يعقد الخط العصبى بسبب من مراكز عقدية فى كل حلقة أو قطعة من الجسم ، ومن هذه المرحلة إلى الإنسان « يتقطع » الجهاز العصبى : أى ينقسم إلى مراكز عقدية موازية فى الخيوط العصبية داخل العمود الفقرى . وهذه المراكز العقدية على الرغم من اتصالها فى دودة الأرض فإن كل مركز منها يكاد يكون مستقلاً عن الآخر بحيث يمكن أن يتوى أى جزء يقطع على هواه . ولكن مع تعقد تركيب الأنواع العليا وتعدد وظائفها . نمت الضرورة للاتصال والتنسيق . ومع أن مراكز النخاع الشوكى استمرت فى أداء عملها كمراكز للأفعال المنعكسة الموضعية . فقد ازداد عدد الألياف التى تمر من هذه المراكز إلى مراكز المخ فى الدماغ ، وظهر « جهاز عصبى مركزى »

قادر على شعور وعلى حكم الجسم ككل. وليس التكامل تاماً حتى فى الإنسان، إذ تظل وظائف كثيرة خارج رقابة المخ. وتخضع فقط « للجهاز العصبى السمبثوى » وهو شبيه من مرحلة الشبكة العصبية. أما ما نسميه « العقل » فإنه يعمل فى أظهر الأمر بطريق الجهاز « المركزى » أو « النخاع الشوكى » قبل كل شىء. ووظيفة العقل الأولى والأولية هى تكامل السلوك، وإخضاع الاستجابات الحركية النهائية لمركزية ورقابتها. ومن الواضح أن التفكر بطريق الجهاز العصبى أصبح حقيقة.

ولو كان لنا أن نستمد من علم الأجنة. فقد نشأ العقل من توسيع العصب الشمى. فقد كان عصباً متواضعاً متصلاً بالأنف، وظل العقل يعمل عصوراً عن طريق حاسة الشم. ثم ارتبطت أعصاب أخرى بالمراكز الحية: أعصاب من العينين، والوجه، والأذنين، والحلق، واللسان، والرقبة، والأمعاء. وسلمت الأعصاب الشوكية شيئاً فشيئاً إلى الجهاز الحى. وأخذ الرأس يتحكم أكثر فأكثر. ونمت وظائف التنسيق والتكييف والرقابة بين الفعل ورد الفعل مع نمو المخ. ويزن المخ فى الأسماك $\frac{١}{٥٦٦٨}$ من وزن الجسم، وفى الزواحف $\frac{١}{١٣٢١}$، وفى الطيور $\frac{١}{٢١٢}$، وفى الثدييات $\frac{١}{١٨٦}$، وفى شمبانزى عمره سنتان $\frac{١}{٥٠}$، وفى طفل عمره سنتان $\frac{١}{٢٨}$. فهذا هو السلم الذى ارتقيناه.

هناك إذن أمر واحد واضح: أن العقل هو تطور طبيعى من الاهتياج غير المتخصص لأبسط بروتوبلازم فى أدنى درجة من الحياة. إنه يمثل فقط تخصصاً واحداً أكثر فى المادية الحية. وعضواً واحداً أكثر للتحكم فى البيئة. هذا إلى أن نعتقد أن العقل ينمو خطوة بعد أخرى فى الجنين والفقريات، وفى الفرد والجنس، مع نمو تعقيد التركيب فى الجهاز العصبى. ويصحب النمو من الحساسية العامة إلى المراكز العقدية إلى المخ بالتقدم من الاتجاه tropism إلى الفعل المنعكس، إلى الاستجابة عن تعلم. ولا يقضى النزوع مع الحيوان عليه، كما يقضى جوتو على كلبه، ولكن ذلك النزوع يقضى على الإنسان دائماً لأنه لا يستطيع أن يعيش إذا نسى كل ما تعلمه منذ الولادة. ويبدو أن هذه التجارب الفردية تختزن فى ألياف الربط الموجودة فى اللحاء، والتى تبين نمواً كبيراً من الطفل إلى البالغ، ومن الحيوان إلى الإنسان.

ولم يجب أحد قط عن هذا السؤال وهو: كيف يمكن أن يؤثر الجسم والعقل أحدهما في الآخر إذا كانا من تغاير تام كمادة لا عاقلة وعقل لا مادي؟ وفي ذلك يقول لوكريتيوس: «حين نرى الروح تحرك أطراف البدن، أو توقظ الجسم من النوم، أو تغير المزاج، أو تهدي المرء كله وتوجهه، وعندما نرى أن شيئاً من هذه الآثار لا يتم بغير لمس، ولا يتم اللمس بغير البدن، أفليس لنا أن نسلم بأن العقل والروح من طبيعة عينها كالبدن؟» (١) ثم نستمر ألفي عام لنجد الفيلسوف العابث مارك توين يقول:

«الشيخ (يتهكم): ألا يمكن للعقل ما دام روحياً أن يتأثر بالمؤثرات الطبيعية؟

الشاب: كلا.

الشيخ: أيظل العقل متزناً حين يسكر الجسم؟» (٢)

وقد ينشأ الجنون عن إصابة المخ. وقد ينشأ النوم عن التعب. وقد يغيب المرء عن الوعي بالعقاقير، أو المرض، أو نقص الأوكسجين، أو الدم. ويتوقف الوعي على الإحساسات، وكان صبي ستروميل strumpell وليس له من الحواس إلا البصر يستغرق في النوم دائماً حين يغمض عينيه. وعند الإحساس بالشعور ينشأ الوعي من الصراع بين الدوافع أو الأفعال المنعكسة، وإذا عدم الصراع يؤدي العمل أداء أفضل بدون الانتباه إليه. ولعل الوعي مرحلة تطور مضرة. فالحيوان إذا كان كامل التكيف لحياته بطريق دوافعه وحواسه لا يكون واعياً. وذهب نيتشه إلى أن الوعي قد يضعف ويختفي عندما تتطور عادات الإنسان التي تستلزمها بيئته إلى أوتوماتيكية ثانوية.

أما النفس فليست إلا المجموع الكلي لصفات الكائن الوراثية وتجاربه المكتسبة. فإذا تغيرت التجارب تغيرت النفس، فالرجل ينظر إلى نفسه عندما كان صبياً كأنه يتأمل شخصاً خارجياً أجنبياً. وإذا أصيب أحدنا ببعض الاضطرابات ازدوجت شخصيته، وذلك إذا انفصل مركز من مراكز التجربة أو

(١) الكتاب الثالث – سطر ١٦١ وما بعده.

(٢) ما الإنسان؟: ص ٩٧.

عقدة من الألياف في المخ عن الباقي . ويستقل المركز أو العقدة بالعمل لحسابه . فلن نوضح أن النفس وحدة مزعزعة تتكون من الوراثة والذاكرة والعادة . وهي إلى شتات أشبه منها بالأسماء .

والتفكير هو تداعي ، والانتباه توتر ، والشعور تخبط ، والشهوة بحث ، والانتباه حركة ، والتفكير أول مراحل الاستجابة . ونحن نسمى التذكرة كذلك لأن روية أخرى لعلها قد اعترضت طريقها فلم تحققها الخارجي . والروية بديل عن نتيجة مدبات الأفعال والانفعالات وردود متنافسة على الفعل . والانفعالات كما بين كانن Cannon شروط تنتج تحدث عن إفرازات الغدد ، في عصب دون وجود الغدة الأدرينالية (الكظرية) . ويصبح المرء أبله بلا غدة درقية . وكل فعل ، وكل فكر ، محدود بالرغبة . والرغبة أحد شروط النمو ، وجوع مزمن في بعض الخلايا ، وحب امتلاء في بعضها الآخر . وتنشأ تصورات النهاية من مصطلح سيكولوجى . ويرجع ضعف التفكير في بعضه إلى حزن الخلايا . والعقل في جميع وظائفه جزء من الجسم ، ينمو مع نموه ، ويضعف بضعفه . وليس العقل أكثر بعداً عن الطبيعة الجسدية من الهضم ، والتنفس ، والإفراز . فهو ليس إلا أثر وظيفة الجسم .

٧ — المثالي يرد

يقول المثالي : هذا محض ... ولا شيء أكثر سخرية من هذه المادية الساذجة . أيمكن أن نتصور أن المادة يجب بأي نحو من أنحاء التحويل أن تصبح قادرة على أن تلتفت حولها لتحس وتتعرف وتحكم نفسها ؟ فخط صور العقل غير مفهوم في تعبيرات المادية . إذ كيف تستطيع المادة مثلاً أن تحس الألم ؟ قد نتصور أن المادة تتذكر ، أما مادة تتبصر أو تتعرف فكيف يكون ذلك ؟ إذا كان العقل هو المخ فيجب أن نعثر على آثار بالمخ لكل محوة في الذاكرة . ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك (١) . وقد أخفق برجسون المجهد لدى بدل الربط العقل بالمخ ، فيه إلا إذا كان ذلك على سبيل التوجيه ، والأداة ، والسيادة ، والآلية أو نحن حركة عقلية في عصرنا الحاضر أعظم من إخفاق علم النفس الفسيولوجي ؟

(١) برجسون : المادة والذاكرة ، لندن ١٩١١ ، ص ٣١٦

غير أن هذه اعتبارات سطحية . فلنتعمق بحوثنا ، ولنتأمل التفكير . حقاً لقد أخبرنا وليم جيمس وهو يستبطن نفسه أنه لم يجد شعوراً آخر سوى « أنا أتنفس » ولكن الـ « أنا » هي الشيء المبهم هنا ، لا « أتنفس » . فنحن لا نرى شيئاً عند الاستبطان introspection لأننا نبحث عن شيء متحيز ومادي . إنما نجد مشقة في الإخبار عما « نرى » لأننا نسعى وراء صور محسوسة . بل إن « نرى » عبارة عن افتراض مادي . ولكن أحداً لم يشرع في سد الثغرة بين العلاقات المكانية التي تكون للعالم الخارجي ، وبين عمليات العقل اللامكانية فنحن نستطيع أن نفكر في مساحات كبيرة بمثل السهولة التي نفكر فيها في مساحات صغيرة . ولا يشغل تصورنا الميل من الحيز أو الخط أكثر مما تشغله البوصة . وقد نفكر في دهور عظيمة من الزمن ، أو نركز انتباهنا في لحظة من الذاكرة . ونستطيع بالإرادة أن نعمم الصور الذهنية ، أو نرد بعضها إلى بعض ، أو نربط بينها ، بصرف النظر عن كيفية ارتباطها في التجربة . وليست الصورة الذهنية هي التفكير ، فكثير من الملاحظين لا يجدون في بعض الأحيان أي صور في تفكيرهم . ومهما يكن مقدار الصور الموجودة عندنا فإنها ليست أساسية ، بل أدوات نستعملها - قبعة منثنية ، أو يد موضوعة على كتف شخص ... من الصور التي تفيد في شرح فكرة idea ماسيون في مثل من المصادر والمفهومات . وكلما كثر تفكيرنا في شيء قلت الصور التي نحتاج إلى استعمالها . ولا تكون الصورة مهمة إلا حين تكون إعادة للعمل من الأفعال . أي صورة متصلة في المخ للحركة سوى أن نفعلها . أما حيث لا يوجد أي فعل ، فالتفكير يجري في طريقه بأقل ما يمكن من الصور . ومن الواضح أنه يصبح عملية تتخطى كل قالب مادي أو استعارة مادية

والشعور بوجه عام بندقة يصعب على المادي كسرها . وهو يحل المشكلة بالاعتماد على الشجاعة أكثر من اعتماده على الصراحة ، فيزعم أن الشعور لا وجود له . فهو على قدم المساواة عقلياً وخلقياً مع المثالي المتطرف الذي ينكر إنكاراً تاماً حقيقة العالم الخارجي . فالفلاسفة هم دائماً آخر من يكتشف الحقيقة . فقد ظلوا ثلثمائة عام يبحثون حتى اكتشفوا أن العالم الخارجي موجود . وعندما نجح

الواقعيون المحدثون New Realists فى أبواقهم ، ودقوا طبولهم ، فأعلنوا أن الشيء يكاد الآن يكون يقيناً ، امتلأت سماء الفلسفة بالدهشة والشك . فأخيراً لعل ثمة عالماً خارجياً ؟ فلعل بعد ثلثمائة عام يكتشف السلوكيون والماديون العالم الذهنى كما يكتشفون حقيقة الشعور وفعله . وعندئذ ينتهى عنهم آخر الأمر إلى مقدار ما يعلم رجل الشارع .

وقد سلم هكسلى فى أمانة غريبة أن المادية لا يمكن أن تفسر الشعور ، وأنها بمقتضى منطقها ومقدماتها مضطرة إلى القول بأن الشعور « ظاهرة ثانوية » epiphenomenon ، أى زيادة لا نفع فيها تضاف إلى المخ والأعصاب ، كالحرارة فى المصباح ، أو الضوء فى النار . حقاً هناك أبنية structures لا نفع لها تعيش بعد التطور ، ولكن لعل ذلك لأنها لم تكن مضرة ، أو أنها بقية لأشياء كانت نافعة فى وقتها . ومع ذلك فالمادى ممنوع من الاعتقاد بأن الشعور كان نافعاً أبداً ، أو حتى أنه لم يكن مضراً . أو إذا كان المادى فى أكبر الظن من المفكرين على استحياء ، فقد يسلم بأن الشعور بالذات يمكن أن يكون تدليلا أو ضرراً . وبعد فمن منا يستطيع أن يحس المشى وهو يفكر فى رجليه ؟ وكيف يفسر المادى الدليل الواضح بأن الشعور قد نما جنباً إلى جنب مع قوة الحياة ومرونتها ، وأن تلك الحيوانات الموهوبة أعظم درجة من الشعور تتحكم فى الخلق ؟

٨ - التركيب

لقد حان الوقت الذى نجمع فيه بين هذه الخيوط ، وننسج أنصاف هذه الحقائق نسيجاً واحداً . وقد اقترح ليبنتز أن ينقذ السفينة الغارقة بنظرية « التناسق الأزلى preestablished harmony » - فالعقل والجسم يتوازيان . ولكنهما مستقلان ، فيجرى أحدهما إلى جانب صاحبه رأساً برأس ولكن دون أن يتماسا أبداً أو أن يؤثر أحدهما فى الآخر . أما وفاقهما الظاهر فى كل لحظة فليس إلا دليلا من جملة الأدلة على العناية الإلهية . والمزية الوحيدة لهذه النظرية أنها ليست فى حماقة غيرها من النظريات . وليس مجال الاختيار بينها وبين أحدث الآراء

الفلسفية وهى « المادة المحايدة » كبيراً . فعلم الطبيعة فى نظر « الواحديين المحايدين » الذين يعد برتراند رسل أفهمهم وأقدعاً . قد رد المادة إلى نظام من العلاقات والأحداث ، والإدراك هو العبور ابرئى هذه العوالم المتقاربة . فهنا أيضاً لا بد أن يكون توفيقاً إذن لمتناقضات القديمة . ومن هذا البحر من « المادة المحايدة » — هذا النسيج لعشى من العلاقات والأحداث — ينشأ كلا المادة والعقل . لقد انكمشت الأنفس والأجساد إلى مثل هذا الغشاء الرقيق .

أما نحن فسنستمر فى الاعتقاد بأن « الأحداث » التى تكوّن معرفتنا بالعالم الخارجى تكشف عن حقيقة محسوسة ومؤثرة جديرة كل الجدارة بأن تسمى مادة ، ومستقلة مع الأسف عن رغباتنا ومشاعرنا . ولما كانت المادة غير خامدة بل حية ، فإن مشكلة المادة والعقل تنتهى إلى مغالطة تقوم على فساد المقدمات . ولا ريب فى أنه من الصعب أن نتصور المادة الخامدة التى يقول بها الماديون إلى العقل . ولكن الشخص الذى يتتبع مغامرات علم الطبيعة الحديث لن يكون على يقين من أن المادة الديناميكية التى يقول بها العلم هذه الأيام ليست حيوية وغامضة مثل حيوية العقل نفسه وغموضه . وليس من العجيب أن يكون العقل قد تطور عن مثل هذه المادة . ولكن ليس موضع السؤال أن يكون أحدهما قد تطور عن صاحبه . بل المشكلة حين توضع من جديد هى ما يأتى : أيمكن أن تسمو أدنى صور العقلمادة mind-matter [1] إلى أرق الصور ؟

ذلك أن العقل ليس المادة ولا المادة هى العقل ، بل ثمّ عقلمادة . وليس العقل شيئاً متميزاً يقوم فى داخل المادة ، كما أن الحياة ليست شيئاً يسكن فى البدن كالرجل فى البيت . « العقل » اسم مجرد ، وهو اسم جمعى نطلقه على عمليات المادة الحية حين تفكر ، كما أن البصر اسم نطلقه على عمليات المادة حين تبصر ، أو كما نطلق اسم الحب على عمليات المادة حين تحس بالجوع إلى الامتلاك أو الصلة الجسية . فهناك « تداخل بين العقل والجسم » لا على معنى وجود شيئين متميزين يؤثر أحدهما فى الآخر ، بل فقط على معنى أن شيئاً واحداً هو عضو من أعضاء الجسم ووظيفة له (الأعصاب — الفكر)

(١) العقلمادة مركب مزجى من اصطلاحى العقل والمادة معاً (مترجم)

يؤثر في أعضاء الجسم ووظائفه ويتأثر بها (الرئتان – التنفس ، المعدة – الهضم ، الأطراف – الحركة ، الغدد التناسلية – التناسل ، الغدد – الإفراز) . فجزء من المادة الحية الأرقى تصوراً يتكامل بوساطة فعل الجهاز العصبي الموحد «مع بقية الكائن ويهديه السلوك . إن أرقى صور « العقل » قريبة في طبيعتها ومتصلة في نموها بأدنى صور الحياة والحيوية الأولية سيرة . بل إن الشعور ، مع أننا لانستطيع تفسيره (أن نرسم له رسماً بيانياً مادياً وميكانيكياً) يتبع تشكل مفهوم داخل خطه تطور . لأننا لا نستمده من مادة الماديين الجامدة الخامة . بل من تلك الطاقة الحرة وهي مادة الحياة .

وإذا كنا نتحدث عن الفكر كأحد وظائف الجسم ، فليكن مفهوماً أن هذا الجسم لا نتصوره على أنه « مادة » بل على أنه حياة . والحيوية حتى في أبسط الخلايا مركزية ، والهيئة المادية ليست إلا قشرة ، مع استعمال الاستعارة الخادعة مرة أخرى ، وليست الحياة وظيفة للهيئة ، بل الهيئة أو الصورة Form من نتاج الحياة . وثقل المادة وصلابتها نتيجتان للطاقة الدرية الباطنة وتعبيران عنها (١) ، وكل عضلة أو عصب في الجسم آلة مشكلة للرغبة . ومن الخطأ افتراض أن الحياة والعقل يبدآن من الإحساسات التي تنمي بعضها آلياً إلى فكر ، فالأمر على العكس من ذلك . إذ أن الرغبة أو الطاقة المتشكلة هي جوهر الكائنات العضوية بالذات . فالرغبة فيما عدا الاستدلال الخارجي هي التي تحدد الغرض والميول والحركة ، وتختار من أجل ذلك الإحساس والتجربة . وليست التجربة هي « المطلق » كما ظن برادلي ، لأنها آلة مخلوقة للرغبة . وإذا وجب أن يكون لنا « مطلق » فهو الطاقة التي ترتفع من حيوية الذرة غير الموحدة إلى النشاط الموحد الخاص بالعقل الناضج الذي يجعل أغراضه غرضاً واحداً ، ويبصر جميع الأشياء في ضوء الكل . إنها صفة المادة الحية التي خصصت الأعضاء والأعصاب والأمخاخ وشكلتها . فإذا كنا نستطيع التفكير اليوم فذلك لأن لنا أمخاخاً ، ولكن الحياة – وهي تحاول التفكير في قديم الزمان – كما خلقت المخ ، فلا يزال المخ ينمو حتى اليوم عن طريق محاولة الفكر الراغب وخططه . فالحياة هي أول كل شيء ،

(١) ليبون – تطور المادة ، ص ١٠ ، ٣٠٩ .

وفى كل شىء . والمادة القديمة قدم الحياة فى الزمن ، والتى لا تنفك عنها فى المكان . تأتى فى المحل الثانى بعد الحياة فى الجوهر والمنطق والمفهوم . فالمادة هى صورة الحياة وما به يمكن رؤيتها .

فهذا هو المذهب الحيوى vitalism ، ولكنه مذهب واحدى monistic يسلم بالحياة على أنها الحقيقة الأساسية . والمادة (أى الامتداد) هى رداؤها الخارجى . ولكن المذهب لا يسلم مع برجسون بأن المادة والحياة قد ينفصلان ، فالاثنان فى كل مكان شىء واحد . ولن نسمح لأحد أن يتهمنا بالغموض فى هذا الموضع ، فلم تعد وحدة المادة والعقل الموجودة فى كل مكان شيئاً أغمض أو أعسر فهماً من الاتحاد بين الفكر المقصود والجسد غير المستقر فى الإنسان الحى . وكيف يكون ثمة غموض فى التسليم بأن الحياة أساسية ، حين تكون معرفتنا لها أكثر مباشرة وأوثق صلة من أى شىء آخر ، وتكون معرفتنا لسائر الأشياء الأخرى بوساطة هذه الحياة ؟

ولقد كانت الميكانيكية المادية هجوماً على الدين ، والثنائية الدينية حجة على الإلحاد ؛ فإذا لم ترهب أفكارنا أو عصرنا فقد نرفض المذهبين معاً ومع ذلك ففى هذه الواحدية الفسيطيعية psycho-physical monism م ترفض مذاهب المادية ، والمثالية ، والروحية ، إذ تتفق وتتداخل . فالمادية من جهة أنها ترى جميع الحقائق مرتبطة فى حقيقة واحدة من التطور والوحدة متصلين غير المنفصل ، والمثالية من حيث إنها ترجع جميع حقائق المعرفة للتجربة ؛ والروحية من جهة أنها ترى جوهر الحقيقة لا فى الامتداد والصلابة والثقل بل فى القوة الدافعة إلى الفعل . وهى فى وقت واحد حياة الذرة وسر العبقرية والصفقة الموحدة لها – » وهى حركة وروح تدفعان جميع الأشياء المفكرة ، وموضوعات جميع الأفكار ، وتنفذان إلى باطن كل شىء » . وقد أثبت العلم صحة هذا الخيال الشعرى .

لقد حاولنا نظرة تركيبية تسعى إلى حد ما أن تلم بأطراف المنظر الكلى للعالم وما فيه من تعقيد شديد ولا ريب فى أننا قد أخفقنا فى هذه المحاولة ، فهم

إلا أن نكون قد جعلنا ما ندركه ونشعر به أكثر غموضاً . ومرة أخرى كيف للقطرة أن تفهم البحر ؟

لا العقل يقنع ولا العظات تفيد
رطوبة الليل تسرى إلى أعماق نفسى
وأقلب اليوم نظرى فى الفلسفات والأديان
إنها قد ترضينى كل الرضا فى قاعة الدرس
ولكنها لا تصلح أبداً فى رحاب السحاب
وفى بساط الأرض والمياه المتدفقة

وليس ذلك إلا لأن المياه المتدفقة والأرض الواسعة ، بل السحب الشاسعة ، تتزاحم فى خضم الحياة .

الفصل الرابع

هل الإنسان آلة ؟

١ – استعراض

ننتقل الآن من العالم الخارجي إلى الداخلي . لا لنبحث في طبيعة العقل ، بل في كيفية عمله . وليس لنا أن نفصل بين العالمين ، فقد رأينا أنهما منفصلان في الفكر فقط ، أما في الواقع فهما وحدة في المكان والزمان معاً : فكل ذرة لها نواة حية ، ولكل عقل صورة مادية . ويرتبط أرقى عقل في تطوره المتصل بأدنى ذرة . ويجب أن تكون قوانين أحدهما هي قوانين الآخر . فإذا كانت الذرة آلية mechanical ، فالإنسان آلة .

ومذهب الحتمية أقدم الفلسفات ، كما أن مذهب الأنيمزم Animism أقدم الأديان . فالإيمان الساذج يرى في كل شيء إرادة غريبة . وكان أول رد فعل من أصحاب النظر العقلي على هذا الاعتقاد الظاهر هو التسليم بعجز الفرد أمام القانون في كل مكان . فقد بلغ الدين والفلسفة هدفاً واحداً من هاتين البدايتين المختلفتين ، إذ يمكن أن تجرد الإرادة الكلية من أهوائها وتصبح شيئاً واحداً مع نظام العالم الثابت . في الشرق القديم ، حيث كثر التناسل حتى فاق ما يتناسب مع ما تجود به الأرض ، وتكسرت نفسه لتحمل الشاق وضعفت بزحمة السكان المتزايدة ، فقد أخذ الاعتقاد الذاتي في إرادة يتجه نحو الزوال من الدين كما أخذ في الزوال من الفلسفة . وأصبح الناس يتصورون السعادة على أنها خمود الرغبة ، ونعمة الشخصية المستسلمة . واصطنع الكاهن والحكيم مذهب القضاء والقدر . ولم يكن من الممكن أن يحصل الفرد على قيمة أساسية أو أهمية في تلك المراحل من الإنسانية التي كانت تعج بالجماهير ، وكان الفرد يرى نفسه

وهو معتمد على هذا الماضى المفجع اللانهائى ذرة تافهة قد ألقيت فى هذا الخضم ، غير مسئولة عن شىء ، تكافح عبثاً بعض الوقت ، ثم تبتلع فى الظلام ولا حيلة لها فى دفع هذا الغائل كأنه أمام عدو مجنون . وقد تبين الخيام تلك الحال فنظمها فى أبيات حفظها عن ظهر قلب كل شاب ثائر .

أما فى الحضارات العقلية والمتقدمة — حيث تسيطر شعلة الفكر الغامضة ، التى تخترق وتبرق فى وجه القدر ، تعصف بسيطرة العابرة على البيئة ، وتترك المعابد الطاهرة للألوهية وبعض الفلسفية المتفائلة — فإن الفرد يجد أمامه سبيلاً أفضل للإيمان بشخصيته الخالدة . فهو يحس فى نفسه بشرارة من التلقائية ، ويصوغ على مثاله حتى آلهة أو رباً . ثم رأى الإغريق الكون ينمو ويتطور . فقالوا بوجود الآلهة فى كل مكان ، وظهور الائتلاف بين الأضداد ، وظن أفلاطون وأرسطو أن العالم كله يتحرك نحو غاية كامنة وكأنه منجذب عما تراه عين العاشق . ومع ذلك لم تكن تلك الحضارة الخصبة إلا فترة سعادة نشأت عن ازدياد الثروة والنصر فى الحرب . ولم يعد يبدو أن الناس أشبه بالخالدين حين حطمت إسبرطة أثينا بعد عصر بركليس ، وحين هدم الإسكندر مدينة طيبة . وانتهت الفلسفة مع زينون الرواقى إلى النتيجة التى أعلنها سوفوكليس عدة أجيال من قبل من أن القضاء الأعمى **Moira** صاحب السلطان على الآلهة والبشر .

والحضارات الكلية كالنفوس الهرمة تنغمس فى أحضان مذهب الحتمية . فهى حين تعجز عن التغلب على قوى الموت تعظم كلاها وتسميه قضاء ، وترفع من شأن هزيمتها وتسميها قدراً . وبعث المسيحية فى سواد هذا اليأس كأنها زهرة نبيلة من الأمل فى عالم متفكك الأوصال . وفى قلب الدين الجديد يستقر دائماً التشاؤم الذى خرج منه ذلك الدين . (ولم يكن الدين الجديد مثقلا بطقوس الوثنية وبهجتها) . فالجانب الآخر من الإيمان بالآخرة يقابله الارتياب والخوف من الحياة . ويبدو هذا الشك القائم فى الإيمان مداه فى مذهب كلفين **Calvin** الحزين عن العناية الأزلية : فقد قدر الله كل شىء وكذلك مصير كل إنسان ، وكتبت على كل نفس سعادتها أو شقاوتها قبل مولدها . ولن يجرؤ المستقبل على الخروج عما سبق فى علم الله الأزلى . وانتهت المسيحية بعض الوقت إلى عقائد

أقسى وأمر من الخطوط الأرضية . تلك المسيحية التي حدت تسعى إلى راحة المحروم ، وعزاء المصدوم

وأخذ المفكرون في العصر الحديث يعصمون هذا اللاهوت القديم بعصمة العلم الجديدة . فذهب جاليليو ، وقد مكن له كشفه في النجوم من علم ذائع صائب ، إلى أن هذا النظام هدف كل علم ، ويجب أن ترد جميع ميادين معارفه إلى القوانين الرياضية والكمية . وتحررت شهرة نيوتن الهائلة ، وكان عمله الموفق في الميكانيكا . كل طالب . وحث علماء الفسيولوجيا ... يبحثون عن التفسيرات الميكانيكية والقوانين الرياضية لتعليل نمو الحياة وصعودها ... رتبة وعندئذ أصبحت الفلسفة مفتونة بالرياضة . فذهب ديكارت في حموس مشبوب بالحذر إلى أن العالم كله آلة ، أي هندسة في حركة . ووفق نيوتن بين نظام الكون الدقيق وبين التركيب الأوقليدي لفكره . وانتهج رواد عصر النور حين علموا أن الإنسان ليس مخلوقاً على صورة الإله ومثاله ، بل ينبغي أن يكون ذلك على نسق الآلات التي أحدثت في عصرهم تحل محل عمل الإنسان بيديه .

أما الثورة الصناعية فهي التي قوضت أركان فلسفة الحرية . لأنها أولا عودت العقل العمل بالآلة ، ثم بعثته على التفكير أكثر فأكثر في العالم على أنها ميكانيكية . وأما العامل المحتشد داخل جدران المصنع ، حيث يرى جميع الحياة الخافقة من حوله تسير على بكر وتدور على عجل ، فقد نسي الحياة الريفية القديمة التي بدت فيها الحياة منشأة بدور نمت بأعجوبة من الأرض ثم تنسحب في نشاط لكل فلاحة ، وتفيض خصوبة تلقائية . وأما العمل الذي ... يوم ميداناً نمو النبات . والأطفال دون إرادة . والأمهات ... ، ورجال الصالحين . فقد أصبح كل شيء في نظر العقل الحديث نوعاً شاسعاً من الميكانيكيات ابتداء من الكواكب التي تدور دوراناً ميكانيكياً حول الشمس ، إلى الحياة الميكروسكوبية التي تتجمع ميكانيكياً حول شعاع من الضوء . كان العلم على يقين من أنه قد دخل آخر الأمر خلف ستار الدراما الكونية . فتعجب من هذه الآلية عبر المتطرفة التي خلقت الأوهام ، وبدلت الآلهة من العصر . واستنتج العلم في عجب متواضع أن الإنسان المثل هو صاحب الرؤية . وأن الأسلاك هي الرؤية .

ولكن مرة أخرى الثورة الصناعية هي التي خلقت المدن ، وخلقت المدن الجماهير ، وحطمت الجماهير الناس. ومرة أخرى ظهرت في المدينة الجديدة تلك الشروط التي مزقت في الشرق شخصية الفرد وقيمته ، فأفضت إلى فلسفة مماثلة من الجبرية واليأس . وأصبح المرء في هذا الحشد المضطرب من السكان رقماً أو « يداً » ، وبعض أداة للقياس والحساب ، والإنسان جزء من الآلات التي يديرها . وأصبحت الديمقراطية ذاتها التي استهدفت تحرير الفرد آلة ، وسلسلة من « آلات machines » التي تقود الجماهير غير العاقلة آلياً إلى صناديق الانتخابات . وكان من العبث أن يحتج الفرد على هذا النظام من الأسلاك والدوافع والمحركات . كما كان من العبث أن يعتز بنفسه في وجه الجماهير الساحقة والمعايش المحطمة في الشرق القديم . بل أصبح « القادة » أجزاء نصف حية من سلعة جديدة يبلعون من البلادة وفقدان الإرادة مبلغ القطعان الضالة التي تدرج وعوسها (ولا تدرج) في جدول الانتخاب .

وإذا كان العبيد قد ثاروا في وجه هذه الميكانيكية فذلك عن فلسفة تعترف بامتياز الآلات وقداستها . ولم تتردد الاشتراكية socialism في ربط نفسها بعجلة الحتمية determinism والعلم الميكانيكي ، فكانت تغذى جنودها على مائدة داروين وهيكل وسبنسر وماركس . ولم يكن العالم وحده آلة ، بل التاريخ آلة لا تتم فيه أي حركة إلا بشمس الخبز . ويستطيع الاقتصادى البارع إذا كان على معرفة كافية بالحاضر والماضي أن يتنبأ بيقين محتوم بكل وجهة أو مصير في المستقبل . والإنسان هو الآن مخلوق مركب من الوراثة والبيئة ، وأي شيء يعمله فهو ثمرة العلل الموروثة أو الطبيعة ، والتي لا سلطان له عليها . فالإنسان إن هو إلا آلة متحركة بذاتها عجيبة ذات حياة ظاهرية . ويترتب على ذلك أنه « غير مذنب » . وإذا ارتكب جريمة فاللوم يقع على المجتمع ، وإذا كان محروماً فتلك عاطفة الآلة التي سمحت عجلاتها بتوليده . ولا ينبغي أن يحرم لهذا السبب من حقه في الانتخاب أو أن يكون رئيساً للدولة . كل ما كان العالم في حاجة إليه هو آلة أكبر وأفضل ، آلة مؤممة nationalized ، إلى مئة مليون آلة تديرها آلة واحدة ممتدة حين يضغط الرئيس على أحد الأزرار ضغطاً ميكانيكياً .

وقد كان من الممكن أن يسمح القادة فى العصر الأرستقراطى للجماهير المضطهدة باحتكار هذه الفلسفة الخدرة . أما فى عصر الديمقراطية فقد أحس أعظم المفكرين بأنفسهم مدعوين لمشاركة الوطنية فى فلسفة الجمهور . وأصبح الشك فى الآلة الموجودة فى كل شيء والقادرة على كل شيء بدعة قديمة تليق بعصر ما قبل الطوفان . وأسرع المفكرون فنسوا أنهم أنفسهم آلات وضعت فيها الأفكار متصلة بالزمان ، منذ ملايين الملايين من السنين من قبل . واعترف تين Taine بالإله الجديد ، وابتكر نظرية نقدية فى تمجيده . وكتب زولا تمثيليات كثيرة يبين فيها أن المرء يجب أن يدفع ثمن أجداده . وعرض توماس هاردى الإنسان فى هيئة العاجز بين مخالب الظروف . ورثى أناتول فرانس فى عبارات رشيقة نقية عبودية النفس ، وعبث الحياة . ورأى داروين فى كل مكان انتصار الموت وسخريته

لعل نزول الشخصية عن عرشها أحد أسباب هذا الحزن الغامض الذى يختفى وراء بريق الفكر الحديث وبراعته . هذا لن يجد من يقرأ كتاب «الإنسان» تشاؤم مارك توين غامضاً أو غريباً ، ذلك أن هذا الكاتب الساخر الناشئ كان من غلاة مذهب الحتمية ، وكان يعتقد أن سائر نكاته (قفشاته) المرحة مفروضة من قبل فى التركيب الغازى للسدم الأولية (أى جرائم لم يسأل عنها هذا الفاجر المسكين ؟) ولم ير فى حيوية توم سوير Tom Sawyer المتدفقة سوى دوران مركب كربونى . حقاً إن اليسير من الفلسفة عظيم الخطورة . قد تميل بعض الإنسان نحو التشاؤم . ويقال إن الآلة المرحة التى خلقت هكلبرى فن Huckleberry Finn واجهت بعض الصعوبات مع زوجته . ولكن كيف يمكن أن تشترك مرة فى سلام فى مخدعها وطعامها مع آلة ثائرة تنظر إليها على أنها مجموعة من العجلات دارت فى طفولة الزمان ، وتبطل الآن عن الدوران مصدرة أصواتاً صاخبة لا لزوم لها وسطحية ، حتى تنتهى إلى عجز وصمت أبديين ؟

ولا ريب فى أن فقدان إيمان طفولتنا قد أحزننا ، كما أن الحرمان المزدوج لكل بالغ فقدت نفسه مثُل طفولتها اللاهوتية ثم بعد ذلك مثل شبابها الاجتماعية ، مما يترك قلب الشاب مثقلاً بعض الشيء بعبء هذا العالم غير المفهوم . وقد

يرجع بعض الصوت الخافت الكئيب الذى يجرى تحت مرحنا الظاهر إلى الاندفاع الذى نفكر. ولم يكن مطلوباً منا أن نهجر اللاهوت الذى كان يحتقر الأساس الطبيعى لوجوده، بل فلسفة تتحاشى ما فى الحياة من قوة خالقة وما فى العقل من ابتكار. ولم يكن مطلوباً منا وقد هجرنا زعمنا الصبيانى من أننا قلب التاريخ الكونى ومركزه أن نحقر أنفسنا إزاء الآلات فى المصانع، ونتقبلها كأنها المثل الأفلاطونية التى صاغت التغيرات الدنيئة نفوسنا على مثل تدرجها السامية. وليس عيبا أن نشرك نصيبنا فى حيوية العالم، أو فى الامتداد غير المستقر للحياة، أو فى البناء المستمر للفكر. ولكن هزيمتنا فى جماح من حمية تقتل أدت إلى هربنا من الميدان كله مع التسليم التام.

أكان من الضرورى أن نسلم مثل هذا التسليم الكامل؟ وهل يشبه السلوك الإنسانى جميعه تساقط البلال، أو هبوب الرياح، أو مد البحر وجزره؟ وهل قلق الأمومة الذى لا يهدأ، أو شهوة الشباب المحرقة، أو تقدير الحب الهادئ، ليست إلا توزيعاً ميكانيكياً وتوزيعاً جديداً للعناصر الكيميائية والقوى الطبيعية؟ أيكون تشبث الحياة مع سعة الحيلة مجرد مظهر، والسعى نحو الكمال ليس إلا إلزاماً أعمى، وقدرة الفكر وهماً، وحقيقة الإرادة حلماً؟

هل الإنسان آلة؟

٢ – الميكانيكية

ولنبحث فى أمر المسألة. ولنأخذ آلة بسيطة ولكن لعبة هى سيارة تجرى عندما نملأ زنبركها، ونطلقه ونربط فى مقدمتها قطعة مربعة من المطاط تكون حاجزاً حساساً. ثم نضع اللعبة على أرض غرفة ما بحيث تواجه مباشرة حائطاً قريباً. ثم نملأ زنبركها ونطلقه. والمفروض أن تخطيط الحائط والأرضية وقطعة من الكتب كما نفترض فى النظرية الرياضية والميكانيكية. سترتد السيارة مقيدة بهذه الشروط من الحائط فى نفس الطريق الذى جاءت منه، ثم تعود إلى الحائط فى نفس الخط مرة أخرى. وتظل تكرر هذا العمل نظرياً ودائماً

في خط مستقيم عمودي على الحائط ، حتى تستنفد طاقتها جميعها تماماً . إنها تسلك سلوكاً ميكانيكياً .

والآن املأ إناءً مستطيلاً من الزجاج بالماء ، وضع في وسطه حاجزاً رقيقاً من الزجاج أقصر من عرض الإناء ، بحيث يترك مسافة ضيقة من جانبيه ، وضع في أحد جانبي الإناء قطعة من الطعام ، وضع في الجانب الآخر كائناً حياً دنيئاً ، أبسط ما يمكن – وليكن الشق غولي Paramecium وراقب الكائن تحت الميكروسكوب . إنه يتجه مباشرة نحو الطعام ، ثم يصطدم بالحاجز الزجاجي ، فيتراجع في خط مستقيم من الظاهر أنه آلة ، ولكن بعدئذ ينحرف الكائن متجهاً حوله ، ثم يشرع في السير مرة أخرى بزاوية . فيصطدم بالحاجز مرة أخرى ثم يتراجع . وينحرف ويصطدم مرة أخرى ويتراجع ، وينحرف ، ثم يمر من خلال الفتحة إلى الطعام . ولا يوجد شيء في تركيب أي آلة ، أو شيء في مبادئ علم الميكانيك ، يفسر هذا الاتجاه الحكيم . هذا المظهر من « الغرض » الموجه في أدنى الحيوانات المعروفة للإنسان .

أو تأمل سلوك حيوان ميكروسكوبي مشابه له هو ستنتور رازيلي Stentor raselu وهو نُقاعية (١) في هيئة البوق متصل بالنباتات أو الأعشاب في المستنقعات . دع تياراً رفيعاً من الماء يسقط على محيط الفم أو القرص عند قمة الكائن ، وإذا به يتقلص في الحال ويتجعد على ساقه ، وبعد دقيقة ينبسط إلى حجمه الطبيعي ، ويصبح في الظاهر كما كان . والآن دع تيار الماء يضربه ثانياً بكثرة السابقة بالضبط ، ولكن حيوان ستنتور لا يحفل به ، حرك الشيء الذي تتعلق به حركة بسيطة ، وإذا به يتقلص مرة أخرى إلى أنبوبته . أعد المؤثر نفسه بعد دقيقة ، فلا تجد أي استجابة . فهل هذا التكيف سريع الاكتساب ؟ أيرجع إلى التعب أو إلى الإرباك من عنف الاستجابة الأولى ؟ كلا . إذ في الوقت الذي يصل فيه الاستنتور عبر حافة تيار الماء المتساقط على قرصه ، تجد أنه يرتد بشدة عن المؤثرات الضارة . أما إذا تكرر المؤثر « غير الضار » عدة مرات ،

(١) نقاعة هي الإنفيوسوريا ، قسم من البروتوزوا أو الحيوانات الأولية ، وسميت كذلك لأنها تتكاثر في نقوعات المواد العضوية . (المترجم – عن قاموس شرف)

فإن الكائن يكيف نفسه تكيفاً فلسفياً مع البيئة الجديدة ، ويتراجع تماماً عما لا حيلة له فيه (١) فيشحذ العالم الميكانيكي ذهنه لتفسير هذه الردود الانتخابية والمتكيفة التي نجدها في أدنى صنف من المملكة الحيوانية . سيريح نفسه مجادلا ، ويؤكد لنا كأي ملحد قائلا : «ستحددات يوم ما بطريقة ما تفسراً ميكانيكياً هذه الأمور» . لقد كان أناتول فرانس يقول : ليس العلماء محبين للاستطلاع Les savants ne sont pas curieux . لقد فقد العلماء في الشك .

أو فلنبحث في الهضم . بعض النباتات الحساسة مثل الدوبنية أو ورد الشمس drosera يطبق على الغذاء الموضوع على سطحه ويمتصه . أما إذا وضعت على سطحه مواد غير صالحة للغذاء فلا يستجيب هذا النبات أبداً . وتنفى الأمسا بطبيعتها ما لا يصلح لتغذيتها والحيوان الميكروسكوبي الذي يشبه التم swan-animalcule المسمى ديلبتوس أنسر dileptus anser ، يبرز عنقاً ممنوءاً أكياساً شعيرية trichocysts (خيوط ملفوفة لاسعة) ، لا يلقيها إلا على الغذاء الملائم . ونجد أن خلايا أمعاء الإنسان انتقائية في فعلها ، فكل نوع من الخلايا يؤثر في أطعمة معينة ولا يؤثر في غيرها . وكل خلية في بدن الإنسان تنتقي من مجرى الدم ما تحتاج إليه من المواد الخاصة بنوعها specific وتتجاهل غير ذلك . وتصب في الدم نفاية ما تنتجه من تغيرات كيمائية . إنها تفتت المواد التي تتنقيها إلى أجزاء ، ثم تعيد تركيب عناصرها إلى مركبات تحتاج إليها في بقائها ونشاطها . إنها تتنفس ، وتأكل ، وتفرز ، وتنمو ، وتتكاثر ، وتموت ، كما لو كانت كائناً حياً له فرديته الخاصة . وفي ذلك يقول ليبون : « إن ما تحققه هذه الخلايا في كل لحظة من حياتنا يسمو سمواً بعيداً على كل ما يستطيع العلم المتقدم أن يحققه . وإن العالم القادر أن يحل بعقله المسائل التي تحلها كل لحظة خلايا أدنى المخلوقات لهو أسمى بكثير عن غيره من البشر حتى لقد يعدونه بالنسبة إليهم إلهاً » (٢) .

ولنتأمل النمو . كيف يمكن أن تنمو الآلة ؟ ولماذا تعنى بالنمو ؟ أوجدت

---

(1) Jennings, H.S, Behavior of the Lower Organisms, pp. 170-3.
(2) Le Bon, The Evolution of Forces, p. 363.

فقط آلة تنبع من العجب أن تشبه امتداد الحياة المدهش؟ انظر إلى زنبق الوادي . أى قوة ساحرة تجذبه من مخبئه فى الأرض ، وترفعه ببطء وصبر نحو الشمس ؟ أو تأمل العصافير تطير فى الهواء . فلا تجد فيها تروساً ولا بكرة ولا عجلات ومع ذلك فنحن كما قال الشاعر :

إنما نختفى وننقص ونسحر كذلك ونرهب
ولو كنا حساً خلق لا لنبكى ونصخب
كيف يمكن لست أدرى من سرورك نقترب

هذا طفل . فماذا يجوع ويتعطش للغذاء ، وتمد أصابعه الرقيقة لتمتلك العالم ؟ انظر إلى الطفل ينمو إنه لا يحتاج إلا لغذاء واحد يصنع به خديه السمينين ، وشعره الغزير ، وعينيه الضاحكتين تأمل الطفل يقف وحده لأول مرة ، فى خوف وشجاعة ، منتصب القامة فى كرامة فماذا يشتاق هكذا إلى الوقوف والمشى ؟ لماذا يضطرب بالفضول المستمر ، والطموح الشره الخطر ، يلمس ويذوق ، يتأمل ويسمع ، يعبث بيديه ويجرب ، يلاحظ ويفكر ، « ينمو » — إلى أن يبحث فى الأرض ، ويقيس أبعاد النجوم ؟ وما أغمض هذا التغير فى الهيئة الذى يحدث مع المراهقة ، ذلك التغير الذى ينقل الصبى إلى رجل هادىء عريض ، ويصوغ الفتاة إلى قطعة حية من الجمال أترى من أى أثر فنى ؟

انظر إلى تجدد النمو اقطع عصروفاً من جناح نجمة البحر ، تجد أن العصروف ينمو ثانية . اقطع جميع العصاريف تجد أن المركز يوجدها ثانية . اقطع المركز كله تجد أن العصاريف تعيد نموه . إن الآلة إذا تعطلت فلا تصلح أجزاءها بنفسها . إنها تقف لا حراك بها ولا حس ، فى انتظار لمسة من يد حية تعيد إلى أجزائها نظامها فى تأدية مهمتها . وليست هذه الظواهر الكبرى التى وصفها برجسون أعظم دلالة ، فأبسط شفاء لأنعه جرح أمر غير ميكانيكى ، ويكفى فى الدلالة على العجب . ما هذا الفن الذى تنمو به الخلايا الجديدة فوق اللحم المصاب كما لو كان ثمة عقل خلوى يهدى إلى هذا العمل المفيد . نعم نحن نقدم معونة ميكانيكية أو كيمائية إلى هذه العمليات الحيوية . ولكننا نعلم أن هذ

نفس الصلة بالقوة الطبيعية على الشفاء ، كالرخام أو الطين فى يد الفنان . ونحن نعلم أن صفقة الحياة ودفعها ستحملنا ، بطريقة لن توضحها الميكانيكية أبداً ، خلال آلاف من المعارك وآلاف من الإصابات حتى تستنفد هذه الحيوية المرنة ، وتلتمس لنفسها صورة تعيد إليها الشباب .

تأمل الشعور . ما هذه الملكة الغامضة التى ندرك بها أننا نشعر أو نعمل ، أو من عمله ، أو ما سوى عمله ، ونلاحظ بها الصراع بين أفكارنا ورغباتنا ، ونقارن بعضها ببعضها ، ونحن نتصور أنواع الردود الممكنة ونتوقع بوساطة الذاكرة النتائج الممكنة ، وأخيراً نواجه بها الموقف فنحلله فى صبر متحمس على كل ما فيه من فكر ورغبات فننسق بينها ونعيد صياغتها فى رد فعل خالق ؟ وقد نقضت تجارب كوهلر ، التى بينت عمل الاستبصار insight حتى فى التعلم ، ضد الفعل المنعكس الشرطى ، التصور الميكانيكى للعمليات العقلية (١) .

ما هذا الكشف الذى أصابنا ففرض علينا اليوم إذا شئنا مسايرة الجمهور فيجب أن ننكر وجود الشعور حتى نظفر بفلسفة ميكانيكية لا يمكن فى أكثر الظن أن تفسره ؟

إننا نبدأ من الأشياء التى لا نعرفها إلا خارجياً فقط ، فى هيئتها الخارجية والسطحية (كالمادة التى هى فى علم الطبيعة الحديث الهيئة الظاهرة للصدفة) ، ثم من الطبيعى أن نجد أنفسنا فى حيرة كيف ننتقل من هذه الميكانيكيات الظاهرة إلى ذلك الشعور الباطن وهو أكثر الحقائق الواقعة مباشرة ووضوحاً فى معرفتنا كلها . ولكن السلوكى behaviorist لا يتردد فى التضحية بالوقائع الواضحة فى سبيل نظرية مشكوك فيها . فهو يعلن فى شجاعة أن هذه العقبة المزعجة من الشعور التى تعجز الميكانيكية عن تفسيرها من النوافل وليس لها وجود حقيقى . إنه يتبنى عقيدته مثل رجال الدين الطيبين من الخارج (مثلاً من رجال الطبيعة الأموات) . ويعنى باستبعاد الوقائع التى تضايق تعميمه . حقاً السلوكى عالم نفسانى ممتاز ، ولكنه ليس إلا فيلسوفاً ضعيفاً ، ولو أنه فى بساطته المتسامية يعتقد أيضاً ألا قيمة للفلسفة ، وأنها ستموت بعد جيل (واحد) . أما أن هذا

(١) أنظر كتاب دين مرتن البديع عن « معنى التربية الحرة » ، ص ٣٦ – ٣٩ .

اللاهوت المقلوب أخذ في كسب الأنصار بالسرعة التي كسب بها مقابله ومكمله العلم المسيحي فهذا دليل على شعبية الفكر المعاصر وسطحيته. أي مأزق نواجهه الآن حين ينكر بعضنا المادة. وينكر بعضنا الآخر الشعور. ونستطيع أن نتصور الابتسامة الجريئة التي قد ترتسم على وجه جيته أو فولتير عند رؤية هذا الجنون الفكري في عصرنا

وتأمل آخر الأمر التناسل. فهذه بويضة صغيرة جداً لا ترى بالعين. وهذه نطفة لا تستقر وتتحرك من حولها في عوالم تتحقق. وكل من هاتين الحبيبتين الميكروسكوبيتين تشتمل على عضيا بالصفات الموروثة التي تحمل ذكرى آلاف من الأجيال. وتحمل كل منهما في داخلها صفات فريدة ودقيقة عن الجسم والعقل. ودوافع وميولاً واستعدادات. وجوعاً وشوقاً وحباً ونفس في بلازمتهما (1) Plasm تستقر من قبل شهوة العبقرية وصبرها. حسناً. وتتحد نطفة ببويضة، وإذا بتلك الإمكانيات تصبح فجأة حقائق، وتظهر معجزة حياة جديدة. وتنقسم الخلية المخصبة بنوع من الضرورة الباطنة وقد غذيت بدم المشيمة إلى خليتين، ثم أربع، ثم ثمان، إلى مئات الملايين من الخلايا التي يبدو أنها تنمو في وحدة كلما تكاثر عددها. ويتكون القلب ويبدأ في النبض، ويتكون المخ ويأخذ في الحس، وتبرز اليدان والرجلان وتتحرك في الرحم. ثم تخرج الأعجوبة الصغيرة إلى العالم فتصطدم بالهواء والبرودة والصوت والضوء، وتتفتح العينان والشفتان والأذنان. وتهتز جميع أعصابها بالإحساس. لقد بعثت الحياة من خلال الموت مرة أخرى. وأخذت تتدفق بغزارة في هيئتها الجديدة، مرحة وقوية وشابة من جديد.

أهذا شيء ميكانيكي؟ لقد اكتشف جاك لوب Jacques Loeb أنه يستطيع تخصيب بويضة قنفذ البحر (2) بمحلول من الملح أو بوخزة دبوس، فسارع إلى استنتاج أنه أثبت الطبيعة الميكانيكية للتناسل. الحقيقة أنه بين فقط أن بويضة الأنثى في بعض الحالات يمكن أن تولد بنفسها جنيناً حتى بدون ذكر

(1) بلازم هو السائل الدموي، أو صورة الشيء، أو المادة الأولى للخلية (المترجم عن قاموس شرف)

(2) Sea-Urchin، هو الرتزا المعروف بالإسكندرية (المترجم عن قاموس شرف)

المعونة العارضة التي تحددها الطبيعة للذكر . لقد أعاد كشف التناسل بدون نكاح الذكر (١) parthenogenesis ما عرفه علماء الحياة منذ ألف عام . ولا حاجة بنا إلى القول بأن الأنثى ذاتها تكاد تكون ميكانيكية كالدبوس ، أو بسيطة كيماوية كالملح . الحق أن تناسل الأنثى بغير ذكر يبدو أكثر عجباً من أخواتها الأكثر حظاً . وهذا الضرب من التناسل يدبر سوء كذلك ، ويدل على أن تحرر الجنس الذي كان ذات يوم أضعف قد يفضي في عصرنا إلى نهاية لا تسر .

وكانت كشوف هانس دريش Hans Driesch (٢) المشتركة أكثر دلالة من تلك التجارب التي أجراها لوب . وقد نشأ دريش في معمل إرنست هيكل في مدينة ينا Jena . وكانت جميع البواعث تدفعه إلى أن يكون من أصحاب المذهب الميكانيكي الخالص . غير أنه وجد ظواهر لا يحلم بها أستاذه . لقد قطع بويضة مخصبة نصفين . ومع ذلك نمت نمواً صحيحاً . ثم شوش نظام الخلايا اعتباطاً بعد القسمة الثانية ، ومع ذلك نمت الخلايا نمواً طبيعياً . وحصل على النتيجة نفسها بعد القسمة الثالثة وتشويش نظام الخلايا . والآن حاول أن تتخيل أولا مزاوجة آلتين من جيل الآلة الثالثة . وتخيل أن كل جزء من الآلتين موهوب بقوة التناسل وعتاده ، وأنه يستمر في التكاثر والنمو . وتخيل بعد ذلك أن بعض أجزاء الآلة الأم تلتئم لتكوين نموذج للآلة الجديدة ، وأن النموذج يولد الآلة الكاملة بأن ينقسم تلقائياً إلى اثنين ، وأربع ، وثمانٍ . . . ، وأنها كلما تكاثرت كلما أصبحت واحدة . وتخيل ظهور شخص جبار مثل دريش ، فيقطع الآلة الملتئمة إلى أنصاف ، أو يوزع أجزاءها في فوضى . جملة القول تخيل أن الآلة تشرع في العمل بشكل طبيعي وبنجاح كما لو أن شيئاً لم يحدث . أوجدت قط أضحوكة أبدع من ذلك في العلم أو الفلسفة ؟ أثمة أي معجزة في أي دين قديم أو متوسط أو أمريكي يمكن أن تقترن بهذه الأسطورة البديعة والمهولة .

(١) التولد العذري أو التناسل بدون ذكر بأنثى ومثله في أنواع من المدودة والمنيا والنحل (عن قاموس شرف)

(٢) Science and Philosophy of the Organism.

٣ — الحتمية

يقول لنا صاحب المذهب الميكانيكي إننا غير منصفين . وإن حملنا مصطلحه على معنى حرفي ، وهاجمناه في موضع لم يكن مستعداً فيه للدفاع . وقد نتصور جوابه على هذا النحو :

« ليس ما نعنيه بصفة السلوك الإنساني الشبيه بالآلة أكثر من التتابع الضروري بين السبب والنتيجة في العالم العقلي والعالم الطبيعي . فالإنسان جزء من الطبيعة ، وأكبر الظن أنه خاضع لقوانينها . فلا يمكن أن نتصور وجود انقطاع في سلسلة السببية . لأن مثل هذا الانقطاع قد ينشأ عنه مبدأ الصدفة أو تولدها . ولكن استمرار الطاقة وبقاءها ماثلان بوضوح في كل مكان . أوقفْ تغذية إنسان تجد أن ردود أفعاله تبطل . أطعمه الغذاء الصحيح يصبح رجلا محباً لوطنه . أطعمه غذاء غير ملائم تجعل منه شخصاً عاجزاً ، أو مجرماً أو متشائماً ، أو أحمق ، أو مؤمناً بحرية الإرادة . قس نشاط إنسان منذ ولادته إلى وفاته ، تجد أن ذلك النشاط يكاد يتطابق بالضبط مع الغذاء الذي تناوله . فمن الواضح أن الطاقة العقلية في الإنسان ثمرة الطاقة الموجودة في المواد العضوية التي يتغذى بها . ولكن هذه المواد مستمدة في النهاية من مواد غير عضوية موجودة في الأرض والهواء ويتم تحولها في خلايا النبات . فإذا سلمنا بوجود سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات في العالم غير العضوي ، فلا بد أن نسلم بوجودها حتى في أدق عمليات الحياة الإنسانية أو الفكر الإنساني .

« ومرة أخرى يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالسلوك الإنساني ازداد نجاحنا في التنبؤ به . وأكبر الظن أننا إذا عرفنا جميع الشروط المؤثرة في أصدقائنا تنبأنا باستجاباتهم نفسها بالدقة التي نتنبأ بها عن أوجه القمر وخسوفه . فإذا كانت الحتمية غير صادقة . ولو كانت أعمال الإنسان لا تتبع قوانين لا تتغير ، لكان من المستحيل أن نتطور بالتنبؤ عن السلوك الإنساني والتحكم فيه عن طريق زيادة معرفتنا بالإنسان .

« ومن الواضح فوق كل شيء أن سلوك المرء هو ثمرة صفاته والظروف

التي تحيط بأفعاله، وصفاته ثمرة بيئته الماضية (ها هو ذا يعود إلى فكرته) ووراثته. ونحن نهاية سلسلة التطور عن الدودة الشريطية Tape-worm (1). فنحن لا نولد شيئاً، ولا نبرم أمراً. بل تحركنا وتوجهنا وتقسرنا في النهاية قوى خارجة عنا. وليست لنا عليها عند التحليل الأخير رقابة. والاختيار وهم، فهو مجرد تأليف بين القوى المحتومة. وفي ذلك يقول سبينوزا: «يظن الناس أنفسهم أحراراً لأنهم يشعرون بإراداتهم ورغباتهم، ولكنهم يجهلون الأسباب التي أفضت بهم إلى الإرادة والرغبة» (2). الحق أن سلوكنا تحتمه في إحكام القوى التي تولدنا وتحيطنا. كما تحدد كتلة الحجر وسرعته واتجاهه سقوطه في الزمان والمكان. فالإنسان على هذا المعنى آلة».

فمواجهة الحتمي صراحة متضمنة فلسفة. فإذا كان كل فعل هو بالضرورة ثمرة الشروط الطبيعية الموجودة سابقاً في نهاية الأمر، فيجب علينا أن نستنتج أن الميكانيكية والحتمية شيء واحد. وأن تقوى ميخائيل أنجلو، وعاطفة شكسبير، وأنف سقراط، وابتسامة كليوباترة، كل ذلك يرجع إلى التركيب الميكانيكي والكيميائي للسديم الأول. فهذا نظام شاسع، وقد يعجب المرء حين يبادر جماعة من الشكاك المحترفين مثل تين ورينان وأناتول فرانس إلى ابتلاع مثل هذا الجسم المحموم. ولكن حتى الشكاك مؤمنون بهذا «العصر الحديد من الإيمان». ذلك أن رفضهم العلمي المتعلق لعقيدة من العقائد، يتبعه في الحال قبولهم الإنساني الأعمى لعقيدة أخرى. ولا يشك الميكانيكيون أبداً كيف يختفي اعتقادهم الساذج خلف شكهم غير المجدي.

سيعد المؤرخون كيف أن هذا السديم الخيالي لم يقصم رقبة الاعتقاد أعجوبة من الأعاجيب. ما هذا التنويم المغناطيسي الذي جعلنا مدة جيل نسلم بأنظمة الطبيعة العابرة على أنها قوانين حياتنا ورموزها؟ من منا اعتقد حقاً أنه آلة، وتصرف بصراحة حسب هذا العرض المضحك؟ أو هل علمنا سراً من خلال هذا الزعم البيروني Byronic أن الحس والعقل فاعلان ومنفعلان كغيرهما من

(1) Mark Twain, What is Man? p. 5.

(2) سبينوزا، الأخلاق، الكتاب الأول، ملحق.

الأمور . وأننا في طرائق الصغيرة مراكز محلق في تيار القوة ؟ كيف يمكن أن نتصور حقاً في اصطلاحات من ميكانيكية والحتمية تعدد أنواع الحياة هذه وخصوبتها ، وتجاربها وصورها عبر العصور . وأعاجيبها التي لا تنفد . وتعددها الحازم للأرض وغزوها إياها ؟

لقد جاء مذهبنا الحتمي من تصور لوك العقل لوحة بيضاء تسجل عليها الإحساسات ، أو قطعة سلبية من الشمع تشكلها الأشياء الخارجية وتعيد تشكيلها ولا حيلة لها في ذلك . ولكنهم يعلمون اليوم ضرباً آخر من علم النفس في أعماق أنفسنا نجد الرغبة . هذه الرغبة التي « هي جوهر الإنسان نفسه » ويمكن أن نتتبع بآلاف من الوسائل أثر الرغبة الانتقائي والتكويني في إحساساتنا وإدراكاتنا ، وذاكرتنا ، وفكرنا . وقد وهبت الحياة جوعها كثيراً من دوافع وقوى متخصصة . وهذه هي التي تحدد أهدافنا وتوجهاتنا . وتوجه حواسنا . إننا لا نشعر بمؤثرات لا نحتاجها الغد تحاول عبثاً أن تبعث برسائلها إلينا . إننا نجهل عوالم شاسعة من الحقيقة المحسوسة . لأننا نختار من خلال أغراضنا الإحساسات التي نحتاج إليها . إننا نسمع بعض الأصوات التي تهمنا ، ونصم أنفسنا عن آلاف غيرها . إننا نتأمل بعض الأشياء التي تخلو مؤقتاً من المعنى ونرى من خلاف هدفاً يشغل أذهاننا ، ونوجه بناء على ذلك أعيننا فأغراضنا هي التي تحول الإحساسات إلى مدركات وأفكار . يقال لنا مثلاً أن نجمع عددين ، وإذا « الهيئة الذهنية mental set » نجمع « نجمع » بغير مجهود ارتباط المؤثر بالاستجابة . وحين نسمع ما يحصل جمع « ٧ و ٧ » ، نجيب « ١٤ » أما إذا طلب منا الضرب . فرد فعلنا على ذلك الإحساس « المتسق » هو « ٤٩ » فالغرض إذن ، لا الجدة ولا كثرة الوقوع ولا الوضوح . هو الذي يفسر ترابط المعنى . ولسنا شيئاً عاجزاً وفريسة تنفعل بأي مؤثر يطبعه الخط على نفسنا ، بل نحن فاعلون للاختيار . وهذا الاختراع المشيء نفسه الذي ملأ مصانعنا بالآلات هو أفضل نقض للنظرية التي تشبه عقل المخترع بالنتاج لنسيجه .

في هذه العملية من التكيف الصعب نأتي بأعاجيب عقلية يصعب تصورها على أنها ميكانيكية . فنحن نحلل الكل إلى أجزائه . ثم نعيد تأليف الأجزاء في

كلات wholes جديدة . ونحلل الأفكار إلى مدركات ، ثم نعيد تركيبها في استدلالات . إننا نزن الأعراض مرتبة الاعتبار . ونزن القيم ، ونتخيل النتائج ، ونبتدع الوسائل والطرق لتحقيق أخص رغباتنا الباطنة . ونسترجع من الماضي الحلول في الاستجابات السابقة . ونرى ما يشبهها في محيطها ، ونحكم عليها في ضوء أعراضنا . فالمعرفة هي تذكر نتائج الأساليب المختلفة من الفعل . وكلما عظمت معرفتنا ازداد بصرنا بالمستقبل . وكلما كانت بصيرتنا foresight أعظم اتسع نطاق حريتنا . ويمدنا الشعور بمرحلة نقف عندها لنستعيد الاستجابات المتخيلة . فنحن نستبعد بوساطة الذاكرة والتخيل والتفكير الاستجابات الحمقاء ، ونعبر في شيء من انسجام عن هدفنا الأخير . والحرية ، كالتفكير ، هي استجابة متمهلة تؤدي إلى الاستجابة الشاملة . وتنمو حريتنا لأننا بالتمهل نسمح للموقف المعقد أن يثير فينا جميع دوافعنا الحساسة . ولأننا بالتخيل نضم هذه الدوافع الجزئية إلى استجابة كلية تعبر عن نفسنا الكاملة والناضجة .

فالميكانيكية ثانوية ، أما ما نراه كشيء أولي ، وأساسي ، ومباشر ، وما نقله قضية مسلمة في فلسفة حياتنا الواقعة والصحيحة ، فهو أن كل كائن حي بالنسبة إلى مرونة تركيبه مركز لقوة يعاد توجيهها . ومبدعة تلقائية إلى حد ما . والحياة خالقة لا لأنها تبتدع قوة جديدة من لا شيء ، بل لأنها تضيف طاقتها مضاعفة من جديد إلى القوى التي تتدخل من خارج . وليست الإرادة حرة إلا بمقدار ما تعيد الحياة ، التي هي صورة نشاط . تشكيل العالم . ولكي تعيد الحياة تشكيل العالم « تخترع » و « تنشيء » الرياضة والميكانيك لتتعامل بها مع الأشياء الخارجية . فالحياة تسخر من هذه المخلوقات التي ابتدعها عقلها وإرادتها ، وتتعالى عليها حين تتلمذ هذه المخلوقات بسخف خوفاً تحاول فهم الحياة في ضوء تلك الاصطلاحات التي ابتدعتها الحياة ذاتها .

أيستطيع هذا التصور للحرية الصمود في وجه حملات الحتمي ؟ سيذكرنا إذا كان بارعاً بأن « الإرادة » اصطلاح مجرد ، وسيجعل نصب عينه أن يتناسى أن « القوة » ليست أقل تجريداً . وجوابنا على ذلك أننا لا نعني بالإرادة شيئاً مجرداً بل السلوك المسير والموسع للحياة نفسها . أما ما الحياة ؟ فقد حاولنا الإجابة عن ذلك في صفحات سابقة . ولكننا لا نريد أن نقلب الحقيقة إلى سر غامض .

أو سيدكرنا الحتمي بعدم فناء الطاقة . فالكائن الحي لا يمكن أن يستنفد من الطاقة أكثر مما يتلقى . إنه ينسى أن الحياة نفسها طاقة من الواضح أنها تحول ما يأتيها من قوى ومواد إلى مركبات تهدف إلى السيطرة على البيئة والتحكم . وقد بحثت في ذلك عرضاً وقد لا تزيد كمية ما يخرج مع الفعل عن مقدار ما يدخل مع الإحساس . ولكن ما أعظم اختلافهما في الكيفية فقوة الحياة المشكلة هي أسمى طاقة نعرفها . ومعرفتنا بها أكثر مباشرة وتأكيداً من أي طاقة أخرى في العالم . وهي منبع حريتنا المتواصلة ونموها .

يفترض الحتمي أن الحرية وهم . لأن الدافع motive « الأقوى » يتغلب دائماً . ولا ريب أن هذا لغو باطل . فالدافع الأقوى بما فيه الكفاية للعلة . أقوى من تلك التي تهزم . أليست موافقة الدافع للإرادة والرغبة وجوهر النفس هي التي جعلته أقوى من غيره ؟ . « ومع ذلك فلا فعل بغير سبب » . وهذا صحيح ، ولكن الإرادة جزء من السبب ؛ ويجب أن تشمل ظروف الفعل مطالب الحياة المقبلة . وكل « حالة state » للعقل تنشأ طبيعياً من مجموع الحالة السابقة للحقيقة كلها. ولكن هذه الحالة وتلك تشملان الطاقة المشكلة للحياة والإرادة « نفس النتيجة تتبع دائماً نفس السبب » . ولكن السبب ليس هو ذاته أبداً ، لأن النفس التي نحن بصددها في جريان دائم ، والظروف متغيرة على الدوام . — « إذا عرفت جميع ماضيك وحاضرك استطعت أن تتنبأ باستجاباتك دون خطأ » . وتستطيع ذلك إذا عرفت أيضاً طبيعة دفعة الحياة وقوتها الموجودة في داخلي . لعلك تستطيع ذلك إذا هجرت المبادىء الميكانيكية . وسألت نفسك مسترشداً ماذا أنت — أي الحياة — فاعل في هذه العقدة المعقدة من الظروف . أكبر الظن أنك لن تستطيع — حتى مع ذلك — التنبؤ بنجاح. أكبر الظن أن الحياة فيها عنصر لا يمكن حسابه ، وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب عقولنا categories « وقوانيننا » . وهذا العنصر هو الذي يخلع على التطور العضوي وأمور الإنسان لذة وصفة خاصتين . فلنطلب من الله ألا نعيش أبداً في عالم محكوم بالقضاء والقدر . ألا تبدو صورة مثل هذا العالم متناقضة بشكل مضحك مع الحياة فالميكانيكية كما قال برجسون مزاح عابر ؟

«ولكن كل فعل فهو نتيجة الوراثة والبيئة». ليس الأمر كذلك بالضبط، والحتمى مع التواضع فى معرفة نفسه. فهو يفترض مرة أخرى أن الحياة ثمرة سلبية لقوى خارجية. إنه يهمل (مع استغراب بالغ) حيوية الحياة نفسها وحياتها إن لسنا مجرد أسلافنا وظروفنا. بل نحن أيضاً جزء من الطاقة مشكلة، وأجزاء من ذلك التيار للقوة الموجهة. القدرة على الاختيار والفكر الكيفيين مما كان أسلافنا كذلك يتحركون ويعيشون فيها. فهؤلاء الأسلاف هم فى الحقيقة أحياء يعملون فى داخلنا. ولكن الإرادة والحياة اللتين كانتا فيهما فيما مضى من الزمان توحدتا فى كل واحد منا الآن وخلقتا «الأنا المتفرد». والحرية أضيق وأوسع مما كانوا يتصورونها فى القديم. ولا ريب أنها تخضع لتحديدات موروثة وبيئية من كل نوع. ولكنها مع ذلك عميقة عمق الحياة، عريضة عرض الشعور. إنها تنمو فى مداها وقوتها مع تعدد التجارب، وسعة المناظر، ووضوح الفكر (١) فالإرادة حرة بمقدار ما تكون الحياة خالقة، وبمقدار ما تدخل بطاقتها المشكلة كشرط «واحد» من الشروط المحددة للاختيار والفعل. وليس فى مثل هذه الحرية انتهاك لحرمة «القانون الطبيعى»، لأن الحياة نفسها عامل factor طبيعى، وعملية process طبيعية. لا قوة خارج ميدان الطبيعة المتغير والطبيعة نفسها، كما يدل عليها اسمها اللطيف، هى تلك القوة الحية التى تنشأ عن طريقها جميع الأشياء. ولعل هذه التلقائية وهذه الدفعة القاهرة مما رغمه للحياة تتخيلان خلال العالم. وبأى سبيل أخرى استطاعت الحياة أن تكتسب هذه التلقائية؟ (٢)

(١) [illegible] «يعبر عن مرء» لا أن يعنى حريته فحسب بالمعنى الذى تخضع فيها للشروط [illegible] كل مرء [illegible] فإن يعنى نفسه مشروطاً [illegible] حراً [illegible] عن [illegible] ص ٢٦٧

(٢) يمكن أن [illegible] من الشعر [illegible] التجربة الإنسانية [illegible] وجميع اصطلاحات العلم وقوانينه هى [illegible] «مختصرة» [illegible] عن العالم [illegible] «كل» معرفتنا بالعالم الطبيعى والكيفى [illegible] كل ما نعرفه عن العالم العقلى أو الطبيعى يدل على حتمية. على العكس [illegible] المباشرة وهى آخر معيار للحقيقة تنصب على تلقائية غريبة فى كل مكان [illegible] «مستمدة من عالم» [illegible] ثم تعلق [illegible] على «العقل» [illegible] عمليات الطبيعة [illegible] وهو قول إلى حد كبير —

ومن الصواب أن نقول إن صفتنا تحدد أفعالنا [illegible] وصفتنا شيء واحد We «are» our characters [illegible] ومن الصواب [illegible]

[illegible] ([illegible] ص ٢٤٤)

[illegible]

إن نظرية الكوانتوم [illegible] حركة الإلكترونات على أنها [illegible] ومع [illegible] أخرى [illegible] بالمواضع [illegible] في [illegible] ([illegible] ص ٥٢)

ويقول [illegible] الجزئيات غير محدودة ([illegible] ص ٢٩٤ ، ٢٩٠) [illegible]

[illegible]

ومع [illegible] على أساس [illegible] متى تقع عملية الكوانتوم [illegible] حدث شيء [illegible] إذن [illegible] الذرة الدقيقة [illegible] اعتراض [illegible] ([illegible] ص ٣٩٣) [illegible] الكوانتوم [illegible] ولو [illegible] ص ٣٩)

[illegible] الطبيعة [illegible] الحقيقة [illegible] الحتمية التي في [illegible] .

كذلك — أن نقول مع هكسلي إننا قد نكون أحراراً في إبرار رغبتنا في صورة من الفعل ، ولكننا لن نكون أحراراً أبداً في اختيار ما يجب أن تكون عليه رغبتنا ، لأننا ورغبتنا شيء واحد . والرغبة هي الحياة ذاتها . وفي تحقيق رغباتنا إنما نحقق أنفسنا . ولا يكفي أن نقول إن القوى الخارجية والموروثة ترغمنا وتقهرنا ، فهناك جانب آخر من الحق هو أن الحياة نفسها قوة ذاتية لها ، ولها وجهتها الخاصة ومقدرتها ، ولو أنها محدودة ومرغمة ، إلا أنها تؤثر بإرادتها إلى حد مدهش ، مرتفعة من أدنى الكائنات الحية إلى سمو العبقرية نفذ ، منتشرة في أرجاء العالم بصورها وانتصاراتها . ولو لم تكن الحياة قوة فعالة ومشكلة ، ميالة إلى جانب النمو ، ما ظهر أي تطور قط .

هذا التحقيق الحيوي الموجهة يعيد إلينا مسئوليتنا وشخصيتنا ، وتكامل بصيرتنا خياتنا . ذلك أننا حين كنا نتحدث عن الحتمية كنا نعرف بطلانها . ولم نتحدث عن تعاملنا مع أنفسنا أو مع أمثالنا كآلات[1] فإذا كان البحث في فلسفة الحرية يتكرر على الدوام فذلك لأن الإدراك المباشر لا يمكن أبداً أن يخضع للقوانين . ولا الإحساس للتفكير . وفضلا عن ذلك فقد رأينا في الميكانيكية شيئاً من الجبن بإرجاعها الجريمة إلى الوراثة والمجتمع — وهما الضحيتان المجردتان المسكينتان اللتان نقدمهما ستاراً لرذيلتنا وكسلنا . ولعل ضعف الخلق في عصرنا وعدم استقراره مرتبطان ارتباط المسبب بالسبب بسيطرة الفرد بالآلة في الفلسفة والحياة . فالآلات تكسب نصراً بعد آخر ، وتبسط بشكل عظيم قوتنا على تحقيق غايات قديمة ومتناقصة : فنحن نتحرك فوق السحب ، وفي أعماق البحار ، وننتج ملايين من البضائع الموحدة كل وحدة منها رخيصة في الثمن وفي الصناعة . وهكذا تختفي المهارة خطوة فخطوة أمام الميكانيكية ، ويتوارى الكيف أمام الكم ، والفن أمام الصنعة ، والخلق أمام الثروة . وسيختفي الإنسان نفسه قريباً ولا يبقى إلا الأزرار والمحولات switches .

(١) يعبر برود Broad «لو أن شخصاً أشار إلى أخيه أو إلى نفسه قائلا : هذه آلة عجيبة ، فلا بد أن نعرف أنه إما مخمور أو عالم فسيولوجي . فلا أحد في الحياة العملية يسلك مع نفسه أو مع زملائه أو مع حيواناته المستأنسة سلوكه مع آلات . ولكن الفقهاء الذين لم يدرسوا الفلسفة النظرية يظهر في الغالب أنهم يصوبون من وجهة أن ينسكو نظرياً عما لا يمكن أن يسلم به عملياً أي شخص بعيد عن مستشفى المجاذيب» .

فهل يستغرب من جيل يقنع بالسينما الناطقة بدل المسرح . وبناطحات بدل البيوت ، بأعمدة التلغراف بدل الأشجار . بالمؤسسة بدل رجال الدولة ، أن يسلم آخر الأمر جميع شخصيته وقدرته على المبادأة . وأن يسمح لنفسه أن يوصف بأنه عملية آلية ؟

وقد انعكست الميكانيكية أيضاً على ظلال شخصية بوصفها بدت متزايدة في نمو ، والديمقراطيات الجشعة . فمن العسير أن يحتفظ الفرد في الغوغاء أو في الانتخابات بمبادأته أو بفرديته . وفضلا عن ذلك فقد كانت الحتمية نتيجة افتتان علم الطبيعة بعظمته الخارجية دائماً ، فظن أنه يطوي عالم العقل والفن والحب في قوانينه المزعزعة والجزئية . وعندما ننتقل ببطء من عصر الآلات إلى عصر الثقافة المبدعة ، سنتعلم أن نرى من وراء الميكانيكية سطحية الأرض والحياة النابضة تحتها . وسنفهم بعد كثير من الأخطاء والشكوك أن حياتنا البسيطة تساهم أيضاً في نشاط العالم . وأننا إذا شئنا فقد نكتب بالخيال والمعرفة بعض السطور في المأساة الغامضة التي نلعبها

٤ — عصر البيولوجيا (علم الحياة)

نود أن نشير في الختام إلى أن التفسير الميكانيكي يستدعي نقداً حقيقياً من الفلسفة ، وعلم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، بل في علم الطبيعة نفسه . وفي ذلك يقول لوسيان بوانكاريه : « لقد هجرت على وجه العموم اليوم الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر تخضع لتفسيرات ميكانيكية »(١) ويقول كاسيرر : « إن النظرة الميكانيكية للعالم في علم الطبيعة الحديث قد استبدلت أكثر فأكثر وحل محلها النظرة الديناميكية الكهربية »(٢) . ويقول ليون . « لقد أصبحت الفسيولوجيا على الرغم من جهود آلاف العمال عاجزة عن إخبارنا شيئاً يختص بطبيعة القوى التي تنتج ظواهر الحياة . وليس له مثيل مما يدرس في علم الطبيعة »(٣) وكما يحتاج علم الكيمياء إلى فكرة الكيف بالإضافة إلى فكرة الكم التي يحاول علم الطبيعة الاكتفاء بها . كذلك يحتاج علم الفسيولوجيا

(١) ليون ، تطور القوى ، ص ٨ .
(٢) Substance and Function p. 355
(٣) ليون ص ٣٦٧

إلى حساب الكيف والكم . إلى فكرتي الكائن الحي organism والمجموع totality . فالطبيعة والكيمياء يدرسان الأجزاء التي تحدد سلوك مجموعها . وعلم الحياة يدرس الكلات wholes التي تحدد سلوك أجزائها . حتى العلم يجب ذات يوم أن يتعلم كيف يرى الأشياء كلا .

لقد أصبح رفض الميكانيكية بين علماء الحياة أنفسهم أمراً مألوفاً : فأسماء دريش وبرغلوف وهالدين تجعل أي ميكانيكي يفكر طويلا ويمعن النظر . وكانت حركة « الجشطلت Gestalt » في علم النفس رد فعل عادل عن وجهة النظر الميكانيكية بين العضوية . ويقول هالدين :

« لقد سارت النظرية الميكانيكية على وجه العموم سيراً غاية السوء . فقد هجرت نظرية شوان Schwann البسيطة الميكانيكية . ونحن نعرف الآن أن جميع الخلايا تتكون بالانقسام عن خلايا سابقة . وأن مشكلة عملية نمو الخلية وتغذيتها ليست من المعميات التي نرى حلها في الوقت الحاضر بأي اتجاه ميكانيكي كما أنها ليست مختلفة أي اختلاف عن مشكلتي الإفراز والامتصاص . فالنظريات البسيطة الكيميائية الخاصة بالتنفس وغيره من عمليات التحويل . . . قد اختفت كذلك . . . وأصبح من الواضح أن أي نظرية بسيطة فسيوكيميائيةphysio-chemic تفسر الحركة العصبية أو أي حركة أخرى فسيولوجية غير كافية . . . فكل عام من التقدم الفسيولوجي يبعدنا فيما يظهر أكثر فأكثر من أي أمل في مثل هذا الحل . . . فأبحاث شرنجتون Sherrington وغيره تجعل من الوضح تمام الوضوح أنه ينبغي هجر الفكرة القديمة عن الأفعال المنعكسة الميكانيكية البسيطة والمحددة الخاصة بالجهاز العصبي .. ولست أرى أن يصدق عالماً في الفسيولوجيا — أي فائدة من النظرية القديمة بأن الحياة ككل عملية ميكانيكية . فهذه النظرية لا تساعدني في بحثي . وأظن أنها ولاريب تعوق الآن بخطورة تقدم الفسيولوجيا . وبودي لأول أن أعود إلى أستصبر أحدادنا السكسون من الأنساك بالفسيولوجيا الميكانيكية » (١) .

(١) Mechanism, Life and Personality, p. 61

ومن الأمور التي لها دلالتها أن شوبنهور ونيتشه على ما بهما من عداء للاهوت التقليدي — قد رفضا واحتقرا قبول الميكانيكية . وفي ذلك يقول نيتشه ساخراً من العلم الطبيعي الميكانيكي :

« زعمك أن تفسيراً واحداً للعالم صواب ، وهو التفسير الذي به موقفك ، وبه يتقدم البحث ويحرز تقدماً في « نطاقك » . هذا التفسير الذي يعترف بالعد والحساب والوزن والمشاهدة واللمس ولا شيء بعد ذلك مثل هذه الفكرة إلا كثرة حمق وبلاهة فهي بشاعة وسذاجة . إني أقول هذا القول هامساً في أذن أصدقائي الميكانيكيين الذين يودون اليوم مسايرة الفلاسفة . ويعتقدون اعتقاداً مطلقاً أن الميكانيك تعاليم أول القوانين وآخرها التي يجب أن تبنى عليها جميع أنواع الوجود . . . أليس العكس أكثر احتمالا ، وهو أن صفات الوجود الخارجية الأكثر ظهوراً . . هي التي تفهم أولا » (1)

ويقف علم البيولوجيا شاكاً اليوم ، لأنه كان يبحث في الموت أكثر مما يبحث في الحياة ، في نماذج محفوظة في الكحول ، في الحشرات المقيدة بالدبابيس لا الطائرة بالأجنحة ، في الجثث التي تمتد على مشارح التشريح ، في « مستحضرات » من الأنسجة موضوعة على زجاج slides الميكروسكوب . وقد تنبأ جوته بذلك كله منذ مائة عام وقال على لسان شيطانه الماكر :

إن من يدرس كائناً حياً ويصوره
يظن من الأليق أن يبدأ بالبحث
عن طريقة لانتزاع الروح منه .
وإذا فعل ذلك أمسك بيده

(1) Joyful Wisdom, Eng Tr p 339 ويبدو أن علماء الطبيعة في الوقت الحاضر قد أمسكوا عن الميكانيكية وفي ذلك يقول شرودنجر [illegible] خصوصاً من علم « الميكانيكا » من النفس المعتمدة على [illegible] ([illegible] ، الجزء الأول ، ص ٣٠١) ويقول كيسرلنج « إذا كان علماء [illegible] قد جاوزوا مرحلة [illegible] في عرضهم [illegible] » (العالم في تكوينه ، ص ٣٢٥ »).

الأجزاء التي عليه أن يفحصها ويثبتها.
ولكن وا أسفاه إن رباط الروح
الذي عزل الأجزاء وجمع بينها
قد تبدد وذهب وتبخر
هذه عملية هي التي يسر
علماء الكيمياء أن يطلقوا عليها
« اسم الأشغال بالطبيعة »
Naturæ encheiresis
وهم حين يفعلون ذلك يسخرون أنفسهم
بطريقة دون أن يشعروا (١)

لعل علم الحياة سوف يثور قريباً على سيطرة الميكانيكية بمناهج علم الطبيعة وتصوراته . سيكتشف أن الحياة التي تمتاز بدراستها أدنى إلى أسس الحقيقة من « مادة » الطبيعة والكيمياء . وحين يتحرر علم الحياة آخر الأمر من قبضة منهج ميكانيكي الميتة . فسوف يخرج من المعمل إلى العالم . سوف يشرع في تعديل أغراض الإنسانية كما غيّر علم الطبيعة وجه الأرض . وسيقضي على الاستبداد المتوحش للآلات على البشرية . وسيكشف ، حتى للفلاسفة الذين ظلوا خلال قرنين من الزمن عبيداً لعلماء الرياضة والطبيعة ، عن الوحدة الموجهة ، والمعنى الخالق ، وتلقائية الحياة الساحرة .

(١) فوست ، ترجمة مارس ص ٨٧ وهذا مثال لما حدث لجوته حين يترجم

الجزء الرابع

مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس

أخلاقنا المتغيرة

١ – نسبية الأخلاق

تتغير الأخلاق اليوم . وهى التى تتغير بعنف شديد ، كما تتغير السحب تسوقها الرياح . فقد ذابت أمام أبصارنا التقاليد والنظم القديمة قدماً لا تعيه ذاكرة الإنسان ، كما لو كانت عادات بسيطة . اكتسبت حديثاً ويسهل نسيانها . فالفتوة التى هى كما يقول نيتشه «لا يستطيع المرء أن يكون شديد الرقة مع النساء» ، والظرف gallantry الذى يكسو الأبدان رشاقة والعقول كياسة . لم يسلما من تحرر المرأة . فقد قبل الرجال تحدى المساواة ، ووجدوا من الصعوبة عادة حبس يطرحهم ما لا يليق تقليده . ثم العفة والحياء مما كان يغرى العاشق بأعمال البطولة ، ويضاعف قوة كل قوة ، فقد سقطا إلى الحضيض ، وتحدت المرأة فى سن الشباب تخطب ود أعدائها بالإفراط فى إظهار مفاتنها ، حتى لم يعد حب الاستطلاع معيناً على الزواج. وجمعت حياة المدينة ملايين من جياع الذكور فوقعوا فريسة سهلة فى أيدى عملاء اللذة . وأخذ المسرح ينافس أيام شارل الثانى . وأصبح الأدب الحديث من الإباحية phallic (١) كما كان فى عصر التدين قديماً . وبدأ الزواج يفقد ما كان له من رواج ، وهو الذى كان السبيل إلى كل متعة جسدية ، والذى إذا تم مبكراً أدى إلى شىء من الاستقرار فى الحياة الإنسانية وفى السلوك. فقد أخذ الرجال يظنون أن فوائده يمكن الحصول عليها بغير آلامه . فهو يضيق

(١) يشير المؤلف إلى أعياد اليونان الدينية قديماً حين كانوا يحتفلون بإله التناسل ويحملون عضو التناسل أثناء الاحتفال من جملة المراسيم وفى صورة قديمة للمصريين موجودة على جدران المعابد مايدل على هذا النوع من التقديس (المترجم)

من كل جانب ويتوقف بالتأجيل إلى سنين غير طبيعية . وتتشعث الأخلاق .
أما الأسرة التي كانت فيما مضى مهد الأخلاق والأساس المنيع للنظام الاجتماعي ، فقد انحدت إلى فردية الصناعة في المدينة ، وتمزقت إرباً إرباً خلال جيل واحد . وأصبحت البيوت التي بنيت بعرق جبين لستر البنين والبنات صامتة ومهجورة ، فقد تفرق الأنسال سعياً وراء أشغال بعيدة ، تاركين الأب والأم وحدهما في بيتهما الكئيب ينظران إلى الكراسي الخالية ، ولا تردد أي غرفة أصوات الأسرة .

فلننظر كيف أصاب التحول العظيم الذي تجتازه أخلاقنا وبدئها .

من المسائل الدقيقة التي يبحثها علم النفس في الوقت الحاضر هذه المسألة وهي : هل يشعر صغارنا في خطاياهم التي يأتون بها بلذة أعظم مما يشعر به من هم أكبر سناً في شكوى منه ؟ ويبدو أن الحياة من وجهة نظر الأخلاق تنقسم إلى مرحلتين ، ننغمس في الملذات في الأولى ، ونعظ في الثانية . ثم ينتهي الأمر بالشهوة إلى الخير . وتصبح تيارات الرغبة المتدفقة كلاماً يتبدد في الهواء . ويتراخى وقع الحياة ، ويتغير المزاج . ويصعب على الشيخوخة أن تغفر للشباب . و « الحقيقة » في هذه الأمور وظيفة للعمر ، و « اللاأخلاقية » immorality عند قوم هي أخلاقية عند الآخرين .

ونحن الذين قد انصهرنا في بوتقة الشباب ، ولم نصل بعد إلى الشيخوخة (من بدري؟) ، قد نحاول إذن وإننا لنحظ فهم حلقاتنا ، وقد ننجح في بلوغ هذا الفهم وأفضل سبيل إلى هذا الفهم هو النظر التاريخي . فعلينا أن نتأمل في تغير « الخير » ، وفي النسبية السيالة للأخلاق . يجب علينا أن ننظر في أصل الأفكار الأخلاقية الأرضية وغير المعصومة ، وفي اعتمادها على الأسس المتغيرة للحياة الإنسانية .

والأخلاق Morals ، في الاصطلاح اللغوي والتاريخي ، مستمدة من التقاليد customs (mores) . والأصل في الأخلاقية هو التمسك بتلك التقاليد التي تعد جوهرية لسلامة الجماعة وحفظها . وبعض التقاليد مجرد اصطلاحات ، مثل استعمال الشوكة والسكين على المائدة ، وليس لها مظهر أخلاقي . فإذا قطعت « سلطة salade » غيرك بسكين فليس ذلك ذنباً ، مع أنه يعاقب بشدة

أكثر من الفسق . ولكن بعض التقاليد مثل عدم تعدد الزوجات monogamy أو تعددها polygamy . والزواج من داخل القبيلة endogamy أو من خارجها exogamy . وتحريم القتل داخل القبيلة وإباحته خارجها . تعتبر حيوية للصالح العام ، وتصان بضروب عاطفية من الخطر والوعظ والحرمات . والاصطلاحات تقاليد إلى الممارسة أدنى منها إلى الوعظ . والأخلاق تقاليد إلى الوعظ أدنى منها إلى الممارسة . هي واجبات نطلبها من جيراننا .

ومن المدهش أن نرى كيف اختلف القانون Code الأخلاقي من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى آخر . فقد انزعج القديس أغسطين من تعدد زوجات إبراهيم ، ولكنه بين بحق أن قدماء اليهود لم يروا « لا أخلاقيا » أن يدفع أحدهم نفقات عدة زوجات ، فهي عادة الوقت . ولم تكن تعتبر مضرة بالجماعة . حقاً قد يصبح تعدد الزوجات في عصر الحرب فضيلة تساعد بكثرة الأولاد . وقبل أن يحل النظام الاجتماعي محل النزاع المستمر بين قبيلة وأخرى ، كان معدل الوفيات بين الرجال يزيد زيادة عظيمة على مثله بين النساء . فكان تعدد الزوجات نتيجة طبيعية للتفوق العددي في الجنس الذي كان فيما مضى ضعيفاً . إن المرأة لتؤثر امتلاك ظفر من رجل على الحرمان من الرجال على الإطلاق . أما الاقتصار على زوجة واحدة فعقوبة من عقوبات السلم القلق .

وهلم بنا نستعيد بعض الأمثلة على نسبية الأخلاق . فالشرقيون يغطون رءوسهم دليلا على الاحترام ، والغربيون يكشفونها . والمرأة اليابانية (ولو أن ذلك مثل كثير من الحقائق قد تغير) لا تلقي بالا إلى عري عامل ، ومع ذلك قد تبلغ من الحياء مبلغ بريسكيلا دين Priscilla Dean وكان من « الفحش » obscene (المعنى الحرفي « على المسرح » — إشارة إلى إباحية أرستوفان في كوميدياته القديمة)[1] أن تكشف المرأة العربية عن وجهها ، أو المرأة الصينية عن قدمها ، وتغطية هذا الجزء أو ذاك يدعو إلى إثارة الخيال وبعث الرغبة .

(١) يشرح المؤلف الاصطلاح الإنجليزي ويرده إلى أصله اللغوي ، وكان أرستوفان أعظم شعراء الكوميديا في أثينا ، وكان معاصراً لسقراط ، وله تمثيليات كثيرة مشهورة ، ولم يكن الأدب المكشوف عيباً ، كما لم يكن ذلك عيباً في الاحتفالات الدينية (المترجم) .

فيخدم مصلحة الجنس . وكان سكان الملايو يئدون المريض والشيخ ، وظنوا أن ذلك طريقة كريمة للتخلص من تعذيبهم[1] . ويقول لابوك Lubbok : كانوا في الصين يعدون إهداء تابوت لشيخ من ذوى القربى من الهدايا الملائمة ، وبخاصة إذا ساءت صحته[2] .

ويقول سومنر « يباع لحم الإنسان في جزيرة بريطانيا الجديدة في الحوانيت ، كما يباع اللحم عند القصابين في بلادنا . وفي بعض جزر سولومون على الأقل يسمن الوصيفون من البشر كالخنازير (ويفضلون النساء) إعداداً إياهم لوليمة »[3] . ومن أيسر الأمور أن نجمع مئات غير ذلك من الأمثلة تبين أن « اللاأخلاقي » في عصرنا وبلدنا « أخلاقي » في عصور أخرى وبلاد أخرى . وفي ذلك قال أحد مفكري الإغريق القدماء : إذا جمعت في كومة سائر التقاليد التي تعد في بلد مقدسة وأخلاقية ، ثم رفعت منها جميع التقاليد التي تعد في بلد آخر كفراً ولا أخلاقية ، فلن يبقى في الكومة شيء[4] .

٢ — القانون الزراعي

من الواضح أن القوانين الأخلاقية قد تتغير ؛ فما الذي يغيرها ؟ ولماذا تعد بعض الأفعال حسنة في زمان أو في مكان ، ثم تصبح قبيحة في زمان أو مكان آخر ؟

من المحتمل أن تبدل الأساس الاقتصادي للحياة هو الذي يحدد تغير الأخلاق . وقد وقع في التاريخ نوعان من التغير العميق من هذا القبيل : أحدهما الانتقال من الصيد إلى الزراعة ، والآخر الانتقال من الزراعة إلى الصناعة . وهذان هما الحدثان الجوهريان في التطور البشري ، وعليهما تدور سائر الحوادث والعمليات الأخرى . وفي كل طور منهما اتضح أن القانون الأخلاقي الذي كان

(١) Sumner, W.G, Folkways, pp. 324, 431, 440.

(٢) The Origin of Civilisation, p 24.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٤) جومبرز ، مفكرو الإغريق ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ .

يرعى صالح الجماعة في طور سابق من الحياة أصبح غير ملائم ، وأخذ يتعد بطيئاً مضطرباً في ظل النظام الجديد .

وقد عاشت جميع أجناس البشر تقريباً في تقديم على مصدره الحيوانات ، وقتلها ، وتقطيع أجسادها – في نفس المكان عادة – ثم أكلها ، وعالباً بيئه ، ودائماً بما يملأ معدة الصياد إلى أقصى ما تضيق . ذلك أن الحضارة تعالها الاقتصادى من التموين والأمن security . لم تكن قد ظهرت بعد . وكانت الشراهة فضيلة لازمة لحفظ الذات . كان الإنسان البدائي يأكل كما يأكل الكلب في العصر الحديث . لأنه لم يكن يعرف متى يتناول وجبته التالية . والقلق insecurity أم الشراهة . كما أن القسوة بنت الخوف . وما أكثر ما ترجع القسوة والشراهة ، والعنف المتجدد ، ونزعة الإنسان العرضية للحرب في الوقت الحاضر ، إلى مرحلة الصيد . استمع إلى هذا الرجل في المطعم يهمس في أذن الخادم : « هات الشواء ناقص النضج » . إنه لا يزال في مرحلة الصيد

وكل رذيلة كانت ذات يوم فضيلة ، وقد تسترد اعتبارها مرة أخرى ، كالكراهية التي يصبح لها احترامها في الحروب . كانت الوحشية والشراهة ضروريتين في قديم الزمان للكفاح في الحياة . وهما الآن ارتداد atavism سخيف ، وليست خطايا الإنسان ثمرة سقوطه ، إنها بقايا تخلفت عن صعوده وعندما نختار الدوافع الملائمة للحاجات الجارية بمصرنا الآن ، والجيران والوعد بوابل من المدح أو الذم كما نعطى الكلب الذى ندربه السكر أو نضربه بالسوط . وعلى هذا النحو تشجع بعض الخصال التي وهبتها لنا الطبيعة في اعتدال ، ونهذب بعض الخصال الأخرى التي تفيض عن الحاجة الاجتماعية المعاصرة بأساليب من الصرف مثل الحجز بعد المدرسة ، أو الكي في الكرسي الكهربي . دع ضرباً من السلوك يذم الآن أو يمدح ، ويزيد أو ينقص إلى حد الإفراط – أي إلى حد تعريض الجماعة للخطر – تجد أن الذم censure أو المدح praise يتحولان بالتدريج إلى اللوم blame أو التشجيع encouragement . وعلى هذا النحو احتضنت أمريكا دوافع الكسب ، واستعدت من الفضائل الحربية مادام أن مواردها في حاجة إلى الاستغلال في الداخل ، وإلى حماية يسيرة من الخارج . أما الآن

فيبدو أن الحاجة إلى الاستغلال أقل ، وإلى الحماية أكثر (كما يقولون) ؛ فلم يعد أحدنا يبجل أصحاب الملايين لمجرد ثروتهم في الوقت الذي يطير فيه ضباطنا بعظمة غير مألوفة . فهناك عرض وطلب في الأخلاق كما يوجد في البضائع . وإذ كان الطلب يخلق العرض في ميدان أكثر منه في الآخر ، فسبب ذلك أن النفس أعطف من الأرض وأقل منها انقياداً . ولكن النفس ستتلقى كذلك بذوراً مختمرة فتنتج ثمراً حلوة أو مرة .

ولسنا نعرف بالضبط متى وكيف انتقل الناس من الصيد إلى الزرع ، ولكنا على يقين من أن هذا التحول العظيم خلق طلباً لفضائل جديدة ، وانقلب كثير من الفضائل القديمة رذائل مع « روتين routine » المزرعة المستقر والهادئ . وأصبح الدأب على العمل ألزم للحياة من الشجاعة ، والاقتصاد مرغوباً فيه أكثر من القسوة ، والسلم أعظم نفعاً من الحرب . وفضلاً عن ذلك تغيرت مرتبة المرأة . فأصبحت أعظم قيمة في الأرض منها في الصيد ، لأنها الآن تكسب بأداء مئات اللوازم في الدار ثمن بقائها أضعاف المرات . والزواج أرخص من استخدام امرأة تكلف نفقة أكثر لأداء هذه المهام المتعددة . بل أكثر من ذلك : كل طفل تلده الزوجة تصبح المعونة التي يقدمها أكثر من تكاليف غذائه اليسير وكسائه البسيط أضعافاً مضاعفة . فالأبناء يسعفون آباءهم في الحقل حتى يتم بلوغهم ، ولا يحتاجون إلى مال ينفق في تعليمهم . حتى البنات كن نافعات إلى حد ما . من أجل ذلك ارتفعت الأمومة إلى مرتبة القداسة ، وعد منع الحمل منافياً للأخلاق . وكسبت الأسرة الكثيرة العدد رضا الإله .

وفي ذلك الوسط الزرعي أخذ قانوننا الأخلاقي الموروث شكله . لأن الإنسان كان ينضج في الحقل في سن مبكرة ، ينضج في العقل كما ينضج في الاكتفاء الذاتي ، فكان يفهم في العشرين من العمر مهام الحياة كما يفهمها وهو في الأربعين . إذ كان كل ما يحتاج إليه محراثاً ، وساعداً قوياً ، وعيناً يستطلع بها تقلبات الجو . ولهذا السبب كان يتزوج في سن مبكرة ، حسبما تتطلب الطبيعة منه ذلك ؛ ولذلك لم يطل تبرمه بالقيود التي يفرضها القانون الأخلاقي على الصلات الجنسية قبل الزواج . ولهذا بدت الحاجة إلى الطهارة أمراً معقولاً ، حتى إذا أطلق

لنفسه العنان . أما عفة النساء فكانت أمراً لازماً لأن انتهاكها يفضى إلى أمومة بغير حماية .

وكان من المعقول كذلك أن تقبل تعاليم المسيحية عدم تعدد الزوجات وعدم انفصال الزوجين ، ذلك أن زوجة الفلاح كانت تلد له كثيراً من الأطفال ، وكان من الصواب أن يحتفظ الأب والأم بولاء أحدهما للآخر إلى أن يستقر هؤلاء الأطفال فى العالم ، حتى إذا بلغ آخر أطفالهما سن البلوغ دبت شهوة التنويع مع فتور الجسد وامتزاج روحهما ومشاكلتهما . وكان قانون البيوريتان[1] (المتطهرين) Puritans على شدته عملياً فى الريف ، وأنتج جنساً قوياً استطاع أن يعمر قارة فى قرن واحد . لقد طبقت الفضيلة دائماً أكثر مما نتوقع كى تحصل على حاجتها .

وظل هذا النظام الأخلاقى الزراعى ، من العفة ، والزواج المبكر ، والاقتصار على زوجة واحدة بغير طلاق ، والميل إلى كثرة النسل ، متماسكاً خمسة عشر قرناً من الزمان فى أوربا ومستعمراتها . وكان ذلك أمراً فى غاية اليسر ، ما دامت الأسرة فى الريف هى وحدة الإنتاج ، يتعاون أفرادها على زرع الأرض ، ويقتسمون ثمارها . بل إن الصناعة حين أخذت فى الظهور كانت صناعة منزلية ، تجرى فى البيوت لا فى المصانع ، وتملأ أرجاء الدار بجلبة جديدة وشغل جديد ، ووظائف جديدة ومعنى جديد . حتى إذا انتهى أداء العمل اليومى ، اجتمع الأسياد من الجماعة الصغيرة إلى مائدة واحدة فى المساء ، أو تجمعوا أمام نار المدفأة ، يلعبون الألعاب ، أو يقرأون الكتب التى تقص عجائب العالم البعيد . كان كل شىء يتآمر على تقوية الأواصر التى تربط الأخ بأخيه ، والابن بأبيه ، والرجل بزوجته . لقد كان لتلك الحضارة البيوريتانية (المتطهرة) فضائلها .

---

(١) فرقة دينية ظهرت فى انجلترا فى القرن السابع عشر ودعت إلى التشدد فى الدين وإلى الطهارة . وضطهدت أسرة ستيوارت أصحابها فهاجروا إلى أمريكا وكانوا سبباً فى استعمارها .

(مترجم)

٣ـ القانون الصناعى

ثم ظهرت المصانع فجأة . وأخذ الرجال والنساء والأطفال يهجرون البيت والأسرة . والسلطة والوحدة ، ليعملوا كأفراد يأخذ كل منهم أجره بمفرده ، وذلك فى أبنية موحشة أقيمت لتأوى الآلات لا البشر . ثم نمت المدن فأخذ الناس بدلا من البذر والحصاد فى الحقول يكافحون معركة حياة أو موت فى ورش مظلمة قذرة مع السور والطنابير وصخب السكاكين والمناشير . وآلاف العجلات والمكابس . والأذرعة والتروس من حديد . وتوالدت الاختراعات كما تولدت الطبقة العاملة التى تشتغل بها . وفى كل عام كانت تظهر أنواع جديدة من الآلات تجعل الحياة أصعب تناولا وفهماً . وأصبح النضوج العقلى أكثر تأخراً عما كان فى الريف . فالرجل فى العشرين من العمر فى المدينة الحديثة لا يزال صبياً فى وجه عالم متغير ومعقد . ويحتاج إلى عقد آخر من السنين حتى يتخلص من أوهامه بتعليمه عن الرجال والنساء والدول . ولعله قد يبلغ فى الأربعين النضوج العقلى . وطالت فترة النضوج وأصبح التحلى بقدر عظيم من التعليم ضرورياً ليتلاءم الذهن مع مطالب الحياة الحديثة

وأخذ انتقال الإنسان من الزراعة إلى الصناعة يؤثر فى الحال على سلوك الناس الأخلاقى . وتأخر النضوج الاقتصادى إلى الحد الذى تأخر النضوج العقلى تقريباً . إلا فى طبقة العمال اليدويين حيث يبلغ الفتى سن الاكتفاء الذاتى فى الواحدة والعشرين من العمر ويستطيع أن يتزوج . أما فى الطبقات الأعلى فإن سن الاكتفاء الذاتى ترتفع مع ارتفاع المنزلة والرفاهية . إذ يتأخر النضوج الاقتصادى كلما ارتفعت المهن . وفى التجارة والصناعة ظهرت آلاف من العوامل تؤثر فى عمل امرئ من قريب أو من بعيد ، وقد تؤدى إلى فقدان عمله فى أى وقت .

وأخذ الرجل — وقد أثقلته مطالب الحياة ومراوغاتها بما لم يعهد من قبل — يرى المرأة وقد تجردت من وظائفها مع نمو المصانع والآلات ، وإذا تزوج كان مضطراً بحكم التقاليد المنحدرة عن القانون الزراعى إلى الاحتفاظ بزوجته فى البيت . وهو بيت أصبح الآن مجرداً من الأهمية والعمل ، فتكون الزوجة حملا

جميلا ، أو تمثالا حياً يزين داخل البيت ولا شيء أكثر من ذلك . وجميع أنواع العمل التي كان عليها أن تقوم بأدائها في الأيام الخوالي أصبحت الآن تؤدى في المصانع ، وعلى الرجل أن يدفع ثمنها مما يكسبه من عمله . وإذا أرادت امرأة شغل وقتها بالحمل زادت متاعبها لوجودها في المدينة . فالحمل في الوقت الحاضر يكلف المال الكثير أجراً للأطباء والممرضات والمستشفيات والأدوات .
وليس من اليسير على المرأة في العصر الحديث أن تنجب من الأطفال بالسهولة والبساطة كما كانت جدتها تفعل من قبل . وكلما كثر عدد الأولاد زادت الحالة سوءاً . فكل واحد منهم عبء لا غنم ، وهم في حاجة إلى التعليم حتى السادسة عشرة ، وقد يمتد تعليمهم إلى السادسة والعشرين . فهل إنهم يدفعون أجرة البيت ونفقة السفر ، ويذهبون إلى المسارح والملاهي بنقدهم . كما يحتاجون إلى ملابس من أحدث طراز مسايرة لغيرهم من الأطفال الذين يرغبون في مجاراتهم بالمثل . حتى إذا بلغوا السن التي يكسبون فيها قوتهم هربوا من مسئوليات الأبوة إلى حرية الحياة الفردية الخالية من المسئولية . بل حتى إذا لم يهجروا البيت تحملهم رغبتهم في ابتداء العمل والكسب ، وتفرق الأسواق والمصانع والحرف في أماكن بعيدة ، ينتزعهم من البيت ويبعثرهم كما تتناثر الشظايا من قنبلة منفجرة . من أجل ذلك بدا الحمل في المدن صورة من الاستعباد ، وتضحية ثمينة في سبيل حفظ النوع . تؤخر المرأة الحصيفة وقوعه إلى أكثر ما تستطيع ، وكثيراً ما تؤثر العقم على تأجيل الحمل . وارتفع تحديد النسل إلى قضية تتضاعف مكانتها ، وأصبحت وسائل منع الحمل إحدى مشكلات الفلسفة .

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه . لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل ، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة .

وتعرت هذه الشروط كلها علة أوسع وأعم لتغير أخلاقنا، وهى الزواج المتأخر. فقد كان متوسط سن الزواج بين الرجال في باريس سنة ١٩١٢ الثلاثين وكان في انجلترا ستاً وعشرين (١). ومن المحتمل جداً أن يكون هذا المتوسط قد ارتفع في انجلترا خلال السبع عشرة سنة الأخيرة. ومن الواضح أن باقى العالم «المتحضر» (أى المتصنع) أخذ في الاتجاه في نفس الوجهة، لأن الأخلاق كالأزياء تفد من باريس. وهذا التأخير في الزواج أشد بين طبقات الموسرين في مجتمعات المدن، مع أنهم في منزلة تجعلهم أقدر على تربية الأطفال عقلياً وجسمياً تربية حسنة. وكثير منهم لا يتزوج على الإطلاق. فمن بين ٣٦ مليوناً وهم سكان انجلترا وويلز سنة ١٩١١، تخلص ٧ ملايين من الزواج، من جملة عدد البالغين وهم ٢٠ مليونا (٢). وكلما هجر الناس الريف وازدحمت بهم المدن ارتفعت سن الزواج. وطالت صحبة الرجل الحسية تنتهى به إلى العجز عن الزواج.

واتجهت أكثر فأكثر رغبة رجال الطبقة المتوسطة إلى اعتبار الزواج خسارة عليهم، فهناك آلاف من النساء ينتظرن إقبال الرجل لإشباع رغبته الجنسية، وماذا يمكن للزواج تحقيقه أكثر من ذلك، وقد أصبح الأطفال حملا ثقيلا، والبيت شقة في عمارة كبيرة؟ ويتأمل الأعزب حال أصدقائه المتزوجين، ويرى كيف ينهمكون على العمل ليحتفظوا للزوجة بحياة ناعمة وفاسدة تتفق مع وضعها، فيعجب ما الذى دفع هؤلاء الذكور إلى هذا الاستعباد الذى لم يسبق له مثيل. ويرى مستوى الرقى من الحياة والوجاهة حين يحيط الأب من الطبقة المتوسطة ابنته بهالة من الثروة والسيارات والخدم اجتذاباً لزوج ثمين. فيعجب كيف يستطيع بدخله المحدود في أول الشباب مسايرة هذه الرفاهية التى حققها الأب في بيته بعد زمن طويل. ويرجع الشاب إلى رصيده في البنك فيقرر إيثار السلامة إلى حين.

فحياة المدينة تفضى إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو

(١) Gallichan, W M The Great Unmarried, p. 47.

(٢) المرجع السابق

الجنسي يتم مبكراً عما كان من قبل . كما يتأخر النمو الاقتصادي وبينما كان قيام الزراعة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي . أما الآن فيه يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة . وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم . وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية . وحتى الحياء الذي كان يضفي على الجنس جمالاً . ويتفاخر الرجال بتعدد خطاياهم . وتطالب النساء بحقها في الانغماس في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً . وتختفي البغايا من الشوارع لمنافسة الهاويات لا لرقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي . ولم يعد العالم المدني يحكم به .

وذهب ليبمان إلى أن زواج الرجل مسألة يستغرق في بحثها طول عمره(١) . ومن الواضح أن شباب اليوم يوافقونه على ذلك . فبعضهم يفكر طويلاً وطويلاً ، ثم يصبح أعزب ، وينتهي أخيراً إلى الزواج عن ملال . وإنك لترى هذا يعتكف في الحدائق العامة يسعى أحدهم إلى الاستمتاع بالحياة مع فتاة عرفت مع غيره الحياة ، متنقلاً مع ذلك من ساقطة إلى أخرى . أو يتردد على (الكباريهات) حتى تفتر نفسه ويسأم استعراض السيقان العارية المختلفة الأشكال ، ويكتشف أن جميع الفتيات في (الجوقة) متشابهات ، فيمل آخر الأمر الرذيلة نفسها . ثم يجد أن صعوبات الزواج ليست شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الفراغ الذي يحس به معظم العزاب في حياتهم . فتلك المسئوليات المتزايدة . والمشكلات المتلاحقة أفضل ألف مرة من الشعور المتزايد بعدم الكمال ، وحياة الإنسان وحيداً كغصن المعطل عن حمل الثمار .

ولسنا ندري مقدار « الشر الاجتماعي » الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولاً عنه . ولا ريب في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى هؤلاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على

(١) Williams, H.S., The Science of Happiness, p. 218.

املاك الذي جسده في عصر قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر نص في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من ناحية بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة تعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة . وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عدم حقيقة الإنسان . وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المحال أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح أو كتب الأدب المكشوف . تلك التي تحول كسب المال بالاستثارة الرغبة الجنسية في الرجال وبنساء الجروميين وهم في حمى الفوضى الصاعقة من حمى الزواج وريثه مفسحة

ولا شك أن خطب الآخر من الصورة كائنة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في شتات الطهر . ونجد الرجل لإرضاء غرائزه الجنسية في هذه الفترة من التأجيل نصا ما دويا مجهزاً بأحدث المحسنات ومنظماً بشتى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة رغبات وإشباعها . ولكن الفتاة التي سوف يتزوجها بعد تجربة ستعرفت عشر سنوات . يجب أن تحافظ على عفتها ، فلا يغريها أحد حتى يلتقيا بين أحضان التجربة . (شبه بمراك العروس في ليلة الزفاف تبرد دون تعرف على الكمال) . وهذا وضع غير معقول بعض الشيء في تركيبه . ولا نزاع في أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى ما كان يقتضيه الآباء المعروفون من مهر غال ثمناً لعفتهن . وقت أن كان الزوج يشتري صراحة . ولا ريب كذلك في ارتباط هذا الأمر بتلك العرف المزدوج الذي أصبح مقدساً على مر الزمن . والذي يقتضي إخلاصاً من جانب واحد هو جانب الأم حتى يمكن التعرف على ورثته ، وإثبات حقهم في الميراث . وهذا في نظر « العقل الخالص » ضرر فادح . ومن يصون استمراره على الأرض .

ولا شك عندي أن خلو من الهوى في أن كبح جماح الشهوة بعد البلوغ أمر غير طبيعي . والكبت الجنسي يؤدي إلى ضروب كثيرة من الأمراض

العصبية والانحرافات ، وهو ضغط لا مسوغ له على العقل والجسم في هذه المرحلة الدقيقة من التحول ، حين يحتاج العقل والجسم إلى صحة وافرة . ومن المتناقض أن يقدح عالم الأخلاق في العلاقات الجنسية قبل الزواج إلا إذا هيأ مقاومة فعالة للقوى المفضية إلى تأخير الزواج . ولن نستطيع تحقيق هذه الحاجات إلا إذا أمكن أن نعود مرة ثانية تلك الشروط التي كانت معقولة في ظلها . وقد حان الوقت لمواجهة هذه المشكلة دون مواربة : فيجب إما أن نطلق حرية العلاقة الجنسية قبل الزواج ، وإما أن نحث على الزواج بالرجوع إلى السن الطبيعية .

٤ – رجالنا المتحررون [١]

جرت العادة أن نربط بين العربدة الجنسية والشباب ، ولكن هذه العربدة تسود جميع الأعمار التي لم تزل فيها بقية من قوة ولم ينهكها العمل . فقد فاضت المدن بسبب تأخير الزواج بالرجال والنساء الذين يسعون إلى استبدال مثيرات التنويع الخارجية بمهام الأبوة وتدبير المنزل مما كان يستغرق وقت الآباء والأمهات . وهذا الضرب من الناس بوجه خاص (وكذلك الرجال من أهل الريف حين يذهبون إلى المدينة في اجازة) هو الذي يملأ حانات الليل night-clubs ، حيث يذهب المرء وحيداً ويسمح لنفسه أن يخدر بالشراب ، وأن تسبب ماله تلك الفريسة اللطيفة التي يظن أنه قد يجد في أحضانها بديلا عن الزوجة . وعادات هذه الطبقة آخذة في الانتشار بسرعة بين جميع الطبقات ، فقد أصبحت الإباحية بدعة ، ولا يجرؤ أي رجل على التسليم بأنه أمين لزوجته ، أو يؤثر الصحو على السكر . فطابع العصر في الوقت الحاضر أدنى إلى إباحية الرجولة منه إلى رومانتيكية الشباب .

وقد رأينا أن تأخير الزواج هو الأصل في تحول أخلاق الخارق في المجتمعات الحديثة . وهنا أيضاً بمقدار ما تتدخل العوامل الشخصية يجب أن نلتمس علة التغيير في الآباء لا في « الجيل الأصغر » . وغرائز الشباب راسخة

(١) يتكلم المؤلف عن المرحلة التي تلي مرحلة الشباب ، ويسمي أصحابها « الأكبر سناً elders » . وفي اللغة العربية تسمى هذه المرحلة بالرجولة وتعقبها الكهولة ثم الشيخوخة (المترجم) .

قوية وقد تقوده سريعاً إلى تقييد نفسه بالزواج . ولكن الأب الحذر والأم الغيور يسألان الشاب في تحفظ كم يكسب من مال يبيح له متابعة هذا الغرام المجنون . ويبدو أن حكمة الجيب هي التي تكوّن فلسفة الوالدين الأساسية وهما في منتصف العمر ولكنهما بسبب شهوتهما الخامدة ولا يخطر ببالهما أن عاطفة الشباب قد تسوّغ أموراً لا يستطيع عقل الشيخ فهمها . فالجيل الأكبر سناً إذن هو الأكثر بعداً عن الأخلاق . فهو الذي لا يحفل بصالح المجتمع أو الجنس ويحد من دوافع الطبيعة الحكيمة . فيصبح بالفعل أن يقضي الشباب سنوات عدة من الإباحية تمهيداً لعصر زواج سعيد وأطفال أشداء . أما إذا كانت نظرة الآباء أوسع فيجب عليهم أن يضعوا المال في المرتبة الثانية بالنسبة إلى سعادة وصحة الفرد والجماعة . وأن يتعاونوا مع الطبيعة . وأن يقدموا بعض التضحية يتمكن بها أبناؤهم من الزواج المبكر . وإلى أن تسود هذه النظرة فلنا أن نرد لا أخلاقية الشباب في معظمه لآبائه المتحررين .

ومن الذي يقول إن خلاعة الشباب أسوأ من عدم استقرار الزواج في سن الكهولة ؟ انظر إلى ضعف الطلاق المستمر على الزواج تجد أنه يزعج حتى أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالإحصاء . ففي دنمرك عام ١٩٢١ كانت نسبة الطلاق مساوية لنسبة الزواج وارتفعت نسبة الطلاق عن الزواج في السنوات الأربع السابقة من ٢٥ إلى ٥٠ [1] وفي شيكاجو عام ١٩٢٢ تم ٣٩٫٠٠٠ زواج ، و ١٣٫٠٠٠ طلاق وفي ولاية نيويورك عام ١٩٢٤ قلت نسبة الزواج ٤٫٦ في المائة عن عام ١٩٢٣ ، وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٨٫٢ في المائة [2] و [3]

أما الأسباب التي تبنى عليها المحاكم الحكم بقطع حبل الزواج فمصطحبة مع براعتها ، مثل الهجر ، والقسوة ، والإهمال ، والسكر ، وما إلى ذلك . . . كل هذه الأسباب كانت مجهولة حين كان الطلاق نادر الوقوع . ذلك أنه تحت

(١) Literary Digest, Feb. 17, 1923.

(٢) New York Times, Nov. 15, 1925.

(٣) في عام ١٩٤٩ كانت نسبة الطلاق الربع في ولاية نيويورك — أنظر لوس أنجلز تايمس ، ١٠ أبريل سنة ١٩٤٩

هذه العوامل السطحية يوجد هذا النوع الجديد من الأبوة . وهذه الشهوة إلى التنويع المتأصلة في طبيعة الإنسان والتي تضاعفت اليوم أضعافاً مضاعفة مع فردية الحياة الحديثة ، وتعدد المثيرات الحسية في المدينة ، والإغراق في المتع الحسية .

وترجع جاذبية المرأة كزوجة من جمالها إلى حد كبير . فالرجل يختار الزوجة لما فيها من جمال ، لأن جمالها كان في القديم سبيلا إلى أمومة قوية . ولكن الزواج يطول على مر الزمان . ويأخذ الجمال في الذبول . والرجل الذي يتزوج امرأة لجمالها لا يستمتع بها إلى الأبد . أما جاذبية الرجل كزوج فترجع إلى حد كبير إلى الشخصية والفحولة . ومع ذلك فإن أهم شخصية ، وأقوى رجولة يجب أن تخبو بعد ألفة وصحبة إجبارية تدوم سنين عدة . لذلك ينجو الرجل بنفسه بالتغيب عن البيت بعض الوقت كل يوم . وتسعى المرأة إلى الاحتفاظ بجمالها بأن تؤجل الحمل . وتعالج بشرتها بألوان من المستحضرات الكيمائية تجعل الأسمدة الزراعية العلمية إلى جانبها بدائية . ولكن سرعان ما يظهر جوهر المسألة إلى الوجود . إذ يجب أن تحل جاذبية الأمومة محل الجاذبية الحسية حتى تحتفظ بكيان الزواج . وعندئذ تزدهر الزوجة بألوان من البهاء لم يكن الزوج يحلم بها في فلسفته . فهي تتغير الآن ، وتنمو ، وتتفتح مرة أخرى ، ويلفها الإعجاب الغريزي بالطفل بغلالة جديدة قوية من السحر . وإذا فقدت الزوجة هذه الصفات أصبح البيت داراً عارية عن جدران ميتة تضم جسد زوجين . ثم لا تلبث أن تضم شخصين متباعدين ولا غير ، حيث كان من المحتمل أن تنشأ في تلك الدار أسرة .

٥ — الأسرة

ومع ذلك فالأسرة أكثر النظم الاجتماعية بقاء ، وأشدها قرباً من الطبيعة ، لأنها ترتكز مباشرة على ميول موروثة لا تدفع إلى مجرد الانجذاب الحسي فقط ، بل إلى إنجاب الأطفال وتربيتهم ، ولذلك لا نجد في العادة ضرورة لطرح هذا الموضوع على البحث الأخلاقي . وما نسميه « غريزة التناسل » عبارة عن متاهة

معقدة من دوافع واستعدادات واتجاهات يؤثرها صاحبه . وأكبر الظن أن الدافع إلى الاتصال الحسي يجب أن يتميز تميزاً دقيقاً عن الميول التناسلية كالرغبة في الإنجاب . والميل إلى المثابرة على العناية بالأطفال بعد ولادتهم . ذلك أنه ولو أن بعض النساء وكثيراً من الرجال يعتقدون في خلوهم من الرغبة في الإنجاب ، فهناك قليل من الرجال وقلة أقل من النساء لا يكتشفون في الحال أن الطفل ظاهرة رائعة ومحبوبة حتى إذا كان مكروهاً ومُشْكلا. إن أبرد الفلاسفة متحيز لصالح طفله . فإذا كان الطفل سقيما نما حبه في القلب مع العناية به . كما يزداد حب الفنان للصورة التي تتشكل بين يديه . وإذا كان الطفل قبيحاً أعمت الطبيعة برحيمه عين الآباء وبسطت جناح الحنان على الحس . وكما قيل : « إن الله ينزل الدواء مع وقوع المرض » . وقد كان القدر رحيما لأنه حرمنا هبة رؤية أنفسنا كما يرانا غيرنا من الناس .

ولا نزاع في أن الأطفال لا يعيشون من أجل آبائهم ، بل الآباء هم الذين يعيشون من أجل الأبناء . وتستمد الأسرة أصلها ومعنى وجودها من عجز الطفل الشديد . ولقد كانت الأسرة أداة حماية لتلك العادات والفنون ، والتقاليد والأخلاق التي تكوّن مادة تراثنا الإنساني ، وتقوم مقام الملاط في البناء الاجتماعي . فالطفل فوضوي . ولا يشعر باحترام لأي قانون أو عرف ، ويعتبر ألوان الحظر فريسته الطبيعية . ولكن الأسرة — بطريق الأطفال والآباء كذلك — تحيل الفرديّ الصغير بالرشوة والعصا ، وبالحلوى والأوامر ، إلى كائن اجتماعي راغب في التعاون — بل وبعض الوقت إلى شيوعي راغب في القسمة. والأسرة هي أول وحدة اجتماعية يتعلم الفرد الولاء لها ، ويجب أن يقوم نموه الأخلاقي على تعلم الولاء لكل وحدة أكبر ، إلى أن يبلغ قمته أخيراً أقصى حدود بلاده . ولكن الشاب حين يخرج عن أرض البيت الثابتة ، تبتلعه دوامة المنافسة ، فيفقد مع الزمن الرغبة التي غذتها الأسرة في التعاون . والإنسان في منتصف العمر ، مع أنه ناجح ولكنه غير سعيد ، يرجع بين حين وآخر إلى بيت الأسرة مع شعور بالراحة والتفريج ، وكأنه يرجع إلى جزيرة شيوعية في بحر من الفردية

وقد نشأت هذه الوظيفة للأسرة كمركز أخلاقي وموحد للمجتمع ، من

وضعها باعتبار أنها الوحدة المنتجة لنوع الإنسانى . وكلنا يعلم أن هذا الوضع المركزى للأسرة قد انتهى . وأن السكان المصنعين يعيشون معلقين بشرط متغير يهددهم بتحويل قانونهم الأخلاقى عن نظام فقد أساسه الاقتصادى والسياسى . ذلك أن هجرة الصناعة من البيت والحقل إلى المصنع والشارع ، وتطور المهن الحرة مع تغير المركز الجغرافى بحياة الفردية ، وحركة العمل المتغيرة التى تنسب إلى وفرة رءوس الأموال أو ظهور موارد طبيعية جديدة . كل ذلك قد مزق الروابط التى كانت تصل بين الأبناء والآباء لحفظ وحدة البيت . وأخذ الإخلاص للأسرة والولاء لها يذبلان ، وامتصت الوطنية ما فيهما من عاطفة قوية ،كما تذوب قوة الأبوة عاماً بعد آخر فى وظائف الدولة المتوسعة وقواها اسمية فى كل مكان ينهار التعاون التلقائى الصادر عن الترابط الطبيعى فى الإنسان ، ونجد بديلا مزعزعاً فى الروابط الصناعية والخارجية للقانون والنظام ، والخضوع للمذهب والقهر . وفى نهاية الأمر نجد أن هذه الفردية الاقتصادية والسياسية تعكس نفسها فى فردية أخلاقية ليس لها مثيل من جهة نظام توزيع الأرباح . ولا توجد إلا فى تلك العصور التى دانت فيها الحضارات الكبرى فى غياهب الماضى .

٦ — الأسـباب

ولنلخص ما سبق أن ذكرناه . فالعلة الأساسية هذه التغيرات الأخلاقية هى الثورة الصناعية التى كان لها يد، إن خيراً أو شراً ، فى معظم كل تحول حديث ، فقد أخر قيام نظام المصانع الزواج لأنه جعل الفرد غير آمن ، وزادت الإباحية بهذا التأخير الداعر ، وبإلقاء الملايين من الناس فى بحر حياة المدينة . وما فيها من صلات مثيرة وستار المساواة . كما أدى قيام المصانع إلى تحرير (تصنيع) المرأة فنتجت عن ذلك عرضاً تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج ، وإلى إضعاف أثر الأسرة الأخلاقى ، وإلى استبدال الزهد والحرمان البيوريتانى بالانغماس الأبيقورى فى كل لذة وفى كل انحراف . وتوافق نمو وسائل منع الحمل مع ظهور كل سبب من هذه الأسباب ، وتعاون وإياها على العمل والتأثير .

وكما كانت ثروة عصر النهضة سبيلا إلى تحريره وحريته وفنونه ، كذلك

ثورة العصر الحاضر السائدة في كل مكان . والتي فاقت كل ثورة أدبية . هي التي بدلت قانون الحجج تحدى بتساهل النفوس المتحررة . ويعد تغير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة إلى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها . دليلا واضحاً على تبدل الأخلاق وحياتنا المتحررة . ومن الأسهل أن يكون الإنسان فاضلا حين يكون فقيراً . وقد يقاوم الإغراء في بعض الأحيان إذا كان فادح الثمن . ولكن دع حيوية تتصحم بالمال . ودع عقل الناس تنفتح عن أعين الجيران . وسوف نلتمس الشبان هموماً في وجوه الحسان . ونتحرق لإظهار رجولتنا لقلوبنا دائماً . ومن العبث أن يرثي علماء الأخلاق لحب رفضيتنا الحديثة في الريبة والمرح . فهذا الأمر يقوم على دوافع كانت موجودة على الدوام وتجد الآن أمامها فرصة نادرة الظهور . وستظل النتيجة على ما هي عليه حتى تتغير الظروف الاقتصادية من هذه الحال . ما دام نظام الآلات يضاعف أوقات المرح ، ويستبدل الأعمال العقلية بالأعمال اليدوية . فإن الطاقة التي كانت تنصرف مع الأعمال الجسمانية سوف تصعد إلى المخ . وتجعلنا في غاية الحساسية للمؤثرات الحسية

وأكبر الظن أن هذا التحدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر من بعض مع هجوم مذهب دارون على معتقدات دينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد أكسبهم الاستحراء . أن الدين يشهر بملاذهم . التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وكان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة متى يبدأ الشيء يكون ذلك ديناً (١) . أما الآن فسا أن ندهش ونقول ليس من الإجراء أن نرى مثل تلك البدع ولا نقسها ." لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو التحرر من الحذر القديم في التجربة الطائشة . إنها عقوبة جماعية تدفع الأخلاق اليوم ثمنها لأنها ارتبطت بالعقائد الغيبية . فقد بني القانون الأخلاقي على الخوف — الخوف من العقاب في الحياة الدنيا ، ومن النار في الآخرة — ولكن المعرفة عدو الخوف . وهي آخذة في النمو . فلا يمكن

(١) Ellis, Studies in the Psychology of Sex, Vol. VII, p. 180.

أن يعيش القانون القديم إلى جانب التعليم الجديد . إن حياتنا الصحيحة تتحدى اليوم بأخلاق جديدة تستند إلى طبيعة الإنسان وقيم هذه الحياة ، وتنقذ سفينة الحضارة التي تركت لتهتدي بنفسها بعد أن طارت الآلهة عنها فجأة .

ويجب أن نضيف إلى روح الزراعة وخلافات الدين تدهور الحضارة الأنجلوسكسونية . فقد هوى المذهب البيوريتانى . لا لأن قيوده على الدوافع الإنسانية والتي كانت معقولة أصبحت غير معقولة في ظل الشروط المتغيرة في العصر الحاضر ، بل كذلك لأن أولئك الأقوام الذين لا يرون القانون القديم عند فيهم مثلا وعضداً قد أصبحوا في مدننا (1) فئة لا حسب لها ولا حيلة . وقد أدت الهجرة وارتفاع نسبة المواليد إلى التسامى بالعمة ونزع ذوى السلطان من مراكزهم . فالأجناس « غير الشمالية » من إيرلندا وروسيا وجنوب أوربا هم الذين يسيطرون اليوم على الحياة السياسية في مدننا الكبرى . ويضفون على الأدب والحياة طابعهما العام الذي يتميز بالتهاون في القانون الأخلاقى . فخصائص الأنجلوسكسون المنزلية لا تناسب مرح الإيرلندى ، أو حماسة الإيطالى ، أو تساهل السلاف . وكما أن عصر نيوإنجلاند قد زال من دساتيرنا أخذ المهاجرون المتأخرون يتلمسون في بطء وخشونة هيئة جديدة وفنوناً جديداً تلائم فلسفتهم الواقعية والتشاؤمية . كذلك أخلاقنا في الوقت الحاضر تتغير في جو من الفوضى ، على حين أصبحت الأقليات التي كانت مضطهدة من قبل هي صاحبة السلطان على الأدب والمسرح والكنيسة وعلى الدولة بشكل أوسع . لقد تغيرت الأخلاق في أمريكا أسسها البشرية كما تغيرت أساسها الاقتصادى .

وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجند الوحشية والإباحية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رءوس . ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم

(1) يشير المؤلف إلى المدن في الولايات المتحدة ، وكذلك يتحدث فيما بعد عن الهجرة إليها من الخارج (المترجم) .

القائمة على الاضطرابات عصبية . وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية . وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع ألقى نفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى . وأصبحت الحكومات فى واد والشعب فى واد آخر . واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام . وتجنب الرجال الزواج خشية مسئوليته . وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الحسية فى الفن والحياة .

فهذه هى الأسباب المتعددة لتغير أخلاقنا . وفى ضوء انتقال هذه الأسباب من الحقل والبيت إلى المصنع والشارع فى المدينة يجب أن نفهم الجيل الذى نجد محلنا فى حال شديدة من الاضطراب . فمشاكل هذا الجيل وحياته جديدة ومختلفة عن الجيل السابق . وهو واقع بين براثن الثورة الصناعية التى تعدل عاداته وآراءه وعمله ودينه وسلوكه . وليس من العدل ولا مما يتفق مع التاريخ أن نحكم على هذا الجيل فى ضوء القانون القديم . ولا كمن يفرض عليه أن تلبس الفتاة (الكورسيه) والعجيزة ، وأن يلبس الشاب الحذاء ذى الرقبة ويطلق لحيته كما كان يفعل أجدادنا . فأصبح الخلق وعديم الخلق كلاهما فى تغير مستمر ، بين التقاليد الثابتة الأولية والعادات الجديدة التى تشق طريقها إلى الظهور . ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية أو اللاأخلاقية ، وكيف يمكن تعريفهما من جديد لنستعين بهما فى فهم سلوك الإنسان فى العصر الصناعى والمدنى[1] .

إننا نقف بين عالمين ، أحدهما ميت ، والآخر لم يكد يظهر إلى الوجود . ومصيرنا فوضى لا يليق بالجيل الجديد . فنحن أشبه بسقراط وكونفشيوس ، فى قولهما بأن الأخلاق القائمة على القهر والخوف قد فقدت سلطانها على الناس . ونحن كذلك نحاول أن نلتمس قانوناً أخلاقياً طبيعياً يقوم على العقل لا على الخوف ،

(١) مدنى هنا تعنى النسبة إلى المدينة وذلك فى مقابل عصر الزراعة ، واللفظة فى الإنجليزية urban (مترجم) .

ويتمكن من إقناع الناس ، حتى المتعلمين منهم . ويواجه الآباء في الوقت الحاضر آلافاً من الأسئلة الأخلاقية والنفسية لم تعد الإجابات القديمة تصلح لها . فنحن مضطرون على الرغم منا إلى أن نكون فلاسفة ، وإلى فحص أفكارنا المزعومة وعاداتنا ، حتى نبني لأنفسنا مذهباً في الحياة والتفكير متماسكاً مع نفسه ومع تجارب العصر ومطالبه . إننا نقف إزاء النجوم ونكاد نكون مجردين من العقيدة الغيبية ومن القانون الخلقي الجديد فكل شيء يجب أن يبنى من جديد كأننا قد رجعنا إلى حياة القفار نشرع في إقامة حضارة جديدة .

وأين نجد قانوناً أخلاقياً يتفق مع شروط حياتنا المتغيرة ، ويرفعنا مع ذلك ، كما رفع القانون القديم الناس ، إلى الرقة والدعة والحياء والأدب والنبل والكرامة والفتوة والنجدة والحب ؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل ؟ وكيف نعرّف الخير تعريفاً جديداً ؟ وكيف نعيد بناء الأساس الخلقي للمجتمع الكبير ؟

الفصل السادس

١ — الأخلاقية واللاأخلاقية

لنستمع بعض الوقت إلى ما يقوله الفلاسفة عن موضوع الأخلاق. سيضاعفون بلبلة فكرنا وحكمنا. ولكننا لن نستطيع أن نجد استحالة توفيق هذه المشكلة إلا إذا أدخلنا في حسابنا جميع العوامل المتدخلة في الموقف.

وأقدم من نصادفهم يتقدمون بنا في قلب المتاهة الأخلاقية الشائكة هم سفسطائيو الإغريق. وهم المؤسسون الحقيقيون للأخلاق الأوربية حيث إنهم قدموا اقتراحات وتخيلات تجعل نيتشه بالنسبة إليهم متواضعاً. ونضعه بين جنبيهم في المحل الثاني. فقد استبقوا قبل ظهوره بألفى عام بعض صيحته التي نادى بها أقوى رجل في الفلسفة الألمانية. يقول كاليكليس في محاورة جورجياس التي كتبها أفلاطون إن الأخلاق ابتكار الضعفاء لتقييد الأقوياء. وطريقة تحد من سلطان السوبرمان داخل حدود قوى طبقة الشعب. والحكيم هو الذي يعلو على مستوى الفضيلة والرذيلة. ويصدر عن رغبات قوته. ويشيد بصفات القوة والشجاعة والمهارة في تحقيقها. باعتبارها أنبل الصفات[1]. ويعلن ثراسيماخوس في محاورة الجمهورية أن «القوة هي الحق. وأن العدالة ليست إلا مصلحة الأقوى. وأن «الظالم» سيد البسيط والعادل. وأن «العادل» هو الخاسر بالإضافة إليه على الدوام»[2]. والحق أن يضيف أنه «يتحدث عن الظلم على نطاق واسع». ويحذر من الضجيج بالظلم إذا لم يستطع المرء أن يرتكبه جيداً.

هذا بعد قديم للتعصب له دلالته. أي هل يتعلق بمذهب نيتشه يشيب الفكر أكثر مما يرجع إلى مرحلة نضوجه؟ لقد كان السفسطائيون يمثلون نشوة

(١) أفلاطون، جورجياس، ٤٨٣.

(٢) الجمهورية، الكتاب الأول.

الحرية التي أصابت الفلسفة اليونانية حين رفعت عن كاهلها قيود الشرك والتقاليد . كان القانون الخلقي القديم في اليونان يعتمد اعتماداً مزعزعاً على أساس وهي جزاء من الدين . كما يعلق المرء من رجليه في الهواء . فلما ظهر أن الأساس غير وطيد أصيبت الأخلاق بالضرورة ، وأصبحت اللاأخلاقية ، كالإلحاد والمادية والحتمية . حدثاً صعباً لثورة الشباب العريضة . كذلك الحال بالنسبة إلينا ، فنحن حين نكتشف أن يهوذا الذي كان حبيباً في طفولتنا — موسى الملائكي الموجود في السماء — ليس إلهاً حقيقياً بل مجرد إنسان مخيف يهدف إلى كفنا عن سرقة السكاكين ومثلثات المدرسين . فربما نخلص إلى هذه النتيجة الموقتة ، وهي : أنه ما دام هذا الإله الخاص بالمتربرين غير موجود . فسائر الأشياء التي كان يحرّمها هي الآن مباحة . وأن السرقة والقتل والنصب هي ألوان محرّمة من النشاط إذا رأى المرء تصويبها مع احترام أوامر البوليس . وفي ذلك قال دستوفسكي : « إذا لم يكن ثمة إله (على المعنى السابق من الرعب الليلي) فكل شيء مباح » . فليس على المرء إلا أن يكون حذراً . ومشكلة الأخلاق (وهي البحث العقلي في الأخلاقية) تنحصر في هذا البحث وهو : هل المطلوب أن يكون الإنسان « فاضلاً » كما يكون حذراً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن نحث الناس بناء على ذلك ؟

ولا نستطيع أن نفهم منزلة سقراط العظيمة في تطور الأخلاق الفلسفية إلا في ضوء هذه الناحية للسفسطائية الفتية . فقد رأى سقراط أثينا تتأرجح بين خطرين : ضغط الأكثرية الديمقراطية للرجوع إلى المعتقدات القديمة ، وهذه الفردية المتحررة من الخلق المستهترة التي نشأت من زوال الأوهام عن العقيدة الموروثة . تلك الفردية التي جعلت من أثينا فوضى تعجز عن الوقوف في وجه أرستقراطية إسبرطة القوية . ألسنا في حاجة إلى الموازنة بين تلك الصورة وبين صورة عصرنا الحاضر ؟ لقد تصور سقراط مشكلة الفلسفة الكبرى في تطور أخلاق طبيعية تحل محل الأخلاق الغيبية التي كانت الفلسفة قد هدمتها . وإذا استطاع امرؤ أن يقيم مذهباً أخلاقياً مستقلاً عن المعتقدات الدينية ، فمن الممكن أن تعيش هذه المعتقدات دون أن تحل الروابط الأخلاقية التي تجعل من الأفراد

المفكرين مواطنين مسالمين في الدولة. فمثلاً لو أن «الخير» كان يعني «العقل»، وكانت «الفضيلة virtue» تعني «الحكمة widom». ولو أمكن أن يعلم الناس معرفة مصالحهم الحقيقية، وبصر بالنتائج البعيدة لأعمالهم، ونقد رغباتهم والتوفيق بينها للخروج بها من فوضى تمحو النفس إلى رغبة كلية خالقة وتهدف إلى غاية — فلعل هذا يمد المتعلم والمثقف بالأخلاق التي تعتمد عند العامة على الجزاء الإلهي، وأحكام رجال البوليس. ومن المحتمل أن يكون مرجع كل ذنب إلى الجهل، وإلى الإخفاق في الوصول إلى نظرة كلية. ألا يمكن أن يكون العقل النامي بالعلم الغزير فضيلة تكفي في حفظ كل نظام اجتماعي ضروري؟

وفي هذا المذهب تختفي «فردية داهية». كانوا يرونها المقابل الأخلاقي لفلسفة سياسية أرستقراطية. وكان ذلك المذهب يزعم أن شرف صفة النبلاء يمكن أن يبث بتعليم الجيل. ولم يخطر ببال أصحاب المذهب أن العقل قد يجعل الجريمة أكثر بالعقل إحكاماً. وبذلك بقيت المشكلة القديمة بدون حل: أن نجعل العقل اجتماعياً، أو أن نلتمس للأخلاق أساساً خارج العقل والتفكير. ووجد أفلاطون بالحل الأول: فليس العقل، كما يقول، مسألة عقلية فقط، بل هو التناسب الجميل أو الفني بين العناصر في صفات المرء. هو التماثل، والترتيب، وهو التوافق في السلوك الإنساني. وليس أسمى الخصائل في صفاء الذهن، أو في القوة العارية من الأخلاق، بل هي ائتلاف الأجزاء في كل، سواء أكان ذلك في الفرد أم في الدولة. وهنا نجد أساساً سليماً يقوم عليه أبحاث أخرى في الأخلاق، ولكن الفلسفة لم تتابع السير في هذا الطريق. ثم تدهورت بلاد اليونان على الرغم من وجود فلاسفة الأخلاق حتى إذا جاءت المسيحية كان العالم بأسره مستعداً لقبول قانون أخلاقي يُقَوَّى بالأمل في حياة آخرة وخوف مما يحسه الناس من ضعف في الإيثار والعدل. وبقيت المشكلة القديمة خاصة بأخلاق طبيعية مستقلة عن الأديان بغير حل.

٢ — الأخلاق الطبيعية

وهنا نجد أن فرانسيس بيكون هو الذي قدم مفتاح الحل، كما فعل في ميادين أخرى كثيرة. وتحمل إحدى العبارات الهامة من كتابه «تقدم العلم»

نظرية كاملة فى الأخلاق الدنيوية . يقول الوزير الأكبر « فى كل شىء نزعة إلى نوعين من الخير . إحداهما نزعة باعتبار الشىء كلا فى نفسه (ونحن نسمى هذه النزعة بالغرائز الفردية) . والأخرى باعتبار الشىء جزءاً من كلٍّ أعظم (ونحن نسمى هذه النزعة الأخرى بالغرائز الاجتماعية) وهذه الأخيرة أهم وأقوى من الأولى . لأنها تتجه إلى حفظ صورة أكمل »(١) ومعنى ذلك أن أساس الأخلاق ، كقواعد الأخلاق ، موجود فى الطبيعة البشرية . فهناك دوافع اجتماعية كما توجد دوافع أنانية ، وغرائز لحفظ الجماعة والجنس كما توجد غرائز لحفظ الذات . ويذهب بيكون إلى أن هذه الغرائز الاجتماعية هى على الإطلاق أقوى من الغرائز التى تستهدف حفظ الفرد . فإن صح هذا القول فهو ولا ريب فى غاية الأهمية . وفى هذا الطريق يجب أن يتجه البحث عن أخلاق طبيعية .

وظل هذا الرأى الجديد الذى قال به بيكون بغير أساس علمى حتى وجد عرضاً عند ظهور دارون . وقد بدت النتائج الأخلاقية لمذهب دارون أول الأمر مؤيدة لنيتشية . ذلك أن التطور إذا كان كفاحاً من أجل الحياة وبقاء الأصلح ، فالبقاء هو معيار الصلاحية فى كل شىء . ولا تستثنى الأخلاق من ذلك ، فلا يبقى إلا الرجل الفاضل فقط . وتصبح القوة هى الحق مرة أخرى . ولقد فزع هكسلى حين رأى إلى أين تقوده نظرية التطور ، ووافق تنيسون على أن الطبيعة (التى كان يعنى بها عملية الانتخاب الطبيعى) كانت « حمراء الناب والمخلب » وهى فى غاية العداء لجميع المبادئ الخلقية التى رفعت من شأن الحياة الإنسانية هذا الارتفاع . والتطور يدل فى جميع مظاهره على استبعاد القوى للضعيف (وكان بعض علماء التطور مثل كارل بيرسون يحتجون على الآثار السيئة التى يولدها الإحسان) . أما الأخلاق فإنها تعنى مساعدة القوى للضعيف . ويقتضى التطور الكفاح من أجل الحياة بأى سبيل ، وتقتضى الأخلاق الحد من الكفاح . اللهم إلا داخل حدود الإنسانية والشرف . والغاية القصوى من الأخلاق هى السلام . والمعيار الأعظم للكفاح هو الحرب . وينتهى

(١) الكتاب السابع ، الفصل الأول .

هكسلي إلى قوله : « لا يعتمد التطور الخلقي للمجتمع على محاكاة عمليات كون... بل على حربها »[1] .

وكان اتخاذ ذلك الموقف خطراً . إذ لو كانت الأخلاق مضادة للطبيعة فالأخلاق مقضي عليها قضاء مبرماً . وقد كان هكسلي بعد النصر حين رأى هذه النتيجة : « إن الطبيعة الكونية التي تولد مع مولدنا ، والضرورية إلى أقصى حد في بقائنا ، هي ثمرة ملايين من السنين من التجارب القاسية . ومن الحماقة أن نتصور أن بضعة قرون تكفي في إخضاع سيطرتها لأغراض أخلاقية خالصة »[2] .
فالمشكلة الأخلاقية ، تعني تأديب الإنسان بغير طريق الخرافات أو القوة ، لا يمكن حلها إطلاقاً ، إذا كانت الأخلاق والطبيعة متعارضتين هذا التعارض الحاسم .

ويرجع الفضل إلى داروين المتواضع في التماس مخرج من هذه المشكلة . فلم يكن الفلاسفة قد لاحظوا — وما كانوا ليلحظوا لولا أن دفعهم كروبتكين[3] Kropotkin على ذلك — أن « المخرب »[4] الأكبر في الفصل الرابع من كتاب « تسلسل الإنسان » وضع أسس القانون الخلقي الذي يعتمد على وقائع بيولوجية لا على عقائد إلهية . كما أرسطو وبيكون على صواب . فالإنسان اجتماعي بالطبع ، لأن المجتمعات وجدت قبل وجود الإنسان بزمن طويل . وورثت الإنسانية العادات الاجتماعية — أي حملت النزعة الاجتماعية في دمائها — إلى جانب الدوافع الفردية إلى المنافسة والقتال . وقد تطور التنظيم الاجتماعي ، حتى في المراحل الدنيا من الحياة الحيوانية ، كما هي الحال في النمل والنحل ، إلى حد من التعاون أرقى من أي ضرب نراه في الجنس البشري . ومع تطور المجتمعات ضاق نطاق التنافس من الداخل للحاجة إلى حفظ التماسك الداخلي في وجه المنافسة الخارجية . وأخذ تأثير الانتخاب الطبيعي يقل في الفرد ، ويتزايد في الجماعات ، فقد يمكن الاحتفاظ بالضعاف من الأفراد مع نمو العادات الاجتماعية لأعضائهم في المجتمع .

(١) التطور والأخلاق ، ص ٨٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .
(٣) Mutual Aid as a Factor in Evolution.
(٤) يشير المؤلف إلى داروين (المترجم) .

أما الأمم الضعيفة مثل أسبانيا . والأجناس الضعيفة مثل أهل طسمانيا [١]، والأنواع الضعيفة مثل المستدون [٢] Mastodon والجاموس . فيمكن أن تهلك في الحرب والمنافسة بين الجماعات لقد وقف التطور عن أن يكون طبيعياً وأصبح اجتماعياً وجاء بقاء الأصلح من تماسك الجماعة وقدرتها لا من قوة الفرد . وجعل التنظيم أجهزة الدفع الثقيلة ، التي تحملها على الدوام الحيوانات المتوحدة المعتمدة على قوتها الفردية فقط وعلى دهائها في الدفاع عن نفسها ، زائدة عن الحاجة . أما في النمل والنحل حيث يكاد يبلغ التنظيم الاجتماعي حد الكمال . فقد اختفى تقريباً حمل السلاح الفردي . كالأنياب والأسنان والمخالب والجلد السميك وجاء نمو الخطر الخارجي والمنافسة الخارجية بين أفراد الجماعة بضروب من التعاطف (بين الفرد والفرد) . والشفقة (بين الفرد والجماعة) ، وحب العشيرة ، وتبادل المعونة وكان بينشئة بعد وجود النساء ضرورة اجتماعية لبقاء الجماعة . فظهر بذلك تناقض غريب مؤداه أن عنف المنافسة والتنازع بين المجتمعات هو علة التعاون والسلام في داخلها . فالحرب ، أو خطر الحرب ، هي التي أدت إلى ظهور الأخلاق كما أدت إلى ظهور الروح المعنوية .

وفي ضوء هذا النظر البيولوجي يصبح من الواضح بما فيه الكفاية أن أساس الأخلاق وتعريفها الطبيعيين والضروريين هو اتفاق الجزء في العمل مع الكل . إنه النظرة الشاملة التي تتعاون فيها كل رغبة مع جميع الرغبات ، وكل فرد مع أسرته ، وكل أسرة مع الدولة ، وكل دولة مع الإنسانية ، والإنسانية ذاتها مع حركة الحياة العليا . ونحن في الشباب نحاول تعريف الأخلاق في عبارات تصدر عن الفرد الثائر ، فنخضع العقل للقوانين غافلين عن خضوع العقل المخادع للرغبة . واستعداده الحقير لالتماس الأسباب لكل عمل مشكوك فيه . إننا نمتدح الاعتماد على النفس . والتوافق conformity والشجاعة . وننشد أغنية « الإنسان البسيط والمتوحد » . ونقول مع إبسن المتوحد إن الأقوى هو الذي يقف وحده ، كما لو كان براند Brand أو بيرجنت Peer Gynt [٣] قد وجد الأمر كذلك .

(١) طسمانيا جزيرة صغيرة في الجنوب الشرقي من أستراليا (المترجم) .
(٢) حيوان منقرض يشبه الفيل (المترجم) .
(٣) براند وبيرجنت مسرحيتان لإبسن ، ويشير المؤلف إلى شخصية كل منهما (المترجم)

وهذا رد فعل سليم ضد عشرة الأسرة الثقيلة . ولا يبدو إلا على أن فتى قد نضج ويرغب في إثبات وجوده في العالم . وبعد أن يجتاز مرحلة الشباب يكتشف أن « المجتمع » الذي كنا نزدريه ، والذي كنا نعارض بينه وبين الفرد معظم ، لا يشمل شيئاً آخر سوى أفراد أيضاً ، كل واحد منهم ثمين كأثمن ما لدينا ثم نسلم بعد مقاومة طويلة أن الأخلاق لا يمكن تعريفها بأي حال في صيغة الفرد ، ويجب علينا أن نقبل خير المجموع باعتبار أنه المعيار الأقصى الذي به نحكم (حين يجب أن نحكم) على سلوك الفرد .

أما العبارة التي وضعناها بين قوسين فهي السبيل المهد إلى النتيجة التي نريد بلوغها . فمتى يجب أن نحكم ؟ وكما أن أفضل حكومة هي التي تحكم أقل ، كذلك أفضل أخلاق ما كانت أوامرها أقل . وحرية الحياة نعمة عظيمة . حتى ليعد بحق أولئك الذين يرغبون في فرض الأخلاق على جيرانهم أعداء الجنس البشري . وقد رأينا إلى أي حد من التزعزع يبلغ الحكم الأخلاقي . وإن الأمر المنافي للأخلاق قد لا يكون إلا مرحلة انتقال تتحسس طريقها بين قانون أخلاقي وآخر . وفضلا عن ذلك فهذا الزهد في الحكم الأخلاقي « يوصف » لعلاج الرجال والنساء المصابين بالعبقرية . فمثل هؤلاء الأشخاص ، كما يقولون ، تغريهم الطبيعة لتجربة أساليب جديدة من العمل والشعور والتفكير . فإذا أخضعناهم لأخلاقنا الاجتماعية المألوفة والضرورية كما كمن يعطل الغرض نفسه الذي من أجله وجدوا . ولسنا في حاجة إلى أن نكون أكثر قسوة مع هؤلاء العباقرة من البابا بولس الثالث الذي قال حين نصح بسجن شليني[1] Cellini لما ارتكبه من أعمال القتل في ساعة من الحماسة : « يجب أن تعلموا أن قوماً مثل بنفنوتو Benvenuto الأفذاذ في مهنتهم هم فوق القانون » . فلنبسط على عباقرتنا بعض التساهل الذي نمنحه لأصحاب الملايين عندنا .

لقد انتهينا بعد انحراف إلى نتيجة من أقدم النتائج وأشدها احتراماً ، وهي أن معيار الأخلاق هو الصالح العام . ولكن لا ينبغي أن يخدعنا النظر البيولوجي

(١) بنفنوتو شليني (١٥٠٠ – ١٥٧١) نحات مشهور إيطالي ولد في فلورنسا . ودعاه فرانسوا الأول إلى البلاط ، وله تماثيل مشهورة في فونتنبلو (المترجم) .

فنفترض أن غرائزنا تتفق مع العقل . فالطبيعة لا تعرف جماعة ولا أخلاقاً إلا ما يتصل بالمحبة والأسرة والمجتمع . فقد كان بيكون وداروين وكروبتكين متفائلين في اعتقادهم أن الغرائز الاجتماعية أقوى من غرائز الذات . وقد يكون الأمر كذلك داخل الأسرة حيث نجد التضحية بالذات أمراً طبيعياً ولا تحتاج إلى مؤثر من خارج أكثر من الحب أو المدح . أما خارج هذا الميدان الصغير فالدوافع الفردية هي المحركة لنا في سلوكنا ، ولذلك كانت البطولة heroism متصفة بالصفة heroic لندرتها . وهذا هو السر في ابتداع المجتمع شبكة واسعة من النظم التي تقوى الدوافع الاجتماعية كالدين ، والتعليم ، والنشرات ، والتماثيل المقامة في الميادين . ولسنا أكثر الأنواع ميلا إلى الاجتماع ، فنحن في وسط الطريق بين فردية حيوان الغابات وتعاون النمل . وأقصى ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن الغرائز الاجتماعية — التي تبدو أحدث من حيث أصلها من المسنة والاكتساب ، وأضعف مؤقتاً بسبب تدهور الدين والأسرة — آخذة في التقوى ببطء مع نمو قيمة التعاون وأثره في البقاء . وفي المستقبل البعيد لعل أولئك الذين تعلموا العمل مع أقرانهم في ائتلاف وعدل يقضون على أولئك الذين يتعطشون إلى التملك الفردي وإلى السلطان . ولكن سنكون عندئذ قد انتقلنا إلى عالم آخر .

وإذا كان المحافظون راضين كل الرضا عن صيغة هذا المبدأ الخلقي ، فليتأملوا بعض نتائجه . فلا شيء ينافي الأخلاق إلا إذا أضر بأقراننا ، وبناء على ذلك فالانتحار في بعض الظروف ليس جريمة . وإذا اعتقد المرء أن الموت نعمة ، وأنه أدى واجبه نحو بني جنسه ، ولم يخلف من بعده محروماً أو عاجزاً ، فحياته ملك نفسه يفعل بها ما يشاء . ثم إذا دعتنا الغريزة أو اللذة فلا ضير من تلبية ندائهما بشرط ألا يصاب أحد أقراننا بأذى . وبشرط ألا يصيبنا نحن أي ضرر جسمي أو عقلي على حساب الجنس . وليس « للجريمة » أي معنى إلا إذا تعرض صالح المجموع للخطر .

ونحن أن نسلم آخر الأمر بأن التعاون الذي تقوم الأخلاق على أساسه لا ينشأ من نمو نفسي بمقدار ما ينشأ عن اتساع ضروريات الحياة الاقتصادية .

فكما تخرج الزهرة من الأرض . تنتشر الأخلاق مع ازدياد وحدات الاجتماعية والاقتصادية . ويزداد مجموع الذي يجب أن تتعاون الأجزاء ويزيد على السلامة عظماً ما دام نسيج العالم يتركب من وحدات يتزايد عظمها مع انتشار نفثات البرق والسفن وأمواج الأثير التي تربط أطراف العالم . لقد أحالت المحبة والمصالح المشتركة القبائل في زمن القدم إلى أوطان . وتحت الأخلاق تتشابه فلا يتبعها إلا سفلة القوم . وشيئاً فشيئاً تحيل المحبة والمصالح المشتركة الأوطان إلى جماعات وطنية مترامية الأطراف . وتصبح أسس أخلاق دولية . وسوف يؤمن العالم في المستقبل القريب بأن الوطنية ليست كافية

٣ ميزان الأخلاق

هناك إذن ميزان خلقي يبدو صالحاً في كل مكان وزمان مهما تختلف الألسنة التي تنطق . ولكن كل حل هو أيضاً مشكلة . إذ لا نجد سوى تعريفنا الأخلاق أنها تعاون الجزء مع الكل حتى تبرز مشكلة الأسئلة . أي جماعة سنتعاون ونتحد ؟ مع الأسرة . أو الدولة ، أو الإنسانية . أو الحياة ؟ وماذا نحن فاعلون إذا تنازع حلفاؤنا ؟

عندما يبلغ المرء الأربعين من العمر يصبح أعظم همه أن يتصور الأخلاق في إخلاصه لأسرته فقط . وليس معنى ذلك أنه يعيش بهذا التصور فقط ، إذ لو فعل ذلك فأكبر الظن (كما رأى كونفوشيوس) أنه لن يحتاج إلى أي أخلاق أخرى . ولو نمت المدونة نمواً عضوياً حتى تتبع حقوق الأبوة وواجباتها الواحد بعد الآخر . فليس ذلك فقط لأن الحياة الاقتصادية أدت إلى تطور العلاقات والمنازعات المعقدة التي تحتاج إلى سلطة منسقة وحاكمة في قلب الجماعة ، بل أيضاً لأن فردية الصناعة قد ضعضعت سلطان الأبوة وانتزعت من الأسرة مهامها القديمة . فعندما كادت كل أسرة أمريكية أن تكون مملكة اقتصادية ، تزرع طعامها ، وتغزل لباسها ، وتقتل بنفسها الهنود الحمر ، وقلما أن تتعامل مع غيرها من الجماعات . فقد كان من الممكن أن تكفي أخلاق الأسرة . وإذا كان الأب فاضلاً ، والأم صالحة ، وسلم الأبناء بسلطة الأب على أنها السلطة

الغلب . كانت الأسرة وحدة قوية فى النظام الاجتماعى تبلغ من الاكتفاء الذاتى حداً جعل الدولة إلى جانبها كمية ضئيلة تكاد أن تكون مهملة . ولك أن تتخذ من الصين مثلاً يوضح ما نذهب إليه . أما إذا تمزقت أوصال الأسرة ، أو إذا لعبت العلاقات بين أفرادها وغيرهم من الأفراد والجماعات دوراً حيوياً فى حياتها الاقتصادية والخلقية ، انهارت عندئذ الأخلاق الطبيعية القديمة . فقد يكون الرجل كريماً مع أسرته ، قاسياً لا يرحم عماله . وقد يبيع الرجل وطنه من أجل حفنة من ذهب ، ويكون مع ذلك نموذج الزوج والأب . وقد يلجأ الرجل إلى السرقة أو الغش خفية ليقتنى من المال ما يسد به حاجة زوجته . ويسجد مع ذلك فى كل كنيسة يذهب إليها . فأخلاق الأسرة ليست كافية .

فهل نحن مسوقون إذن إلى أحضان الدولة المشرفة على كل شيء ؟ أيجب أن يكون قانوننا الخلقى ولاء للساسة — لرئيس الضبط ، وقائد المنطقة ، و[illegible] ، والحاكم ، وعضو الشيوخ ، وقائد الجيش أو الأسطول ؟ هذا هو الجواب الذى يقول به رجال السياسة . ثم تمسكت الدولة وهى مؤيدة بالسلاح وتخنق [illegible] كل صوت يرتفع لحد من سلطانها . وفى ذلك كثير من الحق ، إذ إلى أن يصبح النظام العالمى حقيقة واقعة ، وتنضج الإنسانية بحيث تأمن وتؤمن بإخلاص الفرد ، فلن تكون الأخلاق المثالية الكاملة — أى تعاون الجزء مع مجموع الكل — إلا مجرد نصيحة لتحقيق الكمال ، كالأمر بعدم مقاومة الشر . فكل نظام فى العالم يجب أن يستند إلى القوة حتى تقهر جماعة أكبر . وما كانت الحال على وجه الأرض كما نرى من تزايد عدد سكانها وتحركهم بغير رقابة ، وتهافت أهلها للحصول على أفدح الأجور محطمين كل تجربة فى مكافحة الفقر . فمن الخير أن تحمى أعلى وحدة منظمة نفسها من عدوان الوحدات الأدنى . كما يجب على الإنسان مهما يكن مخلصاً للحياة أن يحمى نفسه من الحيوانات المتوحشة . ومن الخير على مر الزمن لسائر البشر أن تحمى الطبقة الممتازة نفسها على هذا النحو ، إذ لا غنى فى التطور عن وجود فئة ممتازة تكون نموذجاً يحتذى مثاله . فإلى أن تبتدع الصناعة لوناً من الرقابة الدولية ، فإن المجموع

الذى يجب أن نتعاون وإياه ، والذى لا يجب أن تضر بمصالحه ، سيكون المجتمع الوطنى (١) .

ولكن ضميرنا لا يزال ناقص التكوين حتى فى داخل حدود هذا المجتمع الأصغر . فهناك أخلاق للصناعة والسياسة ، كما توجد أخلاق للحب والزواج . وأولئك الذين يتذمرون من أهواء الجنس فى الوقت الحاضر قد يكونون ممن يختلسون المنافع أو يخونون الأوطان . إننا نغضب لفساد الفتاة ، ولا نجد فى قلوبنا الشجاعة للزج بالمفسدين فى غياهب السجن . إننا نفترض الرقابة على الكتب ، ولا نحفل بأصحاب مصانع السلاح الذين يثيرون الحروب . والصعوبة الوحيدة التى تلفت النظر من بين الصعوبات غير الجنسية التى تواجه الأخلاق اليوم هى تلك الخاصة بشرب الخمر إلى حد السكر . ولا ريب فى ظهور نتيجة أخلاقية عن ذلك ، لأن الخروج على القانون ، معارضة لقانون هو موضع خلاف ، مما يضعف النسيج الخلقى للجماعة بأسرها . ومن دلائل عدم نضوجنا أن تدور أحاديثنا ومعاركنا بالجدل حول شرب الخمر ، فى الوقت الذى تفتقد فيه مشروعاتنا الجوهرية لحاجتها إلى العناية والفهم .

ها نحن أولاء بإزاء أضخم نظام صناعى عرفه التاريخ . فماذا يحدث لو أنه أدير بغير تفكير صادر من الجميع ، وبغير نظر إلى السياسة الصناعية والتجارية والمالية وأثر ذلك على مستقبل الوطن والجنس البشرى ؟ أهذا شىء يسير ؟ عندما نقول : « الشغل شغل » business is business نعنى فى أكثر الظن أن الشغل لا يعرف الأخلاق . وأن العملية الصناعية بطريق الإنتاج الواسع النطاق ، بصرف النظر عن أصحاب العمل والمنافسة غير المشروعة ، قد أصبحت غير إنسانية وغير شخصية ، أصبحت نظاماً آلياً للشراء الرخيص والبيع العالى ، أصبحت آلة تحيل المدارس (ورشاً) ومصانع عسكرية . تؤثر استخدام النساء

(١) ليس معنى ذلك أن قيودنا الحالية المفروضة على الهجرة معقولة أو عادلة . بل على النقيض ليس لهذه القيود فيما يبدو أى أساس آخر سوى الخوف والتعصب الجنسى . وسوف يجد رجال الدولة الهجرة ، ومن المحتمل أن يشتد تقييدها عما هو اليوم حتى تتم القضاء على النظام . ومع ذلك فلن يتم هذا التقييد بتمييز عنصرى الناس الذى لا يعتمد على أى سند من العلم ، بل برفع مستوى الصحة والثقافة المطلوب من المهاجر .

على الرجال، والأطفال على النساء، وتهدم كيان الأمة وأخلاقها... ولكنها تحقق أرباحاً. وهذا التصور عن الحياة الاقتصادية صحيح بالنسبة إلى الطبقة العاملة، كما هو صحيح بالنسبة إلى أصحاب المصانع. فصاحب المصنع يفكر في مصلحته الذاتية أو في مصلحة طبقته، وقلما يفكر في صالح المجموع. فكل فئة لها «مثلها»، ولكن المثل الأعلى في الصناعة أو السياسة هو عادة الرغبة المكبوتة لطبقة من الطبقات تغلف في أثواب كريمة من العقل. ومعظم نظرياتنا الأخلاقية ليست إلا أفكاراً عن ما ينبغي أن يكون عليه سلوك غيرنا من الناس.

وعند ناساو سنيور Nassau Senior، «علم الاقتصاد علم الثروة لا الرفاهية». ومعنى ذلك أن الصناعة يجب أن تقصر نفسها على إنتاج أكبر قدر ممكن من المصنوعات بصرف النظر عن النتائج التي تصيب المنتج أو المستهلك. وكان علم الاقتصاد سابقاً حسناً ولو أن كارليل وصفه بالكآبة. وكان ذلك العلم يسمي نفسه «الاقتصاد السياسي». واعترف بأن الاقتصاد على صلة بالهيئة الحاكمة. وشاع في بعض الأوقات الحديث عن «حقوق» الإنسان. ومع أن هذا الاصطلاح فقد كل ما كان له من شهرة إلا أنه كان يصيب كبد الحقيقة ويدل على قيمة كبيرة. وهي أن ثمة بعض الحاجات يتطلبها الفرد أو الطبقة من المجتمع، وأن هذه الحاجات إذا أشبعت تؤدي إلى صالح المجموع. ومن المعقول أن مثل هذا الطلب قد يسمى «حقاً». فإذا كانت الزراعة مثلاً ضرورية لسلامة الوطن من الحصار والمجاعة، فللفلاحين عندئذ «الحق» في معونة حكومية قد يحتاجون إليها للاحتفاظ بمستوى معتدل من الحياة. وقد أخذت انجلترا تعي هذا الدرس. وإذا كانت الصناعات الكيميائية تفسد صحة العمال، فلهؤلاء العمال «الحق» في كل حماية تستطيع الدولة تقديمها لهم، لأن صحة مواطنيها تخص الجماعة كلها. وإذا كانت النساء قد أصبحن غير صالحات للأمومة بما يشغلنه من وظائف، فمن الحق أن تحمي الحكومة من ترغب منهن في الحماية. وإذا اتبع المخترعون والتجار من الأساليب ما قد يثير عداء الدول الأجنبية ضد أمريكا، فمن حقنا إخضاع مثل هذه الاختراعات والتجارات للوائح الحكومية. ففي كل خطوة تؤثر العمليات الاقتصادية على ثروة المجتمع وتصطدم بالأخلاق.

ولكن الأداة الوحيدة فى الوقت الحاضر التى يمكن عن طريقها إخضاع الصناعة للصالح العام هى الدولة . وليست الدولة أمراً أخلاقياً، بل مزيجاً دائم التغير من المتحمسين . ويتطلع المصلح إلى حكومة مطلقة القوة ناسياً أن مثل هذه الحكومة تقتضى حكماً سياسياً مطلقاً . والخير ألف مرة أن يتدبر الناس أساليبهم الخاصة فى التعاون والرقابة من أن يعتمدوا على العمد ورجال البوليس . ولعل نظاماً اجتماعياً فى سبيله إلى الظهور مقتصراً على طبقات العامة فى توزيع ، وعلى الجمعيات التعاونية التى تتكون كل عام (وتكاد أن تفشل كل عام) حتى يسد الثغرة الواسعة، ويتجنب جيش الوسطاء المتزايد بين المنتج والمستهلك . وهنا نجد أن الاقتصاد يمس الأخلاق مرة أخرى ، ويتحمس فلاسفة الأخلاق لفكرة القائلة بأن مجهود وتجربة قرن آخر قد يستبدل المنافسة الفردية بالتعاون الذى يجب أن نعتمد عليه فى تسيير أمور العالم . إن صورة قوم يعملون معاً ، ويوضعون الفنيين والإداريين جنباً إلى جنب ، ويقتسمون الأرباح والخسائر سوياً . قد تبدو بعيدة عن الحقيقة، كما بدت صورة التعاون الحديثة بعيدة التحقيق أيام أن كانت الصناعة آخذة فى الظهور

وغرائزنا فردية على الإطلاق (١) . ولكن مصالحنا وحاجتنا الاجتماعية تصرفنا أكثر فأكثر نحو التعاون . فالصناعة الحديثة أكثر رحمة بالنسبة إلى فظاعة نظام المصنع منذ مائة سنة مضت . فالرفاهية أصبحت جزءاً فى كل مؤسسة حديثة ، وأخذت الصناعة تمول بجانب كبير من أرباحها المستشفيات ومدارس والمكتبات والبحوث العلمية . ولا يزال العالم يلد القديسين . وما زلنا نقابل أهل النجدة فى كل ركن من الشوارع ، ويمكن أن تجد الفتاة ذات الحياء إذا رغبت فى البحث عنها ، وتنزوى الأمهات الصابرات فى آلاف البيوت . ونقرأ عن منافسة البطولة للجريمة فى الصحف اليومية . فهذا فيضان يغرق البلاد ، وإذا بآلاف من الناس يهبون للمساعدة ، ويساهم الملايين فى تقديم المعونة المالية . وهذه أمة يصيبها القحط وتتعرض للموت جوعاً . فيسرع أعداؤها لنجدتها . ويضل الجوابون الطريق فيعرض زملاؤهم أنفسهم للخطر إنقاذاً لهم . الحق أن

(١) هذا يناقض ما ذهب إليه المؤلف قبل ذلك من أن بعض غرائزنا اجتماعية . (المترجم)

يستطيع أحد أن يبلغ أغوار قوى الإنسان فى سبيل الخير . فوراء ما عندنا من فوضى وما نرتكبه من جرائم تقوم الشفقة المتأصلة فى النفس الإنسانية . إنها تنتظر حتى تزول الثورة العابرة ، ثم يظهر نظام جديد من الأخلاق يتحسس طريقه بالتجربة ليرقى بالنفس إلى مراتب الشرف والنبل .

٤ — الأخلاق الكبرى

أكبر الظن أننا فى الوقت الذى ننتحى فيه جانباً نتأمل الأمور فى سخرية ينشأ عالم من النظام العالمى تحت بصرنا دون أن نراه . وهو عالم تخلقه التجارة والتمويل ، وتمدنا بالرقابة على الاستثمار ، والرغبة فى ضمان المدين وازدهار السوق . وليس العمال هم اليوم أكبر أعداء الحرب ، بل أصحاب الملايين . وإن كنت فى ريب مما نقول فاستمع إلى تهليل الجمهور حين تتحدث الحكومة عن الحرب . ثم ارقب آلة تسجيل الأسعار وانظر كيف تشل آلاف الأعمال خوفاً كلما انتشرت أنباء الأعداء . ولم يكن الأمر كذلك فيما مضى من الزمن ، ولكنه يجرى على هذا النحو الآن .

وهذا بالضبط ما كان العالم ينتظره ، نعنى أن شبكة التبادل التجارى الكبرى ، التى وحدت بين الولايات ، وجعلت من الدول إمبراطوريات ، يجب أن تبنى آخر الأمر نظاماً عالمياً اقتصادياً . ذلك أنه كما أن الانفعالات المثالية فى الفرد تكون ضعيفة ومزعزعة إذا لم تقم على أساس فسيولوجى طبيعى ، كذلك الآراء الخلقية والسياسية لا تقف على أقدامها فى ثبات إلا إذا قامت على حقائق اقتصادية . وحين يكون لنا نظام عالمى اقتصادى سيكون لنا نظام عالمى سياسى . فإذا تم لنا هذا النظام العالمى السياسى سيكون لنا أخلاق عالمية . فالضمير يتبع رجل البوليس ، لأنه ينشأ من الخضوع للنظام ، ويسمو مع التعود . ومن الواضح أن نظاماً عالمياً آخذ اليوم فى الظهور . ونحن الآن كما بدا لنا الصالح الوطنى معارضاً لمصالح البشرية ، فليس ثمة ما يمنعنا من الولاء للإنسانية ، ومن التسامى بالأخلاق والدبلوماسية إلى ذلك الشعور بالمجموع وهو سر الحياة الناضجة . كما أنه السبيل الذى يهدى إلى الحكمة ، والمعيار الذى يزن الحق .

من أجل ذلك فلنرحب بكل تجربة ، ولنشجع كل محاولة تتجه نحو نصدم العالم الجديد . وليستمر العلم فى تنظيم نفسه على أساس يتجاهل الحدود . وليجدد العمل عهوده التى نقضت ضد الحرب . وعلى الرغم مما فى عصبة الأمم [1] من ضعف ، وجبن ، وإبعادها روسيا ، ودستورها المستحيل التحقيق (عن قصد) فلننضم إلى العصبة نقويها بالتعاون ، ونضع حداً لنزعتنا الإقليمية ، ونعرتنا الوطنية ، وتنافسنا على التسليح ، وحلم بعض الأوغاد للسيطرة سراً على العالم . الحق أننا نجد هنا — كما قال ميرابو — الأخلاق الصغيرة هى عدو الأخلاق الكبيرة La petite morale est l'ennemie de la grande. . فلا يمكن أن نتوقع من الدولة أن تلقن الضمير العالمى لأبنائها فى المدرسة ، ما دام خطر الحرب قائماً . أما نحن أحرار الفكر البعيدين عن الأحزاب فما بالنا نظل منقسمين على أنفسنا فى هذه المسألة ؟ ما الذى يمنعنا من قبول الأخلاق الكبرى ، ومن الولاء لسائر ألوان الحياة ؟

وخلف هذا الانقسام المستمر بين الأحرار توجد الفردية التى تختفى كالسوس الذى ينخر فى عظام كل حرية . فأشهر المحامين عن المجرمين الأمريكيين [2] يطرب لسخف عصبة الأمم ، على أساس أن نظاماً سياسياً يتجاوز حدود الأوطان هو ضرب آخر من الطغيان ، وأن انفصال الدول ، وتحاربها بين حين وآخر ، أفضل من سلطة سياسية هائلة قد تقف كما يقف الطاغية غير المسئول فى سبيل تفكير البشرية وحركتها . وهذا شك صادق ومعقول . ولكن إذا كان قد أمكن التجاوز عن هذه المخاطر بتوحيد المستعمرات ، فلا بأس من مواجهة هذه المخاطر ذاتها بتوحيد الدول اليوم . وقد بلغ العلم حداً يستطيع معه فى يوم واحد أن يمحو جيوشاً بأكملها ، وأن يدمر مدناً بأسرها ، وأن يرد كل حياة ، وكل نظام ، وكل حرية ، وكل فكر إلى مستوى الهمجية مرة أخرى . إن الخطر على الحرية يكمن فى الحكومات الضعيفة لا القوية . ذلك أن الدولة لا تقيد الحريات إلا حين تشعر بالخطر الذى يهددها . وعلينا أن نختار بين سلم رومانى أو عالمى .

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٧

(٢) هو كلارنس دارو Clarence Darrow

٥ — الحياة الجنسية والأخلاق

لا شيء يحرج له صاحب المذهب الفردي كهذا التعريف للأخلاق الذي يكاد يكون فسيولوجياً بأنه التعاون بين الأجزاء والمجموع . سيحتج بأن الأخلاق وحدة صحيحة هي الذكاء (1) ، أو يمضي إلى آخر الشوط ويقول مع أناتول فرانس «الصحة هي الأخلاق الوحيدة «L'hygiène est la seule morale» ولكن غيره قد يستعمل جميع وسائل الخطوة . ومع ذلك يحصل على ثروة كبيرة من الاتجار في المخدرات ، وقد يكون رئيس وزراء فرنسا على ذكاء نادر ومقدرة ممتازة ، ومع ذلك يقبل مبدأ من الفرنسيين ليفرض ضريبة على الألزاس واللورين . وقد يغلب الحمق فتضعف الروح الإباحية ، ولأصبح كلاباً مدللة . والرجولة الوطنية الحلال قد يكون الذكاء إذا كان كاملاً ، ويمكن أن يستحيل إلى حكمة . ولكن هذا يعمل في مضمار كماله ؟ سيسرق الناس ويقتلون ويموتون قبل أن نجعل منهم فلاسفة . كلا . يجب أن نبدأ بالشباب ونعلمهم التعاون في صبر . يجب أن نبث معاونة في عادات الفرد وشيء وشعوره . يجب أن نلتمس طريقة ما نعطي بها حتى الأذكياء من الناس المعنى الرائع للمجموع . ومن يدري لعل هذا المعنى لا يختلف في النهاية كثيراً عن الذكاء الحقيقي . ذلك أن النظرة الكلية المفكر ستشمل النظرة الكلية للمجتمع . وسوف يؤدي بهم إلى الولاء .

بل إن جماعة الصغار سوف يفهمون حين يكبرون أنه ما دامت حياة الجماعة تقوم على صفات الجنس وعلى تربية الأطفال ، فينبغي أن تخضع شئون الجنسية لبعض القيود الأخلاقية . قد نتجاوز عن لا أخلاقية مبتكرة ، وقد نرغب في دراسة أنواع من الشذوذ الجنسي كالجنسية المثلية ، ومباشرة الحيوانات ، وعشق المحارم . . وقد نبتسم حين نرى على المسرح محاولات جريئة تتحسس على غير هدى ضرباً آخر من القانون الخلقي . ولكن قلوبنا لن ترضى عن أي أخلاق تتجاهل الجماعة . وإننا لنشعر عقب أي فعل يتنافى مع

---

(1) كما فعل المؤلف في كتابه «التعليم والمشكلة الاجتماعية» .

المجتمع بالحاجة إلى حياة أصح وأنظف، ونحن في حاجة إلى حياة لا نعرف فيها لذات البدن فقط، بل رضا النفس الناشىء عن حس الصحة والنعوت. نريد أن نكون حيوانات سليمة. كما نريد أيضاً أن نكون مواطنين.

أيمكن أن نفعل شيئاً لنبدل الأخلاق من الفوضى إلى نظام، ومن الترخص إلى المسئولية؟ ولا ينبغي أن نحسم تأثير الجدل والآراء في هذا الأمر. فهذه التغييرات في العلاقات الجنسية لم تنشأ عن طريق التفكير. ولن نجهل مصدر ذلك أننا نواجه عملية غير شخصية تختص بالتحول الاقتصادي وأثره على الحياة الخلقية. فإذا لم يساير فكرنا ذلك التيار من الاختراع الذي يحدد مجرى التاريخ، فسوف يلقينا التيار على الشاطىء، مستقيمين ولكن عاجزين.

ومع ذلك فلن ندعها شهوة الهموم في راحة. إذ علينا أن ننتحي بهذا التغيير الخلقي جانباً، فنحلل أسبابه ونتائجه. ولن نفقد الأمل في أن المعرفة هنا أيضاً هي القوة، وأن الوضوح مطية الإحكام. فلنبدأ من البداية. ولنفحص تلك الشعلة من الحب التي تتعدى كل قانون خلقي، وتستهلك الفرد. ولنخطط الجنس ولندرس صفات الجنسين، لنتبين طبيعة هذين الكائنين الغريبين الرجل والمرأة — اللذين يولد تجاذبهما وتنافرهما مشكلات الأخلاق الجنسية. ولنتأمل بعض الوقت المرأة المتحررة. وننظر في أثر تحريرها المفاجىء على أخلاق هذا العصر ومستقبل البشرية. وسنكون بعد ذلك مستعدين لمواجهة إخفاق الزواج مسلحين بشيء من العلم بأصله وأسبابه. وسنتقدم في تواضع ببعض الاقتراحات للتوفيق بين هذا النظام العسير وبين سعادة المرء وصحة المجتمع. وأخيراً سوف ننزل الأخلاق من السماء إلى الأرض، وسنناقش تربية الأطفال وتكوين الخلق وبهذا تكمل الدائرة.

الفصل السابع

الحب LOVE

١ – لماذا نحب ؟

الحب باعتراف جميع الناس أمتع صور التجارب الإنسانية جميعاً . ومع ذلك فمن الغريب أن يعنى عدد قليل جداً من المفكرين ببحث نشأته ونموه . وما أكثر ألوان الأدب التى تحدثت عن الحب فى كل لغة وبكل أسلوب . من أناشيد ، وتمثيليات . وقصص . وشعر يزخر بالعاطفة . ومع ذلك ما أقل البحوث العلمية وما أندر الجهود التى بذلت لفحص هذه المسألة العجيبة فحصاً موضوعياً ، ومعرفة أصلها فى الطبيعة ، والكشف عن أسباب نمو الحب العجيب من اندماج البروتوزوا البسيط إلى إخلاص دانتى . وهيام بترارك . ووفاء هلويز لأبيلارد .

نعم لا نزاع فى اشتياق الرجال إلى النساء . وفى أن الحب « الذى يحرك الشمس وغيرها من الكواكب » يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة . ولكن لم كان ذلك ؟ لقد أعلن الشعر وجهة نظره فذهب إلى أن الحب ينبع منذ الأزل من قلب البشر ولكن أين يوجد الينبوع الحق لماء الحب ؟ لماذا يهتاج الفتى عند رؤية خصلات الشعر المتهدله فوق الحاجب ؟ أو عندما تلمس أصابع المرأة ذراعه ؟ أيكون ذلك لأن الفتاة جميلة ؟ ولكن ألا يخلق حبه جمالها ، كما يخلق جمالها حبه ؟ ولماذا نحب ؟

ولست تجد فى أمور الإنسان أغرب من إقبال الرجال – مع ما فى ذلك من خوف – على مطاردة النساء ، اللهم إلا أن يكون استعداد النساء – وهذا من جانبهن رزانة – لقبول المطاردة . ولست تجد فى سلوك الإنسان أثبت من نظرة الرجل الفاحصة التى يرى بها المرأة فى كل لحظة من السهر . تأمل هذا

المحبوب عشقي وهو يحسس النظر إلى قريبته زاعماً أنه يقرأ في الصحيفة. استمع إلى حديثه وكيف يدور به حول صيده الأثير. تخيل ما يتحيّنه في حيائه وكيف يروغ حائماً حول هذه الشعلة العصبية. فلماذا؟ وكيف حدث ذلك؟ وما جذور هذه النزعة العميقة. والمراحل التي اجتازتها حتى بلغت ما هي عليه من سمو وحنو؟

فستحرف بالبحث عن إجابات لهذه الأسئلة التي لا تخطر أبداً على بال المحبين ونقصر تعرف هذا العلم بقدر ما نستطيع راجعين إلى ستندال، وإليس Ellis ومول Moll، وبولش Bolsche، ودجور مون De Gourmont، وفرويد، وستاندهول. لنرى أيمكن أن نركب صورة فيها نظرة شاملة تكشف عن وظيفة الحب ومعناه. ولنتتبع بقدر الطاقة الطريق الذي يسير الحب فيه.

٢ ـ من الناحية البيولوجية

كما تدور حياة الفرد بالتبادل بين الجوع والحب، كذلك الحياة في مجموعها تدور على التغذي والتناسل باعتبارهما المركزين الكبيرين في تلك الحياة. فالتغذي سبيل إلى التناسل. والتناسل طريق إلى التغذي. فنحن نأكل كي نعيش، ونصلح. ونحقق أنفسنا عن طريق الأبوة. وبالتناسل تنفصل من جسدنا الصائر إلى الموت حياة جديدة فيها القوة على التغذي والنمو من جديد. ولعلها تبلغ في المستقبل هيئة أرقى مما كانت عليه من قبل.

ومن الواضح أن النمو في أبسط الخلايا هو الدافع إلى الانقسام، الذي يعد أبسط أنواع التناسل. ذلك أن حجم الخلية ينمو أسرع من غشائها الذي تتغذى من خلاله. ولكي تحتفظ الخلية بالتناسب بين حجمها المتزايد وغشائها تنقسم قسمين. حيث يتكافأ الغشاء مع الجسم. ولسنا في التفسير العلمي بحاجة إلى افتراض نظرية من النظريات فهذا الانقسام نفسه من الوقائع التي لا تحتاج إلى تفسير. والبكتريا ـ وهي أصغر الكائنات الحية المعروفة ـ تتكاثر بالانقسام. ثم تكرر الانقسام إلى الحد الذي يتعب الذهن من حسابه. وتنفصل

عناصر جسم الأميبا المركزي، أو النواة، تنفصل إلى نواتين، ثم تنقسم الخلية كلها وتكون أميبتين جديدتين فهذه نموه. ولكن تعمر الخليتان وحدهما، وأكثر الظن لا يوجد حد

مثل هذا الانقسام بكائن الحي قسمين هو جوهر حب طبيعة الاستمرار في الحياة. حتى في الحيوان العاقل Homo sapiens ومع أن طبيعة تطور بهذه الصيغة إلى آلاف من الصور المعقدة إلا أنها لا تحرف ... وتسود في التوالد عن طريق انقسام البروتوبلازما (في الحيوانات ذات الخلية الواحدة). فالهيدرا [1] Hydra الصغيرة تبرعم من جسمها هيدرا أكبر، وتنمو مستقلة عن حياة أبيها، حتى إذا تم نضوجها برزت بمخالب على أعضاء تقتنص الكائن نفسه الذي برعمت منه وأخيراً تنفصل في حرية، وتلتمس مكاناً آخر، وتهيء لنفسها معيشتها.

وفي بعض الأحياء تبقى خلايا البروتوبلازم منقسمة كخلايا في بعض الفطريات Volvox مستترة في قالب هلامي وتكون «مستعمرة colony». وعندئذ يظهر تميز غريب في الوظيفة، إذ تختص الخلايا الخارجية بالغذاء، والداخلية بالتناسل. وتصبح المستعمرة كائناً جماعياً تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض وتتعاون. فهنا بداية مظهر الجسد. تقدم الحياة لنا مثلاً من «عزل جرثومة البلازما» حيث الانعزال الذي أقام فايسمان Weismann على أساسه النظرية السائدة الخاصة بالوراثة في الإنسان

ولكن مع أن الانقسام عام إلا أنه لا يكفي. إذ يأتي وقت بعد عدة أجيال يبدو فيه أن البروتوبلازما التي تكرر انقسامها تفقد الطاقة اللازمة لتكوين كائنات جديدة. وهنا تظهر ظاهرة جديدة. إذ تتحد كتلتان ضعيفتان من البروتوبلازما، وتصب كل منهما من نواتها تياراً من البروتوبلازما ينفذ إلى جسم الأخرى، ثم

(١) اسمه الشجاع - بالعربية (قاموس شرف) وهو حيوان مائي متعدد الرؤوس، إذا قطعت إحداها نبت أخرى. أو هو جنس من الديدان الدنيئة التي تتكاثر بالانقسام. وفي حياة الحيوان للدميري: الشجاع الحية ... وزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه عرض له في البطن حية يسمونها الشجاع (المترجم).

منفصلتان، ويظهر مع الجراثيم أنهما قد قويتا بهذا «الزواج المجدد للشباب». وإذ تنقسم كل منهما بقوة مطردة. ويحقق الانقسام لعدة أجيال مرة أخرى أعراض استمرار الحياة. ولاشك في البروتوزوا في هذه الحالة شبيه بأنفسنا الإنسانية وحين عجزت. إذ تقوى المرء عندما يتزوج. ويتجدد شباب الأجناس عندما تختلط.

وعلى الرغم من هذا الاتحاد البسيط من دلالة فهو لا يشبه ذلك التزاوج بين الأفراد المختلفة. وهو أصل زهرة الحب. ويمكن أن نجد مثيلا لذلك في الحيوانات الدنيئة الأولى. تقترب من ذلك في البندورينا Pandorina، وهي مستعمرة بروتوزوية مكونة من ستين خلية، وتنقسم كل منها لا إلى خليتين مستقلتين. بل إلى أجزاء متشابهة الصغر أو «بذور» خلايا جرثومية Spores» كلها متشابهة فيما يبدو، ولا ينشأ كائن جديد إلا باتحاد جرثومتين. ولننتقل إلى مستعمرة بروتوزوية أخرى هي الإيدورينا Eudorina فنجد الظاهرة نفسها، إذ تنقسم كل خلية إلى جراثيم مختلفة، بعضها كبير وساكن. وبعضها صغير ونشط، ولا يتكون كائن جديد إلا عندما تنفذ جرثومة صغيرة في داخل جرثومة كبيرة. ففي الإيدورينا تبدأ الطبيعة في كشف الجنسين.

وهذه الطريقة تتردد بعض الوقت. ففي بعض الفطريات نرى طريقة التناسل القديمة تتردد متناوبة مع الطريقة الجديدة. ففي الجيل الأول تتكاثر خلايا المستعمرة بالانقسام المعروف. ولكن خلايا الجيل الثاني التي حدثت بالانقسام. تتكاثر كالإيدورينا إلى جراثيم غير متشابهة، ويجب أن تتحد جرثومتان لتكوين خلايا الجيل الثالث. وهكذا لا يمكن أن يستتب أمر الأشياء الجديدة إلا إذا بقيت بعضها في أحضان القديم... وهذا درس يتعلمه الشباب بعد أن يولى الشباب!!

وبعض أعضاء الجسم في الكائنات الأكثر تعقيداً. كأعضاء التذكير والتأنيث في النبات تتخصص لإنتاج الجراثيم. فيتميز نوعان من الجراثيم تميزاً كبيراً ويصبح كل نوع منهما في المراحل المتأخرة من تطور الحياة البويضة ova والنطفة sperm. ولكن هذين العنصرين المتضادين لا يزالان في كثير من الأنواع يحدثان

فى الجسم نفسه بوساطة الأب (أو الأم)[1] فقط . فدودة الأرض مثلا تفرز فى فلقة من فلقها نويصات . وفى فلقة أخرى فى موسم آخر نطفا . والحال كذلك فى المحار والهلاميات الأخرى ، وبعض ذوات الأغشية ، وسمك الفرخ perch ، بل الرنجة herring المعروفة . ولما كانت الطبيعة قد ترددت فى التمييز بين العناصر المولدة ، فقد ترددت كذلك قبل التمييز بين الذكر والأنثى فى الكائنات التى تولدهما .

ويظهر أبسط صور التمييز المعروفة فى السنجام syngame وهو طفيلى يعيش فى داخل الطيور وهنا نجد كائناً كبيراً يبدو أنه أنثى ، تفرز نويصة . ثم كائنا أصغر منه كثيراً يعيش متصلا على الدوام بجانب الأنثى . ولا يعطى بسبب صغر حجمه أى فكرة عن سيطرة الذكر . ويشبه هذا الكائن الصغير الذى يفرز النطفة طفيلياً يعيش على طفيلى أكبر منه ، أو يشبه عضواً فى كائن . ولن يشك أحد فى أنه زوج الأنثى .

وانظر كذلك إلى دودة البحر المسماة بونيليا bonellia . ويبلغ طول أنثى هذا النوع نصف قدم ، وهى عريضة إلى حد ما ، أما الذكر فهو شحمة ضئيلة يبلغ طولها جزءاً من ستة عشر جزءاً من البوصة ، أى إنه أصغر مائة مرة من أنثاه . وتعول كل أنثى نحو عشرين ذكراً من هذه الذكور الضئيلة ، التى تنفذ من داخل مجرى الهضم فى الأنثى إلى جسمها ، حيث تلتقى بالنويصات الموجودة داخلها وتلقحها . وأنثى الحشرات تكاد تكون دائماً أكبر وأقوى من الذكر . فأنثى الفراشة أطول من الذكر خمس عشرة مرة وتربو عشرات أضعاف وزنه . وفى بعض أنواع الحشرات يبلغ الذكر من الصغر حداً يكون فيه « أشبه بالنملة التى تدب على ظهر الجوخة »[2] . ولا يتفوق الذكر إلا فى الطيور والثدييات ، وهنا نجد أن قوته ترجع إلى أن الأنثى بعد اضطلاعها بمعظم أعباء التناسل تغلب حسابياً على أمرها فى الحرب الجنسية الأزلية .

(١) فى الأصل parent ، وهى فى الإنجليزية تدل على أى الوالدين ، لا الأب فقط أو الأم فقط (المترجم) .

(٢) Gourmont, R. de, The Natural Philosophy of Love.

ويبلغ هذا الاعتماد الذي نراه في الذكر وهو أصغر الجنسين على الأنثى ذروته في تضحية الذكر بنفسه عند عملية التلقيح . ففي كثير من الأنواع تأكل الأنثى الذكر بعد الاتصال الجنسي مباشرة . ويعيش ذكر العنكبوت من فصيلة إبيروس Epirus بعيداً عن الأنثى طلباً للسلامة إلى أن يصاب بنوع من القلق . وعندئذ ينقل في حياء كأنه ذاتي يقترب من بيتربس ويتصل بالنسيج الخارجي للأنثى . ويبني لنفسه بعناية طريقاً للانسحاب والخروج، ثم يتقدم بحذر . والغالب أن الأنثى تلتهمه في الحال دون أن تسمح لهذا المسكين بمعرفة أي شيء عن لذة الحب . ولعلها تظنه من الأعداء . وقد تكون ممن يؤثر الطعام على الغرام . أما إذا سادها مزاج السفاد فإنها تمارس شعائر الحياء . فتتراجع في حذر مع أنها أكبر وأقوى من الذكر . وتنزل خيطاً من نسيج بيتها وترفع خيطاً آخر . على حين يتبعها الذكر الهائج . وأخيراً تستسلم لقبضة الذكر فتهيىء له وهم السيطرة اللذيذ . ويبلغ اجتماعهما في هذه المرحلة مبلغ الرومانتيكية والسمو . فيربت أحدهما برقة على صاحبه بملامسة peelers . ويفصحان عن رغبتهما برشاقة . ولا يكاد ينتهي التسافد حتى تنقض الأنثى على الذكر وتلتهمه بكل ما في الحب الكامل من سحرية . وقد يكون الذكر في بعض الأحيان يقظاً إلى الحد الذي يجعله يهرب من قبضتها المهلكة . فينزلق متراجعاً على خيطه ناجياً بحياته العزيزة . ويصبح بعد ذلك فيلسوفاً ، حتى ينتابه القلق مرة أخرى .

ويقول فابر Fabre إن أنثى الجراد mantis تأكل عشاقها بمثل هذه الوحشية مع شراهة أعظم . وترفض الحشرات الأخرى اقتراب الذكر منها بعد تلقيحها . ولكن أنثى الجراد تسمح لاثنين إلى سبعة من الذكور وتقبل مغازلتهم ، ثم تأكلهم الواحد بعد الآخر في وقت فراغها . وفي كثير من الأحوال لا تستطيع الأنثى أن تصبر في انتظار وجبتها ، فتدير رأسها وتأكل الجزء الأعلى من الذكر حين يكون مشغولا بتأدية مهمته الجنسية . ويروي بواري Poiret حالة أنثى أطاحت برأس الذكر بمجرد ظهوره ، ولكن المغرم المقطوع رأسه مضى في أداء وظيفة التناسل وكأن شيئاً لم يحدث له . وكأن الرأس لا قيمة له في الصلة الجنسية . وقطع جاك لوب Jacque Loeb بطن الجاماروس gammarus

وهو ذكر من القشريات حين كان يسافد ، ولكنه استمر فى عمليته دون اضطراب ، ومن الواضح أن سائر قواه الحسية اتجهت وجهة أخرى . وفى ذلك يقول لوب :

« الواقع إلا إذا كانت ذاكرتى تخدعنى أن هذه الذكور المنزوعة بطونها على استعداد إذا أبعدت عن الإناث أن تتصل بغيرها متى وجدتها »[١] .

وربما لعجب حين ننظر إلى تبعية دور الذكر فى الأنواع الدنيئة ، أيمثل ذلك ضرباً من التخصص تطور إليه أخيراً بالطبيعة عن نوع من الكائنات مثل دودة الأرض ، حيث يعيش كلا الجنسين فى جسم واحد . وكل ما كان لازماً لظهور الجنس هو تباين يحدث لبعض الكائنات التى مع تولدها من أنواع خنثى bisexual إلا أنها تصبح مع ذلك متخصصة الجنس unisexual ، أى قادرة على إنجاب نوع واحد فقط من الأعضاء التناسلية

ولكن ما الذى أعان على ظهور هذا التباين ؟ وما فائدة هذا الانفصال الجديد فى الحياة إلى أنثى وذكر ؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأن الذكر الجديد لا غنى للأنثى عنه ، فالطبيعة والتجربة تشكان فى ذلك . فهناك حالات كثيرة تستطيع الأنثى ، حتى فى الأنواع التى تم فيها انفصال الجنسين ، أن تنجب فيما يبدو بغير معونة الذكر . مثال ذلك أن بق النبات المسمى أفيس aphis يتسافد الذكر والأنثى عادة وقت سقوط الأوراق ، وتضع الأنثى « بيضة شتوية » كبيرة تعيش حتى الربيع ، على حين يموت سائر النوع وتفقس هذه البيضة الكبيرة فى الربيع إناثاً بغير أجنحة ، وهى ، مع أنها لم تر أى ذكر من جنسها ، إلا أنها تنجب خلفاً كلها من الإناث حتى نهاية الصيف ثم تظهر فجأة بين البرقات ذكور ، ينضج بعضها ، وتلقح إناث جيلها التى تضع بيضات شتوية من جديد .

لعل هذه الحالات من التوالد بغير تلقيح parthenogenesis ترجع (كما يظن ترمبلى Trembley) إلى انتقال بعض ما اخترنته الإناث الملقحة فى موسم سقوط الأوراق إلى البيض الملقح من الأجيال التالية غير الملقحة ، وليست هذه النظرية مؤكدة . أما إمكان الاستغناء عن الذكر بالفعل فقد ثبت بالتجربة

(١) Comparative Physiology of the Brain, p. 231.

فى كثير من المعامل . فقد شجع جاك لوب البيض غير الملقح لأصداف البحر sea-urchins ، ونجمة البحر starfish على الفقس والنمو بأن يضع البيض فى الكحول والأثير والكلوروفورم والاستركنين والسكر والأملاح والحوامض والقلويات ، فكانت هذه الأصناف المتعددة بديلا عن الذكر المفروض أنه لا غنى عنه .

فمن الواضح أن ظهور الذكر فى الطبيعة لا يرجع إلى الحاجة إلى التلقيح . فإلى أى شىء يرجع إذن ؟ أكبر الظن أنه يرجع إلى ضرورة التهجين cross-fertilisation ذلك أن اتصال الجنسين جعل اتحاد الصفات والقوى الوراثية فى الذرية ممكناً ؛ وهى صفات وقوى تنحدر عن أصلين متميزين من الأسلاف . وتبلغ مزايا هذه الوراثة المزدوجة من الوضوح ما يجعلنا نتوقع ظهور ترتيب معين يمنع التوالد الذاتى بغير لقاح . وهذا هو الواقع : فالأزهار (وهى الأعضاء التناسلية فى النبات) مركبة بطريقة تجعل بعد عضو التذكير فى عضو التأنيث من ذلك النبات مستحيلا . حتى الدودة التى تضم فى جسمها كلا الجنسين ، نجد أن أعضاءها مرتبة ترتيباً لا يسمح بالتلقاح الذاتى . وهكذا تدبر الطبيعة حتى نبلغ نوع الإنسان فنجد أن العوامل الاجتماعية والنفسية قد تحالفت على تحريم الزواج بين الأخ وأخته ، وتوجد محرمات taboos قوية تمنع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة وليس تحريم الزواج من الأهل incest ، وقوانين الزواج من خارج القبيلة ، إلا أسمى صورة لذلك الاتجاه نفسه نحو التهجين ، وهو المسئول عن التمايز بين الجنسين .

والآن وقد انقسمت الكائنات إلى جنسين ، فعلينا أن نواجه المشكلة التالية وهى تعاونهما بالتقاء أعضاء التناسل . وهنا يذهلنا إسراف الطبيعة ؛ وإسرافها أعظم فى نباتات الزهرة . إذ هناك آلاف من الأنواع تعتمد على الرياح فى نقل بذور التلقيح من نبات إلى آخر ، ويفوح الهواء برائحة حبوب اللقاح التى تكون ذراتها أريج الزهر . حتى لتشغل ملايين من هذه الذرات مسافة تبلغ خمس ياردات . وتحمل أنثى سمك الدحس sturgeon فى جسمها ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ بيضة (أى ٩٠٠ رطل) ، وهذا يكفى لعمل ٦ر٠٠٠ شطيرة (ساندوتش) من الكافيار . أما

في سمك الرنجة فالأمر أشد إسرافاً. إذ تتجمع مئات الآلاف من الإناث والذكور في مكان واحد حتى ليخيل للمرء أنها قطعة كبيرة من الحلازين. وتفرز البيض والمني milt بكثرة شديدة حتى يصبح لون ماء البحر كاللبن. ثم يأتي الصيادون فيمسكون بهؤلاء المفرمين جملة، ويسحبونهم بالآلاف في شباكهم. ومع ذلك يلقح بعض البيض بوساطة المني. أما الطبيعة المهملة التي تحتقر من شأن العدد فإنها تعزي نفسها بالاحتفاظ بالنوع.

ونحن نجد هذا الإسراف نفسه في نوعنا الإنساني. ولو أنه حتى. إذ من بين ٧٢٫٠٠٠ بيضة تفرزها الأنثى. وملايين النطف التي يفرزها الذكر، لا يستغل في التناسل إلا قلة قليلة (في أيامنا هذه واحدة أو اثنتان فقط) ويعتقد بولش Bolsche أن هذه الوفرة ليست مجرد تبديد، إذ أنها تقدم المادة التي منها ينتقي الانتقاء الطبيعي البيض وينفي الضعيف وينتخب الأقوى. وقد يكون هذا صحيحاً. ولكننا نشك في أن الأستاذ بولش قد أعلى من شأن الطبيعة أكثر مما تستحق، فهي ليست من الذكاء بمقدار ما يظن. ولا ريب في أننا قد ورثنا الغباء الذي لا ينضب له معين من أمنا الطبيعة.

ويصحح هذا الإسراف في الحيوانات الراقية ما تتخذه الطبيعة من احتياط في التركيب هداية البيضة والنطفة واتحادهما من جهة، وما يتخذه الآباء من عناية نامية من جهة أخرى. مثال ذلك أن نجمة البحر star-fish تحتضن بيضها الملقح ببدنها، وكذلك صغارها بعد فقسها. ويقود ذكر الرقروق (نوع من السمك) أنثاه إلى حفرته لتضع البيض، ثم تذهب إلى حالها ويعنى الذكر بالنسل نفسه، كما يفعل الزوج في العصر الحديث. وتضع أنثى فرس البحر من النوع المسمى كامبوس هدسونيوس campus hudsonius بيضها في جراب على بدن الذكر الذي يعنى بالبيض إلى أن يفقس. ويبلغ المتوسط السنوي لما تضعه آلاف الأسماك التي تكتفي بوضع البيض ثم تتركه حول مليون لكل زوج. وفي مثل النوع التي تظهر شيئاً من عناية الأبوة فلا يبلغ المتوسط إلا ٥٦ بيضة للزوج في العام. وتضع الطيور التي لا تبني لها عشاً اثنتي عشرة بيضة في العام. أما التي تبني عشاً حسناً فيبلغ ما تضعه ثماني بيضات. والتي

تبنى عشها بعناية حساً (١) . وهكذا نجد أن الحب الأبوى يحل شيئاً فشيئاً محل إسراف الطبيعة ويعوضها . وفى الثدييات التى تختص بعناية الأمومة يحب الزوج ثلاثة صغار فى العام ، وتقل هذه النسبة فى الأنواع الراقية . ثم تنمو الأسرة ببطء كأنها رحم خارجى يعنى بالنسل خلال فترة أطول من الزمن . وكلما طال زمن البلوغ ارتفعت الحضارة التى تعتمد إلى حد كبير على فترة التربية إلى مستويات أعلى مما كانت عليه من قبل .

والآن ، موقف مشكلة الحب من وجهة نظر هذه الزاوية البيولوجية السريعة ؟ يجيب أرستوفانس ساخراً فى محاورة المأدبة لأفلاطون (١٨٩ - ١٩٢) قائلا : « كان الجنسان فى الزمن القديم واحداً ، ولكن الإله – بسبب خبث البشر . . قطع الإنسان نصفين ، كالنصف الذى يشق نصفين للتخليل ، أو كما تشق البيضة بشعرة . . . وكل منا حين انفصل لم يكن إلا نصف إنسان... يتطلع على الدوام إلى نصفه الآخر . فالرغبة فى الكل والسعى إلى تحقيقه يسمى حباً » . وهذا لعمرى تعريف شريف ، يحثنا على تأويل هذه الأسطورة تأويلا علمياً ، فنقول : كان كلا الجنسين فى قديم الزمان فى بدن واحد كما هى الحال إلى الآن فى دودة الأرض ، ثم فصلتهما الطبيعة إلى كائنين . ولذلك يحس الآن كل شطر منهما وهو منفصل بأنه ليس إلا نصفاً ، فيشتاق إلى الاتحاد والتكامل .

ولكن الجواب عن سؤالنا « ما الحب » يعد جواباً غامضاً . إذ يفترض ذلك وجود وعى فلسفى عال فى أحط الخلايا الجرثومية البروتوزوية . وأكبر الظن أن وصيفة الذكر حين تخصصت أول مرة فى كائن منفصل ، لم يسع إلا قلة قليلة من تلك الذكور الأولية إلى الاتحاد « بأنصافها الحلوة » . وتلك الذكور التى سعت ووفقت فى الاتصال بنصفها الآخر ، هى وحدها التى أصبحت آباء الجيل التالى . وهكذا كان المحبون فى كل جيل – أى الأفراد الذين حققوا الكمال بالاندماج فيمن يكملهم – هم الذين نقلوا شوقهم إلى الاتحاد فى مجرى الحياة . أما الذين فقدوا الشعور بهذه النزعة أو شعروا بها شعوراً ضعيفاً ، فقد انقضت

---

(١) Sutherland, A., Origin and Development of the Moral Instincts, Vol. I, pp. 4-5.

حياتهم بغير نسل أو بنسل قليل . وذهب فتورهم بموتهم . من أجل ذلك نما الشوق الشديد مع كل جيل . فلا غرابة أن يصبح هو العاطفة العالية ، وهى أقوى من الموت . . . ذلك الموت الذى تخدعه هذه العاطفة فى صبر بالاستمرار عن طريق التبدل . ولعل . . . لعل هذا هو الطريق الذى جاء منه الحب.

٣ — الأساس الفسيولوجى

لقد تحدثنا عن الحب بما فيه الكفاية فى تطوره خلال سلسلة الحياة . فلنتأمل الآن نموه فى الفرد ، أو كما قال أرسطو : إذا أردت أن تفهم حقيقة شىء ما فعليك أن تبحث نشأته وتطوره .

أيوجد فى الطفل ما يضاهى عاطفة الحب التى تظهر فيما بعد ؟ يجيب فرويد فى ثقة عن هذا السؤال مثبتاً إياه ، وشيد قصوراً مدهشة من علم النفس الطبى أقامها على الاحتمالات الشبقية لمص الأصابع ورضع الثدى. ولكننا حين نفصل الوقائع عن النظريات نجد الوقائع ضئيلة جداً . فهذا واطسن وأعوانه وضعوا مئات عدة من الأطفال تحت الرقابة فترة طويلة من الزمن . فلم يجدوا عندهم أى سلوك جنسى من أى نوع[1] .

ومع ذلك فلا يلبث الطفل أن يظهر وعياً بالجنس الآخر ، فيبدو عنده ضرب من الفضول التشريحى يشجعه عليه الإخفاء والمراوغة . ويصبح كل جنس شيئاً غامضاً بالنسبة إلى الجنس الآخر ، ويثير فيه رد فعل عبارة عن مزيج من الخجل والجاذبية . ولا يكاد يوجد بين الجنسين الصغيرين أكثر من ذلك . فإذا حصل الحب قبل البلوغ فالأشبه أن يكون فى هيئة « عقدة أوديب » ، أى يتعلق الصبى بأمه ، والفتاة بأبيها . ولكن ليس ما سَمّينه فرويد هو الشىء الطبيعى ، فعقدة أوديب ليست لا شعورية ولا شاذة ، بل هى سبيل الطبيعة إلى إعداد الطفل لحب سليم . أما إذا كانت العلاقة على غير تلك الصورة ، أى حين

---

(١) Watson, J.B., Behavior, p. 262.

يتعلق الابن عاطفياً بأبيه ، أو تتعلق البنت بأمها ، فعندئذ يكون من المعقول أن ينزعج علماء الطب النفسي .

وعند البلوغ يغنى الحب أنشودته الواضحة . والمعنى الحرفي للبلوغ[1] puberty يدل على السن التي ينبت فيها الشعر على جسد الذكر ، وبخاصة شعر الصدر الذي يتيه به في توحش ، وكذلك شعر الوجه والذقن الذي ينتزعه في صبر أيوب . ويبدو أن نمو الشعر وغزارته ينبتان ويقعان (في الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية ، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية . هذا الشعر الذي ينبت فجأة إلى جانب خشونة الصوت من « الصفات الجنسية الثانوية » التي تصيب الذكر عند البلوغ . أما الفتاة النضرة فإن الطبيعة تجعلها لينة الأطراف ثقيلة الأرداف حتى تمشي الهوينى ، عريضة الحوض لتيسير الحمل ، بارزة النهدين لإرضاع الطفل .

فما الذي يسبب هذه الصفات الثانوية ؟ لا أحد يدري . ولكن الأستاذ ستارلنج Starling اكتشف ما يؤيد نظريته التي تذهب إلى أن الخلايا التناسلية عند النوع لا تشرع في إفراز البويضة والمني فقط ، بل كذلك بعض « الهرمونات » التي تنفذ إلى الدم وتكون علة حدوث تغيير جسماني ونفساني . ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة ، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثر . وفي ذلك يقول روميه رولان : « تمر بالرجل فترات من العمل يحدث فيها تغيير عضوي صامت » — أو بالمرأة . ومرحلة البلوغ هي أهم هذه المراحل .

ثم تغمر مشاعر جديدة الجسم والنفس . ويسوق حب الاستطلاع العقل إلى الأمام ، ويرده الحياء إلى الوراء . ويصاب الشاب بالارتباك في حضرة الجنس الآخر . وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلاً . وقد يصبح الطفل فجأة ذكياً بعد أن كان غبياً ، أو يصبح عنيداً بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعاً . وتنتاب البالغ نوبات من النظر في باطن نفسه ، وضروب غريبة من التأمل

(1) هذه المرحلة معانٍ مختلفة في الإنجليزية . أما في العربية فالبلوغ من سن الرشد ، ويدل أيضاً الاحتلام والحلم والمراهقة ، وبعضها يدل على إدراك الطفل ، وبعضها يشير إلى الحالة الجنسية للعروبة (مترجم)

والشرود . ويتفتح الخيال وتزهر دولة الشعر ، ويطمع جميع المثقفين إذا بلغوا هذه السن في التأليف ويحلمون بشهرة خالدة . وتسرع كل قوة عقلية في النمو ، ويهجم العقل بأسئلة جديدة على الكون . وإذا استمر الشاب سائراً في طريق التفكير أصبح عالماً أو فيلسوفاً ، أما إذا هجره سريعاً فقد يصبح رجلا ناجحاً في الحياة ويرتقي أعلى المناصب .

وفي هذه الفترة يروى ماء الحب المتدفق جذور الفن للمجتمع والإخلاص له ذلك أن الحب يتخيل الجمال ، ويبحث عنه ، وقد يبتدعه . والحب يتخيل الخير ، ويسعى إليه ، ويبرز عزماً على تحقيقه . وإذا كان الدين يعرض نفسه في هذه المرحلة على أنه عقائد خُلُقية فقد يثير في نفس الشاب شهوة الجدل ، وتتمزق بذلك أوصال الدين . أما إذا عرض نفسه على أنه يطلب الخير تأثرت به مثالية النفس المتفجرة ، وأصبح الدين جزءاً لا يتجزأ من الشخصية

جملة القول مرحلة البلوغ أعجب مراحل حياتنا . فهو عصر العقل ، وهو مع ذلك فترة الانفعال ، إذ يثور العقل وينقب في كل جانب وامتلأ من أفكار جديدة ومن عواطف المحبة . ولن تجد العالم يبدو أغرب ومع ذلك أجمل . وأبعد منالا ومع ذلك أسهل سبيلا ، كما يبدو في هذه السنين التي ينتقل فيها الإنسان من طور إلى طور ، حتى ليشتاق المرء في كل عمر متأخر إلى الرجوع إليها . سن البلوغ هو ربيع كل قوة ، وزمان البذر لكل حصاد ، وفيها تجد سائر العواطف الشريفة غذاءها . هذه السن هي نهضة الحياة .

ومع ذلك أي قوة داهية هذه التي تسوق الفتى في خوف نحو الفتاة ، وتجعل الفتيات يتمنعن وهن الراغبات ؟ أي سر غامض يعمل في جنبات الجسم ليخلق أبهى زهرة في جميع حياتنا . . . حب الرجل للمرأة ؟

وتأخذ الخلايا الجرثومية في البدن تهتاج وتتفجر بالحيوية وكأنها قد عقدت العزم على مغالبة كل جهد للاحتفاظ بهذا النشاط الجديد . وكما أن الأصل البيولوجي للحب هو الانتخاب الطبيعي ونمو الغريزة إلى تحقيق الاتحاد . كذلك أساس الحب الفسيولوجي في الفرد هو تجمع المادة الجرثومية . فيهتاج الكائن

بأسره ، لإحساسه بتوقف النمو وقلق الحياة المتوسعة ، ويمتلىء القلب بحزن لذيذ ولكنه ثقيل ، وكأنه قد أدرك أنه ناقص فتعطش إلى أن يكمل نفسه .

وفى ظل هذا الاهتياج يتأثر الشباب بآلاف من المؤثرات كانت تمر به دون أن يشعر بها من قبل ، وتروقه بعض الأصوات ، وتفتنه الموسيقى والغناء إلى أقصى حد ، ويتصف الصوت برخامة جديدة (لعلها بدأت فى نداء الذكر من الحيوانات الدنيئة) ، ويستمتع المحب بسماعه . ويعجب الشباب ببعض الروائح ، بعبير البدن النامى ، وأريج النظافة ، وقوة العطر المنبهة للغريزة ، وهى جميعاً كالخمر التى تسكب فى كأس الحب . وتفتنه كذلك بعض الحركات : إيقاع الرقص ومحاصرته ، وهزة جسم الرياضيين وثقتهم بأنفسهم ، ورشاقة الفتيات وحسنهن . أما المناظر فتفتن الشباب أكثر من أى شىء آخر ، إذ يفيض موسم الحب بالألوان ، ويفضى اللون الأحمر إلى حب الامتلاك . ويتأنق الشباب فى الملبس فى زمان الأنفة ، كما ينبت العرف والريش للطير والحيوانات . ويطلى المتوحشون أجسادهم بالنقوش فيشوهون أنفسهم ليلفتوا إليهم الأنظار ويثيروا الحواس . ولا يصبح اللباس وقاية من ريبة ، ومصدراً للوحى ، وباعثاً على التأثير . وتعشق القلوب الرقيقة للشجاعة والقوة ، وتثير رؤية الأجسام البضة رغبة الشباب فهذه التجارب الجديدة من الروائح والأصوات والملموسات والمناظر ، ومن العطر والغناء والرقص وشتى أنواع الاستعراض ، تشغل أيام الشباب وأفكارهم الحالمة ، وتصبح بواعث لا يمكن صدها إلى الحب .

ثم تجتمع سائر المؤثرات وتظهر فجأة جميع الشروط ، وتنطق حاجات الجنس بلسان جوع البدن والروح . وعندئذ يولد الحب ويشرق فى القلب كما يبزغ النور فى الصباح ثم ينتشر فيملأ الكون نوراً وناراً . وفى ذلك ينشد لوكريتيوس العظيم :

« إيه أيتها الزهرة ، بك وحدك سيدة طبيعة الأشياء ، ولا شىء يرتفع بغيرك إلى عوالم الحياة المقدسة ، أو يصبح بهياً أو مرحاً . وإنك لتملئين جميع القلوب بالحب العميق ، وتسوقين كل قلب إلى أليفه يعملان على استمرار الجنس بالرغبة الحارة ، من خلال سائر الجبال والبحار والأنهار المتدفقة ، وأعشاش الطيور

المورقة ، والسهول المكسوة بالحشائش . إذ ما يكاد الربيع يشرق مع الصباح ، حتى تثب القطعان البرية فوق المراعي الباسمة ، وتعوم فى المياه الجارية ، وقد أسرت قلوبها المباهج الساحرة ، وساقها الحب إلى اتباعك[1] » .

٤ — النمو الروحى

على هذا الأساس الوطيد الطبيعى يقوم ذلك الحب الذى هو روح وشعر ، كما ينشأ إخلاص الأليف لأليفه من شهوة الحياة للاستمرار . ومن هذا الجوع الجسد ينبع أجمل وفاء بين روحين . ومن شهوة الهمجى فى الكهف ينشأ فى النهاية غرام الشعراء . فهذا هو السلم الذى يرتقيه الإنسان .

ويبدو أن البدائيين من البشر لم يعرفوا من الحب إلا الشىء اليسير إذ ليس فى قاموسهم لفظة تدل عليه ، وإذا تزوجوا لم يعنوا شيئاً يقرب من الغزل أكثر من الرغبة فى البنين ، والاحتلاف بانتظام إلى تناول وجبات الطعام . وفى ذلك يقول لابوك Lubbock (وعلماء الأجناس مغرمون بالبحث فى الأماكن الغريبة) : « يحتفل أهل « يوروبا Yoruba » بالزواج بلا أدنى اكتراث . ولا يفكر الرجل منهم فى اتخاذ زوجة إلا بمقدار ما يفكر فى انتزاع سنبلة من القمح . . . ولا محل للحب على الإطلاق »[2] وكان نيتشة يعتقد أن « الحب الرومانتيكى » من اختراع شعراء الأقاليم troubadours . ولكن لا ريب أن ثمة عنصراً « روحياً » ينمو فى الدافع التناسلى حينما ظهرت الحضارة . وكان الإغريق يعرفون القصص الغرامى ، ولو أن ذلك كان على طريقتهم الشاذة . وتدل قصص ألف ليلة وليلة العربية على أن الحب لم ينتظر حتى ظهور الأغانى فى العصر الوسيط . غير أن مغالاة الكنيسة فى تقديس العفة ، وإحاطتها المرأة بسحر ما يستعصى على النوال ، كان مما ساعد على ازدهار شعر الغزل . ويقول فى ذلك لاروشفوكو : « الحب بالنسبة إلى روح الحبيب ، كالروح بالنسبة إلى البدن الذى تحييه » . ويقول دى موسيه : « جميع الرجال كذابون وعشاشون

---

(١) On the Nature of Things, Tr. Munro, Book ii, lines 991 f.

(٢) Origin of Civilisation, p. 51.

ومداحون ومنافقون ومحتالون . وكافة النساء معجبات بأنفسهن ومتصنعات وماكرات . . . إلا شيء واحد مقدس وجميل ، ذلك هو اتحاد هذين الجنسين الناقصين » . ويقف نيتشة يمجد الحب قائلا : « أطهر عبارة سمعتها هي قول القائل : إذا كان الحب صادقاً احتضنت الروح الجسد » .

كيف يمكن تعليل هذا التحول من الرغبة الطبيعية إلى الحب الرومانتيكى؟ ما الذى يجعل الجوع الجنسى يزدهر هذا الازدهار فيصبح ظرفاً ، وهتيج البدن رقة الروح ؟ أيكون ذلك لأن الحضارة مع نموها قد أجلت سن الزواج ، وتركت الجسد فى شوق إلى رغبة لم يحققها . ذلك الشوق الذى ينعكس فى باطن النفس إلى صورة من الحبيب . ويضفى المحبوب ألواناً مثالية أضفتها رغبته التى لم تتحقق؟ إن ما نطلبه ولا نجده . يصبح أعلى لأننا لم نجده . وسوف نرى أن جمال الشيء فى قوة الرغبة إليه . وأن الرغبة حين تضعف ، تقوى إذا أشبعت بالزهد فيها . من أجل ذلك كان الحب أكثر روحانية فى شباب الفرد وأوج الحضارة ، لأن الكبت يبلغ ذروته فى ذلك الأوان . ويخفف الشعر ما تشعر به الأجساد من حرمان .

فلنتأمل نمو النفس بالحب . مهما يكن مصدره . إنه يبدأ فى الأعصاب بالعطف . فنرى العطف خاصاً نحو أبيها . والعطف الولد نحو أمه . ثم يتحول ذلك إلى ضرب من التعلق نحو شخص فى مثل سن الحبيب . ونجد فى كل حجرة دراسية أطفالا يحبون المعلم المخالف لجنسهم . وكتب جيته قصة مشهورة يصف فيها غرامه بامرأة حطمت قلبه . حين دعته طفلها . ويبلغ الإبداع الرومانتيكى ذروته فى هذه الغراميات المؤقتة . إذ يحرك البدن النامى الخيال فيرى صوراً بديعة . ولا بأس أن يرفعها إلى مقام الحقيقة . فيحترق أى شيء يوافقه فى ضلال هذا الخيال وليس للعنصر الجسمانى أى مدخل يشعر به الإنسان . وفى ذلك يقول جيته : « إن أول نزعة للحب عند الشباب الصالح تتخذ وجهة روحانية خالصة »[1] .

(1) Truth and Fiction, p. 178.

ثم تأتى بعد ذلك مباشرة تلك التجربة اللطيفة التى نسىء تسميتها بقولنا حب « العجل calf. »[1] — ولو أن المرء لا يمل النظر فى جمال ذلك الحيوان الوديع . ويكون مثل ذلك الحب حتماً لا يصرح به ، ولا اسم للمواهب اليسيرة التى تنشأ عنه . والبنات فى هذه المرحلة أكثر شجاعة من الصبيان ، ومع أنهن يفقدن (فى الظاهر) بعض هذه الجرأة حين تتقدم بهن السن الواعية . فإنهن يحتفظن إلى آخر الأمر بدربة ممتازة فى فنون الحب . ويبدو الصبى خجولا . ولكن البنت تحتفظ بكيانها وتظل سيدة الموقف . وفى بعض الأحيان يبتعد الصبى عن الطريق حتى يتجنب الفتاة التى يشتاق إليها ، وينفق ساعات طويلة وحيداً فى ظلمة الليل ، أو يهيم على وجهه فى النهار ، يتفكر فى مرارة فى تلك الحركات الطائشة التى صدرت منه أو العبارات السخيفة التى بدرت منه فى حضرة محبوبته. وقد تبلغ هذه الحساسية عند بعض الشباب لدى يستعصون بطل الأمومة ويتعلقون بها مبلغاً يجعلهم يتقيدون بها ، فيظل الشاب عزباً إلى آخر عمره . وعندما يشتد ساعد الصبى يغذى فى نفسه روح حب الظهور ، حتى إذا رأى فتاة أحلامه خاطر بحياته فى الألعاب ليضع تحت قدميها إكليلا من الغار ويولد الشباب فى ميدان الألعاب البدنية ، تلك المصارعات الدامية بين ذكور الحيوان لامتلاك الإناث ، كما يمهد لتلك المنازعات الاقتصادية التى يتنافس فيها الشباب للحصول على الغانيات ، والاختصاص فيهن بالنسمة الرصى . وهكذا نرى أن الحب يدير عجلة الحياة .

وينتقل الحب من هذه المصادر المبكرة التى تعقب تمام البلوغ مباشرة إلى مراحل مختلفة تكون سوية إذا عبرت وزالت ، وشاذة إذا دامت . فالانحراف perversion ارتداد atavism إلى صورة قديمة من السلوك كانت فى الأصل سوية ونافعة ، ثم ظهر ما يفضلها ويسمو عليها . ويتقلب كثير السليم فى هذه الشروط المبهمة كما تقلب دانتى فى الجحيم . فهو يجربها . وتصهره تجاربها . ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحب البالغ والسليم .

وتظهر فى هذه الآونة أيام الغزل ، وهى أبهى أوقات الحياة الإنسانية .

(١) يقال فى العربية النعجة بدلا من العجل ، والمقصود تدرج محبوبه (مترجم)

وليس معنى ذلك أن الغزل ظل ينتظر حتى سن النضوج ، لأن نصف ألعاب الطفولة هي ألعاب حب ، حتى إن الطفلة في الخامسة تستطيع أن تغازل ببراعة . ويخدم الغزل أعراضاً حيوية ، فهو يدفع الحب إلى آفاق أرحب ، ويفسح المجال لانتخاب الأفضل ذلك الانتخاب الذي يرفع تدريجاً نوع الحياة . وتمتاز شعائر الغزل عند البالغين بهجوم الذكر للظفر ، وانسحاب الأنثى إغراء ، ولو أننا نجد ضروباً من الاستثناء لهذه القاعدة . ففي غيبنا الجديدة تغازل الفتيات الرجال ويعلقن عيبهم اهتداء . ولكن هذه العادة البديعة لم تغز بعد بلادنا . وقد نجد في بعض الأحيان امرأة مثل حنة Anne تغرى بعد روية وبصيرة المستر تانر Tanner في شباكها . . . على الأقل في رواية برنارد شو . ولكن الذكر عادة هو الذي يلعب الدور الإيجابي والهجومي ، لأنه بالطبيعة هو المحارب وهو الحيوان المفترس ، والمرأة بالنسبة إليه غنيمة يجب أن ينتصر عليها ويمتلكها . فكل غزل مغالبة ، وكل سفاد علة .

ويقول ستانلي هول : « من الجنادب ما تبلغ من شدة البأس في القتال حداً يجعلها تتمكن من المنازلة كالديكة . وتحارب ذكور السمك حتى الموت في أثناء موسم التوالد وفي مناطق بيض السمك ، وتصبح أسنان ذكور السلمون البالغة حادة وتختلف اختلافاً تاماً عن أسنان الإناث . وقلّ أن تلتقي السحالي في الربيع دون أن تتقاتل . وتقاتل معظم الطيور في الربيع فتستعمل المنقار والمخلب والصيصي التي تكون على الأجنحة وتبرز من الأرجل . ويتفق موسم الحرب عند هذه الضروب من الحيوان مع موسم الحب »[1] وتنقلب الحرب عند الرجال منافسة على التجارة وضرباً من المباهاة . فنحن نتحارب « بالشيكات » لا بالأنياب ، وتختفي مخالبنا وراء آداب التجارة .

والمرأة إذا كانت حكيمة حاربت بالفرار والعفة . والعفة انسحاب وفق خطة موضوعة ، وهي تنشأ من الخوف والطهارة ، وتنمو بالمداهنة والدهاء . وليست العفة من خصائص النوع الإنساني ، لأننا نجد لها شبهاً واضحاً وأصلاً في إحجام أنثى الحيوان عن المسافدة في غير موسم أو في غير موضع . ولكن

(1) Adolescence, vol. II, p. 368.

الإنسان، كما قال بومارشيه، يختلف عن الحيوانات فى أنه يشرب وهو غير ظامىء، ويطأ فى كل موسم. والعفة عند المتحضرين من أبهى مراحل النمو النفسانى للحب. فهى ترتفع إلى مرتبة فذة من العظمة، وقد تقهر فى بعض الأحيان أعمق دوافع النفس. واتبع حكماء المشرعين فى الملايو قديماً طريقة يقضون بها على موجة من الانتحار سادت بين النساء، بأن أصدروا أمراً يحتم أن تحمل جثث المنتحرات عارية فى الشوارع (١).

وكان وليم جيمس يرى أن العفة ليست غريزية بل مكتسبة، فقد اكتشفت المرأة أن البذل يولد الابتذال، ونقلت هذا الاكتشاف إلى بناتها. وذهب ديدرو أبعد من ذلك وأرجع هذه المسألة إلى غيرة الأزواج الذين أدى إحساسهم بالملك إلى فرض العفة على زوجاتهم. وفى كثير من القبائل لا يأتزر إلا المتزوجات فقط، إذ يعتقد أزواجهم (وهم فى ذلك أعقل من خلائق « جزيرة بنجوين »)(٢) أن ذلك يعين على الاحتفاظ بحقوق الملكية وعندما حل الشراء محل الأسر، وأصبح ذلك بدعة الزواج الشائعة، ورأى الآباء أن الأبكار أغلى مهوراً، شجعوا — فى فضيلة على العفة.

وقد نشأت العفة من هذه المنابع المتعددة حتى أصبحت إحدى مفاتن المرأة الداهية. ذلك أن العاهر غير جذابة إلا فترة عابرة للرجال. والتحفظ فى العرض والاقتصاد فى إبراز المفاتن أفضل سلاح فى اصطياد الرجل. ولو أنهم علمونا تشريح الأعضاء التناسلية على قارعة الطريق لأثر ذلك فينا الانتباه، دون أن تتحرك فينا « النوايا ». وينجذب الشاب إلى ناعسة الطرف لأنه يشعر دون أن يفكر فى ذلك أن هذا التحفظ البارع يخفى فى المرأة رقة هى أجمل ما فيها. فالعفة، بما تحتفظ به من ثمن، تحث على إبراز قدرة الذكر وشجاعته، وتحركه إلى أعمال عظيمة النتائج وتبعث الطاقة المختزنة وراء المستوى المتوسط المريح الذى

---

(١) Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, vol. I, p. 24.

(٢) قصة لأناتول فرانس يعرض فيها تاريخ فرنسا تهكماً، وهو يتصور القسيس أنه يعمد هذه الطيور بدلاً من الناس. (المترجم)

نعيش فيه . ومن يدرى إلى أى حد ترجع أعمال الرجال الإنشائية إلى المنافسة الجنسية وحب العرض ، كما هى الحال فى عظمة ألوان الطيور ؟

ولنفرض أن الفتنة سارت فى طريقها ، وتكامل الحب بالأبوة ، واكتملت دائرة الرغبة بإنجاب طفل . وأكبر الظن أنه ليس ثمة غريزة نوعية باسم التناسل ، بل ثمة فقط غرائز الصلة الجنسية mating وعناية الآباء بأبنائهم . فالطبيعة تحقق أغراضها بوسائل منحرفة . والنوع الإنسانى ثمرة عرضية لأعظم ما فيها من لذة . ولن تجد شيئاً أكثر تجربة من هذه الطريقة التى تنشر الطبيعة بها المواليد الحمر بالدماء المتفرعة عن أمهاتهم ؛ وإن كنت فى ريب فاستمع إلى صراخ النساء وصيحات الولاء فى المستشفى . ومع ذلك فما أبرع طريقتها الشيطانية فى تهدئة ثائرة الأم بالنشوة المخدرة . وقلق الأب يزهو أعمى بجهده يدفع باسماً الأجور الباهظة المفروضة الآن لأولئك الذين يجرؤون على استمرار جنسنا الذى ربما لم يكن ضرورياً .

ويتجدد حب الآباء حين يظهر الطفل إلى الوجود ، ولكنه حب يختلف عن تلك الشعلة التى كانت تحترق من قبل . حقاً لقد كانت تلك الشعلة خليقة أن تنتهى فى تلك الأيام إلى ذؤابة ضعيفة عند ولادة الطفل ، والطفل نفسه خليق أن ينتزع من قلبى الأبوين بعض العاطفة التى جعلتهم مؤقتاً شخصاً واحداً . فلأم تخرج إلى نسيان الأب فى غمرة عاطفتها الجديدة ، ويميل الأب إذا كانت الأعجوبة صغيرة سناً إلى أن يخلع عليها هيامه الذى كان يضفيه على زوجته . على أن هذا الزهو يفقد آخر الأمر سحره ، وتنشأ روابط جديدة تصل بين الزوجين مرة أخرى .

وبعد فهذا هو الأوان الذى يجعل التآلف بين الزوجين كاملا . ذلك أن تلك الأعوام من الأبوة تزخر بكثير من التجارب والمحن ، وصروف الدهر ، وآلام البدن ، ومخاوف القلب . ويخلب المرض للخيال المتقلب شيئاً من العمق والاعتدال ، ويسير الحب فى ركاب حياة جديدة مصيرها إلى الموت . وحين يشترك الزوجان فى عمل المشروعات ومحاولة تنفيذها ، ويظفران معاً بالنجاح ، ويبتسمان ، يتداخل عقلاهما المتجانس فى شركة روحية قد ترتفع إلى حد

امتزاج الشخصيتين ، بل إن وجهيهما قد يتشابهان . ذلك أن مراقبتهما معاً مهد الأطفال ، ورؤيتهما إياهم ينمون ، ومسحهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حباً أصغر ، كل ذلك يصوغهما شخصاً واحداً .

حتى إذا لم يبق فى البيت الذى كان يردد رنين ضحكات الأطفال إلا ذكراهم الصامتة ، أظل الحب وكأنه يعزى الزوجين بجناحيه رفيق العمر الطويل. ذلك أن أنشودة الحب لا تبلغ تمامها حتى تسرى بنغمتها الحارة وحدة العمر واقتراب « العدو الأكبر » . والذين عرفوا الحب على أنه رغبة لم يعرفوا منه إلا جذوره وجسده ، أما روحه فهى الباقية الآن وقد تبدد كل عنصر جسمانى . وفى هذا التآلف الجديد بين القلبين القديمين ينبع الازدهار الروحى لجوع البدن التام .

فهذه هى دورة الحب . ولنتأمل هذه الدورة مرة أخرى فى لمحة واحدة ... فى خلايا البروتوزوا المندمجة ، وفى شهوة الحيوان العنيفة ، وفى عشة الضحى العليطة ، وفى عيون الشباب الحالمة الدائمة . وفى قصيدة إليزبيث براوننج أو قصة فرنشسكا ، وفى الرفيقين العجوزين وهما يرتعشان سعادة كلما تجمع أبناؤهما وأحفادهما لإحياء ذكرى نصف قرن من الحب . أهناك أغرب من هذا التحول ، هذا التسامى البطىء من مغناطيسية العناصر إلى أناشيد الفيوم والإخلاص لجميع ميادين الحياة ؟ وإنا لنذكر فى هذا المقام كلمات سنتيانا العميقة التى يقول فيها : « لكل شىء مثالى أساس طبيعى . ولكل شىء طبيعى نماء مثالى » . فقل للحب : لا تخجل من أصلك ، ونرغب أن تدب إذا لم تسم إلى مراتب العبادة.

لقد كان حب الفلسفة هو الذى ساق أفلاطون إلى أن يقول : « إن الذى تمسه نار الحب يمشى فى الظلام »[1] . ولام لابلاس عندما حضرته الوفاة أصدقاءه الذين أرادوا تعزيته بشهرة كتبه واكتشافاته ، فقال لهم آسفاً : إن هذه الأمور ليست أهم شىء فى الحياة ، فسألوه : « وماذا إذن ؟ » وأجابهم العالم الشيخ وهو فى النزع الأخير : « الحب » .

---

(١) المأدبة ، ١٩٧ .

فكل شيء إلى موت ، ما عدا الحب الذى يهرب وحده من الفناء . ذلك أنه يتخطى القبور ، ويسد ثغرات الموت بالتوليد . وما أقصر ما يبدو الحب فى مرآة الحقيقة البعيدة عن الأوهام ، ومع ذلك فما أدومه إذا نظرنا إليه من خلال البشرية . . . وكيف ينقذ بضعة منا آخر الأمر من الهلاك ، فيحتفظ بحياتنا مجددة فى شباب الطفل وقوته . ونحن قد نمـل الثروة ، وقد تكون حكمتنا بصيصاً من النور لا يبعث حرارة ، ولكن الحب يدفىء القلب بسلوان لا يمكن التعبير عنه ، ويزداد دفء القلب إذا كان عاشقاً لا معشوقاً .

الفصل الثامن

الرجال والنساء

١ – حرب الحب

كان جوركي وتشيكوف يتجولان فى القرم فأقبلا على تولستوى الذى كان يجلس بجانب الشاطئ، وقد مال برأسه يتأمل حتى مست لحيته الرمال. فجلسا إلى جانبه وشرعا يتحدثان عن النساء. وظل تولستوى ساعة يصغى فى صمت ثم قال فجأة : « أما أنا فلن أحدثكم عن حقيقة المرأة إلا حين أضع قدمى يمنى فى القبر. سأعلنها صريحة، ثم أقفز فى التابوت، وأغطى نفسى وأقول : « افعلوا ما شئتم بى الآن »[١]. وحين دعا الكونت كيسرلنج برنارد شو للمساهمة فى كتابة فصل فى « كتاب الزواج » رفض شو قائلا : « لا يجرؤ أى رجل أن يكتب شيئاً عن حقيقة الزواج حين تكون زوجته على قيد الحياة ». ومع ذلك فسوف نشرع فى الكتابة عنه، مقتصرين فى هذا الفصل على تحليل أنواعه المتوسطة والتقليدية مؤجلين الفحص عن تحرير الأقلية الحديثة من النساء إلى الفصل التالى.

وتعد آداب هذا الموضوع أمتع الآداب وأبعدها عن الثقة. فهى ممتعة لأنها تتصل مباشرة بأنفسنا، إلا إذا تحدثت عن أخطاء البشرية ورذائلها. أما أن هذا الأدب مما لا يعول عليه فلأنه حكاية عن السيرة الشخصية. وكل سيرة شخصية فهى، قصة خيالية fiction، لأنها فى العالب صوت الانتقام، ولا يقدم على كتابتها إلا المحارب المهزوم. وحين يؤلف أحدنا كتاباً عن النساء يدونه بجروحه (وهذا لا ينطبق على مجرد الفصول من كتاب). وعندما يكسب الرجل قلب المرأة (إذا كان شخصاً مهذباً) فذلك على أمل الزواج منها كما كان يفعل اليونان بعد رقصة الحرب، ثم يحتفظ بعد ذلك بصمت حكيم . . . لأن

(١) Gorki, M., Reminiscences of Tolostoi, p. 65

اثنين لا يتكلمان فى وقت واحد . أما إذا حسر . فإنه يؤلف الكتب . وأمتع من المقدلات التى كتبها شوبنهور ونيتشة وفينجر وغيرهم من المصابين بداء الغرام الذين كتبوا عن الجنس اللطيف ، هو ذلك التحليل الذى يكتبه عن الرجال النساء اللاتى يفهمن الطبيعة البشرية ويعاملنها بذكاء أعظم من ذكاء الرجال المشوب بالتردد . ولكن النساء أمكر من أن يفحصن عن ذات أنفسهن فى صفحات الأدب ، فهن راضيات بتحقيق رغبتهن ، وعن عدوهن إذا شاء أن يؤلف لكتب.

وكل شخص عادى لا بد أن يكون متحيزاً بشأن هذا الموضوع ، فهو لا يعرف إلا نصفه معرفة ذاتية . وأكبر الظن أنه لا يعرف إلا شطراً من هذا النصف معرفة وثيقة ، وحتى هذا الشطر فهو لا يعرفه معرفة صادقة أو حيدة . وكذلك من العسير أن يكون الإنسان منصفاً فى زمن الحرب . من أجل ذلك كان العلم ضعيفاً فى هذا الميدان . أما ملاحظات الأستاذ ثورندايك البسيطة والعرضية . ونتائج اختبارات الذكاء ، فإنها محاولات سريعة لفرع من البحث لم يكد يقدم على النمو . ذلك أن آخر بحث فى النوع الإنسانى هو الإنسان ، وآخر علم هو علم النفس ، وآخر فرع فى هذا العلم هو المرأة .

ومع ذلك فسكن على حذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . سنقسم الطبيعة البشرية تقسيما مريحاً ولو أنه صناعى ، إلى الغرائز الأساسية التى تتكون الطبيعة البشرية منها ، وسنسأل فى كل حالة كيف يختلف عقل المرأة وخلقها عن عقل الرجل وخلقه . وسنفترض (مع احترامنا للسلوكيين) أن الإنسان خلق مزوداً ببعض الاستعدادات السابقة والميول الخاصة بالاستجابة والشعور ، التى سماها الفلاسفة وعلماء النفس منذ شوبنهور غرائز . وسنصطنع تصنيف الأستاذ مارشال هذه الاستعدادات الموروثة بحسب تحقيقها لأغراض الفرد أو الجماعة أو الجنس(١) . فهناك بعض الغرائز – مثل الحصول على الطعام ، والقتال ، والحرب ، واللعب – تتجه إلى خدمة الفرد . وتتجه بعض الغرائز الأخرى مثل حب الاجتماع Gregariousness وحب التوافق approval – إلى حفظ الجماعة . وغرائز أخرى أيضاً – مثل الاتصال الجنسى والعناية بالبنين ترمى

(١) Marshall, H.R, Instinct and Reason.

إلى حفظ النوع . وها هنا بعض المسائل موضع مناقشة ، ولكن لا يجب أن ندخل في مجادلات فنية لا تؤثر في هذه المشكلة تأثيراً حيوياً [1] . كل ما نحتاج إليه هو أن نسأل هل يختلف الرجال والنساء في الحصول على هذه الغرائز نوعاً أو درجة . وسوف نبدأ بالغرائز الجنسية أو التناسلية لأنها بالنسبة لغرضنا الحاضر أهم سائر الغرائز ، وتكاد تفيض عن عملياتها المختلفة جميع تلك المميزات التي تفصل بين الجنسين في الجسم والخلق والعقل .

٢ — اختلافات الخلق Character

(١) الغرائز الجنسية Racial

يصدم الذكر بامتياز الأنثى في عالم الحيوان ، لا في الحجم فقط (كما رأينا) بل في تفوقها الحيوي باعتبار أنها هي التي تحمل مباشرة جسم الجنس . وفي المراتب الدنيا للحياة تجرى التناسل بالانقسام ولا يوجد جنسان . وفي النوع الإنساني تتم عملية التوليد فعلا في الأنثى التي تولد بالانقسام تماماً كالحال في الأميبا أما وظيفة الرجل فعرضية وسطحية . وليست مما لا غنى عنه . فقد أبدت تجارب المعمل مظاهر الطبيعة في البرهنة على أن الذكر زائد عن الحاجة على الإطلاق . ويترتب بوضوح على ذلك أن الأنثى من جهة النوع في مرتبة أولى وأساسية ، وأن الذكر ثانوي ومساعد . والذكر يتضمن الوظائف ويتخصص فيها ، وهي تلك التي كانت تؤدى من قبل بدونه . وهو يلعب في مأساة التناسل التي تدور عليها الحياة كلها دوراً صغيراً . يكاد أن يكون زائداً عن الحاجة . فهو يتنحى في أزمة الولادة جانباً خجلا عاجزاً . ويفطن آخر الأمر إلى مقدار تفاهته وتبعيته في تطور الجنس . ويعرف في تلك اللحظة أن المرأة أشد منه التصاقاً بالنوع ، وأن تيار الحياة العظيم يفيض صاخباً عن طريقها ، وأن الحق

(١) الأسلوب الذي جرت عليه العادة في نفي وجود الغريزة هو بيان أنها ليست متممة في الصبا . ولكن معظم الغرائز لاتظهر بطبيعة الحال إلا في فترة معينة من الحياة معتمدة اعتماداً أساسياً على نمو القوى الفسيولوجية المطلوبة . ومن أوضح الأمثلة على ذلك المشي والقتال والحب

من دمها ولحمها ، ويفطن عندئذ لم كان الدائيون وأصحاب الديانات الكبرى يعبدون الأمومة .

ومن الواضح أن عفة المرأة الشديدة تخدم أغراض التناسل . ذلك أن تمنعها على استحياء يعين على الانتخاب الجنسى ، إذ يمكنها من التمييز بين المحبين واختيار ذلك الذى سوف يظفر بأن يكون والد أطفالها . وهنا نجد أن مصالح الجنس والجماعة تتخذ من المرأة سبيلا إلى التعبير ، كما أن المصالح الفردية تجد صوتها القوى فى الرجل . حتى إذا نفدت عرضه وحققت ذاتها بالأمومة زال حياؤها . وإنك لتجد لأم الفلاحة التى كانت قبل أمومتها شديدة الحياء ، تفخر بأن ترضع ابنها أمام الناس فى بساطة بهيجة ، وهى على حق فى ذلك لأن هذا المنظر هو أحب المناظر والصور فى عالم الحياة والفن .

والمرأة أبرع فى الحب من الرجل ، لأن رغبتها عادة أقل حدة من رغبته ، فلا تعشى حكمها بالغموض ، وهذا هو سر حكمتها التى اشتهرت بها منذ القدم . ويذهب داروين إلى أن أنثى معظم الأنواع لا تختص بالحب نسبياً . ويصور لنا لومبروزو ، وكيش Kisch ، وكرافت إبنج Krafft-Ebing ، وغيرهم من الباحثين الذين افتتحوا أبواب هذا الموضوع الذى يخشى الملائكة بحثه ، أن أربعين فى المائة من الجنس الضعيف يتمتعن بمثل هذا البرود apathy ، وبلادة على العكس من ذلك . ويقولون أيضاً إن المرأة لا تنشد اللذة الحسية بمقدار ما تنشد الإعجاب الشامل بحججها والعناية الشديدة بها وكثيراً ما يرضيها مجرد اللذة بشعورها أنها مطلوبة . وفى ذلك يقول توماس هاردى : « حب المرأة أن تكون محبوبة يرضى نفسها غاية الرضا »(١) .

ونجد ما سميناه بشكل غامض بالعنصر الروحانى spiritual فى الحب — هذا الجانب من الحب الذى لا يفكر فى البدن — صدراً رحباً فى المرأة أكثر مما نجد فى الرجل . ويعتقد بعض الباحثين فى قلب المرأة المغلق أن حبها أمى maternal أكثر منه جنسى . أو كما يقول لومبروزو : « ليس حب المرأة

---

(١) Jude the Obscure, p. 286.

فى طبيعته الأساسية شيئاً أكثر من صفة ثانوية للأمومة ، ولا تنشأ كافة مشاعر الحب التى تربط بين المرأة والرجل من الدوافع الجنسية ، بل من غريزتى الخضوع subordination والاستسلام المكتسبتين بالتكيف »[1] . وكان ألفريد دى فينى يظن أن حب الرجل ذكرى رضاعته ثدى أمه ، ورغبته فيه . ومن يدرى لعل كل محب بالنسبة إلى المرأة ليس إلا طفلا آخر يدلل . . . ويطعم ؟

ومع أن حب المرأة أقل فى عمقه من حب الرجل ، إلا أنه أعظم عرضاً ، حتى ليمتد إلى كل زاوية من حياتها . فهى لا تعيش إلا إذا كانت محبوبة ، والالتفات إليها محور حيويتها . ويروى أن أحد حكام فرنسا أنب امرأة لمعيشتها إلى جانب لص ، فأجابت : « لست شيئاً إذا لم أحب » . ولعل هذه الحاجة النفسانية هى التى كانت فى ذهن فينجر حين ذهب إلى أن المرأة لا « روح » لها . . . أى أن حياتها تتجه (أو كانت تتجه ؟) إلى أن تتركز حول رجل . وهذا وهم ، لأن المرأة لا تحاكى إلا أفكاره ، أما فيما بينها وبين نفسها فإنها تظل وحدها ، وتحتفظ بعزمها . وهى تعرف أن الرجل فى حبه غير المحدود لذاته قد ينفر منها إذا أبرزت الشيء الكثير من شخصيتها .

وإذا كانت المرأة تتفوق على الرجل فى فن الحب ، فهو يمتاز عنها بالصداقة . وقد يرتفع الرجال إلى مرتبة الأصدقاء ، أما النساء فلا يتجاوزن نطاق المعارف . وإذا ذكرت المرأة غيرها من النساء خيل اضطربت النجوم فى أفلاكها . ويجد النساء صعوبة فى الحديث ، ويشعرن بضجر شديد فى حضرة بعضهن البعض ، ولا يحتملن ذلك إلا بالتحدث عن الرجال . وهذا شيء طبيعى ، كما لاحظ لاروشفوكو[2] La Rochefoucauld منذ زمن طويل فقال : « العلة التى من أجلها لا يقبل معظم النساء على الصداقة ، هى ما يشعرن به بعد هجر الحب من أن الصداقة لا طعم لها » . فالحب كما قال الشاعر يشغل حيزاً

(1) In Kisch, The Sexual Life of Woman, p. 133.

(2) (١٦١٣ — ١٦٨٠) أحد دوقات فرنسا ، ألف مجموعة من الحكم أو التأملات (١٦٦٤ — ١٦٦٥) ومذكرات نشرها ١٦٦٢ ، يصف فيها هزائمه السياسية ضد الكردينال ريشليو . أما حكمه فهى نظرات صائبة حكيمة عن الحياة بوجه عام . (المترجم)

من وقت الرجل ، ولكنه يملأ حياة المرأة كلها . وبعد ، فأخوتنا هي ما يجب أن نكون عليه .

وغيرة الرجل كحبه أكثر عمقاً ، وأقل عرضاً أو طولا . فالإحساس بالامتلاك أقوى في الرجل ، ويؤلف نصف حبه . فليس الحب مجرد نكران الذات فقط ، بل هو على ما في ذلك من تناقض توسيع للنفس وانتصار لها . والغيرة هي غريزة الكسب التي يصاحبها التنافس . إنها إجراء محاكمة للاعتداء على الأصل . أو كما قيل : « أنا السيد يا ربي ، اللهم لا تجعل أرباباً أخرى تقف في طريقي » . ولا تهتم المرأة اهتمام الرجل بأن يكون روحها خالي القلب من قبل. ولكن غيرتها التي تفقدها في الشدة والعمق تزيد في السعة والعرض ، فهي لا تغار فقط ممن تحب روحها ، بل من أصدقائه ، وغليونه ، وصحيفته ، وكتبه . ثم تسعى شيئاً فشيئاً إلى الفصل بينه وبين أصدقائه ، فإذا لم تستطع أن تفعل ذلك غازلتهم ، فتجمع بين المكر والخطيئة . ولا يزعجها أن يبدى الرجل غيرة من المعجبين بها ، بل يلذ لها هذا الشعور ، وتشجعه فيه ، لأنها تعلم أنها لا تكون مطلوبة إلا حين تجد امتلاكه إياها مزعزعاً . وهي تدرك بحكمتها الفطرية أن الغيرة لا يعصمها دواء آخر للحب الزائل . ومع ذلك فلا بد من أن نغفر لها هذه الأخطاء البديعة لأنها في مركز ضعيف وتحتاج إلى هذه الفنون توازن بها امتياز الذكر الجسماني . يجب عليها أن تحمي نفسها بأي ثمن ، لأن الجنس يعول عليها في استمراره وقوته . إنها تدفع ثمناً غالياً جداً لنصيبها الصغير في الحب تبرر به شكوى من خداعها . ويقول نيتشه : « لا يستطيع أحدنا أن يكون عظيم الرقة مع النساء »[1] .

(٢) الغرائز الفردية

وظيفة المرأة خدمة النوع ، ووظيفة الرجل خدمة المرأة والبنين . وقد يكون لهما وظائف أخرى ، ولكنها تقع بحكمة هاتين الوظيفتين . ذلك أن الطبيعة قد بثت في هذين الغرضين الأساسيين وشبه اللاشعوريين مافينا من معنى وسعادة .

(١) Reflections, no. 440.

من أجل ذلك كان عمل الذكر الطبيعي هو الحماية . وكسب المعمرة . ومهمته أن يترك العش أو البيت بحثاً عن الطعام . فهو سبيل الحياة إلى التغذية . كما أن المرأة أداة الحياة للنسل . والطعام غايته القصوى . وهو إذا أصبح محصلاً لأشياء أخرى . أو لأى شىء آخر . فذلك لأن (ولو أنه لا يشعر بذلك) هذه الأشياء الأخرى تمثل الثروة التى تؤمن فى أزمات الحصول على الطعام . وكان مترودورس Metrodorus يقول : إن كوة الأشياء الجميلة ذات صلة بالبطن ومع أنه ليس من الأدب ذكر هذا القول إلا أنه صحيح إلى حد كبير عن ذكور النوع الإنسانى . فالرجل يحب الطعام حباً جماً . ويمكن بسهولة إخضاعه عن عن طريقه . وهو أكثر غراماً من المرأة بالطعام والشراب . ومنذ أن قدمت حواء التفاحة لآدم . والمرأة تحكم الرجل عن طريق معدته ، مفسدة هضمه وأخلاقه فى آن واحد .

وأصبح الذكر محارباً بعد أن ضرب فى الأرض يبحث عن الطعام . وذكور الحيوان تحارب بالأنياب والمخالب . ويتخذ الرجل من المدمسة المالية سلاحاً ، أما الأمم فتتحارب بالجيوش والأساطيل والصحف . وكان كسبح يظن أن الأنثى أشجع فى القتال من الذكر . ولكن لعله قاسى من حرج (شرق قنال السويس) أفسد نظرته . ذلك أن طبيعة المرأة البحث عن مأوى لا الحرب . وفى بعض الأنواع تبدو الأنثى هادئة بغير غريزة القتال وهى لا تقاتل مباشرة إلا من أجل صغارها ، فإذا رأينا فيها قوة توحش فذلك بسبب هذه الضرورات الجنسية . ولكن من الواضح أنها أقل ميلاً إلى العنف . وغالباً ما ترتبط حرائمها النادرة بفترات اضطرابها الفسيولوجى وهى أكثر من الرجل صبراً . وإذا كان الرجل أكثر شجاعة فى أزمات الحياة الكبرى وأمورها . فالمرأة تلجأ إلى قوتها اليومية الدائبة لمواجهة مثيرات العيش الصغيرة التى لا حد لها . وهى تتحمل المرض أكثر هدوءاً ، كما لو كانت تجد فيه لذة غامضة وشيئاً من الراحة من عناء عملها اللانهائى . أما الرجل فلأنه لم يتعود الحياة الراكدة فيتحمل المرض فى قلق ويخبر جميع الناس بآلامه .

ومع ذلك فالمرأة مقاتلة بكهانة . إنها تقبل على الجندى ، وتبتهج بالرجل

ذى السلطان . ويبدو فى صيحاتها عند رؤية القوة عنصراً غريباً من القسوة ، حتى لو كانت هى نفسها الضحية . وهى تنتخب فى جميع الأجيال الذكر المقاتل ، كأنها تفكر دون وعى فى الحماية التى يحتاج إليها بيتها وصغارها . وقد تتغلب فى بعض الأحيان هذه المتعة القديمة بالرجولة على إحساسها الاقتصادى الحديث فتتروح من أحمق إذا كان شجاعاً . إنها تخضع بفرح للرجل الذى يستطيع أن يأمر . وإذا كانت المرأة تبدو فى هذه الأيام أقل ميلا للخضوع ، فذلك لأن خلق الرجال أضعف مما كان من قبل . ولعل روتين الصناعة المسهل ، وتكلف الحياة العقلية المثير للأعصاب ، مما عود الرجل العبودية ، وانتزع منهم الشجاعة .

ولا تنتصر المرأة بالقتال أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والثبات . وقتال الرجل أشد وأصرح ، ولكنه أقل ثباتاً . وهو أكثر منها استعداداً للصلح أو التسليم فى سبيل السلام . وقد يزمجر فى وجه زوجته أو يضربها ، ولكنها تنتصر فى النهاية بالتكرار والإلحاح ، كما ينتصر الإعلان . وإذا كانت تعاود الكرة فلأنها لا تستطيع الإضراب . فالأنواع والشعوب والأجناس والأفراد الضعيفة غنية بالصبر والخداع . فهذا نابليون لم يستطع حكم زوجته ، مع أنه تمكن من حكم قارة . ولم تجد قوته فى ضعف جوزفين الدنى وجبنها لهدف الذى تتجه إليه ، ولم يكن عنده سلاح يقاوم به أسلحتها التى كانت تستعملها . وفى ذلك يحدثنا نابليون قائلا : « كثيراً ما كانوا يتحدون قوة خلقى ، ومع ذلك فلم أكن فى نظر أسرتى إلا رجلا ضعيفاً ، وكانوا يعرفون عنى ذلك . وكانوا يتغلبون على غضبى بالمثابرة والعناد ، ويفعلون ما يريدون منى لمجرد السأم »(١) ويعبر هذا الكلام عن الأنشودة اليومية التى تغنى فى كل بيت . ولم تكن الأمور فى صالح الرجل فى تلك الأيام المترفة حين كانت زوجة الطبقة المتوسطة تعيش وتزدهر عاطلة فى بيتها الخالى من العمل ومن الأطفال . فالرجل يعود إلى منزله منهوك القوى بعد عمل اليوم ومتاعبه ليجد عدوه القديم فى انتظاره على نشاط جم متجدد فينهزم قبل أن تبدأ المعركة . أما إذا حالفه الحظ وانتصر ، فليس على المرأة إلا أن تبكى فينهزم أمامها . وكانت

---

(١) Johnson, R.M., The Coriscan, p. 45.8

ماريا لويرا تفخر بأنها تحصل دائماً على ما تطلب إذا بكت مرتين . وتتخذ الزوجة الحكيمة هذه القاعدة الأساسية فى الحرب : « إذا لم تنجحى أول مرة ، فعليك بالبكاء مرة أخرى » .

ويبدو أن الأنثى تتخذ موقفاً أقل إلحاحاً من الذكر مما قد نسميه غرائز الحركة ، كالحبو ، والمشى ، والقذف ، والقفز ، والتسلق ، والجرى ، واللعب . فالذكر أميل إلى الحركة عديمة النفع ، والأنثى إلى الاستقرار الزائد عن الحاجة . والمرأة أكسل ، وهى كذلك أخطر الجنسين ، لأن الكسل رأس الفساد ولكى يكون المرء فاضلا ، كما يكون سعيداً أو لطيفاً ، يجب أن يشغل نفسه بشىء ما .

(٣) الغرائز الاجتماعية

رأينا فى مجموعة الغرائز التى استعرضناها أخيراً ، وهى الغرائز التى تحفظ الفرد ، أن تفوق الرجل واضح وطبيعى . أما الغرائز التى تحفظ الجماعة ، فالمرأة تتفوق كما تتفوق فى الغرائز التى تحفظ الجنس . فهى أشد ميلا إلى الاجتماع والمعاشرة من الرجل ، وتحب الصحبة والمجتمعات ، وتستسلم فى سرور لإجماع الجماهير . إنها لا تسأل عن أفضل التمثيليات ، أو الحفلات الموسيقية ، أو أماكن اللهو ، بل تسأل عن أكثرها امتلاءاً بالحضور ، ولو أن الفرق بينها وبين الرجل فى هذه الناحية ضئيل . (على أقل تقدير تسعى المرأة أن تحب الأفضل ، فى حين لا ينقاد الرجل العادى إلى حضور الحفلات الموسيقية ، ومعارض الفن ، والتمثيليات إلا خوفاً من زوجته) . وهى أقل من الرجل قدرة على العزلة ، وقل أن تجد من بينهن ناسكات . وإنها لتشعر بالنقص بدون الرجل ، أكثر مما يشعر هو بدونها . . . ولا ريب أن ذلك يرجع إلى حاجتها لحمايته ، وعادة لقيادته . إنها حيوان اجتماعى .

لذلك كانت المرأة أكثر ثرثرة . ويقال إن المرأة لا تحفظ سراً . وكان فرانكلين يظن : « أن السر لا يحفظ بين ثلاثة إلا إذا مات منهم اثنان » . فإذا أردنا أن يكون هذا القول صحيحاً عن الجنسين فلا بد أن ترفع نسبة الوفيات . ومع ذلك تستطيع المرأة أن تقاسى فى صمت مدة أطول من الرجل ، وذلك

كما يقول مرديث Meredith : « على طريقة النساء اللاتى تشبه صدورهن القبور »[1] . والمرأة أكثر من الرجل تعبيراً . لأنها فى العالب أشد خضوعاً للوجدان والانفعال . وهذا هو السر فى أنها أكثر قبولا للأمراض العصبية — كالكوريه chorea «ورحفة» . والهستريا ، والتلبس obsession ، والخوف phobia ، والأوتوماتزم ، والوسوسة الروحية ، وغير ذلك — كما يرجع ذلك إلى الكبت القوى الذى يفرضه المجتمع على دوافعها الشهوانية . ونحن نجد أن وجه المرأة يكاد يكون متحركاً كحديثها ، فهى لم تتعلم كرجل الشعب الصابر أو رجل الأعمال الحذر ، أن تحتفظ بسحنة جامدة إزاء تيار المكسب والخسارة ، واللذة والألم . ويصاحب هذا التعبير السريع فى وجهها مقدرة أعظم على استقراء علامات الشعور والتفكير فى غيرها من الناس . ولذلك كان خداع المرأة أصعب من خداع الرجل — كما يتبين لكل من جرب الاثنين

ويختلف حب الاجتماع كما وصح جلتون باختلاف الحياء والمحاكاة . فالمرأة تترك عادة المبادأة للرجل ، حتى (على الرغم من شو) فى الحب . وهنا تظهر قبل كل شىء سيادته . فما إن لم تسكره أول كأس من الرغبة ، فقد يظل مبقياً إياها سنوات تنتصر حسابه وحمه وتجربته الجنسية . والمرأة غير واثقة بنفسها ، إذ تخضع دائماً لضعفها الجسمانى وتبعيتها الاقتصادية ، مما يحد من شجاعتها ، ويحجبها عن الثورة أو العمل . إنها تتشبث بالمألوف والمتعارف ، محاكية الماضى فى تقوى ، ومقيدة بحلة عصبية كل ريح حديثة تحمل البدع فى الملابس أو السلوك أو الأفكار . وهى أسرع من الرجل إلى اعتناق (التقاليع) والخزعبلات التى تنحو فى أمريكا نحو الحد مكان التقدم الفكرى السليم . وينقب المحلل النفسانى

---

(1) Ordeal of Richard Feverel, p. 32.

جورج مرديث (١٨٢٨ — ١٩٠٩) روائى انجليزى اشتهر فى رواياته بتحليل المشكلات الاجتماعية ودراسة الجنسية ، وأشهر قصصه «محنة رتشارد ففريل» كتبها سنة ١٨٥٩ ، وخلاصتها أن ريتشرد يقع فى عشرين من عمره فى حب فتاة ريفية وهى لوسى ويتزوجها ، فيغضب أبوه ويفرق بينهما ، وينفصل رتشرد بعيداً من نساء الهوى ، وتقع لوسى فى حبائل أحد النبلاء ، ويرجع رتشرد فتعلم بسيرة زوجته ويغضب (المترجم) .

تنفيساً شهوانياً فى نفسها المضطربة ، ويهذبها الوسيط الروحانى بظهور الأشباح ، ويجد كويه M. Coué فى خيالها السهل التصديق مادة مباحة

والمرأة لا تخسر على مخالفة المعايير والمتوسطات دون اهتمام كالرجل. وهى تخرج للعالم عدداً أقل من البلهاء ومن العباقرة . وهى أكثر شبهاً ببنت جنسها من الرجل بغيره من الرجال . ذلك أن ضغط البيئة المتغيرة . وتعدد الوظائف والمهن والحرف أدى إلى تميز الرجال إلى أصناف كثيرة ولكن صناعة البيت التقليدية ، واشتغال المرأة منذ القدم بالبحث عن زوج وتربية الأسرة ، كل ذلك أثر فى معظم النساء وصاغهن فى بوتقة واحدة . وإذا كانت وجوههن مختلفة فأنفسهن دائماً واحدة . ولعل إلى هذا يرجع بعض السبب فى انتقال الرجل فى يسر من محبوبة أو من خليلة، إلى محبوبة أخرى أو خليلة أخرى ، ولا يحتاج فى ذلك إلا إلى معرفة اسم جديد لا إلى تعلم فن جديد . بل قد تفيد الحروف القديمة فى بعض الأحيان . أما المرأة التى أحبت وهجرها حبيبها فقد ترى جرحها مما يصعب اندماله ، لأنها ربطت روحها بصورة خاصة . وستعيش منها على الذكريات التى ذهبت .

وآخر ما يترتب على غريزة الاجتماع فى المرأة عزمها بالتأييد الاجتماعى ، فرأى جيرانها له وزنه بالنسبة إليها أكثر مما هو بالنسبة إلى الرجل . لأن علاقاتها الاجتماعية تمتص من حياتها الساعات التى لا تشغلها فى الحب والأمومة . وهى تمتاز عن الرجل بالزهو . لأنها أكثر وعياً بفضائلها وجمالها . وقد تقضى نصف ساعة تضع المساحيق على وجهها ، ولو أن الفرق ليس كبيراً بين زهو المرأة وغرور الرجل . ويؤدى إفضاؤها عن ذات نفسها إلى القيل والقال . ويقودها التقليد إلى التطابق . وهى أشد من زوجها شوقاً إلى الظهور فى العالم وتعطشها إلى المنزلة عبارة عن نصف الريح التى تدفع شراع سفينة زوجها . ولما كانت تحس بنقص شديد عمن هم أعلى منزلة منها . وأسمى كثيراً ممن هم أدنى منها . ولكنها لنفس هذا السبب أكثر أدباً من الرجل . ولحساسيتها الاجتماعية مع أمومتها أكثر منه عطفاً وشفقة . ويعوض عن زهوها الطفيف حسن اعتبارها ،

ورقتها ، ومسارعتها إلى العناية بالمريض ومساعدة الضعيف ، وصفتها الموهوبة التى تميل بها إلى الإيثار والخلق الحميد .

وأخيراً فإن هذه المميزات العقلية والقلبية تجعلها أكثر تديناً . ذلك أن انفعالها المرهف يهديها إلى سرعة الإحساس بنداء الدين العميق الذى يتجه للحواس والمشاعر . هذا إلى أن الكبت الشديد على ميولها الشهوانية يتركها مثقلة بولاء غامض يرتبط بكل موضوع للعبادة . وشعورها بألوان الحرمان التى تجعل الحياة حزينة أكثر حدة من شعور الرجل ، كما أن رغبتها فى الاتحاد مرة أخرى بأولئك الذين أحبتهم وفقدتهم يقنعها بالاعتقاد فى الخلود . والطبيعة تمودج رائع لها . ومن يدرى لعل المرأة فى عجزها المتواضع عن الفهم ، قد تكون ألصق بسر الطبيعة من عممنا الميكانيكى ؟ إنها تعبد الله بالغريزة ، فى الوقت الذى قد يشلد فيه الرجل رقبة على نفسه . وهى لعجزها الجسمانى تلتمس حماية الله القادر على كل شيء ، وتطلب هداية السماء فى صلاتها حين يفشل عقلها فى هذا العالم . وهى تتعطش إلى الوجود فى الحضرة الإلهية خوفاً من العزلة وحباً فى المجتمع ، وتعمر الفضاء بالأرواح التى تؤنسها فى وحدتها وتعينها على حاجتها وهى أول من يرحب بالصور الجديدة من الاعتقاد ، وآخر من يتخلى عن القديم . ولقد يقتل الإنسان نفسه فى ساعة اليأس ، أما المرأة حين تفقد كل أمل فإنها تعتمد على رحمة السماء ، وتلتمس القوة والعزاء فى الرب الحبيب .

٣ ــ الاختلافات العقلية

هذه هى غرائز الرجال والنساء . لكن لا يجب أن نفترض أن مثل هذه الميول الأولية تظل دون تغيير مع التجربة والتعليم . ففى كلا الجنسين تنمو العادة ويقوم العقل على أسس هذه الاستعدادات . فكيف يختلف هذا البناء العقلى فى الرجال عنه فى النساء ؟

العقل فى الرجال أوسع وأعلى . فقد خرج الرجال منذ أجيال كثيرة من البيت المعروف إلى فضاء العالم المتعدد الجنبات ، وكان عليهم أن يواجهوا مواقف جديدة ومؤثرات جديدة لا تصلح لها استجابات الغرائز القديمة ، فاضطروا

بالضرورة (بعضهم فقط) إلى تنمية هذه القوة اللينة لتستجيب بنجاح فى المواقف الجديدة ، وهذه القوة هى التى تكون ذكاء الغريزة . ذلك أن الغريزة أيضاً يمكن أن تكون على ذكاء . وليكن المؤثر أو الموقف من النوع التقليدى الذى واجهته الإنسانية قروناً طويلة ، نجد أن الغريزة خليقة بالكفاية . بل هى أجدر أن تكون أكثر ذكاء ، نعنى أفضل تكيفاً وأكثر نجاحاً من عمليات التفكير المزعزعة . وكانت المهام الأساسية فى حياة المرأة إلى عهد قريب البحث عن زوج وتربية الطفل ، ولا يزال هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لجميع النساء ما عدا نساء المدن الكبيرة ، وهو صحيح بالنسبة لجميع نساء المدن ما عدا نساء الطبقة الوسطى . وهاتان المهمتان الرئيسيتان من أقدم المشكلات التى واجهتها كل امرأة بمقدار ما تعى الذاكرة . وقد هيأت الطبيعة لهذه المواقف استجابات غريزية قد تؤدى فى بعض الأحيان إلى نكبة ، ولكنها عادة نافعة ومعقولة .

لذلك تفضُل المرأة (ما عدا الاستثناءات المدنية دائماً) الرجل فى وحدة غرائزها وكمالها ودقتها . أما الرجل فأكثر نقداً وشكاً ، وأعظم مهنة التفكير سقماً. فقد تعطلت غرائزه بالمرونة ، وفقدت ما فيها من مباشرة وثقة . وهو يرتبك دائماً فى حضرة المرأة . لأنها أشد بعضها ثقة وأكثر استعداداً للعمل ، وأسرع فى وضع الخطط وأسرع فى تنفيذها ، حيثما كانت المشكلة تتعلق بصطياد الزوج أو الإبقاء على الحب ، أو إقامة البيت . ولا نجد رجلا فى الثلاثين يبارى امرأة فى العشرين فى حرب الحب اللطيفة . راقب أى رجل مهما يكن شيخاً تحت امرأة مهما تكن صغيرة ، وانظر أيهما يطوى صاحبه فى إصبعه . فهناك بعض الأمور تعرفها المرأة قبل أن تولد ، وذلك بالحق الأزلى للعصبيات الأنثوية ، أما الرجل فلا يعرفها إلا بالتجربة الشاقة بعد زوال الوهم عنه . والمرأة تبصر أكثر مما تقرر ، والرجل يقرر أكثر مما يبصر . المرأة تفكر بغير فكر ، وتكذب بغير تفكر سابق . إنها تسبق الرجل فى الكذب المخترع بمراحل واسعة ، وهى التى تفسر بغير اضطراب أى أزمة يكتشف فيها أمرها .

ولما كانت المرأة مهيأة منذ الولادة أفضل من الرجل لمهام الحياة العادية ، فإنها تنضج أسرع ، ومرحلة بلوغها أقصر . وقد وضعها بعض الرحالة من أجل

ذلك فى مرتبة أدنى من حيث النوع . وفى هذا الحكم شىء من التسرع ، إذ على هذا الأساس تكون السلحفاة أشرف مخلوقات الله . وقد يكون من المعقول أن نستنتج مبيز المرأة العقلى من نسبة وزن مخها الكبيرة ، بالإضافة إلى مخ الرجل ، إلى وزن جسمها . ولعل بلوغها السريع مكتسب ، وقد فرض عليها فى ظروف قديمة قهرية للأمومة المبكرة . ويستطيع الرجل كذلك أن يصبح أباً فى منتصف السن التى يتزوج فيها الرجل حديثاً ، ولكن الظروف الاقتصادية لا تسمح بذلك . والنضوج يكون فى العقل كما يكون فى الجسم . وله فروق كثيرة . فبعض الرجال يتم نضجهم مبكراً ، وبعض الآخر متأخراً ، ولبعض الثلث لا ينضجون أبداً . ومن الواضح أن بلوغنا الإنسانى يطول ، لأن عصرنا يزداد فى وجه عام يصبح كل يوم أكثر شمولا وأبعد عن التجانس لاستعداداتنا وفنوننا الفطرية . وقليل من الرجال فى الزمن الحاضر هم الذين يتم بلوغهم العقلى قبل أن يصلوا إلى منتصف الحياة . أما المرأة التى تقوم حياتها على إدراك الأمور الطبيعية والعميقة بنفسها ، فإنها تنضج جسماً وعقلا فى سن مبكرة . وهى أسرع إلى تعلم منهج السلوك الاجتماعى . وهى تبرع فى المدرسة من الصبى الذى يماثلها فى العمر . وقد أثبتت أخيراً فى كلية رذكليف Radcliffe امتيازها فى الاختبارات العقلية على شباب هارفارد المثقفين . ولكن هذا النمو السريع يتجه إلى نوع التمام فى وقت أسرع عند المرأة منه عند الرجل . فالمرأة لا تنمو بعيداً عما كانت عليه منذ الولادة كما يفعل الرجل المجرب المحنك . وهى تتشبث بالوراثة ، وهو يهدم هذا التراث بما أنه أداة استقرار الجنس ونسبه ، وهو سبيل التغير وتدبيره . والمرأة جذع الشجرة الإنسانية ، وجذورها تتشبث بشدة فى الأرض التى تنمو عليها . وتمد جذورها فى أمان كما تتطلع بفروعها فى السماء .

أما جانب من هذا الثبات فهو ضرب من المحافظة فى الوجدان ولون من القصور فى التفكير . ذلك أن مصالح المرأة تتعلق بالأسرة ، وبيئتها عادة هى البيت . فهى عميقة عمق الطبيعة ، ضيقة ضيق الجدران الأربعة . وتتلاءم الغريزة بينها وبين التقاليد . ولذلك تحب التقاليد كما تحب الخبير الوسط الذى يكشف عن امتيازه . وهى أقل تجريباً فى العقل والأخلاق (ما عدا بعض الاستثناءات

المدنية) وإذا جاءت إلى «الحب الحر» فليس ذلك لأنها تود فيه الحرية، بل لأنها تيأس من إتمام زيجة عادية مع رجل مشغوف. وكم تفرح إذا استطاعت أن تجذب الرجل إلى جانبها وتضمه فى البيت! وحتى إذا كانت فى شبابها قد راعتها عبارات الإصلاح السياسى، وبسطت عاطفتها رقيقة على الإنسانية كلها، فإنها تسحب هذه المحاولات حين تجد الزوج الأمين. وسرعان ما تفصمه، وتفصل نفسها، عن هذا الإخلاص العام، وتعلمه الولاء العميق المحدود بالأسرة. يقول الشاب فى نشوة الغرب «كم أود أن أصلح العالم» فإذا تزوج فعل ذلك.

والأمر كذلك فى البيت. فالمرأة تعرف دون حاجة إلى تفكير أن الإصلاحات الوحيدة السليمة تبدأ من البيت. وهى تحترم الحس حين تحيل الشئون العامة إلى شخص يختص لأبنائها. والطبيعة لا تحفل إلا قليلا بالعوانس والدول، وتعنى كثيرا بالأسرة والأبناء، فإذا استطاعت حفظهما فلا تبالى بالحكومات والأسر الحاكمة، وتسخر من أولئك الذين يشغلون أنفسهم بتعديل الدساتير. وإذا كانت الطبيعة تبدو اليوم مخفقة فى مهمة حماية الأسرة والطفل فذلك لأن المرأة قد نسيت الطبيعة فى هذا الزمان. ولكن الطبيعة لن تنهزم طويلا، إذ تستطيع فى أى وقت أن تغترف من مئات الوسائل المدخرة. فهناك أجناس وشعوب أخرى أكثر منا عدداً وأعظم انتشاراً تستطيع بوساطتهم أن تحتفظ باستمرارها شئنا أم أبينا، ونحن لا نلوى فيه على شىء.

٤ — المرأة والعبقرية

تولد المرأة مزودة بالذكاء، الذى يحصله بعض الرجال، ويستحثه معظمهم. وقد أصبحت الحياة بالنسبة إلى الرجل فى ظل فوضى الثورة الصناعية المتغيرة ميداناً فسيحاً من المسئوليات المتعددة الألوان، وليس له يد فى اختيارها ولا يتوقعها. وقد انهارت أعصاب كثير من الرجال. وتطور عقل كثير غيرهم تطوراً واسعاً ولامعاً بحيث يستخدم سائر الطاقة المختزنة فى الجهاز العصبى. وينشأ عن هؤلاء القوم عدد من العباقرة ومجانين لم يعهد من قبل. وكما أن الصناعة

تبتعهم . كذلك تخضع المرأة لهذه القوة القاهرة من النمو العقلى ولكن على الرغم من سرعة تغيرها فإنها لا تزال مختلفة عقلياً عن الرجل . ويبدو أن المرأة لاتستريح إلى الفكر المجرد . فهى تلمح الوقائع وتحسن تذكرها ، غير أنها لا تحسن التعميم، أو التأويل المبتكر . وقد تنحرف عن الغرض وتغرق فى التفصيلات . وهى تهتم بالأشخاص أكثر مما تهتم بالعمليات العقلية أو الأشياء . وهى لا تناقش المشكلات بمقدار ما تناقش الرجال ، لأن الرجل مشكلتها . وقد كتب عليها أن تشغل نفسها بالأشخاص ، بالزوج والطفل . وكتب على الرجل أن يدور فى عجلة التجارة والصناعة ، وأن يفكر فى الأسباب والعمليات والمسببات كما يتعامل مع النساء والرجال . ومن الأيسر على الرجل أن يسلى نفسه بقراءة كتاب ينشر فكرة . أما الكتب الذى تقرؤه المرأة فيجب أن يقص قصة عن رجل. إنها لا تزال من أصحاب مذهب «الأنيمزم» فترى شخصيات إلهية وإرادة أبطال حيث ربما لا يوجد إلا عمليات غير شخصية لتغيرات كونية واجتماعية واقتصادية.

ومن بواعث رضا الذكور من الباحثين عن الاختلافات العقلية بين الجنسين ملاحظة قلة عدد العباقرة الذين قدمتهم المرأة للعالم . وحتى فى الفن الذى قد يقال إن له بعض الصلة بالجمال ، وفى الموسيقى التى تضرب على الحساسية العاطفية ، فالمرأة قد أنتجت أقل مما يظهر أن جهودها وظروفها تسمح بذلك . وهناك نساء يعزفن الموسيقى أكثر من الرجال ، وعدد الرجال الذين يؤلفون المقطوعات الجيدة أكثر من عدد النساء . وعندما يعترف الرجل بالعبقرية العقلية أو الفنية فى المرأة فإنهم ربما يسترجعون هذه العبقرية للرجل معلنين أنها تخص الذكور . ويؤكد لنا شوبنهور أن ثمة حرباً بين العبقرية والأمومة . فإذا صدقناه انتهينا إلى أنه لا توجد امرأة متفوقة عقلياً دون أن تكون فى مثل الشذوذ الخطر الذى كان عليه شوبنهور . وكانت جورج ساند [1] George Sand تدخن سيجاراً خاصاً بالرجال ، وكان سبنسر يجد جورج إليوت [2] شديدة الذكورة

(١) جورج ساند (١٨٠٤ – ١٨٧٦) روائية فرنسية اسمها الأصلى أمانتين دوبين ، ثم ترجلت وأسمت نفسها جورج ساند ، وأخفقت فى زواجها وأنجبت طفلين ، ولها مغامرات غرامية كثيرة . (المترجم)

(٢) جورج إليوت (١٨١٩ – ١٨٨٠) روائية انجليزية اسمها الأصلى مارى آن إيفانز وتمتاز قصصها بدراسة الشخصيات والمشكلات الاجتماعية . (المترجم)

بحيث يصعب الانعطاف إلى روحها الباردة . وتذهب مدام حراردين إلى أن المرء يستطيع أن يتتبع فى كل رواية من روايات جورج ساند أثر آخر محبيها وسلوكه . وفى ذلك تقول : « إننا حين ننقد أعمال الكتاب النساء نكون غالباً مضطرين إلى القول فى تعجب مع بيفون — الأسلوب هو الرجل »(١) .

وأسباب قلة العباقرة فى النساء كثيرة وعسيرة البحث . ولعلنا نعرف اصطلاح العبقرية فى تحيز ناسين أنه قد يكون ثمة عبقرية فى الأمومة كما يكون فى السياسة أو الأدب أو الحرب . ويجب أن نحكم على المساواة فى العبقرية . لا بالقدرة على عمل كل شيء بمهارة متساوية . بل بالقدرة على أداء المهام والوظائف الطبيعية لكل سن وجنس أداء ممتازاً . إننا هنا نقع فى نفس الخطأ الذى يرى العبقرية أقل فى عصرنا من عصور سابقة يبعث فيها الزمن سحراً . فنحن نميل إلى البحث عن العباقرة اليوم فى الميادين ذاتها التى ازدهرت بها فى الماضى . ولعل بعض القوة العقلية التى أبدعت الأدب والفن قديماً قد امتصتها الآن ميادين العلم والصناعة الواسعة . فنحن مستغرقون فى الوقت الحاضر فى بذل الجهود لصياغة العلم الطبيعى صياغة جديدة فى ضوء معرفتنا وقوتنا الجديدتين وعندنا الآن كثير من المخترعين والعلماء والمنفذين للأعمال الدولية والماليين العالميين . فلا ينبغى أن نتوقع فى العصر نفسه أن يظهر أمثال أفلاطون وشكسبير وليوناردو وبتهوفن .

ولعل الرجال قد تفوقوا على النساء فى العبقرية ، لأن العباقرة يظهرون عادة بين الأقلية المتعلمة من كل جنس ، لذلك كانت الموازنة كريهة إلى أن تتكافأ نسبة المتعلمين تعليما عالياً فى كلا الجنسين . فالعباقرة من الذكور خلاصة ملايين من الرجال المتعلمين . والعباقرة من الإناث زبدة بضع مئات فقط من المتعلمات ، وإذا أفسح المجال والتدريب للمرأة أخرجت كبار الشعراء مثل سافو Sappho ، والروائيين مثل جورج إليوت . وعلماء الطبيعة مثل مدام كورى . وعلماء الرياضة مثل هيباتيا Hypatia وسونيا كوفالفسكى . والمفكرين مثل أسباسيا ومدام دى ستال ، بل كذلك حكاماً أقوياء مثل الملكة إليزابيث وكاترين دى مديتشى . ومن الملاحظ أن الظروف إذا كانت مواتية ظهرت كثيرات من

(١) Brandes, G. Main Currents of Nineteenth Century Literature, vol. III, p. 71, note.

العباقرة . ومن المحتمل مع ذلك أن المرأة ينقصها الحيوية الجسمانية الخالصة التي يحتاج إليها العمل الفني . ولعلهن أقل من الرجال موهبة فيما يختص بحاسة الجمال التي تمس النفس وتبعث في الإنتاج الروحي . وقد يمكن أن نشير هنا مرة أخرى إلى هذا الضرب من الفتور الحسي – أو قل إنه حساسية متأخرة – في النساء ، والذي يؤكده لنا كثير (من الرجال) من علماء الأمراض العصبية . ولكن ليس به دليل كاف في الأخلاق المعاصرة . والمرأة على وجه العموم لا تنشد في زوجها الجمال بل القدرة والقوة كعهد بالحماية . أما الذكر فهو الذي ينتخب ناظراً إلى الجمال ، لا لأنه (كما حدث في عبارة ستاندال) سبيل إلى اللذة ، بل لأنه عادة عنوان القوة والصحة . وإذا كانت المرأة تفقد شيئاً من الحس بالجمال فذلك لأنها لا ترغب في الامتلاك بقدر ما ترغب في أن تمتلك . فهي لذلك تلهم الفن أكثر مما تنتجه . ولعلها لا تجد في الرجل ، هذا الرجل المتكبر المضحك ، الجمال الذي يبعث على الخلق . وهل لا تنشد الجمال وهي تجسده ؟ إن الجمال الحي أفضل من أبهى فنون النحت والتصوير ، وأشرف حتى من الذكاء ؛ لأنه أصل الفن وغاية الذكاء . ولو أن الحياة كانت جميلة ما احتاجت إلى الذكاء ، أما إذا كانت الحياة ذكية فإنها تسعى جاهدة كيما تصبح جميلة .

٥ – هل الاختلافات موروثة ؟

ليس أمامنا إلا سؤال أخير : هذه الاختلافات العقلية أهي موروثة أم مكتسبة ؟ والجواب عن هذا السؤال صعب ، لأن هذا الميدان يتنافس فيه العلم والفلسفة في زعزعة المعرفة وكثرة الفروض . وقد يمكن أن نخرف فنفترض بأن هذه الاختلافات ولو أنها مرتبطة بالاختلافات الموروثة للبنية والوظيفة ، إلا أنها في معظم الأحيان تنتقل اجتماعياً وتكتسب فردياً . وهي تتوقف إلى حد كبير على المثل العليا التي كونها الرجال لمنفعتهم الخاصة عن النساء ، وفرضوها عليهن من خلال آلاف المؤثرات البيئية . وفي ذلك تقول إحدى الأساتذة محتجة : « يشجع الصبيان على الفردية ، فيدربون على الاستقلال في الفكر والعمل . . . ويشجعون على التجريب وعلى عمل الأشياء بأنفسهم . أما البنات فيعلمن الطاعة ،

والاعتماد على الغير ، والانقياد . وتحملن على الشعور بأن الإسراف في الاستقلال بالرأي أو العمل منقصة لهن ، فلا يليق بهن ، أو لا يوافق أنوثتهن . أما الصبي فيعلم أن يشعر بأن نجاحه في الحياة يتوقف على قدرته على أداء عمل جديد وليس لدينا مثل هذا الدافع الاجتماعي منصباً على البنات »(1).

ويمكن من بعض الوجوه نتيجة تجارب واسعة أن نجيب إجابة علمية عما إذا كانت الفروق العقلية والخلقية بين الرجال والنساء فطرية أم غير فطرية وقد وجهت الظروف الاقتصادية التجارب . وكانت التجربة نفسها تبعث ويبدو كما لو أن الطبيعة قد وضعت لنفسها المشكلة التي نخبرها ، وعزمت على حلها باختبار يكاد يكون كونياً . فقد كان الرجال متفوقين عقلياً على النساء أذلك بالوراثة أم بالبيئة ؟ وللجواب عن السؤال كان لا بد من إخضاع عدد كبير من النساء للحياة الاقتصادية المتغيرة ومتاعبها التي كانت تصوغ الرجال ، ثم نلاحظ بأي سرعة وعمق غيرت هذه الوظائف الواسعة عقل النساء العاملات وخلقهن . وأصبحت جميع انجلترا ونصف أمريكا مسرحاً للتجربة الكبيرة ، وفتحت المصانع والوظائف والمهن أبوابها لكلا الجنسين وانتزعت الضرورة الاقتصادية الملايين إثر الملايين من النساء عن بيت القديم وقذفت بهن في صخب وحشي إلى المنافسة الاقتصادية والتجارية مع الرجال . فماذا كانت نتيجة التجربة ؟

كانت النتيجة تحولاً نحو المرأة « المتحررة » بلغ من السرعة حداً جعل العالم كله يشعر فيه بدهشة . ففي خلال أجيال ثلاثة شقت العاملات الجديدات بالصناعة طريقهن في كل ميدان حيث لا غنى عن القوة الجسدية . واكتسبن في جميع هذه الميادين من صفات الرجال العقلية والخلقية ما يكفي لأن يجعل أي عالم أخلاقي في الممالك المسيحية يأسف على ترحل الجنس الذي كان ذات يوم ألطف وأضعف . وأبرزت محاميات وعالمات نابغات ولكن كانت وقفات الطريق قدرة المرأة ، المحدودة بنطاق فرصهن التي لا تزال ضيقة ، على منافسة الرجل في فنونه التي أسسها من قديم . وتخرج في كليات الجامعات نساء لا يود أي رجل الزواج منهن . لأن مثيراتهن العقلي يتدنى مع بعض مزاعم الرجال في

(1) Thompson, H.B., Mental Traits of Sex, p. 178.

القيادة ، وهى مزاعم من لوازم الزواج ومصاحباته . لقد تناقصت الثغرة العقلية والخلقية بين الجنسين بالسرعة التى حلت فيها الورش والمصانع محل المزارع والبيوت .

وسندرس فيما بعد هذا التغير بتفصيل أوفى ولكنا لا ننظر إلى هذا التغير الآن إلا على أنه دليل على أن النساء إذا رغبن فى حياة الرجل المهنية تماماً ، فعليهن منافسته ومماثلته وإياه فى الصفات العقلية والخلقية . ولكن أكبر الظن أن المرأة ستفصح عن ذوق أفضل من هذا . وسوف تنقضى هذه الفترة الحاصرة من التقليد ، وتكتشف المرأة أن الرجال لا يستحقون هذا الإطراء . سيدركن أن العقل يختلف عن الذكاء ، وأن السعادة كالجمال والكمال فى تحقيق ذواتنا الطبيعية . ولن تسعى أولئك النساء الثائرات فى طريق التحرير أن يكن رجالا ناقصات بل نساء كاملات . سيجعلن من الأمومة فناً يحتاج إلى إعداد وذكاء كما تحتاج إدارة الروافع والطنابير والمفاتيح والعجلات وقد يكتشفن أن الأمومة هى أعظم سائر الفنون .

لقد جلبت عليهن حريتهن الجديدة مشكلات من التعقيد والصعوبة كتلك التى كانت فى عصر عبوديتهن . ولا يستطيع الرجال مساعدتهن فى هذا المجال ، لأن عقل الرجل من الميكانيكية والخشونة بحيث لا تسمح له أن يفهم بدقة وعطف التغيرات الخطيرة التى تجعل حياة المرأة وعقلها مضطربين . معرفتها الجديدة وحدها هى التى تستطيع تلمس الحل لهذا الموقف الجديد . وأكبر الظن أنها سوف تنجح . فالطاقة التى حققت حريتها سوف تواجه المطالب التى بعثتها هذه الحرية . ستجد سبيلا تجمع بين الحنان الذى يزدهر فى الحب والأمومة ، وبين القدرة المتنوعة ، والذكاء النافذ ، والجمال الزائل ، مما تتميز به اليوم .

الفصل التاسع

المرأة الحديثة

١ — التغير الكبير

لقد أعفلنا فى التحليل السابق الحديث عن المرأة المصنعة فى المدن الحديثة إلى دراسة مفصلة ، لأن هذا الصنف من النساء ، عزيز على التصنيف ، ويكاد يكون بغير سابقة فى التاريخ . ولو تخيلنا أنفسنا فى سنة ٢٠٠٠ ، وتساءلنا عن أبرز ملامح الأحداث الإنسانية فى الربع الأول من القرن العشرين ، لرأينا أنه ليس الحرب الكبرى ولا الثورة الروسية ، بل تغير حالة المرأة . ولم يشهد التاريخ مثل هذا التحول المذهل فى مثل هذا الوقت القصير . « فالبيت المقدس» الذى كان أساس نظامنا الاجتماعى ، ونظام الزواج الذى كان حائلا دون الشهوة الإنسانية وعدم الاستقرار ، والقانون الأخلاقى المعقد الذى رفع البشر من الوحشية إلى المدنية والتهذيب ، من الواضح أنها وقعت بين براثن ذلك الانتقال المضطرب الذى أصاب جميع نظمنا وسائر أساليبنا فى الحياة والفكر . منذ أن اغتصبت المصانع المزارع ، وامتصت المدن موارد الريف الطبيعية والإنسانية . فإذا كانت عقولنا قد تزعزعت بعض الشىء فى هذا العصر الهائج فلها العذر فى ذلك .

أما أن تكون المرأة مجرد جارية فى البيت ، أو زينة اجتماعية ، أو متعة جنسية ، فتلك ظاهرة عرفتها عصور سالفة غير زماننا ، فهى مجرد ظاهرة وضرب من الشذوذ الأخلاقى يستحق الملاحظة العامة والالتفات . وقد طالب أفلاطون فى جرأة بفتح باب كل عمل ، والمساواة فى جميع الفرص ، دون نظر إلى اختلاف الجنسين . ولكن أرسطو كان أكثر موافقة لميول عصره فوضع المرأة فى مرتبة متأخرة من النمو ، وفسر وجودها على أنها إخفاق الطبيعة فى أن تنتج رجلا . فهى

تتعلق بطبقة العبيد من حيث تبعيتها الطبيعية ، وعدم جدارتها بالمشاركة فى الأمور العامة .

وتلك كانت كذلك نظرة يهودا Jehovah الذى جمع الأزواج والأمهات مع الماشية والأملاك الثابتة فى آخر الوصايا العشر التى يقال إنه أنزلها على موسى . وقد صبغ اليهود (يهودا) على صورتهم ، وكانوا كأى شعب محارب يعتبرون المرأة كارثة ، وشراً لا بد منه حتمى باعتبار أنه مصدر الوحيد للحصول على الجند فى ذلك الوقت . ولم يكن قدماء اليهود يوقدون أى شمعة إذا كان المولود بنتاً . وكان على الأم التى تلد أنثى أن تتطهر مرتين . أما الصبى ، فحوراً بالآية التى كانت عهد (يهود) عليه ، فكان يردد باستمرار فى صلاته « أشكرك يارب لأنك لم تخلقنى كافراً ولا امرأة » [1] . ولكن اليهود لم يشذوا عن غيرهم ، ولو أنهم كانوا فى كثير من الأمور خارجين على القوانين الأخلاقية فى زمانهم . فى كل مكان من الشرق كانت المرأة محتقرة حتى تصبح أم بنين . ولا تتشرف تمام الشرف حتى يخر أبناؤها صرعى فى ساحة القتال . وحتى أفلاطون نصير المرأة فقد حمد الله لأنه ولد ذكراً .

ومنذ تلك الأيام حتى عصرنا الحاضر تغيرت دون شك أحوال النساء ومعاملتهن تغيراً عظيماً واختلفت اختلافاً بيناً ، ولسنا فى حاجة إلى تفصيل ذلك على هذه الصفحات . فالقيان Hetairai اللاتى أضفين على الحياة الأثينية قديماً صورة سابغة . والخطيات اللاتى كن يعمرن بلاط الملوك فى العصر الحديث ، التمس الحرية من سيده الرجل بإبراز مفاتنهن الجنسية والعناية بطابعها : فكانت أسباسيا Aspasia . وفرينا Phryne تختصان بالفلاسفة والساسة ، كما كان صالون مدام دى ستايل ودى بومبادور مراكز عقلية لأسمى ثقافة عرفها العالم . وكانت الثورة الفرنسية تبشر فى زمانها بحرية عامة . فقدم كوندورسيه للمجلس الوطنى طلباً بحق المرأة فى الانتخاب ، وأضافت مارى ولستنكرفت حقوق المرأة إلى حقوق الرجل . حتى إذا انقشعت دماء الثورة وبعد أن قدمت المرأة نصف مليون من بنيها لتحرير فرنسا . وحدث أن أحداً لم يفكر فى تطبيق الحرية

(1) Royden, A.M., Woman and the Sovereign State, p. 45.

والمساواة على البيت . وأن الثوار الذين استولوا على التويلرى أمكنهم أن يحكموا زوجاتهم بيد قوية كالرومان الذين كانوا يحبون اصطناع أسمائهم . كانت الحرية وقفاً على الرجال لا غير ، وكانت مؤنثة لغوياً فقط .

وظلت هذه الآراء سارية فى هذا القرن . فمن منا اجتاز الأربعين ولا يذكر الرسالة العنيفة التى أثبت فيها أتو فاينجر أن المرأة لا روح لها ؟ ومن منا نحن الرجال لم يستمتع بقراءة كتاب شوبنهور « مقال عن النساء » حيث يقول : « هذا الجنس القمىء ، ضيق الكتفين ، عريض الحقوين قصير الرجلين » ؟ ألم تملأنا نشوة التفوق حين نصحنا نيتشه قائلا : « إذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك ؟ » لم نلتفت إلى أن هذه الكتب التى استمتعنا بها أعظم متعة لم تكن إلا جزءاً من الحرب الأزلية بين الجنسين ، فهى كتب حربية للذين ضرب عليهم الحصار تعبر عن حكمة المهزومين من الرجال . وفاتنا أن نلاحظ ، لأننا نشبه هؤلاء الشهود فى تحيزهم ، أن شوبنهور هجرته عشيقته البديعة وآثرت عليه لقب بيرون وحسن مظهره . وأن نيتشه قد هجرته عشيقته السمراء لو سالومى Lou Salomé بعد أن تتبعها فى نصف مماثك القارة متقرباً إليها بفقه اللغة والأمثال . وأن فاينجر ذلك العبقرى المنحرف هجرته قينة فى إحدى حانات فينا ، وفى ساعة من ساعات اليأس قتل نفسه رمياً بالرصاص فى بيت بيتهوفن . إننا نقرأ تلك الكتب ونضحك لأنها تعبر بدهاء وأسى عن عداء الكامن للجنس الذى سوف نظل على الدوام نكنّ له الحب .

لم يكن للمرأة حتى سنة ١٩٠٠ أو ما يقرب من ذلك أى حقوق يرتبط الرجل قانونياً باحترامها . وفى القرن التاسع عشر كان نساء أفريقيا يشترين ويبعن كالرقيق أو كالآلات الزراعية . وكن فى جزر تاهيتى وبريطانيا الجديدة يرضعن الخنازير (١) . وفى مرى إنجلترا قد يضرب الزوج امرأته ولا يحاسبه القانون إذا بقيت بعد (العلقة) على قيد الحياة . وقد يرتكب الفحشاء كل ليلة . وليس لها أن تفعل مثله إلا إذا هجرها . وإذا اكتسبت مالا فهو من نصيبه . وإذا كان لها

---

(١) Thomas, W.I., Sex and Society, p. 138.

مال وقت الزواج فله أن يتصرف فيه . أما أن يكون للمرأة حق العمل فى مصنع ، أو شرف العمل فى مصنع ، فشىء لم يخطر على بال أى رجل .

ثم حدث التغيير الكبير . فأخذت تلك النساء اللاتى كن عبيداً يتحدثن عن الحرية وغيرها من اغذائم ، وعن المساواة وغيرها من المستحيلات ، وحطمن النوافذ وصناديق البريد . واشتركن فى مواكب لا حصر لها ، ومظاهرات صاخبة . الخلاصة فلننقل على « طريقة كوميديا الأخطاء » (١)

فى الفراش لم يغمض لنا جفن لاستعجالهن الأمر
وعلى المائدة لم نذق طعم الأكل لاستعجالهن الأمر
وفى صحبتهن كن يدمن النظر إلى هـــذا الأمر

لقد ركبت المرأة رأسها ، وشقت طريقها . ولا يمكننا اليوم أن نضربها ، ولن تطهى لنا الطعام ، بل لن تبقى إلى جانبنا فى البيت ليلة واحدة . وبدلا من القلق على خطايانا فهن فى شغل بخطاياهن . لقد كسبن نفوساً وأصواتاً فى الوقت نفسه الذى يبدو أن الرجال قد فقدوا نفوسهم ونسوا الأصوات . فالمرأة تدخن ، وتعنف ، وتشرب ، وتفكر ، على حين يجلس الرجل المحور الذى احتكر فى الماضى تلك الفنون فى البيت يشرف على تربية الطفل .

٢ — الأسباب

كيف نفسر هذا الانقلاب السريع للتقاليد والنظم الثابتة والمحترمة المنحدرة من عصور أقدم من المسيحية ؟ السبب الشامل لهذا التغيير هو تكاثر الآلات . أما « تحرر » المرأة فكان عرضاً نشأ عن الثورة الصناعية .

فأول كل شىء دفعت الثورة إلى تصنيع النساء على نطاق لم يعرف من قبل ولم يحلم به . كن عاملات أرخص من الرجال . وكان صاحب العمل يؤثر توظيفهن على الذكور الأعلى أجراً والأكثر ثورة . وكان الرجل فى انحسار منذ

(١) كوميديا الأخطاء Comedy of Errors ، تمثيلية لشكسبير ، تقوم على الخلط بين توأمين شكلهما واسمهما واحد ، وتخطىء زوجة أحدهما وتختلى بالآخر (المترجم) .

قرن مضى يجدون مشقة فى الحصول على عمل . ولكنهم كانوا يقرأون فى الإعلانات دعوة نسائهم وأولادهم يرسلونهم إلى أبواب المصنع (١) . فأصحاب العمل يجب أن يفكروا فى صيغ من المكاسب والأسهم ، ولا يجب أن تشغلهم اعتبارات الأخلاق والنظم والدول . والرجال الذين تآمروا ببلاهة على « هدم البيت » هم أصحاب المصانع الوطنيين فى انجلترا فى القرن التاسع عشر .

وأول خطوة قانونية لتحرير حداثنا كان تشريع عام ١٨٨٢ الذى نص على أن نساء بريطانيا العظمى لهن الحق فى اجتنى ميزة لم تكن لهن من قبل ، وهى الاحتفاظ بما يكسبن من أجر . كان ذلك التشريع أخلاقياً ومسيحياً إلى أقصى حد ، فرضه أصحاب المصانع فى مجلس العموم ليجدس فتيات انجلترا للعمل فى مصانعهم . ومنذ تلك السنة حتى وقتنا هذا ظل الدافع الذى لا يدفع إلى الحصول على الكسب يجتذب النساء من عبودية البيت إلى رق الورشة . ونصف نساء انجلترا اليوم يشتغلن إما فى المكاتب أو المصانع . وتتزايد نسبة العاملات فى الصناعة أربعة أضعاف السرعة التى تتزايد بها نسبة الرجال . وأكبر الظن أن كل امرأة فى مدينة المستقبل ستعمل خارج البيت فيما عدا فترات أمومتها النادرة . وقد يبدو هذا المنظر لبعضنا كريهاً عند تأمل فيه ، ولكننا سنعتاده بعد جيل أو جيلين ، لأن العادة تجعل كل شىء يبدو معقولا .

ومن الطبيعى أن ينشأ عن تصنيع امرأة فساد الحياة المنزلية . وكلما ولدت الآلات آلات جديدة بكثرة متزايدة مستمرة ، وأدى الإنتاج الواسع النطاق المزود بأساليب جديدة من القوة إلى رخص الأسعار ، غلب المصنع البيت وتفوق عليه فى مئات الحرف التى كانت تنوع حياة المرأة . وانتزع منها عملها السابق شيئاً فشيئاً ، وأخذت المهن التى أدت إلى عبوديتها تمر واحدة بعد أخرى ، تاركة البيت خالياً من الاهتمام ، والمرأة نفسها عارية عن الوظيفة وغير راضية .

والمرأة هى التى خرجت لحسابها الخاص من البيت إلى المصنع . لقد بحثت عن العمل الذى طار من يديها وكانت تعلم أنها بغير هذا العمل لا بد أن تصبح طفيلية لا معنى لها ، وترفاً لا يقوى على اقتنائه إلا ذوو المال الوفير ، أو

(١) Hammond, J.L. and B. : The Town Labourer, 1760-1832.

ذوو العاهات من الرجال . وتلقت المرأة أول أجر لها بالاعتزاز والسعادة التي يشعر بهما الصبي الذي أراد أن يثبت رجولته بالعمل في المصنع والتدخين يوم الأحد ، كي يهرب من المدرسة . فالابتهاج الذي استقبلت به المرأة عملها الجديد كان فرحة عثورها على شيء تعمله . فهذه هي السعادة بالوظيفة مرة أخرى .

فلما أصبح البيت فارغاً . ولم يعد فيه مكان لعمل شيء أو الاستمتاع بالحياة . هجره الرجال والنساء ، وأخذوا يعيشون في صناديق أو خلايا تسمى شقة في بيت ، وعنابر ينام فيها أولئك الذين يقضون حياتهم ليلا ونهاراً في الخارج في صخب الشوارع وزحمتها . فهذا نظام استمر عشرة آلاف سنة انهار في جيل واحد . وقد تعلمنا من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي أن النظم والتقاليد والأخلاق لا يمكن تعديلها إلا بالتدريج البطيء غير المحسوس ، ولكن ها هنا أحد التغييرات الكبرى في تاريخ الحضارة . والذي يكاد يبلغ الأوج ، وقع في زمن لا يزيد عن طفولة شخص واحد إلى كهولته . وقد حذر الكتاب ووعاظ الساسة من السماح للاشتراكيين بهدم البيت . ومع ذلك لعبت العمليات الاقتصادية هذه المأساة تحت أبصارهم وفي قلب حياتهم قبل أن يتمكن علماء الأخلاق من التحقق من أسبابها .

وقد يمكن أن يظل البيت قائماً لو أن الأطفال كانوا يملأونه بالمتاعب والصخب . غير أن ثورة الصناعة قد انتزعتهم بعيداً جداً . ذلك أن الأطفال الذين كانوا عوناً أي عون وبهجة في المزارع الفسيحة ، أصبحوا عائقاً في المدينة المزدحمة والشقة الضيقة . وكان في العالم كثرة كثيرة من العمال ، لذلك وجب أن نحد الإكثار من النسل على الطريقة القديمة ، حتى لا يظل الناس في فقر دائم وجهل مستمر . وأدى ظهور الآلات إلى وجود المصانع . وأفضت المصانع إلى نشأة المدن ، وحملت المدن الديمقراطية والاشتراكية وتحديد النسل . الحق أن أحداً لم يرد شيئاً من ذلك . ولم يكن لمظاهرات حقوق لنساء الزرقاء مطالبات بشيء من التوقف عن كثرة الحمل إلا أثر ضئيل جداً في إحداث ذلك التغيير ، ولم يكن في مقدور عظات رجال الدين والحكام وقف موجته . وكان من الواجب على تاريخ أوربا وأمريكا في مائة العام الأخيرة أن يتبدل ليستبقى هذه

النتائج . ولكن التاريخ كالطاقة لا يسير إلى الوراء ، فهو يحمل فى طيته ضرباً من القدر المحتوم ، ويجب أن يجرى فى مجراه إلى المصير .

ولم يكن الأطفال ضرباً من الترف فى المدن حيث لا تمكن دفعهم إلى العمل فى الخامسة من العمر ، وحيث يزيد كل طفل جديد فى أجرة البيت . نقول لم يكن الأطفال ترفاً فقط ، بل الحمل نفسه لم يعد حدثاً طبيعياً . ولكنه عملية خطرة . ذلك أن المرأة الحديثة لاشتغالها فى المصنع ، أو ابتعادها عن العمل فى البيت ، أصبحت أضعف فسيولوجيا من أسلافها . وقد زاد الطين بلة تدهور حاسة الجمال عند الرجل فى العصر الحاضر لشغفه بالقوام الرشيق [illegible] . أما أمثال النساء اللاتى عرفهن روبنز Rubens (1) ، أو الأمهات من مثل لايتشيا Laetitia أم بونابرت ، فلا يرقى فى نظر شبابنا أو رجالنا فى المدن الذين يحكمون على الجمال فى ظل المتعة الجنسية العابرة أكثر مما يحكمون عليه نذيراً لأمومة قوية . وهكذا أصبح النساء أكثر فأكثر عجزاً عن حمل الأطفال ، وتجنبن الحمل ما استطعن إلى ذلك سبيلا ، ويقلل منه إلى أضيق حد ويوافقهن أزواجهن فى معظم الأحوال على ذلك . وهم لا يعلمون فى قرارتهم أن الأطفال تكلف من النفقة أقل مما يبذلونه فى ملاهى الليل .

ثم جاءت تلك المبتكرات الجديدة المسماة وسائل منع الحمل فكملت الدائرة ، وتعاونت فى صمت على تحرير المرأة . فلما تحررت من هم الولادة وتحررت بناء على ذلك من آخر عمل كان يمكن أن يجعل بيتها مكاناً محتملا له معنى ، ذهبت إلى المكاتب والمصانع ودور العلم . وافتخرت بأنها أخذت مكانها إلى جانب الرجل فى الورشة أو المتجر . فهى تؤدى نفس العمل ، وتفكر نفس الأفكار ، وتنطق بنفس الألفاظ كالرجال . والأعجب أن التحرير جاء عن طريق التقليد ، فاصطنعت امرأة واحدة بعد أخرى عادات الرجل التقليدية البالية حسنة كانت أم قبيحة ، فحاكته فى تدخينه ، وفجوره ، وإلحاده ، وفى طريقة تصفيف شعره ولبسه السراويل وأدى هذا التقارب بين الرجال والنساء فى أثناء النهار إلى تأنث الرجل واسترجال المرأة . وضاعت المهن والبيئة والمؤثرات

(١) رسام مشهور من بلاد الفلمنك (١٥٧٧ — ١٦٤٠) (المترجم) .

المتماثلة الجنسين في جنس يكاد يكون واحداً . ولن يمر جيل حتى يصبح من الضروري أن يميز كل منهما بعلامة تمنع الوقوع في مشكلات معقدة يؤسف لها . فلا يستطيع أحدنا الآن أن يكون واثقاً .

فما أعمق التعبير الذي تمثله المرأة العقيم أو ذات الطفل الوحيد بالإضافة إلى المرأة في الزمن السابق . وما أعظم أثره حين نذكر فزع كلا الرجل والمرأة من تصور العقم وكان احترام المرأة حتى بداية القرن العشرين يتغير مع عدد الأطفال الذين أنجبتهم . وكانت وظيفة المرأة إما أن تكون أماً أو عاهرة ، وفى كلتا الحالتين كانت تمد في المطالب ما أمكنها . وكانت ملايين الصلوات تقام كل يوم في أوربا المسيحية والعالم الوثنى بطلب أصحابها من الآلهة أن يهبوهم نعمة النسل ، وكانوا يتلون الأدعية ، ويزورون الأضرحة ، ويتمسحون بالحجارة المقدسة . ومن عادة شعب المايا Maya أن يصوم الرجال العقيمات ويصليان ، ويقدمان الهدايا المطلقة لاستعطاف الآلهة لتجود بكثير من الأولاد . وسئل أحد ملوك أفريقية عن عدد أبنائه فأجاب حزيناً إنهم عدد قليل ، لا يزيد على السبعين .

لم تؤثر صور الأمومة فينا إلى شغاف القلب وتبعث الدمع إلى العين ؟ لأننا قبل ظهور المدن كنا في حاجة إلى عدد كبير من الأطفال ، وكانت مشاعرنا تعكس تلك الحاجة . أما الآن فليست المدينة في حاجة إلى النسل ، لأنها بأنوارها الساطعة ولياليها الطويلة تستطيع أن تجتذب دربة أسود الريف الأقوياء . وليس على الإله الحديد إلا أن يبسط ذراعيه ويحمل في أطراف أصابعه ملايين المصابيح المتعددة الألوان حتى يهرع إليه الأطفال ، آلافاً وآلافاً كل عام . ويرتفعون بدورهم إلى الحكمة والعقم . فالمدينة لا تعتقد أن الأطفال لازمون ، وهى لذلك تعلم النساء أن يصبحن محظيات ، ولا تنوهن بالحمل . إن الحنان إلى الأمومة الذى يذيب فى بعض الأحيان حتى أرواحنا الجامدة المتشككة هو ثمرة عهد الشباب فى الريف ، والذى لا يزال النساء يحملن فيه الأولاد بين حين وآخر ؛ ومشاعرنا تبقى بعد تغير الظروف التى نشأت فى ظلها وذهابها . ونحن الذين ولدنا فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونشأنا على مقربة من الحقول الفسيحة ، وسنظل نعتقد إلى النهاية (كما تخبرنا المثل العربى) « أن أولئك الذين بغير ولد لا سعادة لهم » ، وأن تشييد أسرة مكونة من بنين تسرى فيهم الرجولة ، وبنات ينطبع فيهن

الحنان ، عمل يحتاج إلى حلق أعظم . وقد يكون له ثمرة أهم من رسم الصور التأثيرية الحديثة ، أو تأليف الموسيقى المعاصرة . أو كتابة مقالات عن المرأة فى العصر الحاضر .

٣ - بناتنا

فالمرأة المتحررة ثمرة تطورات اقتصادية ليس لإرادتها يد فيها ، ومن التناقض الشنيع أن توجه إليها الحملات الأخلاقية تلومها على ما هى عليه . أما نحن فقد نستطيع بهذه العين أن ننظر إليها نظراً إلى حد ما موضوعياً وبعيداً عن التحيز . فهلم بنا نتأملها .

فالمرأة فى الصناعة تكيف نفسها بمرونة مدهشة ، مع مرونة عقلية لا شك فيها . ومعظم حيل الذكاء وعاداته التى أعتبر علم النفس الحديث أنها موروثة فى الرجال يظهر أنها مكتسبات سطحية يمكن للمرأة أن تصطنعها بمثل السهولة التى تتجمل فيها بالأحمر . راقب فتيات المكاتب الموظفات فى كل مكان ، قد تنقصهن المبادأة بعض الشيء (إلا فى المسائل الحسية Erotica) ولكن ما فيهن من منافسة هادئة ، وأدب صارم ، واضطلاع بمعظم أعمال المكتب الحقيقية على حين يدخن الرئيس الذكر سيجاره ، ويتكىء إلى الخلف فى كرسيه ، وينظر بعظمة حوله - كل هذا مصدر دهشة مستمرة ، وإعجاب متواضع . لم يمض إلا جيل أو جيلان حتى حقق الجنس الأضعف من التقدم فى الظفر بمركز فى الصناعة ، وفى غزو كل ميدان فيها ما عدا الأعمال الجسمانية الجسيمة ، حتى لقد يعجب اليوم جون ستيوارت مِل الأمين حين يرى إلى أى حد أصبحت آماله المتواضعة عن الجنس الذى اضطلع بحمايته لا ضرورة لها . (إنى لأتصوره واقفاً فى دهشة ينظر إلى نساء البوليس يرشدن حركة المرور فى أكثر المناطق ازدحاماً فى القسطنطينية) [١] . ولا أحد يعرف إلى أى حد سوف يبلغ هذا النفوذ النسائى فى الصناعة . فقد يأتى اليوم الذى توازن فيه سياسة المرأة العالية ومهارتهن فى القيام بالتفصيلات قوة الرجال الأعظم منهن وجرأتهم فى

(١) Montreal Gazette, April 2, 1928.

المبادأة . وحين تضطلع القوة الكهربية بمجهود الصناعة القذر والعضلى ، فسوف ينبغى حتى على الرجل أن يصبح ذكياً للاحتفاظ بمكانه فى العالم الاقتصادى .

ولن نستمتع بمانه فى السياسة بمثل هذا الحظ . ولا ريب فى أن المرأة المصنعة يجب أن تشترك فى هذه اللعبة المؤسفة لحماية نفسها من القوانين التى يفرضها الرجل . ومن هذا التميز فى العصر الحاضر . ألم يحط الذكر الشرير امتيازاته التى شاخت بآلاف من الحواجز التشريعية ، وحصن قوته فى نقط كثيرة بقوانين موقرة ؟ يجب أن تحل هذه القوانين ، وأن يفتح كل طريق لطاقة المدخرة لهذا الجنس الذى تخلص فجأة من العمل المنزلى وتحرر من أثقال الأمومة المتكررة كل سنتين . أى قدرة حماسية قذفت بها المرأة فى هذه المعركة من التحرير ؟ لم يسبق لنصف العالم من المقدومة أن أبهرهم بمثل هذه السرعة ورباطة الجأش . ففى الوقت نفسه لم تستطع البروليتاريا (الجبهة الشعبية) فى إنجلترا وأمريكا أن تحقق شيئاً مع ما لها من قوى تماثل المرأة فى الصوت والعدد . إن شجاعة الغاضبين من الرجال السكرى بأصوات الحرب وعضها لم تستطع التغلب على شجاعة هذه النساء المطالبات حق الانتخاب ، القارعات أبواب كل سلطان ، حتى فتحت الأبواب وأرغمت الديمقراطية على قبولهن . وبعد خمسين سنة من اليوم سوف يتحققن إلى أى مدى من الكمال بلغن .

ويدرك بعض النساء الآن أن حق الانتخاب ليس هو التحرير ، وأن الحرية ليست سياسية بل عقلية . فثمة ملايين من البنات اليقظات لسعيدات يملأن حجرات الدراسة والمعابر والساحات المدرسية بالبشر والبهجة ، تلك الأماكن التى كانت وقفاً على المختالين من ورثة الكون . إننا نراهم فى آلاف الكليات وقد علا الحد وجوههن بما فى العالم من أدب وعلم ، وأعينهن تسطع بالشهوة إلى المعرفة ، وأجسامهن الرياضية تفيض بإحساس أكمل من الحياة . لعل جمالهن يعمى أبصارنا فنعدل فى الحكم على مرحهن الصاخب وضيقهن العميق . ولكن هلا سمعتهن يسألن المعلمين ؟ أراقبتهن وهن يمرقن لمطربات رأ إرباً ، ويصفن العالم من جديد بحيث يكون أدنى إلى رغبات قلوبهن ؟

ما مصير كل هذا التعليم ؟ أيتعاون مع حياة المرأة الحديثة المتوسعة ومع

آلاف التجارب الجديدة التي تصوغها صياغة جديدة فيها ذكاء قدراً على كفاح هذا العالم المتغير ؟ أيعزى هذا التنوع الجديد في العقل والاهتمام وحدة الغريزة وحكمتها . تلك الغريزة التي أحسنت خدمة المرأة قديماً في حربها الأبدية مع الرجل العقلي المتردد ؟ أيرجع ذكاء المرأة الجديد طلاب الزواج وتخيفهم ، فيصعب على المرأة المتعلمة التوفيق إلى زوج ؟ مما يروى أن المواطن الرومانى كان يمتلئ رعباً من صورة الزوجة المتعلمة . وكذلك شأن كل رجل ، فهو لا يجد سعادة في صحبة امرأة يكافئ عقلها عقله . إنه لا يحب إلا من هي أضعف منه ، كما أن المرأة لا تحب إلا من هو أقوى منها . من أجل ذلك كانت الفتاة . التي تقوم ثقافتها على المعرفة والأفكار أكثر مما تقوم على السحر الطبيعي والمهارة شبه الواعية ، بعيدة عن فرصة التوفيق إلى زوج . إنها تنتهك حرمة ستائر التي احتفظ بها الرجال قروناً عديدة لأنفسهم . ويدل الإحصاء على أن ستين في المائة من المتخرجات في الجامعة يبقين غير متزوجات (١) . وكانت سونيا كوفالفسكي العالمة الممتازة تشكو من أن أحداً لا يقبل على الزواج منها ، وفي ذلك تقول : « لم لا يستطيع أحد أن يحبني ؟ إني أستطيع أن أقدم أكثر مما تستطيعه معظم النساء ، ومع ذلك فإن أتفه النساء تحب ولا يحبني أحد »(٢) . الفتاة الذكية هي التي تخفي امتيازها العقلي حتى تبلغ سناً كبيرة .

لقد أثبتت امرأة بدن خلال خمسين عاماً أن الفوارق العقلية بين الجنسين ترجع إلى البيئة والمهنة أكثر مما ترجع إلى الطبيعة الثابتة . وهذا لا يدل على أن المرأة ستتغلب في زمن قريب على العوائق العقلية التي أحاطها الزمن والعرف بها . فلم يكد تطورها الثقافي يبدأ ، وليس وراءها تقاليد وشدائد الحدوث مع الزمن ، ولا مثل كبيرة تلهمها الثقة أو تتحداها نماذج في تطورها . ولم تتمتع المرأة المتوسطة بفرص التعليم إلا في عصرنا الحاضر فقط ، وذلك على نطاق يكاد يقرب من المساواة بالرجل . وستظل نسبة الإناث إلى الذكور في كليات الجامعة لعدة أجيال أقل من نسبة النساء إلى الرجال في عدد السكان عندنا . وأكبر الظن أن

(١) Siegfried, A., America Comes of Age, p. 111.

(٢) in Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex. vol. VI, p. 141.

الحمل كذلك على ما هو عليه في الوقت الحاضر من نسبة ضئيلة ، سوف يمتص شطراً كبيراً من طاقة المرأة . ولعلها تعتبره مرة أخرى مهمتها العظمى ، وتقنع بالتنازل عن مثل هذه الوظائف العرضية للرجال كالعلم والأدب وقد تكتشف أن ثمة في هذا العالم أموراً أعظم من الأنماط المكتوبة . وأن ثمة بعض الفرق بين العاقل والذكي .

ماذا حدث في أثناء ذلك لجسم المرأة الحديث ؟ هل أدى هجرها البيت وبقاها على المصنع إلى فساد جسماني ؟ من المحتمل جداً ، فهي لا تبدو في قوة جدتها الريفية أو المنزلية ولا في صحتها . إن لون بشرتها أقل نضارة ، ولا تستطيع أن تلد أطفالاً دون شعور بالعجز والألم مما يجعل أي فتاة بدائية تنظر إليها باحتقار . ولكن هذا صحيح بالنسبة إلينا جميعاً ، فالرجال كذلك فقدوا العافية منذ أن هجروا الحقول . حقاً العقل الحديث أكثر يقظة ، فهو يستعمل الآلات المعقدة والماكينات بثقة ثابتة وأمن نسبي . ولكن الجسم الحديث عاجز عن حمل الأثقال والمجهودات التي كان يحتملها كجزء من الروتين اليومي .

وعلى الرغم من جميع متاعب المرأة الحديثة فإنها لا تزال جميلة إلى الحد الذي يبهر الفلاسفة حين تخطر أمامهم . ولا يمكن أن نسر منها كثيراً لهذه الفنون الماكرة التي تحافظ بها على جاذبيتها المغرية إلى عمر كان يصل بنساء القرون الماضية إلى الشيخوخة . كانت المرأة إذا بلغت الأربعين عجوزاً متقعدة وموضع السر أما اليوم فلا خطر عليها من ذلك حتى أحمر الشفاه والمطريات هي من هذا الوجه من محبوبات الفن والحضارة ويمكن أن تغتفر . ولو أن اللون الطبيعي أبدع بديل عن الدهانات .

قد يكون هذا الوهن البديع وهذا الضعف الجسماني في المرأة الحديثة شيئاً عارضاً وسطحياً . ففي عالم يدور بقوة الكهرباء ستكون المصانع من النظافة كما كانت البيوت قديماً . وستنبسط المدن ويتنفس الناس الهواء الطلق مرة أخرى . ولعل الفتاة الحديثة مع رياضة المشي والتنس وكرة السلة تستعيد ذلك التورد الذي انتزعته الصناعة المدنية من خدها . ولقد تغلبنا على الملابس المشدودة المعوقة ؛ إذ تحرر جسم الفتاة المعاصرة من تلك المهمات المحترمة التي كانت إحدى معوقات

الحمل . فالسراويل القصيرة نعمة لجميع العالم ما عدا حائكات الملابس . وضررها الوحيد هو فى ضمور خيال الرجال – وأكبر الظن أن المرأة لا جمال لها إذا فقد الرجال الخيال . جملة القول لقد أضافت المرأة الحديثة الشىء العظيم إلى ألوان الحياة الحديثة وتعددها ، إذ أصبحت أكثر حيوية وسعادة بدافع حريتها . قد يكون من العسير على بعض اعتياد الشعر القصير (ولو أن هذه البدعة قديمة) وتدخين النساء ، ولكن الجيل المقبل لن يحفل بهذه التغييرات السطحية . وأى شىء إذا أحسنت صنعه أبدى إحساناً يبدو فى نظر الرجل العادى جديداً . والعادة تكوّن الأخلاق ولها كذلك يد فى تكوين الجمال . فى سالف الأيام كانت العجائز تدخن (الپيپة) ذات الرائحة الكريهة ولم يحفل العالم بهن . ولن يحفل العالم بعجائز اليوم حين يعاودن . وتنفخ الشابات سحب التبغ فى وجه حبيبها . قد يكون التدخين مضراً كما يكون لذيذاً ، فإذا كان الرجال والنساء يؤثرون حياة قصيرة وممتعة ، فلهم فى ذلك الخيار . أولا نقول نحن إن المرح ليس أحكم من الحكمة ؟

وماذا نقول فى هذا « الهوس الاهتزازى delirium tremens » المسمى بالرقص الحديث . أهى المرأة التى اخترعته أم بعض العصبيين من الرجال ؟ أيمكن أن يثور أجدادنا ثورة خلقية كما نفعل اليوم ، حين كان (الفالس) المشهور يحل محل الرقص الدائرى pirouetting أيام الأرستقراطية (١) ؟ وماذا نقول أيضاً فى براعة السيدات النامية فى فنون السرقة والقتل والسياسة ؟ فى عام ١٩٢٦ كما تروى إحدى صحف (٢) بلتيمور المحترمة قائلة : « نقل شخص مجهول الشخصية إلى المستشفى فى حالة خطرة ، متألماً من إصابات شديدة يقال إن ثلاث فتيات اعتدين عليه فى غابة بالقرب من هيرلوك . كان الرجل ماشياً . . حين مرت به الفتيات فى سيارة وعرضن عليه الركوب معهن ، فقبل . وبعد ركوبه مسافة قصيرة أوقف الفتيات السيارة عند طريق منعزل . وفى خلال صحبة صاحبة بعد ذلك . . . غضبت إحدى الفتيات لقلة غيرته ، ونشبت معركة ، وكتفته

(١) Cf. De Musset, Confessions of a Child of the Century, p. 112.

(٢) Quoted in the American Mercury, March, 1926.

اثنتان منهن وأحدثت ثالثة قطعه بدبوس كبير . ثم هربت الفتيات بعد أن تركنه على الأرض عاجزاً .. ! » أيمكن بعد ذلك أن نشك في تحرير المرأة ؟

ويبدو أن هكسلى كان على حق في قوله : « فضيلة المرأة أعظم خرافة شعرية للرجل » . وفي النساء على الدوام هذه الشهوات . ولكنهن جاهدن في إخفائها في الزمن السابق لأنهن كن يعتقدن أن الرجال يؤثرون الحياء . أما اليوم فيبدو أن الرجال أسرع استجابة لعدم الاحتشام . وتميل الفتاة العصرية إلى الصراحة الجسمية والنفسية مما يفتن الحواس فتنة موقتة . ولكنه قل أن تجتذب الروح . والرجل أصبح يضرب بالتمنع ويحب في المرأة الأدب الرقيق . ولا ريب في أن الرجل حين يصل قمة النمو ، منغمساً في عشق ، غافلاً عن مباهج الصحبة البريئة والإخلاص . غير شاعر بأي سحر ما عدا سحر الجسد . فلا بد من اتخاذ وسائل شديدة لبعث اهتمامه واجتذابه إلى الروح . فإذا أثمرت هذه الحرارة الملائمة رغبة شرعية فإنها سرعان ما تتحطم مع انطفاء شعلة الهوى بألفة الزوج . لقد كان شوبنهاور محقاً إذ ليس الزواج غاية ما يكون من الإغراء مرتبطاً بغاية ما يكون من الفرصة ، لأن الفرصة باقية ولكن الإغراء سرعان ما يتناقص إلى أقل حد .

٤ – ربات بيوتنا

إن صورة فتاة الطبقة العاملة الحديثة ، مشغولة بالعمل في العالم وممتلئة بالحيوية والحرية . تمنع عند النظر إليها من صورة امرأة الطبقة الوسطى الحديثة المتزوجة ، المطمئنة إلى دخل ثابت ، والتي تحيا حياة تقوم على لعب البردج ، والشراء من محال التجارية ، والاشتغال بالإصلاح الاجتماعي .

فلنبصر إلى أنفسنا من خلال عين أجنبية . يقول الكونت كيسرلنج [1] :

« لقد أصبح الزوج في أمريكا مستعبداً كما كانت الزوجة في الشرق قديماً ، مع ما يصحب ذلك من انتكاسات نسبية تزيد وضوحاً يوماً بعد يوم » .

(١) الكونت كيسرلنج Keyserling (١٨٨٠ – ١٩٤٦) فيلسوف اجتماعي من أستونيا ، أنشأ في مدينة دارمشتات « مدرسة الحكمة » بعد قيام الثورة الروسية ومصادرة أملاكه . رحل إلى بلاد كثيرة واتصل بثقافات عدة حتى لقد سمى الفيلسوف المتجول (مترجم) .

ويضيف إلى ذلك أن نساء أمريكا أصبحن مسترجلات ضامرات الثدى حتى ليطبعن المرء بطابع من « البرودة والخشونة وانعدام الروح »(1) — ولو أننا نقول ماذا كان الكونت ينتظر فى أول زيارة ؟ وعلينا أن نسمح هنا ببعض الحذف لآراء مستمدة من ميراث أرستقراطية براندنبرج . ولكن القدر الباقى قد يكفى لأن يكشف لنا عن خضوع الرجال فى المستقبل ، وحاجتهم الواجبة إلى امرأة مثل سوزان أنتونى(2) . ولا ريب أنه سيكون عندنا فى القريب امرأة متعددة الأزواج وستجمع النساء ذوات السلطان حريماً من الرجال العمديين تحرسهم خصيان من الإناث. وأكبر الظن أنه سيكون لنا فى المستقبل ثلاثة أجناس كما هى الحال فى النمل والنحل . فبعض النساء يلدن الجنس ، وسيهب البعض الآخر نفسه هبة كاملة للنشاط الاقتصادى بحيث يفقدن أولا الرغبة فى الحمل ثم القدرة عليه . وليس فى التطور أى سبب يجعلنا نتوقع من المستقبل أن ينحصر فى الماضى .

كيف جاء هذا الانقلاب فى الأدوار ؟ أكبر الظن بسبب زوال سلطان التفوق الجسمانى(3) . فقد قام خضوع النساء على أساس بسالة الرجال العضلية . كان الرجل هو السيد ، لأنه كان يستطيع أن يصرعها فيطرحها أرضاً فى آخر الأمر (ولم يكن يؤجل هذا العمل طويلا) . وإلى الآن يستطيع الرجال أن يغلبن النساء ، وأصبح من المسائل الدقيقة فى الفلسفة تعليل إقلاع الرجال عن تلك العادة القديمة . ومن المحتمل أن تكون الحاسة الخلقية النامية فى الرجل قد جعلته يخجل من استعمال آخر حيلة . وكلما كان تحرر المرأة من الرغبة الجنسية أعظم ، كان موقفها موقف التى تعطى الرجل ما يطلب . ولكن وراء هذه الظاهرة الثانوية توجد الحقيقة الاقتصادية الأولية من أن تعقيد الأمور الحديثة لدى يستدعى ذكاء أكثر فأكثر ، ويتطلب قوة أقل فأقل . قد ذهب بسمعة مجرد القوة العضلية ، وانتزع من رجل الطبقة المتوسطة تفوقه الوحيد على زوجته ، وأكسبها بعد ذلك تفوقها فى الدهاء والتشدق امتيازاً على خجله وحساسيته ونعمه .

(1) Europe, pp. 66-67.

(2) Susan B. Anthony (١٨٢٠ – ١٩٠٦) زعيمة أمريكية مشهورة قادت حركة مطالبة المرأة بحق الانتخاب وغيرها من الحركات (المترجم) .

(3) Mill, J.S., The Subjection of Women, p. 4.

أما حيث لا تزال سمة قوة العضلات عالية كما هي الحال في الطبقة العاملة ، فلا يزال الرجل رب البيت ، وتظفر المرأة ببقائها انتقاماً .

تأمل بعد ذلك المرأة العالة على عبرها ، تجد أنها بعد أن تحررت من العمل المنزلي بسبب هجرة الصناعة من البيت ، وبعد أن تحررت من الحمل بأساليب منع الحمل أو الممرضات والخدم ، قد تركت بيدين ورأس وقلب كلها فارغة غير مستقرة ، وأرض خصبة لزرع غريب . ثم يمضي النمو الطبيعي في طريقه ، فكلما كانت أفرغ من العمل أصبحت أشد كسلا ، وأقل رغبة في أداء ما يتبقى من العمل الذي جعلها في القديم رفيقاً معيناً لا دمية .

ولسنا نوجه في هذا المقام أي سبة للمرأة التي تعمل في البيت أو في الورشة منتجة للحياة الإنسانية ، أو للبضائع الثمينة للإنسان . أما السبة إذا كانت تستحقها فللمرأة التي تتاجر بجسمها في الزواج وفي غير الزواج ، والتي تسرف في ترفها وزينتها إرضاء للشهوة ، والتي تنفق أيامها نطن تتأنق وتتسكع وتصفف شعرها وأخيراً تلبس ، وتقضي الليالي في اللهو والغزل . ولست تجد في سائر مناظر الحياة الحديثة المتنوعة أشد إساءة من هذه النساء المسرفات في الفراغ وليس لهن إلا قليل من الأطفال أو بغير ولد ، ومع ذلك يحتجن إلى كثير من الخدم ، وليست لهن وظيفة ولا تفرغ لهن حاجة . إنهن يتقن من عمل لا شيء بألف أسلوب . ونتيجة هذا كله دفع الرجل إلى الانهماك العصبي على العمل ، وإلى الشعور بمرارة أن أهميته ليست إلا مجرد كاتب حسابات .

وإذا كانت المرأة اليوم تنتظر ما لم يعهد من قبل أن يعرض عليها الزواج ، فذلك يرجع إلى حد كبير إلى غلطة هذه الطبقة التافهة . لأن مثل تلك المرأة لا تقدم إلى الرجل إلا اليسير جداً ، حتى لقد نجد في تنويع العلاقات والارتباط فيها بمدة قصيرة أمناً من الزواج . وفي ظل هذه الظروف لا يبدو الزواج في نظر الأعزب البصير تحقيقاً لغاية الرجل الناضج ، بل نسلماً متحضراً بعد فترة طويلة لأمر عزيز على الطبيعة في عالم الحشرات ، حيث نجد الأنثى كما رأيت تلتهم الذكر بشكل ليس له مثيل على حين يكون مستغرقاً في شباك الغرام . فلا غرابة أن يتراجع

الرجال أمام فكرة القيد الذهبي للزواج ، وهم يرون عجز هذه السيدات اللاتي زايلهن الشباب . وهكذا تبدد ملايين النساء حياتهن في العزلة لأن ملايين الزوجات بعد اصطياد فريستها يلتهمنه علانية ، فتنسحب كل نفس مطلوبة في عزلة ثقافية . وهنا نجد بشاعة عصرنا المنافية للأخلاق لا في الشعر المقصوص أو السروال القصير للفتاة النشيطة .

إنا لنأمل أن تكون هذه الصعوبات مجرد فترة انتقال ، وأن تكون فوضى العقل والأخلاق والسياسة والفن مرحلة مظلمة بين نظام آخذ في الزوال ، ونظام آخر يبرز بطيئاً . لا من مراثينا وحججنا . بل من تلمس التوفيق بين الدوافع الإنسانية وبين الظروف الجديدة الصناعية لعصرنا الدنيوى والمدنى والصناعى . وقد يكون طول فترة البلوغ الذى أخر الزواج وبدل الأخلاق دليلا ماكراً على مستوى أرقى سوف يبلغه الرجل فى القريب . لأن طول مرحلة البلوغ فى تاريخ الإنسانية وما يتبعه من تعليم وتدريب كان أحد الدوافع العظيمة إلى تقدم الجنس . وأكبر الظن أننا لا نشهد نهاية الحضارة كما يفترض بعض علماء الأخلاق ، فنحن الشعب الشاذ اللاأخلاقى أقلية صغيرة ، قد تكون مريضة وعصبية ، ومصيرها إلى الزوال مع العقم . وسوف تظل الكتلة العظيمة من الشعب البسيط من حولنا تتزوج وتتناسل حتى يرث أبناؤها الأرض . وثمة ألف سبب وسبب يجعلنا نعتقد أنها سوف تمضى بالعالم قدماً إلى أن يرفعها النظام الجديد ، والاستقرار الجديد فى السلوك والفكر البشرية ، ويقيمها فى المستوى الأعلى الذى قد تقودنا إليه تجاربنا العمياء .

الفصل العاشر

انهيار الزواج

وبذلك نصل إلى الزواج .

وأكبر الظن أن برنارد شو هو القائل إن الزواج هو الموضوع الذى دار حوله الكلام الفارغ أكثر من أى موضوع آخر فى العالم . ومن المصحة أن يستغفل المرء فى الحديث عن الزواج كما يستغفل فى الزواج نفسه . وعذره فى الأولى أقل . وعندما نحاول البحث فى هذه المشكلة يدرك المفكر الخالص أن الأفكار ليس لها إلا أثر متواضع (Modest — ولو أن هذه الصفة ليست المقصودة تماماً) فى العلاقات الجنسية . وأن التغييرات الاقتصادية تتغلب على الفلسفات والأخلاق . وأن أفضل ما يمكن أن يفعله المفكر هو تحليل هذه التغييرات ، والتنبؤ بنموها ونتيجتها ، والتماس شىء من التوافق البصير فى السلوك قد يحمى الفرد والنوع . وفى مثل هذه الأمور لا خير فى الوعظ ، والفهم أعود .

لقد عميت أبصارنا فى غمار حروبنا وآلامنا عن هذا الأمر الواقع وهو أن حقيقة الحياة الأساسية ليست فى السياسة ولا فى الصناعة بل فى العلاقات الإنسانية ، أى فى ارتباط الرجل بالمرأة ، والآباء بالأبناء . وتدور الحياة كلها حول هذين المحورين من المحبة ، حب الزوج ، وحب الأم . تأمل قصة العشيقة الثائرة التى حين دفن عاشقها (الذى قتل فى ثورة موسكو فى ديسمبر ١٩١٧) فى « الجنازة الحمراء Red Funeral » ، قفزت إلى القبر واحتضنت التابوت الذى يضم جثته صائحة : « ادفنونى أيضاً ، فماذا يهمنى الآن من الثورة بعد أن مات » . قد تكون واهمة فى الاعتقاد أنه فذ بين الرجال لا يمكن تعويضه ونحن نشبهها إلى حد أن قلوبنا وعهودنا المحطمة هى كذلك غير معقولة . ولكنها علمت بحكمة موروثة فى دماء المرأة أن هذه الثورة الهائلة شىء تافه عابر

بالإضافة إلى هذا النهر من الزواج والأبوة والموت،وهو التيار الأساسي للحياة الإنسانية . لقد فهمت – ولو أنها لم تجد الألفاظ المعبرة – أن الأسرة أعظم من الدولة، وأن الإخلاص واليأس أعمق في القلب من السعي الاقتصادي ، وأن سعادتنا في آخر الأمر ليست في المال أو المنزلة أو السلطان ، بل في تبادل المحبة .

١ – تطور الزواج

ما معنى الزواج ؟ لعلنا إذا استطعنا كشف الغطاء عن أصله أن نحسن التحقق من معناه .

تصور نجمة البحر ، وهي من أدنى الحيـوانات ، تبسط زعانفها rays أو أذرعها فوق بيضها الملقح وصغارها التي فقست . إنها بداية إحدى الظواهر الأساسية في الطبيعة . . عناية الأبوة . في عالم النبات والحيوان بوجه عام يحفظ النوع لا بهموم الأمومة بل بالتناسل المسرف الضائع،فالزهرة يجب أن تملأ الجو باللقاح ، وأن تغرى بعض الحشرات تتخذها رسلا إلى الزوج الذى لن تراه. ومن المعروف أن الفوقعة الصغيرة ذات الدم الأحمر المسماة Haematococcus تحيل منطقة شديدة البياض إلى قرمزية بنشاطها التناسلي في ليلة واحدة . والمحارة May flower ، التي تشبه في نسلها الزهور البرية Oyster تضع ملايين البيض ،ثم تتركها بلا اكتراث لمصيرها فيموقليل منها ، ولكن معظمها يتخذ طعاماً أو يضيع كأنه مجرد نفاية .

وقد اكتشفت الطبيعة ببطء ، كما رأينا ، عناية الأبوة وتنميتها بديلا عن هذا الإسراف الطائش . فمن أدنى الفقريات إلى أرقى فصائل الإنسان يتناقص حجم البطن أو الفقسة أو الأسرة . وتزداد عناية الوالدية مع كل مرحلة من النمو في الجنس والنوع والفصل والأمة والطبقة والفرد . وظهر الزواج لا لإباحة الصلة الجنسية بل لتحسين نوع الحياة بربط الزوجين برباط دائم للعناية بالذرية التي يلدونها

وليس الزواج ظاهرة تعد وقفاً على الإنسان ، فبعض أنواع الطير وحيدة الزوج أكثر منه . وكتب دى كرسبيني De Crespigny عن إنسان الغاب

المسمى أورنغوتان orang-utangs فى بورنيو يقول : « إنهم يعيشون فى أسر ، ويبنون أعشاشاً مناسبة فى الشجر . ولا يشغل العش بمقدار ما أمكننى ملاحظته إلا بالأنثى والصغار – أما الذكر فيمضى الليل على فرع الشجرة نفسها أو المجاورة لها » . ويصف وسترمارك الغوريلا بأنها « تعيش فى أسرة . ويقوم الأب ببناء العش وحماية الأسرة وهذه هى الحال أيضاً فى الشمبانزى » . ويقول سافدج Savage « ليس من الغريب أن ترى (الزوجين العجوزين) فى أسرة الغوريلا يجلسان تحت شجرة يتسليان بأكل الفاكهة وبالحديث على حين يقفز صغارهما من حولهما ويتأرجحون من فرع شجرة إلى فرع آخر فى مرح صاخب » (١) .

ثم يستأصل الانتخاب الطبيعى بالتدريج تلك الأنواع التى لا تعنى إلا قليلا بذريتها ، ويبقى فيمن بقى تلك الغريزة الخاصة بالعناية الأبوية التى ترفع شيئاً فشيئاً الفرد والجنس . ومن المعروف عن أمهات القردة أنها تموت حزناً لموت صغارها . وهناك نوع من القردة تحمل الأم رضيعها تحتضنه بذراع واحدة بعد انقطاع أشهراً عدة (٢) أما فى الإنسان فإن هذا الدافع يكاد يصبح هو الشهوة المتحكمة الأقوى حتى من الصبغة الجنسية . وما حب المرأة لزوجها إلى جانب حبها أطفالها ؟ ومن أمهات الأجناس المتوحشة من ترضع أبناءها فى بعض الأحيان اثنى عشر عاماً . وليس من النادر فى بعض القبائل مثل نيوهبريدز New Hebrides أن تقتل المرأة نفسها للعناية بابنها الذى مات ودفن فى القبر (٣) . حقاً لن تجد فى العالم إلا القليل أعجب فى تاريخ البشرية من هذا التحول الذى يكاد يكون كاملا لحب المرأة ذاتها إلى حبها طفلها .

ونشأ جنباً إلى جنب هذا الدافع القوى للحماية الأبوية نظام سائد حاكم هو الأسرة . ويرجع الأصل فى وجود الأسرة إلى عجز الطفل عبر

(١) Westermark, E., History of Human Marriage, p. 14.

(٢) McDougall. W.M, Social Psychology, p. 70.

(٣) Kropotkin, Prince, Mutual Aid, pp. 89,101.

كروبتكين (١٨٤٢ – ١٩٢١) جغرافى وفيلسوف اجتماعى روسى ، عاش فى إنجلترا وروسيا ، وزار أمريكا سنة ١٩٠٠ (المترجم) .

القدر . وإلى قاسيته المتزايدة للنمو والتدريب بعد الولادة . والتطور فى الحيوانات بيولوجى قبل كل شىء ، فهو يختص بنمو أعضاء جديدة . أما التطور فى الإنسان فهو اجتماعى ، يختص بالانتقال المتزايد لميراث من الصناعة (تكنولوجيا) والثقافة يتجمع وينحدر من جيل إلى جيل . لقد خلقت الطبيعة الأسرة لتربط الذكر إلى خدمة الأنثى التى قيدتها الطبيعة لخدمة الطفل . والرجال بالطبيعة عبيد للنساء ، والنساء بالطبيعة عبيد للأطفال والجنس . وفى هذه العبودية الطبيعية أعظم سر لكيانهم ، وأكثره دواماً .

فنفهم إذن الزواج لا على أنه صلة بين رجل وامرأة صلة تهدف إلى أن تجعل الشهوة شرعية ، بل على أنه صلة بين الآباء والأبناء الغرض منها حفظ الجنس وشد أزره . ولو كان الزواج أمراً شخصياً لا أمراً يختص بالجنس ، ما كان أول ما تعنى به التقاليد والشرائع الإنسانية . ولأمر ما عنيت الدول هذه العناية بتشريع الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة وأسرفت هذا الإسراف فى تنظيمها ؟ ولماذا كل هذا الجمهور من وثائق الزواج ، وأفراح العرس ، ومحاكم الطلاق ، والمصانع والتحريمات الأخلاقية ، إذا لم يكن ذلك بسبب أن الزواج أعظم أسس الجميع المنظم ، وهو الذى يصون مجرى الحياة الإنسانية ويسد نقصه ؟ ومن الواضح ، والله يعلم ، أن الزواج لم يقصد أبداً إلى سعادة الزوجين بل فى الألفة وتربية الأطفال (١) . وكان متوسط الانتفاع بالحياة الإنسانية فى سالف الزمان من القصر بحيث يظهر أن أحداً لم يكن يعنى بالفرد . ولم يبحث الفرد إذا كانت سعادته الخاصة فى الزواج أولى من استمرار الجنس ورفعه إلا بإطالة الحياة الحديثة ، وإشراف الإنسانية (الصناعة الوحيدة التى لا تخضع للعرض والطلب) ، واقتصار الأبوة على مظهر أكثر من مجرد القناعة بالزواج . حتى إذا ساد « عصر الفرد » ، ارتفعت الثورة على الزواج فى هذا الطوفان الحاضر العسير على المقاومة .

وجاء تطور الزواج عقب تسع مصالح النوع . وإذا رجعنا إلى فجر

---

(١) Cf Shelley "A system could not well have been devised more studiously hostile to human hapiness than marriage". — notes to Queen Mab.

التاريخ وجدنا أن حرية الفرد فى اختيار الزوجة كان مقيداً تقييداً شديداً بالحاجة الاجتماعية . ويبدو أن أول المحارم الجنسية كانت تهدف إلى منع الاتصال الجنسى بين الآباء والأبناء ، ثم بين الإخوة والأخوات . وانتشر التحريم بالتدريج حتى وصل إلى حد الزواج من خارج العشيرة exogamy بمعنى تحريم زواج الرجل بالمرأة من قبيلته نفسها . وكان علماء الاجتماع الأولون مثل لويس مورجان يميلون إلى إرجاع هذه القيود إلى تصور عقلى لا يتفق ومستوى العقل . أما المتأخرون من الباحثين مثل وسترمارك والنس فيعزون هذا الأمر فى شىء من التهكم إلى الاستخفاف الذى ينشأ عن الألفة . ولكن هذا لا يفسر مغالاة هؤلاء أحفاد المتوحشين عن جمع كل زوجين معاً ، وإنشاء نظامهم الخاص بالمجتمع . وأكبر الظن أن مصلحة الجنس كانت فى أذهانهم حين قيدوا الفرد

وتطور الزواج مع تغير العلاقات الاقتصادية . فى مرحلة الصيد كان الرجل ، وهو صياد ذو بأس يجيزه رئيس القبيلة . يصطحب عصاه وقد يتخذ صاحباً ويتسلل إلى قبيلة أخرى ، ويختطف فتاة جميلة من حبيبها ، ويحملها بعيداً على طريقة الاغتصاب السابانى Sabine [1] . ثم تحسنت الأخلاق مع نمو الثروة وانتشار السلام ، ولم يعد الرجل يحمل العصا بل هدية ثمينة . أو عرضاً بالخدمة الطويلة المدى . يتقدم به إلى والد الفتاة التى يرغب فيها . وبذلك حل الزواج بالشراء محل الزواج بالسبى . واليوم يعد تقدم الزواج مزيجاً غريباً من السبى والشراء .

كانت الحرب فى ذلك الزمن القديم كثيرة الوقوع وكانت مخاطر متعددة . وكان الذكر يصاب بالموت بأسرع مما تصاب به الأنثى . فحاول العقلاء من الرجال أن يحلوا المشكلة باتخاذ عدة زوجات لحماية النساء اللاتى يزيد عددهن عن الرجال زيادة كبيرة . ولما كان النساء يرضعن أطفالهن عدة سنين ، ويمتنعن عن الصلة الجنسية حتى فطام الطفل ، فقد رأى الرجل أن حاجته تقتضى اتخاذ عدة زوجات لتلبية مطالبه المستمرة . هذا فضلاً عن أن تعدد الزوجات يقتضى

(١) قبائل قديمة كانت تعيش فى إيطاليا . (المترجم)

إلى كثرة النسل أكثر من الاقتصار على زوجة واحدة . يضاف إلى ذلك أن وفرة الذرية كانت نعمة لقوم مهددين على الدوام بالحوادث والأمراض والحروب .

فلما قلّت الحروب ، وأصبحت الحياة والموت أكثر أمناً ، تناقصت نسبة النساء العددية المتفوقة ، وظهر نظام الزواج من واحدة ، فكان مزية للأطفال الذين يتلقون عناية موحدة ، وحباً مركزاً ، وطعاماً أكثر وفرة لقلة عدد الطاعمين . وكان ذلك النظام مزية للرجل إذ يسر له تركيز إرثه في أسرة بدلا من تشتيت ثروته . كما شملت نعمته في عشيرة من الذرية . ورأى نفسه لا يزال حراً ليشبع شهواته الحمراء سراً ، على حين يستطيع أن يصون إخلاص زوجته بجميع ألوان الحماية من العرف والسلطان ، فيؤمن بذلك انتقال أملاكه إلى أبناء أكبر الظن أنهم من صلبه . وفوق هذا كله ، وعلى الرغم من هذا المستوى المزدوج (المتغلغل في نظام الميراث) فالاقتصار على زوجة واحدة كان منفعة للمرأة ، لأنه حل حاسماً من مشكلة الغيرة التي لا بد أنها كانت تجعل من تعدد الزوجات مارستاناً . على أقل تقدير منح هذا النظام المرأة ضرباً من المساواة البيولوجية بالرجل ، ويسر لها أن تتحرك من هذا المستوى المتواضع وترفع العالم .

أما الباقي من تاريخ الزواج فكان صراعاً بين المرأة والملك ، بين الثروة والزواج . وكان المفروض أن المرأة مع نمو الثروة يجب أن تسيطر بلا منازعة على اختيار الزوج وحكمه ، وأن خضوع المرأة كنظام لإنجاب الذرية ، وبديل اقتصادي عن العبودية ، كل ذلك يصبح ثابتاً لا يمكن استئصاله من العادات والجنس . ولكن الأمر كان على العكس ، لأن الثروة أدت إلى التعليم ، وهذب التعليم شهوة الرجل المتوحشة ، وبعد قرون من التطور حل الهوى العذري على نطاق واسع محل شهوة الجسد للجسد .

وظل زواج الاستمتاع قائماً . وفي كثير من الدول كان الآباء لا يزالون يزوجون بناتهم لأحد الأثرياء لأنهم يتوقعون أن يصبح من أصحاب الملايين . ولكن في انجلترا وأمريكا ، وهنا وهناك في كل أمة ، انهزمت الملكية ، وانتصر أنصار زواج الحب ، وشيئاً فشيئاً إذا بالمرأة التي جعلتها شراسة الرجل رقيقة ، تهذب برقتها شراسته . وشيئاً فشيئاً رفعته بحنانها وتضحيتها بالحمل من حالة التي

يقرب فيها من الحيوان . وعلمته أن يرى ويشد فيها بعض الصفات ليست من الحسية والجسمانية كتلك التي كانت تحديه إلى أحضانها . ثم أقامت الحضارة بالتدريج فوق هذا الأساس الطبيعي بناء واضحاً ونمواً من الحب الشعرى .

لقد درسنا في مكان آخر النمو الملحوظ الرائع للحب الروحي منذ أناشيد المغنين في العصر الوسيط ، إلى العاطفة الجارفة في قصة كلاريسا هرلو (١) وهلويز الجديدة (٢) ، ثم إلى القصص التي كتبت في القرن التاسع عشر لإشباع النزعة الرومانتيكية السائدة . من يستطيع أن يقول . إلى أي حد طهر هــذا الفيض من القصص بعض المظاهر الخشنة للحب الحديث ، مصورة ابتداءً حقيقة اشتياق الروح للروح الذى لعله كان في أول الأمر الوهم الذى يعرى العذارى وقد تقدمت بهن السن والرجال الخياليين ؟ لا ريب أن الحب الرومانتيكي أصبح حقيقياً ، فقد أقبل الشباب عند البلوغ على الأغانى ولأناشيد الغرامية مخلصين ، وركع الرجال أمام النساء ، وانحنوا يقبلون أيديهن ، وأحبوهن لشىء أسمى من نعومة الجسد . كانوا يتبارزون للظفر بابتسامة ، ويتدعون الآداب في غمرة من نشوة الإخلاص . ثم وضعوا بالتدريج كل ثروتهم التي كانوا يتجرون بها تحت أقدام مخلوقات تافهة ليس لها من قوة عليهم إلا بطريق الحماس والرياء . وحين انقلبت الرغبة في كثير من القلوب إخلاصاً لا امتلاكاً . وقدم الرجل ، خاطباً ود المرأة بولاء شديد ، ثقته بها بكل سبيل حتى الموت . بلغ الروح أوج تطوره الطويل ، وغاية رقيه البطىء من الوحشية إلى الحب . أكبر الظن أننا لن نعرفه في جميع كمالاته بعد الآن .

٢ — انحلال الزواج

لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شىء . فقد قل أمن الفرد في الوقت الذى نما فيه الأمن الاجتماعى . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم

---

(١) قصة لصمويل رتشاردسون كتبها عام ١٧٤٧ ، عبارة عن رسائل كتبت كلاريسا لصديقتها تفصح فيها عن صدوف قلبها عن الزوج الذى يريده أبواها ، وهى قصة مؤثرة كذا . (المترجم) .

(٢) قصة كتبها جان جاك روسو تدور حول زوجة ضيق عليها حبيبها السابق الخناق . (المترجم)

أماً ما كانت . فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر حائماً كل لحظة . أما الشباب الذى أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز ماديًا . وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا جرؤ الشباب على الزواج وحيويته صغر من الحب . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت سنوات) . ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفى للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فتجد الجيوب عامرة ؛ فيحتفل الزواج بموت الحب .

حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الوهمية . فهى واقعة تحت تأثير إغراء عنيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر متردداً . إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً فى مستوى الحضر من المعيشة ؟

وحين تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج . ويعقد عليها لا فى كنيسة ، لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثماً على آبائهما المهجور أثر فى قلبهما . إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير السياسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة يمنحهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه . فلا مراسم مهيبة . ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل الشروط والعهود إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً . ويتوجهان إلى البيت فى صخب .

إنه ليس بيتاً . فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة والأشجار الصلبة . ولا حديقة تنبت لهم الزهور والخضراوات التى يشعرون بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا

كأنهما فى زنزانة سجن ، فى حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلا ، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذى كان يتخذ مظهراً ويكتسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً ، بل مجرد شىء مادى فيه من الجفاف والبرودة ما نجده فى مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا يبث فيهما الزرع النضر بل سيلا من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر . بل المتاعب والذكريات الحزينة فقط .

وتصاب المرأة بخيبة أمل ، فهى لا تجد فى هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هذا البيت يغرى شعوره ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب . وأن علاقته مع زوجته تشبه شبهاً عديداً تلك العلاقات غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد فى هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال ، وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة ؟ والمطنة فيها يصادف أفضل جواب الحب . فيعتزمان على منع النسل ... إلى أن يقع بينهما الطلاق .

ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة — فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغريزة الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساجر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف فيبحث عند امرأة جديدة تبذله أكثر مما بذلته .

وإذا كانا بعير أطفال فإنهما يلتمسان ألف سبب وسبب للشقاق . وتصبح لفظة « عزيزى » التى كانت تهز مشاعرهما عند سماعها ، أشبع لفظة فى اللغة ، يسيرة ولا معنى لها . وتحزن المرأة على أيام الرقة السابقة ، فتهمل لذلك وهى فى البيت العناية بجسمها وملبسها وحركاتها وحديثها مما كان سبباً فى اجتذاب الرجل نحوها ، لأنه وجد فيها شيئاً أبهى وأسمى منه . وإذا كان بينهما شىء من عدم التوافق الجنسى أصبح ذلك حاجزاً منيعاً ، لأنهما ينظران إلى الزواج على أنه مجرد صلة حسية . وإذا كانا فقيرين أسف الرجل على الأثقال التى يحملها ، وشغفت المرأة بالعرس أوف وبير . وإذا كانا غنيين تـزعت فيهما شيوعية الحب والزواج وفردية الجشع والخوف . وتنشب المنازعات على المال عندما تهبط حرارة الحب . وإذا كانا عصريين عبثا على هواهما على قدم المساواة ، ويشب بينهما صراع ينتهى بسيطرة أحدهما . وإذا كانت المرأة تتكسب استنكرت عبوديتها المستمرة . وإذا كانت عاطلة ، يثقل الزمن عليها حتى تجد لها عملا . كانا يظنان أن ليس فى استطاعتهما إنجاب طفل . ثم يكتشفان — كما قال بلزاك — « أن الرذيلة أقل نفقة من الأسرة » . إذا كان لأحدهما أصدقاء غار الآخر منهم ، وإذا كانا بغير أصدقاء انطويا على نفسيهما فى عزلة لا سبيل إلى الفرار منها . وتجرى فيها الحياة على نمط واحد لا يحتمل . ثم تختفى فيهما الحرية اللازمة للشخصية أمام أهواء التحدث وحب الاستطلاع . ولا تجد النفس لها ملاذاً تسكن إليه فى عزلة وسلام . ويصبح الحب الذى كان على الدواء مطاردة وقنصاً ، حرباً . وليست فترة أحضان الليل إلا هدنة مؤقتة .

وفى أثناء ذلك تتبدد عن عيونهما غشاوة الوهم . ويكتشف الرجل والمرأة على حد سواء أن شعلة الحب لم تخترق قبل كل شىء متعتهما بل لاستمرار الجنس . وترى المرأة نفسها قد تحولت من إلاهة إلى طاهية — اللهم إلا إذا وقعت على زوج رقيق يجعل الطاهية إلاهة . وتشعر برغبة الرجل فى التنويع ، فتأخذ فى مراقبته تأكلها نار الغيرة ، لأنها تعلم أنها لا تستطيع أن تثق فيه أكثر من ذلك . فهى تلاحظ أن عنايته بها أقل وتصدر عن تفكير ، وأنه يتصل بها ، إذا فعل ذلك ،

صلة عادة وهو شارد الذهن . ويفقد الزوج الخيال الذى يرى من خلاله زوجته كما يراها الأجنبى ، أو الذى يرى من خلاله زوجة الأجنبى كما تبدو فى الساعة التاسعة صباح اليوم التالى . وفى جميع تفكيره (وفى تفكيرها) يؤدى البعد إلى فتنة النظر ، ويحملان الجديد على محمل الجميل . فإذا أصغت إلى حديث الزوجة التعطل والعقم تجدها قد شرعت هى أيضاً فى الاشتياق إلى وجه جديد أو منظر جديد يعيد إلى نفسها مباهج الرغبة . حقاً لا يفكر أحدهما فى الزنا ، كل ما فى الأمر أنهما يتوقان إلى « الحياة » . وفجأة تنتصر الحواس على الحكمة ، ويتسلل عنهما الإخلاص . ويدب إليهما الشك على قدمين غادرتين . وتنتهى ثورة الغضب الأخيرة عند انكشاف الأمر بتبسيط موقف كل من تعقيد حيث لا تتيسر معه حياة التقشف والسيطرة .

وهكذا ينتهى الأمر بالطلاق . انظر إليهما أولا فى ساحة المحكمة الشرعية ينتظران فى حزن انتهاء قضية أخرى ، ثم استمع إلى محاولة كل منهما فى بيان قساوة صاحبه بألفاظ نابية تقذف فى وجوه كتب محررة بالأشواق . قد يوفق بينهما ، ولكن إلى حين ، إن كلا منهما يبغض الآن صاحبه بغض أولئك الذين يذكرون وعود الغرام . ثم لا يلبثان أن يستعيد كل منهما حريته . كالصحراء الحرة ، وقد يعودان إلى الحرية بعد الطلاق ، ولكن الظروف لا تزال كما كانت من قبل . فكيف يمكن أن تتغير النهاية ؟

وسنة بعد أخرى يتأخر الزواج ويتقدم الطلاق ، ولا يجد الإخلاص إلا فئة بسيطة من الناس يحمدونه . وبعد زمن قليل لن تجد رجلا يهبط إلى سفح الحياة مع امرأة تتسلق معها قمة الحياة . وسيكون الزواج نادراً كالعذراء ليلة الزفاف . ومع ذلك فالمطلقات لسن إلا عدداً قليلا من التعيسات فى الزواج . لن تتحرى كم يطول بهم الزمن دون انفصال ، ولكن لا حرج على سؤالك . فكم ستأل متزوجون وأنكروا . لا تبحث فى قلوب غيرك . فلن يخبرك أحد عما يمكن أن تطلبه . إنهم يخشون العار ويعدلون عن الطلاق ، ويستبدلون الاستخفاف بالحب ، والخداع بالإخلاص . لعله من الأفضل أن يتفرق كذلك شملهم ، وأن يقف إخفاق الزواج عارياً مزعجاً أمام الأبصار ، يتحدى كل

حاكم يفكر فى مستقبل الأجيال ، وكل محب يحترم الحب إلى الحد الذى عب فيه ألا يموت سريعاً .

٣ — إعادة بناء الزواج

الوصف سهل ، والعلاج صعب . فماذا يمكن أن نقوله ولم يقل ألف مرة ومرة من قبل ؟ أى دواء ننصح به ولم يجرب ووجد ناقصاً ؟ أى نصيحة نتقدم بها لا تؤذى الجراح التى نريد أن نأسوها ؟

لعلنا نهجر المشكلة ونقول مع قول قدماء المسيحيين : سد جميع أبواب الحرب ، وسيسى الحابيس أبهم فى السحر . فإذا كان الغرض من الزواج إنجاب الأطفال وبقاء النوع لا متعة الأفراد والأزواج ، فيجب لمصلحة الأبناء أن يكون الزواج أبدياً ، فلا يفصل العبد ما ربطه الرب . وبعد فالفرق بين امرأة وأخرى ضئيل جداً ، وإذا كنا نجد صعوبة مع هذه الزوجة فسنجد صعوبات مماثلة مع غيرها . الحق أن الرجل لم يخلق للسعادة بل ولد للشقاء ، فيتزوج وليعش فى سلام .

ولكن أنسمى العهود التى قطعها الشباب الغرير أبدية ؟ أنربط بين روحين معاً طول الحياة مع أن حبهم قد انقلب بعضاً ؟ نحن بين أمرين أحلاهما مر : غواية الشيطان ، والغرق إلى الأذقان . أما الآن وقد أصبح عدد الأطفال أقل ، ولا ينتهى دور الأبوين بمجرد ولادة الذرية أو نضجهم كما رتبت الطبيعة المسرفة فى عالم الحياة الأدنى ، فلا بد أن ننظر إلى الزوجين بعين الاعتبار . ومن المضحك أن نخضع حياة تبلغ سبعين عاماً لاعتبارات نشأت حين كان النساء يلدن الأطفال بالجملة ، ويذوى جمالهن فى الخامسة والأربعين . إذ رقى الجنس فى الكيف يتوقف على تقليل التضحية المطلوبة من أفراده . وليس الجنس أعظم من الفرد إلا لأنه ينتج عدداً أكبر من الأفراد . وفيما عدا ذلك ليس الجنس إلا اسماً وتجريداً ، وبذلك تتصل نظرية الزواج فى العصر الوسيط بمذاهب الاسميين nominalists فى تلك الأيام وقبلها .

وقد نشأت فى عصرنا الفردى نظرية معارضة لها أكثر طرافة وتطرفاً .

أتدرى ما اسمها الجذاب ؟ « الزواج الحر Free Love » . فما دامت العهود تقطع ثم تنكث ، فأى حاجة إلى أخذ العهد على الإطلاق ؟ وما دامت الزيجات لا تلبث أن تعقد حتى تحل فمدى تشغل آلاف المحاكم بالملايين من عقود الزواج ووثائق الطلاق ؟ وإذا كان الحب أفضل دافع إلى الزواج ، فموته سبب كاف للطلاق وكيف يمكن أن يكون الحب حقيقياً إذا لم يكن حراً ؟ دع المحبين يرتبطون بإخلاصهم وشرفهم فقط . حتى إذا ذوى الحب فليبحثوا دون عائق عن رفقاء آخرين ، وليجددوا حبهم وشبابهم .

ويزيد أنصار هذا الحل لمشكلة الزواج كل عام . وقد جاء فى تقرير القاضى لندساى أن عقود الزواج نقصت عام ١٩٢٢ عن عام ١٩٢١ بمقدار ٢٥ فى المائة ، وعلل هذا النقص بانتشار الزيجات الحرة . وقد يمكن أن يؤدى هذا الارتباط الحر إلى مخرج بديع من الشرائع الجبرية عندئذ لولا استمرار اعتماد المرأة اقتصادياً على الرجل واعتمادها نفسانياً عليه قبل أن يربطه الزواج بأهوائها . ذلك أن العجز أيام الحيض ، واحتمال الحمل ، يقللان من مقدرة امرأة على الكسب . وإلى أن تتمكن المرأة من تأمين مسكنها وحماية نفسها حماية مستمرة إزاء المخاطر التى تواجهها فإن مزية الزواج « الحر » تبقى كلها فى جانب الرجل . وفى الوقت الحاضر ولو أن هذا الشعور أصبح فى الميزان ، ويتجه إلى الضعف يوماً بعد يوم - تنقص المرأة فى عين الرجل إذا استسلمت له . والرجل محارب ، أو يحب أن يرى نفسه كذلك . ويبد له على الأقل أن يجد مظهراً للمقاومة يعظم به انتصاره ، حتى إذا بلغ غاية الظفر فتش عن ميادين أخرى ينتصر فيها . ويحب الرجل فى الوقت الحاضر - وهذا أيضاً عرضة للتغيير أن يعتقد أن امرأة التى يختارها زوجته لدائمة لم يسبق لها التعلق برجل آخر . إنه على أتم استعداد للموافقة على ارتباط مؤقت مع امرأة مجربة ، ولكن قل أن يرغب فيها زوجة شرعية . إنه يفعل كما لو كان يوافق على حكم فاينتجر القاسى . إن المرأة إما أن تكون أماً أو عاهراً ، وكأنه يرتاب فى عودة المرأة التى أحبت جيرانها كنفسها إلى الإباحية أول ما تزول جدة الزواج أو أثقال الحمل . ولا يفكر الرجل أبداً فى تطبيق هذا الفحص أو الحكم على نفسه . إنه يفترض فى نفسه القدرة على الانتقال من

التنويع إلى الاقتصار على واحدة دون أى شبهة فى الانحراف عن الإخلاص الروحى . الواقع أن ما يحركه ليس العقل بل حب التملك ، وترتد مشاعره إلى عادة الزواج بالشراء تلك العادة القديمة التى تكاد تكون عامة . فهو يشترى شيئاً من السوق . ولا يود أن يدفع ثمناً عالياً لبضاعة مستعملة . إنه يظن المرأة هى المقصودة بالوصية العاشرة من وصايا العشر (١)

وكل ذلك مصيره إلى التغير . وأكبر الظن أنه حين يكمل استقلال المرأة الاقتصادى . وتفصل وسائل منع الحمل تمام الفصل بين الصلة الجنسية والأبوة ، سيطبق الرجال على النساء نفس المستوى المتساهل الذى يحكمون به على أنفسهم ، وتزول قوانين الأخلاقية القديمة تمام الزوال . ولكن المرأة فى أثناء فترة الانتقال الطويلة ستقاسى من أنانية الرجل المستهترة وعدم تحمله أعباء المسئولية . فالزواج الحر زواج تنتصر حريته على الروح . إنه فخ تقع فى شباكه المرأة المتحررة مع رجل مسرف فى التحرر . وقد يأتى اليوم الذى تصبح فيه المرأة سيدة نفسها ، فلا تتركها الأمومة تحت رحمة رجل يميل إلى التعدد بطبعه . وقد يأتى يوم ، فى المستقبل البعيد ، نجد فيه طريقة لعناية بالأطفال دون أن نربط بين الرجل والمرأة التى أحبتهم . وعندئذ يصبح الزواج الحر نعمة للجميع ، والحالة المثلى للجنس بل حريته فى نهاية الأمر . وإلى ذلك الوقت يحسن بنا أن نخضع للقانون .

ويخلط العامة بين الزواج الحر وزواج المتعة Companionate marriage ويتصور المهوسون هذا الزواج بأشكال مختلفة . إنه لا يبدو عظيم البشاعة إذا تبين لنا أن أحد المدافعين عنه يعرفه بقوله إنه : « زواج شرعى ، بمنع الحمل بوسائل مشروعة ، مع الحق فى طلب الطلاق بموافقة الزوجين بشرط عدم وجود أطفال ، ولا تدفع له فى العادة نفقة » . وليس فى هذا الضرب من الزواج (فيما عدا شرط النفقة القاسى) شىء لا يجرى بالفعل بين الأسر المفروض أنها محترمة . والطلاق برضا الطرفين وحيث لا أولاد أفضل من الطلاق بفضيحة أو من « الهجر » . وما يخشاه الناس من هذا المشروع هو بلوغ المرأة مرتبة

(١) يريد هذه الوصية « لا تزن » (المترجم).

المساواة الكاملة بالرجل . ثم إن المترفات من نساء الطبقة المتوسطة آخذات بسرعة شديدة فى الانتقام لجميع بنات جنسها من الرجل عهد . فالزواج سائر فى طريق التغير إلى صورة لن تسمح بوجود المرأة المتعطلة من العمل ولا تصلح إلا زينة لكثير من البيوت ومصدراً متاعبا . وأخذ رجال يطلبون من زوجاتهم العمل لكسب المال اللازم لمصاريفهن . ومن مزية زواج المتعة أن المرأة تذهب إلى العمل إلى أن يثقل عليها الحمل . وفى هذا يكمن السر الذى يحرر المرأة تحريراً كاملا ، لأنها ستدفع من الآن فصاعداً جميع نفقاتها . ينبغى أن تسير الثورة الصناعية إلى نتيجتها المنطقية والتى لا ترحم . إذ يجب أن تلتحق الزوجة مع زوجها فى المصنع ، وبدلا من بقائها متعطلة فى مخدعها مرغمة زوجها أن يتكسب ضعف ما يكسب لمواجهة العجز الاقتصادى . ستصبح كفواً له فى العمل والكسب ، وفى الالتزامات والحقوق . وهكذا يكون التحرير .

ويقع على عاتق الرجل كثير من المسئولية . لأنه استمع لغواية الشيطان وحطم جميع التقاليد الموروثة ليقترح علاجاً لداء الزواج الحديث . ولكن فى هذا المشروع شيئاً من الصعوبة والحرفة مما يعده المتمسكون بالقديم طمعاً . ما دامت مساواة المرأة الاقتصادية والحقيقية بالرجل غير كاملة . ذلك أن الرجل — كما قلنا — بينه وبين نفسه فيه شراهة للتعدد . امنح الرجل صورة من الزواج يكون فيها حراً فى هجر زوجته عنده، يفقد فيها فتنة الطرفة ولذة المقاومة ، وستجده يتحرق شوقاً لمباهج أخرى وقلاع لاتزال حصينة . سوف يودعها إن قريباً أو بعيداً . ولا يفيد القول بأن موافقة الطرفين لازمة للطلاق . لأن المرأة ستجيب بالموافقة متى طلب منها . وبعد ؟ ثم تجد نفسها « حرة ومستقلة » مرة ثانية . وترجع إلى الصناعة وما فيها من أشواك ومتاعب وهى أخس من الرجل قيمة

هذه كلها صعوبات صغيرة . وأكبر الظن أن المشروع معروض للتعديل مع التجارب . وأكثر ما فيه من إنشاء هو التشجيع الذى يقدمه لزواج مبكر ، إذ ها هنا قبل كل شىء نجد لب مشكلتنا الأخلاقية . ولو تيسر لنا أن نجد سبيلا نعيد به الزواج إلى السن الطبيعية . لاستطعنا بضربة واحدة تقليل نسبة البغاء إلى

الصمت ، وكسدت الأمراض السرية ، والعزوبة العقيمة ، والعفة الممقوتة ، والانحرافات التي تصم جبين الحياة العصرية .

تأمل مرة أخرى هذه القلة القليلة من الرجال أو النساء الذين يتزوجون أفضل من نحبوه . ذلك أن عاطفة الشباب المشرقة تغزو القلوب بأسرع مما تطيقه حالتنا الاقتصادية . وهذا نوع من المخاطرة الكبرى ، وبدء الحب يسير إلى الزوال . ومع ذلك كلما كان الحب مبكراً كلما كان أبهى وأعمق ، ولن تجد رجلا بعد الثلاثين من العمر يقوى على الحب بقوة الشباب وإنكاره ذاته[1]. والإخلاص الذي يبعثه أول حب في النفس يكون من العمق بحيث يصعب زواله بعد سنة من العشرة والتجربة . فهذه الرقة الجديدة عند الصبي ، وهذه الثقة الواضحة عند الفتاة ، لا بد أن تحملاهما في سعادة على مرّ السنين ، وتصبح ذكرياتهما الأريج الذي يعطر حياتهما .

تصور زواجاً هو ثمرة أول حب . انظر إلى العروسين الجديدين ، كما هما في المثال . كيف يختاران لا مخدعاً في شقة بل بيتاً صغيراً مستقلا حيث لا يزال سلطان الطبيعة قائماً . ثم ينسقان فيه الأثاث بعد مناقشات بديعة حول ما يجب أن يشترى ، وأين يجب أن يوضع . ثم يزرعان الحديقة بالأزهار التي تنمو مع نموهما ، ويملآن البيت بألوان من البهجة والموسيقى والكتب والأصدقاء ، فيصبح أمتع من صخب الشوارع وأنوارها الساطعة . ثم يكللانه في النهاية بصياح الطفل وربيبه . وكثيراً ما وصفنا أنفسنا بالبراعة للتغلب على قيود الزواج ، ومع ذلك ففي أعماق قلوبنا سننظر دائماً إلى الوراء في شوق إلى تلك الأيام العاطفية حين كان الحب في عنفوانه[2] .

وثمة اعتراضات كثيرة على الزواج المبكر . وأول كل شيء ، من العبث تقديم نصائح تحث على الكمال . فنحن لا نستطيع التغلب على تبصر الشباب الاقتصادي

(١) هذه هي العبارة التي جعلها أحد المحررين عنواناً لإذاعات في جميع أنحاء المملكة ، وهي « لا يقوى رجل على الحب بعد الثلاثين » . فالدعاية تؤثر حيث تخطئ .

(٢) للتوسع في تأييد الزواج المبكر من وجهة نظر بيولوجية ، أنظر
Holmes, S.J., Studies in Evolution and Genetics, pp. 177-8.

بالمواعظ الأخلاقية والأملاك الخيالية — ولكن الآباء لا الأبناء هم الذين ينصحون بتأخير الزواج ويعملون اقتصادياً على إرجائه . ولا مفر بعد ذلك من استهتار الشباب . فلنقنع الآباء المخطئين أنهم بالعمل على تأخير الزواج يدفعون أبناءهم إلى ألوان من العادات السيئة عوضاً عنه . وبلى كثير من الانحرافات المدفية لحق. وأن الحكمة ليست في إقامة الحواجز في سبيل الزوج لمن بلغ تمام الرشد ، بل بإعانة الأبناء ، والبنات أيضاً ، بمنح مادية يوازنون بها عجزهم الاقتصادي وتثبت عزائمهم على مواجهة مصاعب العلم . سيكون ذلك دين شرف يدفعه الأبناء للجيل القادم . ولن يخسر أحد ، وسيكسب الجميع . لقد مضى الوقت الذي كان الآباء يبذلون في هذا الأمر بسخاء .

بمثل هذه المعونة قد يستسلم حتى الشاب الحريص لنداء الحب . فإذا تزوج الشاب فسوف يجد شيئاً من الحقيقة في ذلك المثل القديم : « الله ولى التوفيق » . وسوف يصلب بالعرة عوده ، ويقوى ساعده ، وتستمر شجاعته . وترغمه المسئولية على التعمق ، فيستوى بالزواج رجلا . فإذا لم يصلح شيء من ذلك . فلتذهب الربة الصغيرة إلى عملها اليومى كما كانت تفعل من قبل حتى تواجه الحمل . ومن الأفضل أن يكون في يديها عمل من أن تقبع في الدار كقطعة من الزينة سهلة الانكسار . ومن الأفضل إرجاء الحمل من التململ بتأخير الزواج تأخيراً غير طبيعي . يجب أن نسمح بالتغيير بين الزواج وبين النسل ، حتى يقل ابتعاد الجنس عن الزواج . فإذا استمرأ الرجل هذه المعونة ، فالعلاج الوحيد لصلاحه هو الأبوة ، لأن وجود الطفل سيبعث فيه الرجولة . اللهم إلا إذا لم يكن رجلا على الإطلاق .

والصعوبة الثانية التي يثيرونها هي جهل الشباب . وفي ذلك يقول نيتشه . « عندما يقع الرجل في حبائل الحب فلا ينبغي أن نسمح له باتخاذ قرار يختص بحياته ، وأن يقرر إلى الأبد نوع زوجته التي ترافقه نتيجة النزوة . يجب أن نعلن على رءوس الأشهاد أن مواثيق الغرام غير صحيحة ، وأن نرفض السماح للمحبين بالزواج(١) » . حقاً الشباب أعمى فلا يستطيع أن يحسن الحكم ،

(١) Dawn of Day, sect. 151.

ولكن العمر عجوز ولا يستطيع أن يحب . لعله لا يجب أن يسمح لنا فى أى وقت باتخاذ قرارات حاسمة أو أن يطلب منا ذلك . وليس من الواضح أن الرجال أحكم فى الاختيار وهم فى الثلاثين منهم فى العشرين فى مسائل اتخاذ الزوجات . ولما كان جميع الأزواج وجميع الزوجات متشابهين فى الجوهر ، فليس الفرق بينهم كبيراً . وإذا فرضنا أن رجلا لا يستطيع العيش فى وفاق مع زوجته ، فالعلة فى أغلب الحالات ترجع إلى عيب فى سلوكه أو فى فلسفته بحيث تؤدى إلى النتيجة دائما ، إذا غير زوجته وعقد على زوجة جاره . فالطلاق يشبه رحلة لا خير فى الاستمتاع بها إذا لم نغير أنفسنا

وعلى الرغم من هذا كله فجهل الشباب حقيقة واقعة . وقل لى بربك متى يقف جهلنا عند حد فى مثل هذه الأمور ؟ من منا نحن الرجال يفهم النساء ، وكم منا يستطيع سياستهن ؟ ولكى نقلل الخوف من الحكم على المجهول فلنعد إلى تلك العادة القديمة وهى عقد خطوبة رسمية مدة ستة أشهر قبل الزواج . سيكشف الخطيبان كل منهما عن عقلية صاحبه فى أثناء هذه الأشهر الممتعة . ولعلهما يشرعان فى النزاع كما يتشاجر الزوج وزوجته ، وعندئذ تكون ثمة فرصة للانفصال قبل أن يجمعهما رباط الزوج واحداً . وقد تضفى هذه الأشهر الستة على أنظمة زواجنا قوة أخلاقية وجمالا هى فى أشد الحاجة مع الأسف إليه . وقد تقدم لنا فاصلا موسيقياً وسط عجلة الحياة الاقتصادية .

وآخر صعوبة وأعظمها هى البحث أن نشجع الشباب قبل أن تهدى التجارب حكمته على الدخول فى بيت قد يصبح فى أى لحظة سجناً يختنق فيه مدى الحياة فإذا أردنا أن ندبر للزواج المبكر ترتيباً معقولا ، فيجب أن نلتمس للزواج مخرجاً كما نفتح له الأبواب . ويجب أن يتمكن الزوجان من الطلاق برضا الطرفين . وقد يبدو من السخرية بعد الاحتجاج بأن الطلاق شىء يؤسف له ، وبأن الزواج يعقد للعناية بالأطفال أكثر من متعة الزوجين ، أن نحث على التوسع فى الطلاق على حساب الأسرة والأطفال . ولكن من يدرى هل يكون قبول الطرفين سبباً كافياً لكثرة الطلاق ؟ أو هل يكون الارتباط القسرى لزوجين لا يثق أحدهما فى صاحبه ويكثر التنازع بينهما أفضل للأطفال من توزيعهم أو تبادلهم

تحت سقف بيتين منفصلين يسودهما السلام ؟ وإذا رفضنا طلاق زوجة من زوج لمجرد اتفاقهما على طلبه ، فإننا ندفعهما إلى صورة من الانفجار تلائم طلباتنا غير المعقولة . ولا ريب في أن المهل بعض الوقت أسلم . فقد تؤدي هذه المهلة إلى الحكمة وتنضج بتجربة الافتراق وقتاً معقولاً قبل الموافقة على قرار نهائي . فقد يكتشف المحرومان باستمرار في هذه الفترة أن العزلة أسوأ من التنازع ، وقد يكشف البعد عن فضائل خفيت مع القرب .

وقد حدث أخيراً في إحدى مدن نيويورك أن تقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ وزوجته على طلب الطلاق ، ورفض طلبهما على أساس أن بينهما مقداراً كافياً من الأوامر الإلهية والشرائع الإنسانية . واعتبرت المحكمة أن رغبتهما في التحرر غير مشروعة . « وكلا بالحديد » معنى الحديث مثل هذه الشروط تدفع إلى النفاق . فليس من الحق أن يعمل في ضوء هذه الظروف إلا أن يتحايل على القانون العشوائي . لقد سمحت اليابان منذ سنوات عدة بالطلاق بشروط رضا الزوجين مع أن نسبة الطلاق عندهم أقل من بلادنا . وأخذت روسيا بهذا النظام منذ عام ١٩٠٧ . وكان هذا النظام موجوداً في روما . ويدخله الطليان في جملة القوانين البونابرتية . ولكن يعتبرون اللغو لأنهم لا يفعلون شيئاً . ومن المحتمل جداً ألا تزيد نسبة الطلاق إلا قليلاً إن لم ترد على الإطلاق بسبب إصلاح من هذا الضرب الذي يريد أن يشرف سلوكنا ووقار محاكمنا .

ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرون عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر على وحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب في أن زواج المتعة سيصبح شائعاً أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما هي إلى جانب الرجل أميل . فسوف تعتبر المرأة مثل هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يعرفها أحد . سينهار « المستوى المزدوج »

وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً فى كل طبقة . يضحى الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة ، وتحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت . وهذا كل شىء .

٤ — فى إنجاب الأطفال

ومع ذلك فالكلمة الأخيرة يجب أن تكون للزواج المقتصر على امرأة واحدة ، فلرابطه المستمرة مدى الحياة تظل أعظم تصور عن الزواج الإنسانى ، ولا تزال هى الهدف الذى يرمى إليه المحب الصحيح الكامل حين يبرم عقده . وثمة ضرب من الجبن فى الطلاق أشبه بالهرب من ميدان القتال ، ومن عدم الاستقرار والسطحية فى الشخص الذى يتنقل من زوجة إلى أخرى . أما الرجال والنساء ذوو الخلق فسيتغلبون على هذه الصعوبات كلما نشأت ، لأنهم يعرفون أن ثمة صعوبات شبيهة بها ستواجههم فى ميادين أخرى من القتال . وهم يحصدون ما زرعوا بعد انقضاء السنوات الشاقة من التوافق المتبادل ، وبعد أن تحل العاطفة الثابتة التى رسخت مع العناية بالأولاد والمشاركة فى صروف الدهر محل الشوق العابر إلى الرغبة الحسية ، فتجمع بين عقلين وجسمين فى واحد . ولن يعرفا الحب فى كماله إلا حين تمر بهم هذه التجربة النفسية .

ولن يتيسر وجود ذلك الكمال بغير إنجاب الأطفال ، إذ من أجلهم اخترع الزواج ، الذى لم يكن يهدف إلى الجمع بين زوج وزوجة بمقدار ما كان يرمى إلى استمرار النوع بربط الآباء بالأبناء فى حبل من الولاء والعناية . ومهما نكن متحررين ، ومهما نكن قد خلصنا أنفسنا من ميول الماضى ، فإن المرأة العقيم بإرادتها لا تزال تثير فى أنفسنا الإحساس بالشذوذ والنفور . إن الجمال الموضوعى كالسعادة الشخصية فى سهولة تحقيق الأغراض والوظائف الطبيعية ، ولذلك نسخر من النساء اللاتى يبقين إلى آخر الحياة بغير أطفال ، ولا نقتنع أنهن يعرفن صميم الحياة . ولو أن المرأة وجدت وظيفة أخرى خلاف الأمومة

تستغرق فيها طاقتها وتملأ حياتها ، فلا بأس بذلك ، وستعينها الطبيعة . أما إذا هامت على وجهها بلا غرض ولا رضا ، تتحرك من مكان إلى مكان ، وتتنقل من رجل إلى آخر ومن تسلية إلى أخرى ، دون أن تجد اهتماماً فى أى مكان ، فذلك لأنها ولت ظهرها العرض الطبيعي من الحب . فالمرأة كما قال نيتشه : لغز لا يحله إلا الطفل .

ستصحدث الفتاة العصرية من هذا الاقتراح العتيق ، وتعلن للعالم أن الزمن الذى قد تستغل فيه كآلة للحمل قد ولى . وفى الوقت الذى نتجادل فيه حول آرائنا المتطرفة تمر الحياة بجدلنا مر الكرام . ولن نجد أحداً يملك حاسة التاريخ أو الإدراك بأن التطورات الاقتصادية لا تعود إلى الوراء يخطر بباله أن يسأل امرأة عن الأسرة الواسعة التى كانت من نصيبها فى الريف . وكل شخص يدرك (ماعدا أعضاء المجلس من الفلاحين الذين لا يزالون يحكمون مشرعى الدولة) أن تكاثر الآلات وتناقص نسبة الوفيات قد وضع حداً للحاجة إلى إنجاب الأولاد على نطاق واسع . وإذا كان صالح الجماعة يبدو فى حاجة إلى عدد كبير من السكان ، فذلك لأننا نغرق أنفسنا بالتفكير فى الكم ، أو نطمع فى التوسع الاستعمارى والعسكرى ، أو نتخيل مملكة مزدحمة كالصين تفيض سكانها على العرب . ولكن الكم لم يكن قط سبيلا إلى النعمة ، بل العقل والآلة هما الطريق إلى النصر . وعندما يحين الوقت الذى تتكافأ فيه الصين وبابان فى الآلات ، فسوف ينقلون عنا تلك الأساليب الخاصة بالرقابة على زيادة عدد السكان ، وهى أساليب حديثة تعد بديلة من قتل الأطفال والإجهاض . فليس ثمة حاجة اجتماعية ، أو دعوى أخلاقية لوجود أسرة كبيرة . وإذا اقترح أحدنا أن تظل المرأة إلى حد معقول محتفظة بوظيفة الأمومة ، فالأرجح أن ذلك لتحقيق ذاتها وسعادتها أكثر من تحقيق مصلحة الجماعة .

ومن الملاحظ أن الزواج يذبل مع ابتعاد الأطفال ، ويزدهر مع إقبالهم . كان الزواج فى الماضى عقداً تجارياً لتحقيق اللذة الشهوانية للجنسين . أما الآن فقد استعاد الزواج معناه الطبيعي ، إذ يرفع النفسين الصغيرتين إلى نفس واحدة تجمع بينهما ، وينبت هذا الارتباط ويزهر كالزرع الذى تسقيه بالماء . وتجد المرأة وسط هذا الصخب والمتاعب والمصاعب والآلام شيئاً غريباً أشبه بالنشوة

الحادثة . فلم تكن قط فى تعطلها وبذخها سعيدة السعادة التى تجدها فى هذه المهام والالتزامات التى تتمها وتكملها ، حتى حين يظهر أنها تضحى بها فى سبيل النوع . وينظر إليها الرجل فيقع فى حبها من جديد ، فهى امرأة أخرى تختلف عما كانت من قبل ، لها موارد وقوى جديدة ، ولها صبر وحنان لم يشعر بهما قط فى عنفوان الحب . ومع أن وجهها قد يكون مصفراً الآن ، وقوامها مشوهاً إلى حين فى عين الرجل الفاسد الشاذ ، فإنها تبدو فى عين زوجها وكأنها قد انتزعت من براثن الموت ومعها عطية سخينة ولكنها ثمينة . إنها عطية لن يستطيع مكافأتها عليها . ويصبح الآن العمل الذى كان مشقة مريرة طبيعياً وبهيجاً كالنحل الذى يجمع الشهد . ويصبح الدار — التى لم تكن إلا جدراناً وأسرة للنوم — بيتاً يمتلىء بضحكات الحياة المتجددة شباب ويحس الرجل لأول مرة فى حياته أنه أصبح كاملا .

ذلك أن الرجل عن طريق الأبوة (إلا إذا كان عبقرياً تتركز شهوته وكماله فى الأبوة العقلية) لا يؤدى فقط وظيفته كفرد فى جماعة أو كفرد فى نوع ، بل يحقق « نفسه » — فهو يقبل المسئوليات التى تنضجه وتوسع أفقه ، ويستمتع بإشباع غريزة الحب الأبوى العميقة التى جاءت على غير انتظار ، ويدخر رفقة الأصدقاء سلوان العمر . ويبعد عن نفسه إلى حد ما شبح الموت ، الذى لا يحصد بغير حساب إلا الأجساد البالية والأعضاء المتحجرة ، إذ يجب أن يزيلها من طريق ليفسح المجال لشباب . ولكن فى الشباب الذى يحميه تجرى دماؤنا نحن ، وحياتنا ، وأرواحنا . إننا لا نسلم إلى القبر إلا شطراً من أنفسنا ، أما الشطر الآخر الذى تولد من جوهرنا ، وتغذى بأيدينا ، وتربى بعنايتنا ، فإنه قد يعيش متجسداً إيانا فى تيار الحياة . سيجلب لنا الأطفال متاعب يومية ، وآلاماً مريرة ، وربما خيبة الأمل فى النهاية . ولكنهم يوفرون لنا بلا نزاع متعة لا حد لها تفوق حتى نشوة الغرام . دع الرجل يكمل نفسه ، لا على أنه جزء ، ولا على أنه فرد يتنافس بلا اكتراث ويعيش منعزلا محدوداً . فهل يمكن أن يحقق ذاته ويصبح كلا ؟ فليكمل نفسه على أنه شركة فى نفس أكبر ، وعلى أنه محب يعطى أكثر مما يأخذ ، وعلى أنه أب يفرح بخدمة النوع . ويرضى بأن يبتلعه تيار الحياة وخلودها . ذلك أنه سوف يجد جوهر جميع الأخلاق فى هذا التعاون بين الجزء والكل ، ويجد سر جميع الكائنات الحية ، ونصيباً من السعادة يضىء حياته سنوات كثيرة .

الفصل الحادي عشر

فى الأطفال : اعتراف

١ — نظرة شخصية

والآن بعد أن غنينا أنشودة الأبوة ، فلنبحث فى صراحة وإخلاص تلك المهمة القديمة والشاقة ، نعنى تربية الأطفال ، أى تحويل صغار الحيوانات والوحوش إلى سيدات ورجال مهذبين . وأستأذن القارىء فى اتخاذ طابع شخصى فى هذا الفصل ، وأن أستعمل ضمير المتكلم المحبوب بغرابة ، لأن الأساليب والنتائج التى أقترحها ثمرة تجربة محدودة جداً . وأود أن أقدمها كما هى عليه . . . إنها مغامرة أبوين مع طفل واحد . وإنى أسلم منذ البداية أنى مهتم اهتماماً عميقاً بهؤلاء الأشخاص الثلاثة أكثر مما يسمح به أى حياد شامل . فالطبيعة تنفحنا بحب الذات حتى ترضينا بالعيش . فمن ذا الذى يحتمل أن يرى نفسه فى ضوء الأزل ؟

إنى شغوف شغفاً مخيفاً بفتاة صغيرة ، ومن العسير أن أتصور أى طفلة أخرى تفوقها صحة أو ذكاء ، أو تورد خدين ، أو غزارة شعر . وعندما أصحبها إلى المدرسة ، وأودعها عند آخر منعطف الطريق ، وأرى انطلاقتها الملائكية وهى تجرى راقصة نحو فصلها المدرسى ، أعد متاعب هذه الحياة الدنيا وآلامها من التفاهة بمكان . فهذه الطفلة اللعوب تكشف عن كل سر ، وتبدد كل حزن . وعندما أعود إلى مكتبى أجد نشوة أبوية عجيبة تسرى فى نفسى . ويبدو كل شىء فى نظرى مغتفراً — الألم والحزن والموت — لأن هذه الأشياء موجودة فى طبيعة أخرجت قسوتها العادلة والرقيقة من بين الآلام غير المعقولة طفلاً محبوباً .

فمن الواضح إذن مبلغ تحيزى . وإنى أبعد الناس من القدرة على مناقشة

مشكلات الأبوة فى هدوء موضوعى أو ثقة كلية . لذلك لن يكون هذا الكلام بحثاً بل اعترافاً ، ولا كتاباً فى التربية بل تسليماً بمسلك يستوجب اللوم . وثقتى بهذه الأمور مزعزعة كثقتى بمشكلات الميتافيزيقا المعقدة . وعلى الرغم من هذا كله ، فإنى فى أعماق قلبى أعتقد أن آرائى فلسفية وعميقة ، و « عقلى مفتوح » للأجيال المشرقة . وإنى لأحلم وأنا أنظر إلى رأس صحيفتى أن بعض الناس قد يرى فى هذه الاعترافات شيئاً من الضوء الذى ينير بيوتهم وحبهم الأبوى .

٢ — فى الأمور الجسمية

أعترف أننا قد نظرنا منذ البداية إلى أثيل Ethel ، كما جاء فى تعاليم الدين على أنها مخلوق مركب من جسم وروح . فقد خلق البدن أولا ثم خلقت الروح عندما ابتسمت « أثيل » . ومنذ ذلك الوقت تحققنا أن هذا الجسد الوردى ، وهذه الأذرع والسيقان الممتلئة ، وهاتين العينين الزرقاوين ، والشفتين الحمراوين والشعر الأصفر ، كل أولئك مهما تكن بديعة فى ذاتها ليست إلا آلة وأداة لحياة غير مادية سرعان ما تحب وتكره ، وترغب وتحلم ، وتعجب وتنمو ، إلى أن تصبح ذاتاً أخرى ، ومركزاً يبدو أن العالم كله يدور حوله . سوف تعتمد هذه الحياة بطريقة ما على هذا البدن . وقد تكون شعلتها أبهى فيما نظن إذا كان الجسم الذى يحملها أصح وأقوى . وكنا قد عقدنا العزم على أن نضع بدن « أثيل » ودمها تحت رعايتنا الشديدة إلى أن تبلغ العاشرة ، معتمدين على الطبيعة أن تخرج لنا من الجسم الكامل أول زهور الرقة والذكاء . وكنا نشتبه فى وجود علة جسمانية تختفى وراء انحراف سلوكها أو بطء مواهبها ، وبدلا من إجراء تحليل نفسانى على أثيل أو تهذيبها بالمواعظ الخلقية ، كنا نقدم لها الهواء الطلق والغذاء الصحى .

وارتكبنا فى الأشهر الثلاثة الأولى غلطة فظيعة لأننا سمحنا لطفلتنا أن تكون معملا نجرب فيها نوعاً جديداً من اللبن المجفف . إنها جريمة لم تستطع عدة سنين من القلق أن تمحوها من أذهاننا . وإنا لنعتقد اليوم مع بن فرانكلن أن الجنس البشرى ينبغى أن يحذر من الطبيب الشاب والحلاق العجوز . وحالفنا الحظ فعالج غلطتنا ، إذ على الرغم من سوء الغذاء تفتحت أثيل وترعرعت بشكل

عجيب . فلما اكتشفنا خطأ أسلوبنا لم نستطع أن نعزو هذا الخط الحسن إلا للهواء الذى تمتعت به أثيل فى ربع السنة الأولى ، هواء قرية ساكنة فى التلال حيث يكفى أن تتنفس ليصح بدنك . ومنذ ذلك الحين أصبحت القاعدة رقم ١ عندنا أن الهواء يأتى أولا ، حتى قبل تلك المعجزة المدهشة ، وهى اللبن القادر على كل شيء . ففى كل ليلة ، مهما يكن الموسم ، تجلب النوافذ المفتوحة الهواء الذى يجيل خدى أثيل بنفنوتا Ethel Benvenuta (سميناها مرحب Welcome) ورد وطيب .

وكم رشتنا بأنماط عذاب ودراعين تتشبثان مهما حول لعنق لنسمح لها بالبقاء بعد الساعة المقررة للنوم . ولكننا فى هذه المسألة كنا مصممين فى هدوء ، فلم نكن نرضى حتى بمناقشة مثل هذا الاقتراح السخيف . فنعد الفكرة كأنها حرم ، ونرسل أثيل إلى مورفيوس[1] Morpheus كل ليلة فى الساعة المقررة المبكرة . والآن مع أنها فتاة كبيرة فى العاشرة من العمر ، فإنها لا تزال تختفى بانتظام فى الثامنة والربع ، راجية لنا من أعلى السلم « نوماً عميقاً وأحلاماً سعيدة » ، ولا تكاد الساعة تبلغ الثامنة والنصف حتى تستغرق فى النوم . كان القانون يخرق بين حين وآخر عندما يزورنا مثلا أحد لاعبى البيانو المشهورين . ولكن فى معظم الأحيان كانت تلك القاعدة مقدسة عندنا ، ووقفة عابرة يسيرة فى فلسفتنا .

بعد الهواء يأتى الطعام . ورأينا أن أثيل كانت تزدهر بتناول غذاء نباتى ومعه كمية كبيرة من اللبن وخبز القمح . وأخذت تنمو فطالت قامتها وأصبحت قوية رياضية نشيطة ، وخيل إلينا أنها كانت تحصل على كل عنصر تحتاج إليه لكمال النمو . ولكن النباتيين سيسخطون علينا حين يسمعون أننا أضفنا بعد قليل إلى قائمة طعامها (الكتاكيت) مرة ومرتين فى الأسبوع . كنا نسميها «الكتكوت النباتى» . وظل البيت الصغير يعيش على هذا الغذاء العجيب القائم على غير أساس مزدهراً جسمانياً عشر سنوات . وليس التقرير الصحى عن أثيل نقياً فقد

(١) إبن إله النوم ، ورب الأحلام ، فى أساطير اليونان . وسمى كذلك من الكلمة اليونانية مورفى Morphé : أى هيئة ، لأن الأحلام تجعل الحياة صوراً محسوسة (المترجم) .

أصيبت بالحصبة الألمانية فى طفولتها وشفيت منه بعد أسبوع . وفى الرابعة من العمر انتقلت إليها عدوى السعال الديكي من طفلة أخرى وتغلبنا عليه بالمصل الحديث . وفى الثامنة أصيبت باحتقان اللوزتين وأجريت عملية لاستئصالهما . فهذه هي النقط السوداء فى بطاقتها ، وفيما عدا ذلك فهى غريبة عن الأطباء والأدواء ، حتى لقد رغبت أن تعرف : « ما شعور المرء بألم المعدة ؟ » .

ويأتى اللعب بعد ذلك فيأخذ هذه العضلات والحواس والأطراف النامية ويعلمها التوافق والضبط والوحدة . والأب الكامل هو الذى يعتمد على فن التربية ، فيعرف بالضبط أى اللعب يشترى لتشجيع نمو كل عضو وكل قوة . ولا شك أن أول مبدأ نعتمد عليه فى هذا الأمر أن تكون الألعاب بحيث تحتاج إلى إدراك مضبوط ، سهلة التناول ، وتحتاج فضلا عن ذلك إلى حركة فى الهواء الطلق . فالقبقاب ذو العجل ، والدراجات scooters ، والنبال ، والحلقات quoits ، وحصان القفز (النط) ، والبيسبول ، والتنس ، والبسكليت (إذا كنت تعيش فى الريف بعيداً عن أماكن الضغط) هى أول معين للطبيعة التى تنصح فى حكمة باللعب كيما تتدرب جميع القوى لتبلغ الكمال . وأفضل جميع الألعاب العوم والتزحلق skating ، فقد خلق الصيف والشتاء لأجلهما ، إذ تعمل كل عضلة فى تناسق ، ويسرع التنفس ويعمق ، ويدور الدم بسرعة ، وينبض القلب فرحاً . وإنى لأعترف فى خجل أنى لا أعرف التزحلق . ولكننى مصمم فى هذا الشتاء حين تتعلم أثيل ، أن أجرب أن أنهض وأقع . إنى لأتخيل الفتيان والفتيات يتزلقون وقد أخذ أحدهم بذراع الآخر أو أمسك بخصره ، والعيون ضاحكة والخدود ملتهبة ، وهم يغنون فى انسجام مع الحركة تحت سماء الشتاء . سوف نذهب للتزحلق معاً ؟ حتى الكلب العجوز يستطيع أن يدفع المركبة الجليدية ويتزحلق بها على الثلج . فما أمتع الوقت الذى نقضيه ثلاثتنا حين نتطاير فوق الثلج .

٣ - فى الأمور الأخلاقية

الجسم يأتى أولا ، وبهاء جماله وهو ينمو مصدر بهجة مستمرة . حتى إذا أقيم هذا الأساس المتين ، وانتظمت عملية الهضم انتظاماً صحياً وأصبحت عادة

آلية ، عندئذ تبرز أمام مشكلات الخلق والتربية كثيرة متشابكة . فالطفل جشع في تناول الطعام على المائدة ، ومخرب للألعاب ، مشاكس في لعبه ، معتز بهيئته ، كثير الثرثرة ، غشاش ، متقلب المزاج ، كتوم ، يكره الماء والصابون . فكيف نعالجه ؟

أول كل شيء تجنب كلمة « لا » . إذا أساء الطفل السلوك فالتمس له العذر ، لأنك إما أسأت تغذيته أو معاملته . والنواهي ضرورية ، ولكن كل أب يجب أن يتقيد بعدد محدود جداً منها ، كالطبيب حين يصف الخمر دواء ، ولعله يفعل كالطبيب الذي يستنفد الكشف على العدد المقرر عليه سنوياً في شهر يناير ويرتاح بقية العام . لا ريب أننا يجب أن نقول « نعم » كلما كان ذلك ممكناً . وبعض الآباء الذين يفشلون في المال أو الحب ينتقمون لأنفسهم من الحدود بأن يصدروا النواهي ويوجهوا الاعتراضات في طريق الطفل . إن سلطان الأب آخر ملاذ يلجأ إليه الوغد . فالضعاف من الناس يحبون السيطرة ، وحتى المرأة في النكد عزاء لها عن الخمول . فلندع الطفل سعيداً ولا نخدع أنفسنا بتضحيته كثير من الحاضر في سبيل المستقبل . أما نحن فقد عزمنا أن نحتفظ بأثيل بهيجة إلى أن تتزوج ، والله يعلم ماذا يحدث لها بعد ذلك .

إن إصدار الأمر للطفل يبعث فيه المقاتلة والمقاومة . وهذه القاعدة تكاد تكون يقينية كقوانين نيوتن في الحركة ، وأدنى منها في الحق بأينشتين . فنحن حين نصدر أمراً نثير علينا غضبات الكرامة النائمة ، ونحرك جيوش الدفاع . اطلب تجب طلبتك ، ومن يرفض أمرك . كن عادلا مع الطفل ، واكسب محبته وثقته ، تجد أن طلبتك وإلحاحك أوقع من الأوامر . ومن العجب أن نقرر كم حصلنا نحن أب أثيل وأمها منها على كثير من الأشياء بالإيحاء . نذهب إلى المدرسة برفقة أثيل ، ونعبر لها عن حسدنا إياها لأيامها سعيدة بالمدرسة . إنا لنعجب كم يعجبها أن ترى غيرها يقدر سنوات صعوبة على الاستمتاع بها . ونلح عليها ساعة الغداء بالسؤال عن حظها في الفصل ، فتفرح لاهتمامنا بها ، وننقل إليها عدوى اهتمامنا بالتاريخ والجغرافيا والإملاء بل والحساب . الإيحاء يرسخ في نفسها الاعتقاد بأن هذه الأشياء لا يجب أن تكون خامدة ، وأنها قد تكون مثيرة كالمعارك ، أو الرحلات ، أو رسائل الغرام ، أو تقارير الدخل .

وكذلك الحال في البيانو. إنها مشكلة كل بيت — « اذهبي لتأدية تمرينك ».
هذه جملة سخيفة لأنها توحي في العقل بما يأتي : « البيانو حمل ثقيل ، والتدريب عليه عذاب . اذهبي وتألمي . إنك تستحقين ذلك » . ولكنا جربنا طريقة أخرى مع أثيل . هيأنا لها فقط فرصة تعلم البيانو إذا شاءت ، وتركنا ذلك لاختيارها . غير أننا ظللنا عدة أسابيع ، قبل أن نطلب منها ، نتحدث عن عظمة الموسيقى ، والمزية الكبيرة للعزف أو التأليف . ثم بحثنا عن معلم لا يبدأ بتعليمها السلالم الثقيلة والتمارين المزعجة ، بل بألحان بسيطة يسهل على الأذن التقاطها مما يجعل سائر أهل البيت يرددونها . ولم نكد نجد المدرس حتى انطلقت الأنغام في أرجاء البيت تلعبها أصابع رقيقة دائبة ، حتى لقد كنا نحن الكبار نذهب إلى عملنا نغنى الألحان التي ترددها أثيل . كان يسرها أن تلحظ بهجتنا ، وشعرت بنفسها قد أصبحت فنانة . كان البيانو منذ البداية يعني في نظرها الموسيقى لا الضوضاء والألم.

وحدثت بعد قليل وقفة في تقدمها ، ولم تعد ترغب في أداء تمريناتها . وكي نكبح جماح أنفسنا عن شهوة الأمر وعادة القسر كنت أختلف بدلا من ذلك إلى البيانو وأتمرن على الدرس بنفسي في حدود مقدرتي . ثم دعوت أثيل إلى مصاحبتي وأن نعزف بأربع أيد ، فجاءت وتمرنت معها مدة أسبوع . وإذا لم تحمل ما يجيء كنت أعزف مقطوعاتها وحدى . وأمدنا المدرس ببعض الأغنيات الروحية البسيطة تعلمناها معاً . (في هذه اللحظة نادتني بنتي قائلة : « أبي تعال نتمرن معاً ») وسرعان ما استعادت لذتها في العزف على البيانو . ولم يمض إلا قليل حتى كانت تعزف منتخبات بسيطة من بتهوفن ، وموزارت ، وشومان ، وشوبرت ، وهاندل ، وهايدن ، وباخ . كنا نغنى هذه الألحان المشهورة في سرور ، وأشعرناها بمقدار شكرنا لها لأنها ملأت قلوبنا بالغناء وأخذت تشعر أن الموسيقى نعمة كبرى جديرة بجميع المتاعب التي تستدعيها . أصبحت تقول وهي تنصرف عن البيانو : « الآن فهمت علة شغفكما إلى ذلك الحد ببتهوفن » .

وأنتقل خطوة أخرى في التوضيح من البيانو إلى بحيرة السباحة ، ولو أن هذا الانتقال لا يعد شرفاً كبيراً . أراقبت الأمهات والآباء يعلمون الطفل كيف يحب الماء ؟ إنهم يلاطفونه بعض الوقت ، ثم ينهرونه ، ثم يحملونه قسراً ويغمسون

كل جسمه فى الماء . وتنجح هذه الطريقة بعض الوقت . ثم تخيفه فتبعث فى نفسه فزعاً من الماء قد يمنعه من تعلم السباحة على الإطلاق . وهنا نجد أن درهماً من المثال خير من قنطار من القسر . ولم تكن أثيل شغوفاً بالنزول فى الماء كأى طفل آخر . فخوفها شيء طبيعى وسليم متأصل فى أجيال من مخاطر التاريخ . كنا نحملها معنا إلى حمام السباحة ونتركها تلعب فى الرمل ، على حين نقفز نحن فى الماء ونعوم ، ونوحى إليها بأن الماء شيء بديع . وثارت الغيرة فى نفسها ، وأخذت من تلقاء نفسها تخوض فى الماء . واشترينا لها حزام نجدة ، ربطناه بجسمها ، وبينا لها أنها تستطيع بمساعدته السبحة فى الماء العميق ولايكاد شعرها يبتل . وأخذت تراقب الأولاد والبنات وتقلد حركاتهم ، حتى أصبحت قادرة بعد زمن يسير على السباحة فى أى اتجاه . وتعلمت فى آخر موسمها الأول بدون قسر من أى نوع ، بل وبدون زجر ، حركة العوم على الصدر بضع ياردات . ثم انتزعنا عنها الحزام ، فتعجبت حين رأت أنها تعرف السباحة . وفى الموسم التالى تعلمت دون قسر وبإرشاد صديق ماهر عومة « الكرول crawl » والغطس تحت الماء . والآن نعلم أبدها ، وتجعله يخجل من قوة ضرباتها وتنوعها .

الحق أن المثل إذا كان حسناً فهو من القوة بحيث لا تحتاج فى تعليمك إلى شيء آخر . وأفضل بيت ، وأفضل مدرسة ، وكذلك كل شيء آخر ، ماقل الحكم فيها . إن الطفل المهذب بغير عقاب وأمر جدير بالملاحظة . وعندما نحقق أساليب الحرية فى التربية فالأغلب أن ذلك يرجع إلى أننا نحن الآباء نخرق القواعد التى نريد من أبنائنا طاعتها . إننا ننصح بالاعتدال ، ونسرف فى الطعام والشراب . ونعلم الطفل أن يكون لطيفاً ، ونتشاجر على رءوس الأشهاد. ونذم مساوىء الحلوى وأفلام الإجرام السينمائية . ولكننا ننغمس فى الإقبال عليها إلى حد يخرجنا عن الصواب . إننا نطلب الأدب الرفيع ، ونأمر باللياقة فى فظاظة . ننصح بالعفة ، ونتصنع هيئة الآلهة المعصومين . ولكن الأطفال يتعلمون مما يروننا نفعله لا مما نأمرهم به . فإذا كانوا مشاغبين ، فأكبر الظن أنهم يحاكون ماكنا نفعله . أرنى أطفالك أخبرك من أنت .

إذا شئت أن يكون ابنك مؤدباً ، فكن مؤدباً . وإذا شئت أن يكون

مرتباً . فكن أنت كذلك . ولست بعد ذلك فى حاجة إلى شىء آخر . إنك حين تلجأ إلى اللغة العنيفة والألفاظ المثيرة توجهها إلى الطفل ، حتى تحت ضغط الإثارة الشديدة ، إنما ترسخ فى نفسه بالمحاكاة ذكرى العبارات النابية . فآداب السلوك لا يمكن أن تعلم إلا مع الصبر بالمثل المستمر . وهذا شىء صعب يكاد يتطلب منا أن نعيد تربية أنفسنا . وبهذا الطريق نربى أطفالنا . وكم نزل رجال الأخلاق فى العصر الحاضر من هذه المبادىء الرفيعة إلى حضيض النصائح المبتذل ، وفقدوا صوابهم وذكاءهم ولجأوا إلى الأوامر والعنف . إننى أسوق هذه النصائح الداعية إلى الكمال لتشجعنى حتى أطبق ذات يوم ما أبشر به .

وقد حاولنا توجيه كل غريزة فى أثيل نحو غاية مفيدة . فهى محبة للتملك كأى حيوان صغير ، ولم تكن على استعداد للسماح بالمشاركة فى ألعابها كالحال فى معظم الأطفال ولكنها تأثرت بطريقتنا فى اقتسام الأشياء معها ، ومساعدتها كلما نستطيع . وأدى الشعور بالأمن الذى نشأ عن هذه المعونة الصديقة إلى أن تكون أكثر حكمة وتسامحاً وصلت بعض الوقت تهفو إلى القروش والملاليم ، فعالجنا هذا الأمر بتخصيص « مرتب » شهرى لها بشرط أن ترتب حجرتها ، وتنظم فراشها ، وتستيقظ فى الوقت المناسب ، وتذهب إلى المدرسة فى الميعاد ، وتؤدى دروسها على ما يرام . وظن أصدقائى أنى أعمل على « إفساد » أثيل بهذا المرتب الشهرى . وعبثاً ما كنت أشك فى حكمة هذه الطريقة . ومن الصعب الحكم بعد هذه الفترة القصيرة على رأى أصدقائى بالخطأ أو الصواب ، ولكنى أظن أن الدلائل ليست فى جانبهم . فقد جعل المال أثيل زاهدة – شيئاً ما – فى التملك . فهى تشترى به ألعابها الخاصة ، ولا تنفك بين حين وآخر تقبل علينا تحمل هدية لنا وفى ذهنها مشروعات هائلة لعيد ميلادى ، وتقول : « فيم تطلبى أقتصد المال إذا لم يكن لشراء طرفة بديعة لك ؟ » . وفى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذا الكلام ألحت علينا فى شراء عقد من عقود الأطفال . وبعد أن أجبناها إلى طلبها أخبرتنى قائلة : « بالطبع سأدفع ثمنه من مالى » . ولكنى أخشى هذه المرة إفلاسها .

والحال فى حب التملك كالحال فى الكبرياء ، فقد يكون مصراً

وضعيفاً ، كما يكون مصدراً للخلق والنمو . ولست أريد من الطفل أن يكون وضيعاً وخانعاً . وعندما أرى عناد أثيل أعزى نفسي بأنها ستكيل الصاع صاعين لكل من يحاول استغفالها حين تكبر . فالخلق يحتاج في تكوينه إلى شيء من المقاومة ، والرغبة في المقاومة أحياناً . أما الكبرياء فهي رأس الشرف ، وعمود الشجاعة ، ويمكن أن يستغل إلى غير حد في الأغراض الحميدة . إننا نوحي إلى أثيل أنها من العزة بحيث لا تسمح لأحد يراها غير مرتبة أو قذرة ، وأنها أكبر من أن تأخذ أكبر من نصيبها في أي شيء ، وأنها أكرم من التهالك على الهدايا والمن والأفضال ، وأنها أعز من أن تسمح لأحد يتفوق عليها في عملها ، (أرجو ألا تطلع على اعترافنا بهذه الأسرار) . فالكرامة أفضل بديل من العقاب . فهي دافع إيجابي لا مانع سلبي . وهي التي تولد الصلابة والشجاعة ، وتتغلب على الحياء والجبن . ولقد تساءل نيتشه : «ما الفضيلة ؟ » وأجاب : « أن يكون المرء شجاعاً» . ولكن كيف يمكن أن يكون المرء شجاعاً بغير كرامة . ؟ !

ولعلنا كذلك يمكن أن نستبدل الذم بالمدح في تكوين خلق الطفل . فاللوم يقيد النفس ، ويجعل العمل الناقص مكروهاً إلى الأبد . أما المدح فإنه يبسط كل خلية ، وينشط كل عضو ، ويجعل حتى أصعب المهام مغامرة تفضي إلى النصر . إن حب الذات هو الرافعة التي نستطيع بها تحريك العالم . وبدلا من مهاجمة العمل الذي لم يحسن صاحبه أداءه مصوبين إليه سهام اللوم ، فسلمح الأعمال التي أحسن أصحابها أداءها ونؤثرها بألوان المديح التي ترسخ حلوة في صفحة الذاكرة ، وتدفع إلى التقدم في العمل . فإذا جاء تقرير أثيل مبيناً عن تأخرها في الحساب (وهو خصمها اللدود) أبدينا الأسف ، دون أن نلومها. ولعلها لن تعرف أبداً أن درجاتها في الحساب أعلى مما كنا نحصل عليه في مثل سنها . أما حين تدخل البيت وتخبرنا عن الدرجات النهائية التي حصلت عليها فإننا نرقص طرباً ونغني بها ، ونبذل جهدنا في إظهار الفرح من جديد عند كل سبق . وحين تعمل شيئاً نبتهج له بوجه خاص ، نمنحها دولاراً تضيفه إلى رصيدها على الرغم من نصيحة أصدقائنا . وأي بأس في أن تكون طريقة المدح والعطف أقل صلاحية من أسلوب القدح والعقاب ؟ إننا نؤثر أن نخسر بالطريقة الأولى

على أن نكسب بالثانية . سنقف فى صف أى مشروع يؤدى إلى سعادة أثيل . فإذا كان لنا الخيار ، فنحن نفضل أن ندللها بالعطف من أن نصهرها بالعذاب . فالعطف ، لا التجهم وجمود القلب ، هو المعين لنا جميعاً فى الأزمات .

ولست أدرى أيكون ما رسمه القدر لنا من إنجاب طفلة واحدة مشكلة أم نعمة . إنى لأعترف أننا أنفقنا فى تربية أثيل من الوقت أكثر مما كنا نمنحه إياها لو كانت الذرية أكبر . لقد رأيت بيوتاً فيها طفلان أو أكثر ، فوجدت فيها من الضوضاء ما يتنافر مع ذوقى . إنى أؤدى عملى بالمنزل فأرى لذلك أثيل كثيراً . ولو كان لها أخوات أو إخوة لبحثت عن مكتب أو حجرة فى سطح ، بعيدة عن البيت ميلا على الأقل. وأثيل بحالتها الراهنة لا تزعجنى ، بل هى مصدر سرور لا يمكن التعبير عنه . إن صوتها فى الحجرات الأخرى ، بل فى بعض الأحيان حين تقتحم حجرتى ، ينشطنى وينعشنى . إنى لأعد نفسى حسن الحظ حين أعمل لا فى فوضى المدينة ، بل فى الصحبة الهادئة لمثل هذه الفتاة النامية السعيدة .

ومع ذلك فهذه النعمة الوحيدة تثير صعوبات ، نحاول حلها باستقبال أترابها فى المدرسة لتلعب معها ، وتشجيعها على رد هذه الزيارات ، ودعوة ابن عم صغير يعيش معنا فى الأجازات ، وتمضية آخر الأسبوع فى بيوت أخرى ، هذا فضلا عن أننا أنفسنا نلعب لعب الأطفال فنشاركها فى دروسها وألعابها . إنها تأخذ دروساً فى اللغة الفرنسية ، فنحفظ معجمها الأسبوعى معها ، ونتبارى فى ذلك العمل ، ونحصر كل لفظة فى صفحة الذاكرة بأفانين مختلفة . أو عندما يصادفها مسائل صعبة فى واجب الحساب فنختلف إلى مائدة حجرة الطعام ، ويجمع الأسرة كلها وتطرح وتضرب وتقسم فى آن واحد مدة ساعة . أهذا مضيعة لوقت الآباء ؟ ولكن كيف تضيع وقتك « أنت » ؟ أيمكن أن ننفق وقت فراغنا بأفضل من هذه الأساليب المجددة للشباب ؟

إن سر الأبوة فى القدرة على العود إلى الشباب مرة ثانية ، واطراح أى وقار أو لقب ، واللعب فى مساواة تامة مع الطفل . ومن المحتمل أن نكسب بهذه المودة المتواضعة تلك الثقة والمحبة الكامنتين ، وهما حجر الزاوية فى التربية . كيف ننجح

فى تربية الخلق إذا لم نستطع بالصراحة أن نجتذب الصراحة والشرف من قوى الطفل الأخلاقية الطبيعية ؟ [1] . يقول لأثيل إن كل فكرة تعبر دون وعى وجهها ، وعلى مرّ الزمن تسطر جميع عناصر الخلق على صفحة الوجه فتقرأها أى عين . ولكننا لا نقنع بمثل هذه العبارات العقلية المتهافتة . فنحن نعلم أننا إذا شئنا أن تكون ابنتنا صريحة فلنكن نحن أنفسنا صرحاء حتى إذا كانت الصراحة مؤذية ، وأننا يجب ألا نخيفها بالحذر من أى عقاب أكثر من أن ندعها ترى أن انحرافها عن الصراحة قد جلب الغم لأهل البيت طول اليوم . إننا واثقون أن المثال والعطف يدفعانها إلى الصراحة معا . قد يكون الكذب مباحاً فى بعض الأحيان مع البالغين (كما يذهب إلى ذلك قبيل من علماء الأخلاق) لأن البالغ يستنكر الحقيقة . ولكن ذلك ليس من الحكمة فى شىء بالنسبة للأطفال الظامئين للمعرفة . ولو أن فلاسفة الأخلاق يحاربون بوجه خاص سعى الأطفال إلى معرفة الحقائق الجنسية . لقد ابتعدت أثيل عن المثل الأعلى فى هذه المسألة وفى غيرها من الأمور ، وأظن أن ذلك يرجع إلى أنى لم أكن صريحاً معها إلى النهاية . فسنحاول مرة أخرى .

٤ — فى الأمور الجنسية

أقسى امتحان للصراحة هو التربية الجنسية للطفل . لِمَ نقاوم ذلك الفضول القوى الذى يعد أصل العلم ولب التربية ؟ أظن أن السبب القريب فى ذلك يرجع إلى أن ميراثنا البيوريتانى فى أمريكا ، قد خلف فينا شيئاً من الفزع من الجانب الشهوانى فى الحب . وأن السبب البعيد يرجع إلى السرية التى كانت تحيط العملية الجنسية دائماً ، حتى فى المملكة الحيوانية . للابتعاد عما ينشأ عن ذلك من خطر الهجوم . وأن السبب الرئيسى يرجع إلى أن ازدياد تأخير الزواج من زمن البلوغ إلى سن متأخرة قد ترك فترة خطيرة يجب الابتعاد فيها عن أى مثير لا لزوم له للغريزة الكامنة والقوية . إنها مسألة صعبة متعددة الجوانب . ولكننا عازمون حتى

---

(١) لا أستطيع أن أضيف شيئاً إلى الفصل العظيم « الصدق » فى كتاب برتراند رسل « التربية والحياة الفاضلة » .

فى هذه المسألة أن يحول نمو الحق . سنبذل أقصى وسعنا لاستبعاد هذه المسائل بعيداً عن أذهاننا فى آخر لحظة ممكنة . وعلى كل حال ستأتى سريعاً مع جو الحياة العصرية الشديد الحرارة . ولكننا نود الإجابة عن هذه الأسئلة قبل أن يجيب عنها أطفال جهلاء أو شهوانيون . ولن نعالجها بأى طريقة أخرى أو بأى نغمة على خلاف المسائل الأخرى . « فالوقار reverence » فى هذه المسألة هو الطريق الباطل ، لأنه سبيل إلى الأسرار والأضرار . يجب على المرء أن يتحدث عن الأمور الجنسية كأنه يتحدث عن الهضم أو التنفس ، بهدوء العالم غير المتحيز . والصدق أسلم فى نهاية الأمر بشرط ألا يُشتت بالخوف .

المعرفة والصحة أفضل طبيبين نفسيين ، فحيثما كان البدن صحيحاً والعقل سليماً ، فمن نجد « المُعقّد » سبيلا إلى النمو . كان ديدرو Diderot يقول إن التشريح أول الأمور التى يعلمها ابنته . ولو أنى لست متعجلا فى تعليم ابنتى ذلك ولا ينبغى أن تزعجنا الاضطرابات العادية للشباب بالنسبة لهذه الأمور . سندع الطبيعة تأخذ مجراها ، دون عظات أو أكاذيب ولكننا سنقدم للطفل جميع الألعاب الرياضية المتعددة التى تمتنه تحت ضوء الشمس . حين أرى الصبى يلعب البيسبول فى ابتهاج أعلم أن أخلاقه حسنة .

حين تمتزج حياة الحب عند الطفل بالصدق تصبح هذه الحياة كأى شىء آخر حولها موضع جمال وبهجة . ها هى ذى إثيل مثلا تعود من المدرسة ، وتجلس على مسند الكرسى ، « وتطوقنى بذراعيها » كما تقول ، وتهمس فى أذنى بخجل « أبى ، إنى أحب » ماذا أفعل ؟ هل أعنفها على هذه القصة المخيفة ؟ لا أستطيع ، بل بدلا من ذلك أضحك ، وأطلب منها تفصيل كاملة . لماذا نطفىء بالأخلاق هذه الشمس المضيئة ؟

ولكن ماذا نفعل حين يأتى دور البلوغ ؟ سنملأ الموقف بالمعرفة عند أول علامة له . لن ندخر وسعاً فى تجنب الحساسية ، والشعور بالذات ، وحب الانطواء الذى كثيراً ما يعيرون الحياة فى هذه المرحلة الدقيقة من مدها . دع هذه السنة الأولى من البلوغ بعيدة عن الاضطرابات والمأساة ، ولتكن ربيع الروح ، تبذر فيها بذور الإخلاص والمثل العليا ، وموسم المخاطرة والشعر ، وشهر نصحة

والنمو للجسم والعقل . فالذكاء ينبت الآن بخطى سريعة . ويتراجع الجسم إلى المحل الثانى ، ويقف الخلق فى مكانه بعد أن تكوّن . وتتركز مهمة المربى آخر الأمر فى مشكلات العقل .

٥ – فى الأمور العقلية

لست أدرى متى بدأ « عقل » أثيل . ولكننا لم نلق إلى ذلك بالاً حتى أصبحت تقول مع ميلن Milne [١] : « الآن بعد السادسة » إنها لا تريد منى أن أستنتج أنها لم تكن ذات عقل قبل ذلك . ثم نأخذ دروساً كل حين فى تعلم الشاذ فى اللغة الإنجليزية ؟ وهنا أيضاً كان علينا أن نختار بين أمرين : الأوامر والأمثلة . وسلمنا بأن أثيل إذا كانت لا بد أن تتعلم الإنجليزية صحيحة فيجب أن نتعلم نحن أن نتكلمها صحيحة . وإذا أردنا أن نبعد من معجمها الاصطلاحات السوقية ، فلا ينبغى أن تجرى على ألسنتنا . ليس معنى ذلك استبعاد التشبيهات العامية الحلوة ، فقد تبعث الحياة إلى العبارة ، و تفيد اللفظة الواحدة ما يحتاج الدكتور جونسون إلى جملة طويلة للتعبير عنه . ولكننا آثرنا سلامة اللغة منذ الابتداء ، ووضعنا فى طريق أثيل حينما استطاعت القراءة أحسن الآداب المناسبة لسنها .

وكان لا بد أن نواجه فى أثناء ذلك مسألة المدارس الخاصة : أنرسل أثيل إلى المدرسة العامة المجاورة لنا ، أم إلى معهد خاص ذى سمعة حسنة ولكن مكانه غير ملائم ؟ لقد زرنا كلتا المدرستين ، ودهشنا عندما رأينا مدى التقدم الذى بلغته المدارس العامة منذ الأيام التى كنت أقوم بالتدريس فيها لقاء عشرة دولارات فى الأسبوع . فالحجرات المدرسية مشرقة ، والفصول أقل عدداً ، ولكن تلميذ (تحتة) خاصة ، والمدرسون متنافسون ومبتهجون ، إلى جميع الأدوات والتسهيلات المدرسية ، فلم نصدق أعيننا . كنت أسمع الشىء الكثير عن المدارس ، بل لقد كتبت أنتقدها باعتبار أنها سجون نظامية يدخلها الأطفال آلة فى المهد ويتخرجون فيها آلة فى اللحد . فهل كنت أنطق بعبارات منمقة فقط ؟

(١) روائى إنجليزى مشهور ولد سنة ١٨٨٢ ، وله شعر ونثر كتبه لابنه الصغير كرستوفر . وله روايات كثيرة (المترجم) .

وجربنا المدرسة العامة ، وسار كل شيء على ما يرام . لعلها كانت تغلو بعض الشيء فى النزعة الوطنية ، ولكننا فى الجملة لم يكن لنا اعتراض أن تتعلم أثيل حب بلادها بحيث يسمح لها أن تقدر عظمة البلاد الأخرى كذلك . وسنراقب ذلك . كانت المدارس العامة الأربع التى التحقت بها أثيل نموذجاً فى الكفاية والنزعة الإنسانية . كان بعضها أفضل من بعضها الآخر ، لا بسبب المدارس ذاتها بل للعلاقات التى تعقدها فيها . كنا نلحظ تغير بنتنا الصغيرة فى العادات والميول كلما انتقلت من مدرسة إلى أخرى . أما الآن فهى فى أفضلها جميعاً مما يبعث فى أنفسنا الامتنان والسعادة .

لا ينبغى أن أعمم بناء على هذه التجربة ، وأعترف أنه لو كنا فى مكان آخر ما لجأنا إلى المدرسة العامة إذا تيسر لنا ذلك . فالعلاقات بين الناس تصف لعبة الحياة ، ونحب أن يعمر الله لنا اختيارها . وكان إمرسون يقول : « ارسل ابنك إلى الكلية وسوف يعلمه الصبيان » . وقد دفعنا هذا الاعتبار فى إحدى الحالات لتجربة مدرسة خاصة من أبدع مدارس نيويورك . وتبينا فى الحال أن أثيل لا تحبها ، فكانت تشكو من الضوضاء واختلال النظام مما كان مدير المدرسة يسميه حرية . ومع أنها تعلمت بعض الأشغال الصغيرة المفيدة ، وكانت تلعب كثيراً فى الهواء الطلق تحت إشراف دقيق ، إلا أنها كانت تسألنا بين حين وآخر : « متى يعلموننى شيئاً ؟ » وفى نهاية السنة الدراسية بالمدرسة الخاصة ألحقناها بمدرسة عامة (كانت الدراسة بها ممتدة شهراً) ووجدنا أنه على الرغم من ارتفاع مستوى ذكائها عن عمرها كانت متأخرة فى مواد كثيرة لازمة لنقلها إلى فصل أرقى ، فاضطررنا إلى إثقال الصيف بالدروس .

الخطوة التالية لوجود المدرسة هى التعاون معها ، بألا نسمح بالغياب أو التأخير إلا لأسباب حيوية ، وبأن نراقب تقدم أثيل اليومى وتقاريرها الشهرية ، ومتابعة واجباتها المنزلية ، والعناية بدروس كل يوم فهذا كله جزء من مهمة الأبوة ، لا يعين المدرسة فقط بل يساعد الطفل كذلك ، وكل نظام أو ترتيب فضيلة تضاف إلى الخلق . وكنا إذا تمشينا فى الحقول أو الغابات ندير الحديث ما استطعنا حول التاريخ أو الجغرافيا أو الأدب ، وتجنبنا قصص مشهورى الرحل المثيرة أكثر من الحكايات الخيالية والخرافات .

هل الجغرافيا ثقيلة ؟ إذن لم كانت السفينة الراسية فى الميناء . أو الجارية بالشراع أو البحار إيحاء لا يقاوم بقصة خيالية ؟ وحيث كان كل طفل يشتاق إلى رؤية البلاد الأجنبية فطريقة تعليم الجغرافيا هي الرحلة الحقيقية أو الخيالية . يرسو المدرس بتلاميذ الفصل فى شنغهاى أو سنغافورة ، فترحب بهم ستر أسرار آسيا . أو يرتقون نهر النيل من الإسكندرية إلى الحبشة مارين بغابات من غابات الغربية إلى جوهانسبرج ومدينة الكاب ، فتصبح أفريقية حقيقة لا مجرد اسم . لم لا تجهز كل مدرسة بأفلام رحلات ناطقة كتلك التى يعرضها هولمز وبيوس ، فيها مناظر وصور متحركة أمتع ألف مرة من الصور الثابتة ؟ وتاريخ . . لا ريب أنه بالنسبة للأطفال يجب أن يكون ما سماه كارليل « سيرة العظماء » . ذلك أن تعويد الطفل تمجيد العبقرية يجعله يخلص لها إخلاصاً لا يمحوه العمر حتى إذا ذوى كل حب آخر .

ولكى ندخل تلك المملكة من العقل حيث لا يزال العباقرة المذكورون يعيشون ويعلمون يكفى أن نقرأ ونرى . علينا أن نرى غير متمحصين تحت الصور والتماثيل التى دوّن فيها الفنانون فلسفاتهم فى الحياة على صفحة الوجوه وهيئة الأجسام . وأن نتجرع على مهل عظمة البارثينون Parthenon [1] أو رقة شارتر [2] Charters ورشاقتها . وأن نقرأ فى غير عجلة تلك الكتب التى صفاها الزمن لنا من نفاية كل عصر تحمل الميراث العقلى للإنسانية . ما أبهج أن نستمع لأثيل تروى القصص التى سمعتها فى المدرسة ، عن روفائيل ورمبراندت ، وليوناردو وميكائيل انجلو ، ورينولد ، وجنزبورو ، وروبنز وفانديك . عندما كنت فى سنها لم أكن أحلم بوجود هؤلاء الرجال . وأبهى من ذلك أن نأخذها إلى عالم الأدب لتستمتع بحياة شكسبير ، وشللى ، وملتون ، وبيرون ، وجوته ، وهوجو ، وهويتمان ، وبو .

إنها لم تكد تتم مقرر الأدب المؤلف خاصة لمن هن فى مثل سنها . والفصول

(١) البارثينون معبد كبير فى أثينا أنشىء فى القرن الخامس قبل الميلاد وزينه فيدياس المثال المشهور بالتماثيل . (المترجم) .

(٢) كنيسة مشهورة فى فرنسا بنيت على الطراز القوطى فى القرن الثانى عشر الميلادى واشتهرت بزجاجها الملون ، وأصبحت علماً على الكنائس فى العصر الوسيط (المترجم)

القديمة في هذا الأدب مثل «أليس في بلاد العجائب Alice in Wonderland»[1]، و«كتاب هزل تشوبير Nonsense Book»[2]، بديعة جداً. ولكن معظم الكتب المدخرة مؤلفة للأطفال فاسدة بسبب سوء تقدير ذكاء الطفل، وليس في مادتها ما يثير. ولا تبعث على القراءة أو تعمل على تسميتها. إنها تفاهة عقلية قد يفقد معها الأذكياء من الأطفال كل ذوق للقراءة إذا كان غذاؤهم هو هذا اللبن الخاثر. وثمة آداب كلاسيكية للبالغين يمكن أن يستمتع بها الطفل في التاسعة أو العاشرة. مثل «الفرسان الثلاثة» و«الطلسم» بل «والبؤساء»، ثم إن الطفل يزيد استمتاعه بها حين تخبره أنها لم تكتب للأطفال ولن تجد في سائر الأدب بعد أفضل القصص من «روبنسن كروزو» و«رحلات جالفر». ومع ذلك لم يكتب أي واحد منهما للأطفال، ولا يفهمهما البالغون حتى الآن.

ومن الممتع في كل بيت يعتز بالكتاب أن يخصص صاحب الدار ساعة للقراءة بصوت عال ليلة أو أكثر في الأسبوع. ويستطيع الأطفال والبالغون أن يتناوبوا القراءة، على أن توزع المصوبيات حتى يتم قراءة الفصل كله، ثم يصحح بعد أخطاء الفصل على حدة. إني لأذكر كيف كانت أثيل وابن عمها لويس ذوا العينين السود وبين ثلاثتهم تكرار يقرأون «إينوك آردن Enoch Arden»[3] بهذه الطريقة، وكيف كان الصغار يستقبلون كل سطر باهتمام شديد، وكيف سادت الصمت جميعاً في نهاية القصة إلى أن اتجهت أثيل نحو أمها وأخفت وجهها في ذراعيها وبكت. وقد رتبنا الآن الحصول على عدة نسخ من «تاجر البندقية»، لتوزيع الشخصيات فيما بيننا، ونقرأ التمثيلية بكل ما فيها من بلاغة ونحن جالسون أمام المدفأة.

(١) قصة غريبة مكتوب لويس كارول كتبها عام ١٨٦٥، يصور فيها أليس وقد وقعت في بئر فوجدت نفسها في مملكة غريبة، حيث أصبحت هي حية ووقعت لها مغامرات مع الأرنب الأبيض والقطة الحريرية، إلخ. (المترجم).

(٢) ادوارد لير Lear (١٨١٢ - ١٨٨٨) كاتب انجليزي ومصور مشهور بأشعاره الفارغة المرحة الحديثة. (المترجم).

(٣) شعر مشهور لتنيسون، البطل بحار تحطمت سفينته على جزيرة مهجورة، ثم عاد بعد عشرة سنوات ليجد زوجته قد تزوجت غيره، فلما رآهما سعيدين صمم على التخفي وبارح المكان ومات كسير القلب. (المترجم).

وإنى لأعتقد أننا نحصل آخر الأمر على «التربية الحرة» عن طريق القراءة لا عن طريق المدارس العالية والكليات . وقد شرح المستر إفرت دين مارتن (١) Everett Dean Martin شرحاً حسناً معنى هذا الاصطلاح ، ولقد أوصى بحرارة بهذا الكتاب لأولئك الذين يرغبون في معرفة حقيقة المصطلح . ربما نظن في الوقت الحاضر أن الرجل يكون متعلماً إذا استطاع قراءة الصحف في الصباح والظهر والمساء . ولكن على الرغم من أن جامعاتنا تخرج كل عام كثيراً من المتخصصين ، فثمة جدب واضح في الثقافة الحقيقية في جامعاتنا . حتى أمة فيها مائة ألف مدرسة ولا يكاد يوجد فيها عشرة متعلمين .

فلا غرابة أن يتساءل «ولز» وغيره عن فائدة التعليم الجامعي . وهذه مغالاة في التشاؤم لإبراز هذه النقطة . ومع ذلك فمن الخير أن ينهض أحد ليسفه فكرتنا بأن الإكثار من المدارس والمتخرجين في الجامعات قد يجعل منا شعباً ذكياً . لقد عانت مدارسنا وكلياتنا معاناة قاسية من تصور سبنسر التربية على أنها تكييف الفرد بالبيئة التي يعيش فيها . كان ذلك التصور تصوراً ميتاً وتعريفاً ميكانيكياً منتزعاً من فلسفة ميكانيكية تنفر منه أي روح خلاقة . وكانت نتيجة ذلك أن عززت مدارسنا العلوم الميكانيكية والمطرية مع استبعاد إلى حد ما للمواد «غير النافعة» كالأدب والتاريخ والفلسفة والفن . وهكذا خرج صنفاً حسناً من الموظفين والكتبة ومحاسبين الذين يلتهمون بعد انقضاء عملهم اليومي الصحف المصورة ويزدحمون في الملاهي التي يرون فيها دائماً على الشاشة نفس صور الحب . وعلى المسرح نفس الموضوعات .

هذا التعليم الميكانيكي و «العملي» يخرج أشباه رجال لا رجالاً كاملين . فهو يخضع الحضارة للصناعة ، والبيولوجيا لعلم الطبيعة . ويسوق أدب السلوك للمال . ولكن يجب أن يكمل التعليم الإنسان فينمي فيه كل قوة حقيقية . ويفتح عقله على جميع مظاهر العالم الممتعة والنافعة . فصاحب الملايين الذي لا يجد في بيتهوفن أو كوروت أو هاردي ، أو في توهج غمامات الخريف عند غروب الشمس ، إلا أصواتاً وألواناً لا دلالة لها ، إن هو إلا مادة بشرية فقط . نحصب

(١) عالم أمريكي في التربية (١٨٨٠ – ١٩٤١) له كتاب «سلوك الجماهير» وغيره (مترجم) .

نوافذ روحه اسوئة تصفق هذا العالم . إن التعليم العلمي الخالص يجعل ممن يخرجه مجرد أداة ، ويترك صاحبه غريباً عن الإحساس بالجمال ، ويهبه قوى بعيدة عن الحكمة . ولو أن سبنسر لم يكتب قط عن التعليم لكان ذلك أفضل للعالم .

ومن الخير أن تأخذ اللغتان اللاتينية والإغريقية فى الزوال من جامعاتنا لأنهما كانتا تستنفدان من الجهد مئات المرات أكثر مما تستحقان . وفى ذلك يقول هاينى : « لو كان على الرومان أن يتعلموا اللاتينية أولا ما بقى لهم من الوقت ما يغزون به العالم »[1] . ولكن مع أن لغتى اليونان والرومان لازمتان لفقهاء اللغة فقط ، فإن أدب هذين الشعبين يكاد يكون مما لا يستغنى التعليم عنه . وقد يتجاهل أحدنا عامداً فرجيل وهوراس ، ولوكريتيوس وشيشرون ، وتاسيتوس ومرقص أورليوس ، ويكون مع ذلك ناضجاً ولكن ليس من بين سائر أدوات التعليم التى أعرفها شىء أبدع وأوثق من دراسة حياة الإغريق فى شتى مظاهرها ، فى حكوماتهم الديمقرطية والمستبدة ، وحصانتها وتمثيلياتها ، وشعرها وتاريخها ، وبنائها وفنها ، وعلمها وفلسفتها . دع أى طالب يستوعب حياة عصر بركليس وآدابه ، وعصر النهضة ، وعصر التنوير ، وسيحصل على تعليم أفضل من أى جامعة يمكن أن تقدمه إليه . ليس معنى التعليم أن نحصل على مهارة تثبت خبرتنا فى العمل أو التعدين أو النبات أو الصحافة أو الفلسفة . ولكنه يعنى أننا نصل إلى فهم أنفسنا والعالم الخارجى والرقابة عليهما بوساطة استيعاب ميراث الإنسانية الخلقى والعقلى والذوقى ، وأن اختيارنا قد وقع على أفضل معين لنا فى الروح والجسد جميعاً ، وأننا قد تعلمنا أن نجمع بين الأدب والثقافة ، وبين الحكمة والمعرفة ، وبين التسامح والفهم . فمتى تخرج جامعاتنا مثل هؤلاء الرجال ؟

٥ — نشـوة

ما أبهى أن أرى أثيل جالسة على مقربة من نار الموقد ذات مساء ، وقد مدت ساقيها القويتين إلى جانب الكرسى ، وكشفت عن ذراعيها البضتين ، ونامع شريطها الحمراء فوق قميصها ، وقد تهدل شعرها فوق كتابها ، وأضاء

(1) Memoirs, vol. I, p. 12.

وجهها بالاهتمام والإحساس . وهامت روحها بعض الوقت في أماكن بعيدة وأزمنة سحيقة ، مسافرة موسعة حدودها ، راغبة نفسها يوماً إثر يوم أكثر ملاءمة لصحبة عظماء الرجال والنساء . ستغرم بهم واحداً بعد واحد وتستمع إليهم ، من سافو إلى ديوز ، ومن أنبادقليس إلى نيتشه . ومن بوذا إلى دستويفسكي ، ومن لاوتسي إلى أناتول فرانس . إننا نراها تنمو في صحبتهم عاماً بعد عام ، فتتعلم الحكمة من سقراط ، والإخلاص من ليوناردو . والتسامح من المسيح . إننا نحلم بكل ما يمكن أن تكون عليه

إننا لنرجو ألا تصبح مسرفة في التعميم حتى تحب الحياة . وأنها لن تؤثر الكتب على الأصدقاء ، أو الطبيعة ، أو الأمومة . لن نعدها كاملة مهما تكن سيرتها في الحياة ، إذا لم تعمل على رفع طفل آخر إلى مرتبة أعلى من مرتبتها كما نحاول أن نرفعها فوق أنفسنا . ولكنها ستكون حرة ولو لتحبب أمسنا . الحق أن أحداً لا يستطيع أن يهدى غيره إلى الصواب . إنها ستختار طريقها الخاص . وتحدد صالحها الخاص . ويكفينا أن الله قد وهبنا إياها . وأن ضحكتها وصراحتها قد أشاعا ألواناً من البهجة في هذه الحياة المشكوك في أمر أصلها والغامضة المصير .

الفصل الثانى عشر

إعادة بناء الخلق

١ – عناصر الخلق

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن التربية الأخلاقية والعقلية للطفل . أما نحن الكبار – أثمة أى احتمال يمكننا من صياغة أنفسنا فى قالب أفضل مما نحن عليه ؟

من المزايا التى يتمتع بها المفكر فى هذا العصر الحافل المعقد أن يتمكن من ملاحظة مولد علم من العلوم . ويبدو واضحاً من هذا الصخب الذى نراه فى المعامل أن « الفلسفة » ، وهى أم العلوم (الجاحدة) ، تتولد الآن عن طفل آخر ، وأن دراسة « العقل » آخذة فى الانتقال ببطء ومشقة من ظلمات الميتافيزيقا إلى أنوار الملاحظات والتجارب المضبوطة . ولم تتم الولادة بعد ، وحتى فى فلسفة فرويد لا يزال العلم الرضيع متعلقاً بأمه تكاد تخنقه النظريات والأساطير .

إن علم النفس يقف اليوم حيث كان علم الطبيعة يقف حين كتب فرانسيس بيكون كتابه « تقدم العلم » منذ ثلاثمئة عام . فقد وضع بيكون فى شجاعة أفزعت حتى رجال النهضة الأبطال خطة للعلوم تبرز المشكلات الحيوية التى كانت تحتاج إلى الحل ، كما تنبأ فى كل صفحة بالانتصارات التى تجلبها المعرفة الجديدة . وأصبحت هذه الانتصارات الطبيعية اليوم حقائق كلية وعميقة أبعد مما كان يتصورها حتى خيال بيكون وغيرت الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيك وجه الأرض فى كل مكان ، وجعلته أكثر خضوعاً لإرادة الإنسان والإنسان فقط بما فيه من إرادة وخلق هو الذى يبدو أن يد التغيير لم تتناوله .

ماذا لو كان علم النفس آخذاً فى التحرك صوب نتائج مماثلة ؟ لو ظهر

فيلسوف آخر مثل بيكون يضع خطة مشكلاته ويتنبأ بانتصاراته . فمن يصدقه ؟
إننا لا نزال على شاطىء البحر الغريب يغشيه ظلام الخرافات والأساطير .
ولا ندرى مسالكه وأطرافه المترامية ولا الجزر السعيدة التى توجد فيه . ولكن
العلم الحديث سيخاطر بالإبحار مهتدياً بالمحاولة والخطأ trial and error فى
وجه رياح التحيز وسحب الجهل . سيقف علم النفس بعد ثلاثمائة عام حيث
يقف علم الطبيعة اليوم ، ولا يزال ناقصاً أشبه بلوحة لرودين[1] Rodin ،
ولكنه مع ذلك سيد تقبض فيه يد العلم فى النهاية على « العقل » و « القلب »
و « الروح soul » ، وعلى المادة الأولى لإرادتنا المهوشة التى تصوغها المعرفة
ببطء فتحيلها إلى جنس أرقى فى قوته ورقته .

أنفسنا هى محور اهتمامنا ، وبمقدار ما يبحث علم النفس فى أنفسنا لا فى
تجريدات فهو أشبه بالمأساة التى يمكن أن تكون عن أنفسنا . وبعد . فمن نحن ؟
قردة ؟ . . . أم آلهة ؟ أم قردة فى طريقها إلى أن تصبح آلهة ؟ ما هذه « الطبيعة
البشرية » التى يبدو أنها تحدد تواريخ لا عدد لها ولا تتكرر متشابهة ؟ ما أسس
الخلق والسلوك وعناصرهما ؟ أهى كلية وراسخة بحيث لا يمكن أن يتغير الخلق
أبداً ؟ أو هل يمكننا — كالبارون منشاوزن Münchausen — أن نرفع أنفسنا
برباط أحذيتنا من تيار ميراثنا وقيصانه ؟ فلنسس إلى حين كل شىء آخر ،
ولنبحث فى طبيعة الخلق character ، واضعين إياه تحت مشرحة الملاحظة
والفهم . وسنضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض فيما بعد — إذا استطعنا .

حين تنازل علم النفس القديم ليبحث فى مثل هذا الشىء الأرضى الذى
يسمى سلوك الإنسان ، قسم الخلق أربعة أنواع : الدموى ، والسوداوى ، والصفراوى ،
والبلغمى . هذه القسمة سخيفة وغير طبيعية . إنها تدل فقط على أن الناس إما
فرِحُون أو مكتئبون أو ناريون أو أخوسكسون[2] . قد يكون الأمر كذلك .
ولكن هذه الألفاظ صفات لا تفسيرات . ونظن أن الذى اخترعها كانت له

(١) فرنسوا رودين (١٨٤٠ — ١٩١٧) مثال فرنسى له لوحات مشهورة « نقشه »
و« المفكر » و « الرجل الذى يمشى » وله تماثيل لفكتور هيجو ، وبرنارد شو ، وبلزاك وغيرهم
وكان يبرز السطحة بالحركة فى الرخام (المترجم)

(٢) يريد المؤلف أنهم باردون (المترجم) .

نظرة فسيولوجية طريفة عن الخلق ، باعتبار أنه يرجع إلى الدم أو المرارة ، أو الصفراء والبلغم ، ولو أننا نتردد في هذين الأخيرين . واقترح بين « Bain » أن يقسم الخلق إلى فكرى ووجدانى وإرادى ، تبعاً لتغلب الفكر أو الشعور أو الإرادة . ولكن لما كان الصنف الإرادى قد يكون وجدانياً كذلك (كالحال في الإسكندر أو إليزابيث) أو فكرياً أيضاً (مثل قيصر ونابليون) ، وحتى الفكرى قد يكون وجدانياً (مثل أفلاطون وأبيلارد ونيتشه) . فلن نظفر بنتيجة إذ نخرج من الباب الذى دخلنا منه .

وثمة طريقتان كما رأينا (١) لبحث الإنسان . الأولى تبدأ من خارج بالبيئة وتعتبر الإنسان آلة تتكيف . وترد الفكر للأشياء و« العقل » « للمادة » ، وتشيع في مادية سبنسر المقنعة . وسلوكية واطسن . إنها وجهة نظر تمثلها أسماء لامعة : ديمقريطس ، أبيقور ، لوكريتيوس ، هوبس ، مل وسبينوزا الرقيق . وأخرجت لنا في البيولوجيا داروين ونظرية الانتخاب الطبيعى ، باعتبار أنها تحدد التطور عن طريق البيئة . وأخرجت في علم الاجتماع باكل Buckle وسبنسر وماركس وتفسير التاريخ في ضوء المؤثرات الاقتصادية ، والجماهير غير الشخصية . والأحداث اللاإرادية .

والطريقة الثانية تبدأ من الداخل : فهى تنظر إلى الإنسان كنظام من الحاجات والدوافع والرغبات التى تحثه على دراسة بيئته واستغلالها والسيطرة عليها . وهى تؤثر أن ترد الأشياء إلى الفكر ، والمادة إلى العقل . إنها تبدأ من « الكمال الأول Entelechy » الذى قال به أرسطو (وكان يذهب إلى وجود غاية باطنة تحدد كل صورة) ، وتسود في مذهب برجسون الحيوى ، وبراجماتية وليم جيمس . وبالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة يتصل بهذه النزعة أفلاطون وديكارت وليبنتز وكانط وشوبنهور . وأخرج لنا هذا الاتجاه في البيولوجيا لامارك ونظرية التطور عن طريق الجهود المتكررة الناشئة عن رغبات لم تشبع . وأدت في علم الاجتماع إلى ظهور جوته . وكارليل ، ونيتشه ، وتفسير التاريخ في ضوء المؤثرات النفسانية . والعبقرية الخالقة ، والإرادة المتعسة .

(١) الفصل الثالث

وتحليل الخلق الذى نورده هنا يصطنع الطريقة الثانية . على الرغم من علمنا بالمزالق التى تعترض الطريق . وهذا التحليل يعتبر الإنسان معدلا لبيئة أكثر مما يعتبر البيئة معدلة للإنسان . فكل حديقة فى الصحراء . وكل طائرة فى السماء ، دليل ورمز على إبداع الحياة . والخلق فى ضوء هذه النظرة مجموع ميول ورغبات موروثة . إنه خليط من الغرائز تلونه البيئة والمهنة والتجربة وتعيد ترتيبها . ويمكن أن نصنف الدوافع الأساسية لخلق الإنسان فى قائمة أولية تتميز فيها العناصر الأولية من الثانوية

جدول عناصر الخلق

غرائز		عادات		وجدانيات	
موجبة	سالبة	موجبة	سالبة	موجبة	سالبة
١ طلب الطعام	التجنب	الصيد	التصوف	الجوع	النفور
		الاستهلاك		القسوة	
		الادخار		الجشع	
		الامتلاك			
٢ القتال	الهرب	الاقتراب	التراجع	الغضب	الخوف
		الاستطلاع	التردد	التعجب	الشك
		القبض باليد	التفكير		
		السيطرة	الخضوع	الكبرياء	الضعة
٣ الحركة	النوم	اللعب	الراحة	النشاط	التعب
٤ حب الاجتماع	العزلة	الكلام	الانطواء	الابتهاج بالجماعة	الخجل
		الاستهواء			
		التقليد			
		الاستحسان			
٥ التناسل	الامتناع	الغزل	الحياء	الرغبة الجنسية	العفة
الأبوة				الحب الأبوى	

هذه الغرائز والعادات والوجدانيات هي العناصر العامة فى خلق الإنسان ، وجميعها موجودة فى كل رجل وكل امرأة . وإنما يرجع اختلافنا فى الخلق والمزاج إلى أن هذه العناصر لاتتكرر فى أى شخصين بدرجة واحدة . وتحدد نوعنا وجنسنا الغرائز التى تكونها . وتحدد البيئة الموضوعات التى ستبحث عنها ، والعادات التى ستتولد منها . فالبيئة الخالية من المخاطر تقلب القتال جعجعة . فإذا ازدادت المخاطر تحول هذا القتال نفسه إلى مكر . فالغريزة واحدة ، ولكن التعبير عنها مختلف . والأضرار البسيطة توجه الهرب إلى الحذر ، والأضرار المنيعة قد تجعل الهرب جبناً . فجميع التجارب هي على هذا النحو كشفٌ للغرائز أو كبت لها . ففي كل يوم يقوى ميل بالنجاح ، ويضعف آخر بالكسل أو الفشل . وفى كل منا عدة أخلاق كامنة (خليط من العادات) تنتخب البيئة بعضها بالتدريج وتقويه ، كبرادة الحديد التى تجذبها المغاطيس من الخشب . لذلك كان أول مبدإ يعمل على تعبير الخلق هو البحث عن بيئة أخرى تفسح المجال لقوى جديدة تنعب على الأوتار الخامدة فتخرج من أنفسنا أنغاماً أحلى وأبهى

ويزيد فى توضيح غرضنا من قائمة العناصر التى بسطناها إذا وجهنا إليها بعض الملاحظات العرضية . فنحن نلاحظ أن كل غريزة هي تعبير نفسانى عن نظام فسيولوجي . فطلب الطعام ثمرة الخلايا الحاوية نقمة . والقتال والهرب يظهر أنهما خلقا للأيدى والأرجل . وفى ذلك يقول لنكولن دفاعاً عن الفارين من صفوف القتال : « إذا كان الله القدير قد وهب الإنسان ساقين قائمتين على الجبن فكيف يستطيع مغالبة الفرار بهما ؟ » . وغرائز الحركة (الحبو ، المشى ، الجرى ، التسلق ، القذف ، إلخ) هي القصيدة التى تنشدها جميع أعضاء البدن فى اتساق والتناسق نتيجة احتفاء العناصر . وحب الاجتماع ، الذى يبدأ فى صورة الأسرة ، هو ثمرة التناسل . فكل غريزة ترسخ جذورها فى بيئتنا ، وكل تغيير فى الخلق يقطع أوصال الغريزة يضر الجسم كما يسيء إلى النفس .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن كل غريزة لها مصاحب انفعالى ، وهو ضرب من الشعور يبلغ من الأصالة والعمق مبلغ الدافع الذى تقابله . وهكذا يصاحب الجوع البحث عن الطعام ، والاشمئزاز تجنبه ؛ ويصاحب الغضب القتال ،

والخوف الهرب ، والتعجب الاستطلاع ، والشك التردد ، والكبرياء السيطرة ، والضعة الخضوع ، والنشاط الحركة ، والتعب السكون ، واللذة الاجتماعية حب الاجتماع ، وضرب من الحزن مع العزلة ، وتصاحب الرغبة الصلة الجنسية ، والخجل الضعف الجنسي ، والأمومة والأبوة العناية بالأطفال فكما ترتبط كل غريزة فينا باللحم والعظام ، تحترق كذلك في طبائعنا إلى حرارة الشعور .

ونلاحظ أخيراً أن كل غريزة لها ما يضادها في الفرد نفسه ، فثمة موجب وسالب في الغريزة ، كما ذهب أنبادقليس بالنسبة لجميع الأشياء . فنحن مزودون ، كما يقال ، بدوافع للبحث عن الطعام وتجنب المضار ، وأخرى للقتال والهرب ، وثالثة للسيطرة والخضوع ، ورابعة تدفعنا إلى التقدم مستطلعين والتوقف شاكين ، وخامسة للحركة والتمسس باليدين والجلوس وسكون والنوم ، وسادسة للعرض والتمتع والتحقير ، والعرض والاحمرار خجلا . وسابعة للقيادة والاتباع والابتداع والتقليد ، وثامنة للانغماس في الجماعة والاعتكاف في عزلة حلة القول نحن مهيأون بالطبيعة (أي بالخلق الطبيعي) لأن نقبل وأن نتجنب في آن واحد دافعاً أو مشكلة أو موقفاً .

في هذه القسمة الثنائية للعناصر سر التمييز الأساسي بين السجايا الإنسانية فلن يتيسر لنا فهم التاريخ أو التعامل مع جيراننا إذا قسمنا الرجال والنساء إلى دمويين ومكتئبين ، وإلى أخيار وأشرار أما التمييز الوحيد الذي تقدمه الطبيعة ويسلم به التاريخ فهو الذي يفصل في السجايا بين الموجبة والسالبة ، والقوية والضعيفة . إننا نبني آلافاً من المشروعات المثلية في عبارات من العصبية ، ويحطمها الواقع بلسان القوة . ومن الواضح أن هناك أشخاصاً تسودهم الدوافع الإيجابية ، حيث يوجد عندهم الميل إلى التقارب والبحث والتعب والتملك وهؤلاء فنسميهم أصحاب الخلق الإيجابي . وثمة آخرون تسودهم دوافع السلبية ، وهم أولئك الذين يتغلب فيهم الميل إلى التردد وإلى التراجع وإلى البحث عن ملاذ وأمن وإلى الخضوع ، ونطلق عليهم أصحاب الخلق السلبي ولست تجد رجلا أو امرأة يتصف بإحدى المجموعتين فقط . ويشبه هذا التمييز ما بين الذكر والأنثى ، ويسمح بكل ضرب من التدرج وكل لون من الامتزاج . ولكن إذا

حاولنا تصور هذه النماذج المتعادية فى صورتها الكاملة . فينبغى أن نعرف القطبين اللذين يتأرجح الخلق الإنسانى بينهما ، والمكونات الأخيرة لكل شخصية .

٢ — الخلق السلبى

هذا شخص سلبى ؛ إنه يميل إلى التهوين من شأن نفسه . ومع أنه يعجب إعجاباً شديداً بكل صفة حسنة فى وجهه وهيئته وعقله . فإنه يشعر دائماً شعوراً خفياً بضعفه الجسمانى ، وينظر بطرف عينه حاسداً العامل الطويل القوى ، أو رجل الأعمال الذى يخطر أمامه منتصب القامة معتزاً بهيئته وصحته . إن ما يفتقده الشخص السلبى قبل كل شىء هو الجسم والطاقة والقوة المحركة . إنه يفتقر إلى عدم الكفاية للقوة .

انظر إليه وهو يجلس إلى المائدة تجده فاقد الشهية ، متبرماً بالطعام ، سريع التقزز . لا يأكل اللحم دون أن يفكر فى المذبح . ويعتقد صيد السمك توحشاً . ولا يجد لذة فى طعامه . إنه (يبقبق) وينتقى كالعصفور الذى لم يعرف الدود . وينظف أصابعه بعناية . ويخرج من الحجرة وهو يود ألا يراه أحد ، وكأنه يشعر بأن كل إنسان يراه .

إذا لقى إنساناً راقبه خلسة ، ناظراً إلى جميع أعضائه ما عدا عينيه ، وازناً قوته ونواياه . وإذا شتمه أحد أو هدده خطر ، ارتعش دهشة وخوفاً . إنه لا يحس بالعصب المحرك ، ولكنه يحترق فى غيظ مكتوم . وعنفه قناع من يعرف أنه سيخضع . إنه يحجم عن تحمل المسئولية ويهرب من التجربة إلى الأمن الهادىء والعزلة الساكنة فى بيته . إنه يهوى القراءة وبخاصة قصص المخاطر والمغامرات وفلسفات الإرادة والقوة . إنه يعجب براعى البقر والسوبرمان ويعتقد أن العالم إذا كان ذكياً أودعه ثقته فى قيادته . وإذا نجح فى أمر نسبه إلى نفسه ، وإذا أخفق فالذنب ليس ذنبه . بل البيئة (أى غيره من الناس) هى المدنية ، أو الحكومة ، أو نحس الطالع . إنه متشائم بالنسبة للعالم ، متفائل فيما يختص بنفسه.

ومع ذلك فقد يكون عظيماً بقوة ذلك الخيال العريض نفسها ، وهو خيال يزدهر فى نفسه بسبب ضعفه الجسمانى . وإذا لم يصطدم خياله بعمل أو بملاحظة

موضوعية سبح طليقاً فى عوالم روحية من الفلسفة والشعر . ويستطيع أن يخرج منها ، إذا قيد نفسه ساعة يصبر فيها على العمل بين حين وآخر ، فنوناً رائعة الجمال ، أو أفكاراً مثالية ، أو صوراً وشخصيات جديدة فى الأدب والفن . فإذا ارتفع فى هذا المجال إلى القمة قد يصبح شاعراً عبقرياً . وإذا بقى فى المرتبة الدنيا كان رجلا فكرياً intellectual لا مفكراً thinker بل شخصاً يفكر فقط . وكلما نمت الحضارة ، وأصبحت الحياة معقدة كثيرة المتاعب ، وأصبحت القدرة الجسمانية أقل حيوية ونفعاً ، ازدحمت المدن بهؤلاء المراوغين المحترفين الذين يشبهون دون كيشوت فى الخيال وهاملت فى العمل .

ولما كان التراجع والتوقف عن العمل جوهر نفسه ، فإنه يتجنب حقائق الحياة ومهامها القاسية ، ويبقى بنفسه فى أحضان أحلام اليقظة التى يظفر فيها بكثير من الانتصارات/ ثم يتحول خجله إلى اعتكاف بينه وبين نفسه ، وتصبح خلوته مراوغة بارعة تسود أولئك الذين جعلتهم الطبيعة صفوة . وهو اجتماعى بمعنى أنه يخرج من عزلته إلى صحبة عاطفية فى جماعة صغيرة يألف ويبادلهم . وإذا وجد من أحد وداً صافية فهو فى نعيم الجنة . وتزدحم المقاهى بهذا الصنف من الناس . وهو اجتماعى أيضاً فى تعطشه لاستحسان الجمهور ، فهو يتوافق فى حياته مع العرف . وإذا كان يفتقد الإحساس الأرستقراطى بالنبل فعنده إلى حد ما الضمير الديمقراطى الذى يعكس فى أمانة أخلاق الجماعة جماع القول أنه طيب القلب ، وعطوف ، وشكور ، ومخلص ، ومحترم . ولا يتصف بالقسوة وإن كان على شىء من الغلظة . وهو يميل إلى الشذوذ الجنسى ، ولكنه لا يرتكب إلا الذنوب الصغيرة .

/ وضعفه ناشىء قبل كل شىء عن أن دوافعه لا ينسقها غرض يتحكم فى حياته ويوحدها . فهو فى قلق مع أنه ينشد دائماً الاستقرار . وينتقل ساخطاً من مشروع إلى مشروع ومن مكان إلى آخر ، فهو كالسفينة التى لا ترسو على أى ميناء إلى أن تفسد شحنتها . وهو عاجز عن النظام أو العمل ، ومع أنه يبدو فى بعض الأحيان مشغولا بحالة عصبية إلا أنه يجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار فى تحقيق غرض محدود احتجاجاً برتابة العمل ، أو بغصه ، أو صعوبة

وسائله . إنه شديد العزم إذا عقد لنية ، كثير التراخي عند التنفيذ ، وبجناحه موجات من الهوى تبعث القوة . ولكنها تنتهي بالإجهاد السريع والتسليم بالاضطراب . إنه يشتهي ألف رغبة ولا إرادة له لتنفيذها .

وأخيراً فهو يوتّر في مسائل الحب أن يكون مطلوباً لا طالباً . وحتى إذا ظهر عظهر من يقترب من المرأة ، ويضيق عليها الخناق . ويتغلب عليها ، فهي التي تدبر له ذلك بكياسة السياسي الذي تخفى أساليبه . حقاً إنه يخجل بعض الشيء من ظفره . ويحمر وجهه إذا استعاد ذكره ، ويتساءل : ألم تكن متعته في الخيال أشد وأقل نفقة. ولكنه يستسلم للقدر ويصبح زوجاً أميناً ، مخلصاً لبيته ، مظهراً حبه في كل مناسبة ، مضحياً بنفسه وهو ساخط في سبيل أولاده . ويموت قبل أوانه يلفه سواد من الإحساس بالتفاهة ؛ ويعجب لِمَ خلق . وإذا لم يكن الأولى ألا يولد .

٣ – صاحب الخلق الإيجابي

هذا الصنف إيجابي ، عنده من الصحة والبأس واللحم والدم ما يجعله ينفذ بنظره إلى صميم العالم ، ويلبس قبعته على هواه . إذا نظر إليك واجهك وجهاً لوجه ، ولكنه لا ينظر إليك لأنه مستغرق في عمله ، سائر إلى غرضه ، فهو يؤثر الاهتمام بالأغراض على الأشخاص .

وجميع دوافع الإقبال على الأمور قوية فيه ، فهو يأكل بلذة وبغير تكلف ، ويذبح الذبائح ليخمد شهوته . وتتطور نزعة الطبيعية لتسوير سنات قيمه وحيواناته إلى شهوة عامة للكسب والامتلاك . وشعاره : « التحصيل والتملك » . وما كان أكثر اعتداداً بنفسه من الرجل السبي وأعظم منه نجاحاً ، فهو يجعل كل أمة حديثة صورة من نفسه – مسرفة في الكسب والتحصيل . (أو لعل له زوجة مسرفة) .

كان يمكن في قديم الزمان أن يصبح باروناً إقطاعياً أو جندياً بدلا من أن يكون رجل أعمال ، أو تاجراً ، أو رئيساً للغرفة التجارية ، أو مهندساً . ولا يزال كثير من نزعة القتال القديمة موجوداً في نفسه ، وهي على الرغم من

تهذيبها واحتفائها ، إلا أنها إيجابية كتلك التي كانت تدفعه إلى رمي النبال . هذه النزعة إلى القتال هي التي تمنحه القوة على تحقيق أغراضه . فليست النزعة عنده طموحاً على استحياء ، بل دافعاً لا يمكن كبحه . وعنده من الشجاعة أكثر من الفضيلة ، ومن الضمير أقل من الكبرياء . وأطماعه قوية . فهو يحتقر الحدود ويبتعد عن الصغر . وإذا لقي رجلاً أقوى أو أثبت منه لا يجنح إلى الانحناء أمامه في خضوع ، بل يتحداه ويحاول مصارعته ومنافسته ، ولا يهدأ إلا بعد كفاح يستنزف كل جهده .

وهو محب للاستطلاع ، يفتنه كل عمل . ويبحث عنه بنشاط في كل جديد وغريب . ولكنه لا يميل إلى النظريات . بل يتجه بفكره رأساً إلى العمل وإلى تحقيق غرضه . إنه لا يستطيع أن يفهم لم يزعج المرء نفسه بالرياضيات العالية أو الشعر أو التصوير أو الفلسفة . وإذا كان فيلسوفاً اشتغل بالأعمال كما يشتغل بالفكر . إنه أشبه بسنيكا منه بأرسطو . وسيكون منه بركلي . ويتوتر منه بكانط .

إنه يؤمن بالأفعال أكثر مما يؤمن بالأفكار . ويعتقد كقيصر أن الأمر لا يتم إذا بقي منه شيء لم ينجز . يحب الحياة الصاخبة ولا تغريه بساطة الريف وما فيه من دعة ، لأنها أنسب للشيخ ولا تليق بالرجل . وهو بنشاطه متحكم يحب أن يشعر بأن الناس حجارة تحت يده يشيد بهم ما يشاء ، ويجدون لذة حقيقية في الانقياد إليه ، وهو بذلك واثق ومتأكد وسعيد . ونشاطه يفيد صحته . ولا يترك له وقتاً للتفكير أو التأمل . إنه يستمتع بالحياة على سطحها . ولا يفكر كثيراً في الماضي أو المستقبل . إنه يشك في المثاليات ، ولو كان الأمر بيده لبادر بالقضاء على كل تطرف . إنه يمقت المثاليين — أولئك الذين يخطبون . أو يكتبون المقالات ، ويقررون العلاقات الدولية من أبراجهم العالية

ومع ذلك فهو في بعض أحواله رجل فكر ، ليس شاعراً ، ولا مصوراً ، ولا فيلسوفاً نظرياً ، ولا عالماً يقبر نفسه مع المخابر أو المجلدات القديمة ، بل مخترعاً ، ومهندساً معمارياً يخلق التصميمات المبتكرة ، ومهندساً ميكانيكياً عنده من الشجاعة ما يجعله يزرع الأنهار العظيمة بقصائد منظومة من الصلب والحديد ،

ونحاتاً يبعث الحياة فى الرخام . وعالماً على استعداد لمواجهة العالم كله دفاعاً عن حقائقه الجديدة . وحتى فى هذا الصدد فإنه يعيش مائة حياة من العمل مقابل حياة واحدة من الفكر .

وهو عادةً اجتماعى . يساير جميع من يلقاهم . لهم إلا إذا كانت آراؤهم متطرفة فى البعد عن المألوف . يحب الاعتكاف ليلا ، ولكنها عزلة يقضيها مع أسرته لا خلوة فكرية يعمقها وحيداً بينه وبين نفسه . وقلما يتوقف ليتأمل نفسه ، و « عقده النفسية » قليلة . ولا يتكلم فى علم النفس أبداً . إذ أثارته زوجته انصرف إلى ناديه . وحين يضيق بناديه ينغمس فى عمله ينسى نفسه فيه إذ روتين حياته النشيطة يحميه من ثورة الأعصاب .

أما ما يمتاز به قبل كل شىء فهو الإرادة ليس عنده إرادات بل إرادة واحدة . ولا خليط من المطامع والرغبات التى يلغى بعضها بعضها الآخر متعادية فى غير توافق . بل وحدة فى الهدف ، وترتيب للأغراض ونظام شامل للغايات تنسجه فكرة مسيطرة دائمة فى صميمه حتقه . إرادته منظمة ، فهو يرسم دائرة تبين حدود المحتمل ، ويسوق نجاحها بوسائل التى تكفل إرادته بقوية تحقيقها . وإذا أنتج عملا أخرجه كاملا لا أجزاء من عمل أو « خواطر » . وهو إذا انطلق استغرق فى العمل غير حافل بما يقال عنه . إنه هادىء ، لا يكثر من الكلام ، ولا يعنف فى العمل أو الحديث فيحترق . وهو صاحب أهواء عظيمة ، ولكنها تجتمع فى هوى واحد تحركه إلى هدف واحد ، لا أهواء متناثرة تنتهى إلى الفوضى . إنه يعلم لذة ضبط النفس ، ويستطيع معالجة الرغبات والدوافع المتناثرة ، ثم ينظم نفسه تدريجاً إلى كلٍّ واحد . إنه ثمرة الصحة والذكاء .

وهو فى الحب صاحب المبادأة . ويقتحم بابه رأساً وبسرعة تحبب فيه جميع النساء ويتزوج مبكراً لأنه سريع العزم ، ويؤثر فصول القرب على حذر التمنع . والأفضل فيما يظن أن يحتمل عبء الزوجة والأبناء من ثقل العزلة ونزوات الهوى . وتعينه واجبات الأبوة المفروضة على أن يصبح قوياً ، ولكنه يعرف كيف يمزج الرقة والحنان بما عنده من بأس . ولا يحبه أولاده فقط بل يحترمونه . ويتعلم فى منتصف العمر بعض فنون الفرح ، وفى الشيخوخة يجدد مع أحفاده شباب

نفسه . وتحضره الوفاة فلا يشك أبداً فى أن الحياة كانت نعمة . ولا يأسف على شىء إلا على أنه سيترك اللعبة لصغار اللاعبين .

٤ — بناء خلق جديد

لقد رسمنا صورتين مثاليتين . وقسمنا الإنسانية قسمة تكاد تكون مانوية(١) Manichaean إلى صنف ضعيف وآخر قوى . وإذا تركنا هاتين الصورتين على حالهما ، متباعدتين متطرفتين ، بقيتا بغير نفع . أما إذا قاربنا بينهما فقد يسهل علينا تحليل أنفسنا وربما معرفتها . أيمكن إلى حد متواضع أن نخلص أنفسنا من السلبية والضعف ، وأن نصطنع بعض الصلابة الإيجابية التى نفتقدها خفية فى أعماق قلوبنا ؟ أيمكن بالفكر أن نضيف بذوراً جديدة إلى جسمنا ؟

يجيب الناس عادة عن هذا السؤال بالتشاؤم . يقولون : كلا . خلق الإنسان مكتوب عليه ، وما كان عليه امرؤ منذ ولادته يجب أن يبقى معه إلى آخر الرواية . ويقولون إن الطبيعة البشرية لا تتغير أبداً . وإن الصفات مغروسة فى العلل فى شروط الجسم ، فى الصحة والقوة وتكوين الأعضاء وأدائها وظيفتها فكيف يمكن هذه الصفات العميقة الجذور أن تتعدل ؟

وثمة حقائق تلقى شكوكاً خطيرة على هذا الاعتقاد العتيق فى ثبات الخلق ذلك أن تاريخ العصر الذى نعيش فيه يعد مثالا قوياً ومدهشاً لتغير الشعوب من الأخلاق السلبية إلى الإيجابية . فمنذ خمسين عاماً كان صنف المرأة بأنها مخلوق فى العادة سلبى بالنسبة إلى الرجل ، ويمكن أن نسميها معظم الصفات التى وضعناها فى صورة الصنف الضعيف . فقد كان ضعفها الجسمانى أساس شعور بالنقص ، ينشأ عنه من أسفها الكامن الذى يكاد يستقر فى قلوب جميع النساء على أنهن لم يخلقن رجالا . ومن هذه « العقدة » كان ينبثق غيظ متهيب . كأنه صادر عن نار كامنة ، ينفجر بين حين وآخر فى حرارة كلامهن . وكانت طبيعتهن الرقة فى العمل . وإذا كانت ألفاظهن فى بعض الأحيان عنيفة ، فربما

(١) نسبة إلى مانى الحكيم الذى ذهب إلى وجود أصلين فى نشأة العالم : النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم) .

ذلك كان تعويضاً ، وانتقاماً ، من ذلك الخضوع الجسماني الذى كن يلقينه كأنه إلاهة الانتقام فى كل ركن من طريق الحياة . كن « الجنس الضعيف »

— على ذلك الأساس الجسماني قام حياء المرأة وخضوعها . ولم تكن تتحرق كالرجل شوقاً إلى التملك حقاً كان يبدو أن مهمتها من جيل إلى جيل ليست إلا معاشرة الأمومة فقط ودائماً . كانت تنحنى لسيدها ، وتتقى ضرباته بحب ، وتسلم له جسمها ومالها كما تسلم له جسدها ، وتلتمس سعادتها فى تحقيق إرادته . كانت الحياة شاقة وكئيبة فى نظرها . ولكنها كانت تعتاض عنها ، ما استطاعت ، بالانغماس فى القصص والشعر الرومانتيكى مما كان يرفعها بعض الوقت إلى عوالم أبهى .

ثم أمسكت بها الصناعة فى عجلاتها ، فدخل التنويع على حياتها كالسيل الجارف . وظهر عندها المسئولية الشخصية والاستقلال الاقتصادى ، فهى تتناول منها الخاص وتصوغ بنفسها أخلاقها . كانت ترتعد من قبل فى تفوق الرجل ، وكانت تراه دائماً فى الأمور الأولية سليم الطوية ، أليفاً ، سهل الانقياد ولكنها كشفت الآن . كما اكتشف هو نفسه بعد زمن طويل ، ذلك العابد الحنون للملاكمين والرياضيين ، أن السباق فى العالم الحديث ليس للأسرع ولا المعركة للأقوى . وأن الانتصار الآن أكثر من أى وقت مضى بالدهاء والذكاء ، وأقل بالقوة الجسدية ومجرد العضلات . وسرها أن تجد أن الضعف الجسماني ليس عقبة كؤوداً فى سبيل النجاح والسيادة ، وأن أعظم العباقرة كانوا فى بعض الأحيان أضأل الأجسام . وأنه حتى المرأة المختنقة بالمشدات ، والمقيدة بالقمصان ، والمثقلة بالتقاليد والمنغصات ، قد ترتفع إلى مصاف الزعامة والقوة وتصبح سيدة نفسها

من أجل ذلك كلما تقدم « التعبير الأكبر » ، تغلبت المرأة على سلبيتها واصطنعت صفات إيجابية . وأصبحت شخصية قادرة على الابتكار ، وعلى تولى أعمال الإدارة ، وعلى التفكير الواقعى ، وتشربت حب التملك وأصبحت من الباحثات عن الذهب . وأهملت هدوء البيت الهادىء ونزلت إلى الأسواق الصاخبة ، واتخذت من المطربات والمساحيق بديلا بالماء ، وأرخت المشد ،

وقصرت الفستان ، وكشفت عن نحرها للشمس . أصبحت عادتها أقل ، ولعبها أكثر . واستنشقت إلى أعماق صدرها هواء المنعش لحريتها الجديدة . وأصبحت أقوى نفساً وأشجع روحاً ، حتى تكاد في حين واحد تتفتح وتزدهر عن إنجابية لم يسبق لها مثيل .

وذعر الرجل وصدم ، وارتفعت شكواه الأخلاقية من « المرأة الجديدة » . ولكن التغيير جاء على عينه ، واستمر تغير بدنه ، فرأى نفسه وقد واجهته امرأة في الصناعة ، والتجارة ، والمهن ، والتعليم ، ورأى في جميع تلك الميادين وجه المرأة ، مع أن تلك الميادين كانت من قديم الأزل وقفاً عليه بحق الملك المقدس ومتعصب لاستقلالها في العمل والإرادة ، وتطلع إلى تلك الأيام الحلوة أيام العذارى العفيفات وإلى نعمة البيت القديم (كما تبدو من يتصورها بالذاكرة) الذي يمتلىء بالأطفال وكعك التفاح . لقد كافح هذا التغير برجولة وتدمر

ولكنه خسر المعركة . ففي أمريكا على الأقل كادت امرأة تتم انتقالها المدوح من الخضوع السلبي إلى السيطرة الإيجابية . وأخذت الصفات القديمة كوداعة العذارى وطاعة النساء تختفي . فالرجل من بين الجنسين هو الذي يغضي الآن حياء ، ويلمح بطرف عينه في رهبة ممزوجة بالخجل قدم الفتاة العصرية وساقها وركبتها وغير ذلك من المفاتن . واختفت من وثائق الزواج هذه الألفاظ . « تحب ، وتعز ، وتطيع » ، وسوف تعود قريباً لتكون أسئلة توجه للرجل . ولكنها ستكون زائدة عن الحاجة .

فلنحكم من خلال هذا التغيير السريع على إمكان تبديل الخلق . ومن الواضح أن تلك الصفات التي سميناها إيجابية وسلبية ليست متأصلة في الجسد لا تنفك عنه . حقاً أساسها موجود في قوة الجسم وضعفه . ولكنها يمكن أن تعدل إلى ما لا نهاية له بتهيئة الفرصة وسلطان البيئة . فالمرأة نفسها قد تطورت في آلاف الأحوال من الإحجام إلى الإقدام ، ومن الخضوع إلى السيادة . فمن الواضح أن الخلق قابل للتعديل — إذا شئنا .

وهنا تلقانا صعوبات دقيقة . فبعضنا لا يرغب في تبديل الخلق . إذ يرى أن أحوالنا موافقة لأنفسنا تمام الموافقة ، وأن أخطاءنا ذاتها محبوبة جداً . وليس

من المناسب إجراء أى تعديل فى أساس الخلق . يضاف إلى ذلك ظهور مشكلة أخلاقية هى أن إيجابية الخلق لا تتفق مع الأخلاق ، وأن الأمة التى يتألف أفرادها من مثل هؤلاء الأقوياء فقط مما رسمنا صورتهم قد تصبح مارستاناً يزخر بالمنافسة القاسية والحرب الشعواء ونحن نعترف بأن مهمتنا ليست تعليم الفضيلة ، وسوف يكون فى أدويتنا بعض الأمور المنافية للأخلاق . وإذا كنا نبدو فى هذه اللحظة حريصين على تغليب القوة على الفضيلة . فذلك لأن قوة الخلق هى ذاتها فضيلة حسنة . ولعلنا نعتمد على قسوة الظروف فى أن تمدنا بعدد كاف من الرءوس المنحنية والإرادات المحطمة .

وإذا شئنا أن نجعل أنفسنا أقوى مما نحن عليه فيجب أن نفهم أولا ما الإرادة : فهى ليست شيئاً غامضاً يقف بين عناصر الخلق كما يقف قائد الأوركسترا يشير تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك . بل مجرد مجموع سائر الدوافع والميول وجوهر وطابعها وليس هذه القوة الدافعة التى تكون الخلق قائداً تطيعه خارج ذاتها ، من بينها ينشأ دافع قوى تحكم بقية الدوافع ويوحدها . وهذه هى « قوة الإرادة » أن ترتفع رغبة عليا فوق غيرها بحيث تتحدد نحوها وتتهيأ بها إلى التحرك فى اتجاه واحد نحو هدف واحد . وإذا لم يتيسر لنا أن نجد غرضاً متسقاً . وغاية حاكمة نضحى فى سبيلها بكل رغبة أخرى من رغبات القلب ، ووحدة بعيدة عنا . ويجب أن نصبح فى نهاية حجر فى سفح جبل آخر .

من أجل ذلك لا خير فى قراءة الكتب التى تصف أمثل الطرق لتكوين الخلق . فهذا مثلا كتاب الأستاذ ليلاند **Leland** (لندن ١٩١٢) بعنوان « أعندك إرادة قوية ؟ أو كيف تنمى . . . أى ملكة عقلية بطريقة الإيحاء الذاتى السهلة » . وثمة مئات من هذه الروائع التى يمكن أن يشتريها البسطاء فى أى مدينة . ولكن الطريق أصعب من ذلك وأطول .

إنها طريق الحياة . فالإرادة ، التى هى الرغبات الموحدة ، هى (كما بين شوبنهور) الصورة المميزة للحياة النامية . ولا تريد قوتها وبنيتها إلا حين تتمس الحياة لها أعمالا جديدة وانتصارات جديدة . فإذا شئنا أن نكون أقوياء فينبغى أن نختار أولا هدفنا ونرسم بعد ذلك طريقنا إليه ، ثم نستمسك بذلك الهدف

مهما يحدث . وينبغي أن نحذر في هذا الصدد ألا نضطلع من أول الأمر إلا بما يمكن أن نعتمد عليه في أنفسنا ونمضي به إلى النهاية . ذلك أن كل فشل سيضعفنا ، وكل نجاح يجعلك أقوى . والعمل هو الذي يخلق العمل . ويكتسب مع كل نصر بسيط قوة وثقة تدفعانه إلى نصر أعظم . فالعمل يخلق الإرادة

وعندئذ قد يكون المرء شديد الحذر فيولى ظهره لجلائل الأعمال ، ويظل صغيراً على الدوام . ولكن تأكد أن الانتصارات موضوعة لك ترصدك ، فتستيقظ في الصباح بعد فوزك الذي احتفلت به طول اليوم . فتبحث عن مهمة تالية أعظم . واجه الخطر واحتمل المسئولية ، واعلم أنهم قد يهزمونك ، وقد يحطمونك ، ولكنك لن تموت إلا موتة واحدة ليست شيئاً مذكوراً في تاريخ الفلسفة . وإذا لم يؤد الخطر والمسئولية إلى موتك فسوف يشد ذلك عملك ، ويرفعك فتكون أدنى إلى العظمة وأقرب من هدفك . فلتمض ولا تقف

ونقدم لك حالة من التحليل النفساني في هذا الصدد دليلاً على مرونة الخلق والمصير الإنساني . ففي نظرية أدلر المشرقة يقوم أساس العقد النفسية والأمراض العصبية على حد سواء في بعض العيوب العضوية ، كضعف أو تشويه لعضو في الجسم ، التي يؤدي وجودها المستمر إلى حث النفس على الكفاح متغلبة على النقص . أو كما قال فرانسيس بيكون : « كل من يصاب في شخصه بشيء ثابت يبعث على الاحتقار ، فعنده كذلك في نفسه حافز دائم إلى النجدة وتخليص نفسه من الزراية » . وهكذا استطاع بيرون برجله الخشبية أن يتقن الرقص ، وأن يتسلق إلى الحد الذي جعله ذئباً اجتماعياً . وأصبح ديمستين المتهته خطيباً مفوهاً . وحين أصيب بيتهوفن بالصمم شق طريقه إلى موسيقى ليس لها مثيل . كذلك المرأة التي كانت تحترق فتحتج الرجولة على الضعف والخضوع الجثماني ، أخذت تقتحم طريقها بإقدام متخطية جميع التقاليد والحواجز . وفي ذلك يقول أدلر : « هذا الشعور الذي يحس به المرء عن نقصه يهيء له الدفع ليمضي على التقدم » إن أولئك الذين كانوا خلف الصفوف هم الذين يشقون طريقهم إلى الأمام ويتولون قيادة الجنس . وقد خرج من طبقة العرج أعظم المخترعين . فالأجسام العليلة كانت بين حين وآخر موئلاً للنفوس العظيمة ، ومحركة لها .

٥ ــ علاجات

ولكن ما ذكرناه كلام عام يبلغ من الغموض مبلغ أي نصيحة تنشد الكمال ، فسنقترب من البحث قرباً أشد . ماذا يعمل أحدنا بالذات ليظفر بقوة العقل والخلق ؟

فلتنشد الصحة أولا . ينقل عينيك كل شيء آخر ، أو على الأقل لن تحسب لعيبها حساباً كبيراً . أو كما قال نيتشه : « أول ما يطلبه الرجل المهذب أن يكون حيواناً كاملا . ويجب لذلك أن نتخير أجدادنا . ولما كان هذا الأمر عسيراً . فيمكن على الأقل أن نختار الغذاء المناسب والعادات الصحيحة » . وكان مولسكوت يقول : « الإنسان هو ما يأكله » . وليس ثمة دواء ساحر عام لهذه المسألة ، فكل إنسان يجب أن يكتشف سمومه الخاصة به ، وعليه أن يتجنبها . ضع كل ما يزعجك في قائمة سوداء ولا تدعه يقترب من مائدتك مرة ثانية ، إلى أن تصل بعملية من الحذف إلى معرفة الغذاء الذي يمنحك سلام الهضم . وإذا لم تستطع مصارينك أن تخرج بدون معونة العقاقير ، فسل نفسك أي مادة شريرة تصعدك إلى هذا الحد المخجل ، أهو الدقيق الأبيض البديع ، أم الحلوى والفطائر النشائية ، أم الوجبات التي تنقصها الخضراوات والفاكهة ؟ احتفظ بأمعائك وفمك مغلقاً ، هذه هي أنشودة الحكمة .

إذا كان لا بد أن نعيد بناء أنفسنا فينبغي أن نبدأ بالمعدة ، ثم نسمح لكل عضو آخر من أعضاء الجسم بالازدهار . فالطبيعة لم تخلقنا لنكون رجال فكر ولا كتبة ولا صحفيين ولا فلاسفة ، بل خلقتنا لنتحرك ، ونرفع الأثقال ، ونجري ، ونتسلق . لقد صنعتنا لحياة نستعمل فيها أذرعنا وأرجلنا . وأمثل مسلك لذلك هو الذي يجمع بين النشاط الجسمي والعقلي معاً أو متبادلين . لا بد أن ذلك الحاكم كان على شيء من الحكمة حين كان يحتطب الخشب كل يوم . ولكن هذا ترف لا يقوى على عمله إلا القلة القليلة منا فالحياة من التعقيد والتنافس بحيث يظهر أننا يجب أن نهب جميع وقتنا وكل طاقتنا لموضوع واحد وغرض واحد كيما نبلغ ذروة النجاح . ولكن فلنجذ على الأقل الحشائش في حديقتنا . ولنهذب أسوارها ، ونقلم أشجارها . ولنضحِ بأي شكل لتكون لنا

حديقة وسور وأشجار . وقد يكون لنا من الوقت فى المستقبل ما يسمح لنا بالعمل فى البستان وبعد فالصحة أفضل من الشهرة . لأن عبقرية بائسة فى حياتها ، ولا تشتهر إلا بعد موتها .

وقد نحتاج فى طلب الصحة والقوة إلى بيئة جديدة . ومما يعرف على العموم أننا إذا كنا لا نستطيع تغيير ما ورثناه فيمكننا تعديل موقفنا وكانت فلسفة الحتمية السائدة فى علوم العصر الفكتورى تتصور الإنسان فى تعاليمها الجديدة مخلوقاً مركباً من البيئة والوراثة . وليس هذا بالضبط صحيحاً . ما دام الإنسان مركباً من البيئة والوراثة ، ومن هذه القوة الغريبة الدافعة إلى التقدم والإبداع التى نسميها الحياة . ومن الصحيح كذلك ، ونستطيع أن نضيف ذلك إلى علاجنا ، أننا لن نغير أنفسنا تغييراً جوهرياً إلا إذا غيرنا المؤثرات التى تؤثر فى أنفاسنا من ساعة إلى أخرى . ونضوعنا آخر الأمر على صورتها . أنعيش بين قوم قذرين أو أميين لا يهتمون إلا بالأمور المادية والمأكولات ؟ فلنترك هذه الأرض ، مهما يكلفنا ذلك . ولنشد صحبة أفضل أيوجد فى أى مكان صديق نفس أصفى منا ، وعقل أعلم من عقلنا . وخلق أمتن من خلقنا ؟ فلنفتش عنه ولنشد إليه الرحال بعض الوقت ، حتى نتمكن من تنقية نفسنا من مدفنه فى هيئته ومثلته فى حمده . ثم لا نزال نتطلع إلى رجال أعظم . فاتباع العظماء خير من قيادة الأغرار . وقد كان قيصر مخطئاً . بل لأشرف أن يكون المرء تابعاً فى روما من أن يكون سيداً بين البرابرة .

وإذا لم يكن فيما نظن — ثمة شخص أعظم منك فى الدائرة الضيقة التى ترغمك الحياة على العيش فيها ، فالتمس صحبة العباقرة فى الماضى تستطيع أحد نصيحتهم بقرش واحد ، والاستماع فى ألفة إلى كلامهم . والاندماج فى الجو الصافى الذى يحيطهم . ومن الخطأ أن يظن المرء ألا أثر لمكتب . فأثرها بطىء كالماء المتدفق الذى يحفر الوادى ، وهى تنشأ كل عام تحديد ولا يتمكن أحد من إنفاق ساعة كل يوم فى صحبة الحكماء والأبطال دون أن يرتفع خطوة أو خطوتين بهذه الصحبة . فلا عذر لمن يجد نفسه صغيراً حين يستطيع أن يجلس إلى مائدة واحدة مع نابليون ، أو يمشى مع هويتمان ، أو يتعشى آخر الليل مع فردريك وفولتير .

لقد تكلمنا فيه الكفاية عن الأمور الخارجة عنا . أما في داخلنا فالمشكلة أصعب . إذ ما أعجبنا من برية . ومن حديقة رغبت بغير زرع ! كيف نعرف ما الزرع الذي يجب أن نسقيه هنا . والذي نتركه يموت هناك ؟

وأول قاعدة عظمى لتكوين الخلق هي الوحدة ، أو بنص عبارة جوته : « أن تكون كلاً أو تتصل بكل » . والثانية هي : أقدم ، ولا تتراجع . فهذا هو حصانتنا الذي يسمح الرجل الحكيم بشيء من الانحراف عنه ، ولكن لا إلى الحد الذي جعل الاستثناء يطغى على القاعدة . ففي المجموعة الأولى من الغرائز مثلا يمكن أن نصبح مجالا للعاطفة مع أنها متأصلة في الدافع السلبي وهو التقزز . وفي ذلك يقول نيتشه : « يجب أن ينبعث الإحساس بالنظافة عند الطفل حتى يصبح عاطفة . وسوف يرفع نفسه فيما بعد في أحوال جديدة على الدوام إلى فضائل جديدة » والنظافة تأتي في المحل الثاني بعد التدين . وكيف تكون الحال إذا لم تكن الآلهة موجودة ؟ ومع ذلك فلا بد أن نتقلب زهاداً من ذوى المظهر القذر لديهم . ولا أبولون ذا الشعر المستعار . ولا ضحايا كفتاة الريبة . سنشعر دائماً بحسد خفي لأحد الحكام المتأخرين الذي لم يسمح لتدينه أن يتدخل في شهيته .

ويمكن أن نقف الموقف نفسه من غريزة القتال وطليعتها الكبرياء . فهاتان فضيلتان لا رذيلتان . ومع أننا سنقاومهما فربما ذلك لندفعهما إلى النماء ، لا إلى المشاكسة ولا إلى الغرور . فالغرور توهم انتصارات تجيء . والكبرياء تذكر انتصارات تمت . والمشاكسة مقدرة الضعيف . وليس من الضروري أن يكون معنى المقدرة الصياح والضرب . فقد تعنى الثبات في هدوء وأدب على الهدف . ولا يحتاج المرء في طموحه إلى أن يكون قاسياً وحشماً . فالرجل القوى يعطى إذا كسب . ويجد لذة في إنشاء أكثر من التملك إنه يبنى ليسكن غيره ، ويكسب المال لينفقه الآخرون . إن الخلق لا ينشأ من الاستهلاك الظاهر ، بل من البناء والخلق .

وينشأ كذلك من العمل . عليك أن تتجنب المهن التي تجعلك تفكر وتفكر وتفكر دون أن تدع لك فرصة للعمل . ولأن يكون المرء نجاراً يقطع الخشب تحت أشعة الشمس ، ويراقب الأشياء تنمو مع كل ضربة فأس ، خير من أن

يظل يجمع حساب الدائن والمدين يوماً بعد يوم ، أو يتفكر في شقته المعزلة في أدلة جديدة عن حقيقة العالم الخارجي . الأفضل أن تعرف مقطوعة موسيقية من أن تسمع مئات المقطوعات . فلنلعب ولنضحك . وإذا كانت الحياة تبدو بين حين وآخر (كالبحر في يوم هائج) هزلا مراً ، فلنتذكر المزاح ، ولنغتفر المرارة .

تزوج ، فهذا أفضل من الاحتراق ، كما جاء في الكتاب المقدس . إذ ييسر الزواج للمرء أن يفكر في شيء آخر . قد تكون الشقيقة عند شخص شاذ مثل نيتشه أفضل من الزوجة ، ولكن الرجل السويّ سيجد الأخت غير ملائمة . فإذا حلت هذه المشكلة الأولية ، استطعنا أن نتحرك في العالم دون أن تنهبنا هفهفة الفساتين عند كل منعطف . فنحن نعلم أن جوهر النساء واحد مهما تختلف ملابسهن ، وأن ثمة دائماً تحت الظواهر المتعددة حقيقة واحدة . وبذلك نصبح قانعين في اعتدال ونتعلم حتى أن نحب زوجتنا بعد حين . قد يكون صحيحاً أن المتزوج يطرق أي باب للحصول على المال . ولكن المتزوج وحده هو الذي يستطيع أن ينمي في نفسه هذه المرونة .

اتخذ أصدقاء ، وإذا لم تستطع اتخاذهم ، فانظر في نفسك واعمل على تعديلها حتى تتمكن من المصادقة . والعزلة دواء سريع الشفاء ، ولكنها ليست غذاء . والخلق كما تصور جيته لا يسمو إلا في تيار العالم . وإذا انعطفنا على أنفسنا جرفنا التيار . حتى (كما يقال) إذا كان علم النفس صناعتنا . فالنظر على الدوام في داخل أنفسنا مطية إلى الكارثة التي قد تصيب لاعب التنس إذا وقف يحسب عن وعي المسافة والسرعة والزاوية والضربة . أو لاعب البيانو الذي يفكر في أصابعه . والصديق خير معين ، لا لأنه يستمع إلينا حين نفضي إليه بذات أنفسنا ، بل لأنه يضحكنا . فنحن نتعلم بواسطة الأصدقاء قليلا من الموضوعية ، وشيئاً من التواضع ، وبعضاً من الأدب . نتعلم قواعد الحياة فنحسن لعبها . إذا شئت أن تكون محبوباً فكن متواضعاً . وإذا طلبت إعجاب الناس بك فكن معجباً بنفسك . وإذا نشدت الحب والإعجاب فاجمع بين التواضع الظاهر والزهو الباطن . ولكن الزهو نفسه يمكن أن نجعله حياء ، بأن يخفى فلا يرى ولا يسمع . لا تكن مسرفاً في الشطارة لأن النكات تدع إذا جرحت . ويجب

أن يكون شعارنا : لا يحيا شيء ما لم يكن حسناً De vivis nil nisi bonum .
لا تكشف أبداً عورة أحد ، فلن يغفره لك إلى الأبد . لا شيء في العالم هو أفضل الأشياء جميعاً . فعمل الخير ما استطعت ، وتكلم بالمعروف دائماً . ولا تتهالك على قول الصدق . يجب أن تقبل العرف الذي يفرضه المجتمع عليك ، كما تمنحك بعض الحرية في اصطناع قوانينه . إن المجتمع يبيح لك أن تفعل ما تشاء بشرط أن تفعله بلطف ، وبغير أن تتحدث عنه . وفي أثناء ذلك فلتتقدم إلى الأمام بهدوء دون إثارة عداوات لا لزوم لها . أقبل دائماً ، ورحب بالتجربة ، وحرب الحياة حتى تهلك أقصى ما تستطيع حمله ، قبل أن تبرح المحراب تاركاً أطفالك يحرسون اللهب .

ولكن أين موضع الذكاء من هذا كله ؟ هل الخلق مسألة دافع فقط ، ولا فائدة في العقل والخيال ؟ كنا نود لو كان الأمر كذلك ، فكم يكون شأن الخلق بسيطاً . وأقوى الأهواء هي التي تخلق أقوى الرجال .

ليس الأمر بالطبع كذلك ، فالخيال والعقل في النفس الكاملة كالضوء الذي يصدر عن النار . وقد نصيبه في الخيلات أنفسنا . ولكننا قد نظفر بعظيم الانتصارات بالتبصر . وفي ذلك يقول إمرسون « كان نابليون قبل بدء المعركة يفكر قليلاً عما يفعله في حالة الظفر . ولكنه كان يفكر كثيراً عما يفعله إذا لم يحالفه الحظ » . أو بعبارة نابليون : « عندما أصمم خطة المعركة فلا أحد أكثر مني جبناً ، فأنا أجسّم لنفسي جميع المخاطر والأضرار الممكنة تبعاً للظروف » . فالخيال قد يحطمنا كما حطم نابليون سنة ١٨١٢ ، وقد ينقذنا من آلاف الكوارث إذا استعرضنا شتى المسالك قبل الانغماس في العمل .

ووظيفة العقل الحسنة إعانتك على العمل . وإذا انقلبت وظيفته صنعة في ذاتها أخرجت لنا منطقة أو قوماً مثل هاملت ، إذ تظل الحرب مشبوبة بينها بين العضلات والخلق . أما إذا أصبحت وظيفة العقل تعبيب رغبة على رغبة ، ونقد دافع بدافع آخر ، وكبح جماح شهوة بشهوة أخرى ، فهذه هي أفضل حالات امرء ، حيث تتحرك العناصر الممتزجة في نفسه هنا وهناك إلى أن تذوب في وحدة ، وتخرج في نظرة شاملة واستجابة كاملة .

فدوافعنا هي الريح التي تسير شراع سفينتنا ، ولكن كلا منها إذا لم يكبح سحبنا وراءه كالعبيد . ألم تر إلى الرجل الذي تتملكه فقط شهوة الجشع . أو البهيمية الجنسية ، أو القتال ، أو الثرثرة ، أو اللعب ؟ إن الحرية بكاملها إذا أطلقت لكل دافع أفضت إلى حل الخلق كما فعلت بأبناء قورش ، الذين قامت على تربيتهم نساء سايرن فيهم كل رغبة حتى أصبحوا ضعافاً منحلين . ومن ثمّ كانت غلبة المعرفة على الرغبة ، وهي جوهر العقل بالذات ، الأصل في أدب النفس وقوتها ، وفي تلك السلطة التي تكبح جماحها ، وتعد المرجع الأخير للخلق والإرادة . فإما أن يؤدبنا العالم ، وإما أن نؤدب أنفسنا . ولنا أن نختار بين الأمرين . جملة القول الخلق هو ما سماه « مِل » من زمن طويل « إرادة كاملة الصياغة » .

ولما كان التركيب أصعب دائماً من التحليل ، فإن علم النفس لم يضم بعد أطراف الطبيعة البشرية التي فصل أجزاءها . ولا يزال الأسهل أن تصف الإنسان من أن تدله على ما يجب أن يكون عليه ، وكيف يمكن أن يعدل نفسه . لقد لمسنا جانباً واحداً من موضوع عظيم سيجتذب في عصرنا كثيراً من المفكرين للبحث فيه . لقد حصلنا العلم بأنفسنا ، والآن نريد أن نبحث عن الفن الذي يخلقنا خلقاً جديداً كما سيطرنا على القارات والمحيطات . ولكن المعرفة قوة ، ومصير كل علم أن يكون في آخر الأمر فناً يؤتي الثمر لدى توسيع ملك الإنسان . وسيعيش أبناؤنا ليروا الناس تصنع العقول والقلوب كما تبني السفن والعربات ودوافع الإنسان ، التي ظلت هادئة تكاد لا تتغير على حين تبدل جميع وجه الأرض من حولها ، ستتشكل من جديد كيما تلائم الحياة الرفيعة والسريعة التي تصنعها الاختراعات التي لا يستقر لها قرار . لقد ازدادت الآن قدرة الإنسان العقلية وتعددت حتى ليبدو أن أصحاب العقول الراقية في العصر الحاضر ينتمون إلى نوع مختلف عن نوع الفلاح البطيء الاستجابة . وحين يأتي اليوم الذي تساير فيه أذهاننا آلاتنا ، وحكمتنا معرفتنا ، وأغراضنا قوانا ، عندئذ نملك سلوك البشر .

الجزء الخامس

علم الجمال

الفصل الثالث عشر

ما الجمال ؟

---

١ — حاسة الجمال عند الفلاسفة

من أقوال أناتول فرانس : « أعتقد أننا لن نعرف بالضبط أبداً لم كان الشيء جميلا ؟ » [١] . هذا الحكم الصادر عن فنان عظيم وباحث كبير قد ينصحنا بأن نولي ظهورنا إلى المشكلة التي نبحثها . فإذا كنا سنمضي في البحث فعلى أساس أن الفلسفة تحتمل كثيراً من « المطلقات Absolutes » ، ولا يقين فيها.

ومن الغريب حقاً أن الفلسفة وعلم النفس لم يفسحا هذه المسألة مجالا كبيراً . فكل قلب يلبي نداء الجميل . ولكن قل أن تجد عقلا يسأل لم كان الجميل جميلا . ويرى المتوحش الجمال في الشفة الغليظة والوشم الأزرق . وكان الإغريق يلتمسونه في الشباب أو في هدوء التماثيل وتناسقها . وكان الرومان يرونه في العظمة والروعة والبأس . وفي عصر النهضة كانت الألوان سر الجمال . ويراه الناس في العصر الحاضر في الموسيقى والرقص . وفي كل مكان وفي كل عصر ، تأثر الناس بلون من ألوانه وأنفقوا أعمارهم في طلبه . والفلاسفة وحدهم هم الذين تحرقوا شوقاً لفهم طبيعته ، والكشف عن سر قوته .

الحق أن هذه المسألة تتعلق بعلم النفس . ولكن علماءه تركوا بحثها للفلسفة ، كما يفعل كل علم حين يحيل على الفلسفة المشكلات التي لا يستطيع حلها . (ولذلك اتصلت مشكلات هامة بالفلسفة ، فعذرها عن العقم قليل) . ثم إن نزعة العلم الحديث الطبيعية ، وغرامه بالمعامل والتجارب ، واتجاهه نحو البحث

---

(١) On Life and Letters, vol. II, p. 176.

عن قوانين رياضية وكمية لجميع الظواهر ، كل ذلك جعله عاجزاً عن بحث مثل هذه الحقائق الزئبقية elusive [1] كالجمال (إن لم تكن دائماً غير ممسوسة) . ولن توضع مشكلة الجمال فى موضعها الملائم حتى يزداد تسليم علم النفس بالتفسير البيولوجى . وفى أثناء ذلك ترى الفلسفة أن لها مزية الخوض فى هذه المسألة حيث يرهب العلم البحث فيها . وحتى عظام الميتافيزيقا الصلبة فإنها ترتعش وتفزع بعض الشيء حين يحل الجمال إلى حين محل الحق ويلتمس فى الحكمة محراباً .

ومع ذلك فلم يسرع الفلاسفة إلى البحث فى هذا الموضوع المغرى ، فبقى غامضاً إلى حد كبير . كان فيه شيء من الوثنية نفر منه رجال الدين ، وشيء من اللاعقلية جعل شُكّاك المفكرين يقفون بلا حراك . ولم يظهر بومجارتن Baumgarten ، أول مفكر اعترف بطبيعة الجمال ميداناً مستقلا للبحث ، وأول من أطلق عليه الاسم الفظيع « استيتيكا esthetics » ، اعتذر عن إدخال مثل هذا الموضوع المزرى بين قصور الفلسفة . ولا ريب أنه كان يخشى أنه على الرغم من العنوان المقفر الذى وضعه لهذا العلم ، فالمشكلة قد تصرف أذهان قرائه بين تماثيل والحسان . وكان وجهه يحمر خجلا لهذا الاحتمال .

وحتى حيث كان الجمال يحتفى كثيراً ، ويمجد تمجيداً عظيما — فى اليونان القديمة — عجز الفلاسفة عن الكشف عن سر فتنته . وبدأ فيثاغورس لعبة الجمال بأن رد الموسيقى للعلاقات الرياضية ، وكان يصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق . ولما كان فلاسفة الإغريق السابقون على سقراط كالعلماء قبل دارون خاضعين لسلطان الطبيعة والرياضة . فقد التمسوا تعريف الجمال فى عبارات كمية ومكانية : فالموسيقى نظام فى الأصوات ، والجمال المجسم (بلاستيك plastic) انتظام فى نسب .

أما أفلاطون الذى لم يكن شيئاً مذكوراً لولا اشتغاله بالأخلاق (كان حريصاً على وقف الخلاف بين وطنه) فقد ذهب إلى الطرف الآخر ، ومزج الجمال بالخير فى وحدة رائعة . فالفن يجب أن يكون جزءاً من علم الأخلاق

---

(١) المقصود بالاصطلاح أن الشيء يراوغنا ويهرب منا ، وهذه هى صفة الزئبق لاتستطيع أن تضع يدك عليه (المترجم) .

وفيما عدا الفوائد التعليمية للموسيقى (وحتى فى ذلك الزمان كانوا فى بعض العصور يصطنعون الشعر لتذكر التواريخ وسير الملوك) فجانب الفن ضئيل إلى أقصى حد فى مدينة أفلاطون الفاضلة. ونحن نجد عند أرسطو الإجابة النموذجية عن سؤالنا. فالجمال هو التماثل، والتناسب، والترتيب العضوى للأجزاء فى كل مترابط. إنه تصور يسير ما أنه يتفق مع «تعاون الجزء مع الكل». هذه الفكرة التى تردد صداها خلال هذه العصور. ويكاد يكون الإغراء بتقصى هذه المسألة وبيان قواعدها لا يقاوم. ولكن لم كان التماثل والتناسب، والترتيب والوحدة، مصدراً لابتهاج النفس؟ هذا هو السؤال الذى يقتضى أكثر من موعد.

لقد أضاف ونكلمان (1) Winckelmann، ولسنج (2) Lessing شيئاً يسيراً إلى هذه الأجوبة، وأسلما قيادهما لسلطان الإغريق. وظل الجمال مسألة هيئة وصورة، يختص بالرخام المنحوت والمنقوش، وبالمعابد التى تشيد صامتة فى التلال. كان الجمال صفة تكاد تكون محلية تقتصر على الترتيب وما فيه من حلية. أما أن يكون التمثال محركاً للمشاعر حتى يبدو تسرى فى جسمه الحرارة، وأن يلتمس سر الجمال فى الأصل أولى من تلمسه فى صورته، فلم نجد عند هذين المفكرين إلا قليلا من الترحيب لجمود عقلهما وكلاسيكيته، فكانا أكثر كلاسيكية من الإغريق أنفسهم.

وظهرت عند كانط وشوبنهور نغمة جديدة. فالجمال صفة الشىء الذى يبعث فى أنفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه، ويحرك فينا ضرباً غير إرادى من التأمل، ويشيع لوناً من السعادة الخالصة. وفى هذا الإحساس الموضوعى البرىء عن الهوى يوجد، كما يذهب شوبنهور، سر تقدير الجمال والعبقرية الفنية. ويتحرر العقل بعض الوقت من الرغبة، ويحقق تلك الصور الخالدة، أو المثل الأفلاطونية، التى تكون المظاهر الخارجية للإرادة الكلية. حتى إذا كنا مع هيجل عدنا مرة أخرى إلى الإغريق: فالجمال وحدة فى تنوع، وتصور

(1) يوحنا ونكلمان (١٧١٧ – ١٧٦٨) باحث ألمانى درس فن الإغريق وآثارهم. ونظريته فى الفن الإغريقى تقوم على الهدوء والعظمة (مترجم).

(2) لسنج (١٧٢٩ – ١٧٨١) روائى وناقد ألمانى كتب عدة دراما (مترجم)

الصورة على المادة ، والمظهر المحسوس لمثال ميتافيزيقى . فلا غرابة أن تكون أثقل الكتب فى العالم ظلا ، هى تلك التى كتبها الناس عن الجمال .

٢ — حاسة الجمال عند الحيوان

ماذا نفعل إذا كان ما سبق كله طريقاً للبحث فاشلا ؟ من يدرى لعل الجمال وظيفة للحياة لا مادة ولا صورة ؟ ومن يدرى لعل علم الحياة يفيدنا هنا حيث لم يستطع علم الطبيعة أو الرياضة ؟

فلنذهب إلى الحيوان ولنحاول أن نتتبع حاسة الجمال إلى منبعها . إننا نخطىء حين نفترض أن الإنسان وحده هو الموهوب بالشعور الجمالى . فثمة حيوانات كثيرة أجمل من هذا الذى يمشى على قدمين ، ويخلو من الريش ، ويحكم الأرض حكماً عسيراً . كل ما نعرفه أنها قد تستبين الجمال أوضح منا ، وقد تنظر إلينا كما ننظر أحياناً بازدراء هادىء متمهل . إننا نظن أننا وحدنا نشعر بالجمال لأننا نربطه فى النوع الإنسانى بالبصر وبالصورة المرئية . أما عند الحيوان ، إذا حق لنا أن نتكلم بالنيابة عنهم ، تنشأ هزة الجمال فى مواضع من الفم . وفى ذلك يقول كلب مسيو برجيريه [1] الصغير « شم الكلب لذيذ » . ولا ريب أن ناساً فى نظر ريكيت[2] Riquet كانت لهم روائح كريهة محددة

ومع ذلك فقد يكون لحاسة السمع كذلك قيمة جمالية عند الوحوش . فبعض أنواع من ذوات الأربع مشهورة بالتأثر بالموسيقى . وفى ذلك يقول إليس Ellis : « لقد دلت التجارب التى أجريت على عدد متنوع من الحيوانات فى حدائق الحيوان عند سماع توقيع آلات موسيقية أن جميعها باستثناء بعض سباع البحر كانت تؤذيها النغمة الناشزة . . . وتهيج نمر كان يرتاح إلى صوت الكمان عندما سمع المزمار المسمى piccolo . ومعظم أنواع الحيوان تؤثر سماع الكمان والناى flute » [3] . ولاحظ إليس أن كلبه نبح وعوى

(١) Monsieur Bergeret هو الشخصية الرئيسية فى أربع قصص كتبها أناتول فرانس ، يصور فيها أحوال فرنسا وأخلاقها . (المترجم) .

(٢) يريد المؤلف اسم الكلب سالف الذكر . (المترجم) .

(٣) Studies in the Psychology of Sex, vol. IV, p. 122.

عندما سمع ترانيم موسيقية لشوبان ، ولكنه ذهب لينام غير حافل عندما لعبت مقطوعة موسيقية بهيجة . ويضيف دين سويفت Dean Swift بلباقة : « ألم يخبرنا عليان Aelian كيف أن الأفراس الليبية كانت تهتاج إلى الجياد بالموسيقى ؟(وهذا يجب أن يكون نذيراً للنساء العفيفات بعدم الذهاب إلى الأوبرا) »[1] .

وليست عين الحيوان عديمة الحس بالجمال . فبعض الطيور فيما يروى داروين تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملونة البديعة ، وبالحجارة وبريش وشرائط النسيج مما يخلفه الناس في بيوتهم[2] . والطير المسمى « بوير »[3] bower-bird يبنى عشاً خاصاً لأنثاه بعصيه من فروع الشجر ، ويفرشه بالحشائش ، ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبه بهيئة قبة على جانبيه . ويزين جدران العش بالريش الملون ، والتوت الأحمر ، وأى شىء بديع يجده . وأخيراً يحلى طريق الدخول والخروج بالمحار والحجارة اللامعة فهذا هو القصر الذى يبنيه طائر البوير لأنثاه وفى ذلك يقول بوش « يكفى أن تلقى نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة « بالجميل » توجد فى ذهن هذا الطائر الصغير »[4] .

وقد رؤيت بعض الطيور تحدق فى صورتها فى المرآة . ويمكن اصطياد عدد كبير من القنابر بمرآة صغيرة تعكس أشعة الشمس . فتتجه الطيور نحو هذا الشعاع تسوقها رغبة عمياء على الرغم من توهجها القاتل والعقعق والغراب وغيرهما من الطير تسرق الأشياء اللامعة كالفضة والحلى وتخفيها فمن يدرى أى دافع يسوقها : أهو الزهو ، أم الاستطلاع ، أم الجشع ، أم الذوق الفنى ؟[5] ولكن هذه الظواهر الجمالية التى تحس فيها الحيوانات بالأشياء غير الحية نادرة .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١

(٢) Darwin, The Descent of Man pp. 112. 469.

(٣) طائر يعيش فى استراليا ويشتهر بعشه الذى يزينه بالريش حسب موقع (المترجم)

(٤) Bolsche, W., Love-Life in Nature, vol. II, p. 285. Gourmont R. de, The Natural Phil. of Love pp. 192.

(٥) Descent of Man, p. 469.

وتقديره للجمال مدى تعبر عنه صئبل وثانوى بالإضافة إلى فتق الذكر المحسوس الذى يظهره بعرض عسه على الأنثى زمن السفاد . ويقول دارون : « ينحصر تذوق الجميل عند معظم الحيوانات ، بقدر ما نستطيع أن نحكم ، فى جاذبية الجنس الآخر »[1] .

ولسنا نجد شيئاً أعظم غناء فى بحثنا من هذه العبارة التى دونها عالم من أزهر العلماء وأشدهم تواضعاً . فإذا كان دارون على صواب ، فمن الواضح أن حاسة الجمال (كما تثبت فى الغالب وتنكر دائماً) تتفرع عن الجاذبية الجنسية وتفيض عنها . فالجميل هو ما كان أولياً مرغوباً رغبة جنسية . وإذا كانت الأمور الأخرى تبدو له جميلة فهى مشتقة عنها ، وعن طريق صلة المطلقة بهذا الينبوع الأصلى للحسية الجمالية . وحين يضع شوبنهور فى كتابه « ميتافيزيقا الجميل » مشكلة الجمال فى عبارته التى يمتاز بها قائلا : « كيف تكون المتعة بالشىء الجميل ولذة من رؤيته ممكنة دون أن ترجع المتعة نفسها إلى إرادتنا ؟ » فالجواب هو ليس ذلك ممكناً . فالموضوع الجميل يتوفق سراً مع إرادتنا . والإرادة الأساسية والمطمئنة عند الفرد فى فلسفة شوبنهور هى إرادة الاتصال الجنسى . فسنبحث هذا الأمر .

٣ ــ الجمال الأولى : الأشخاص

يكون الشىء جميلا قبل كل شىء لأنه مرغوب ، أو بعبارة سبينوزا : إننا لا نرغب فى الشىء لأنه حسن ، بل نسميه حسناً لأننا نرغب فيه . وهكذا فنحن لا نرغب فى شىء رغبة أصلية لأنه جميل ، ولكننا نعتبره جميلا لأننا نرغب فيه .

وكل شىء يحقق فى طبائعنا حاجة أساسية يحمل فى طياته بعض الإمكانيات الجمالية . فطبق الطعام يجب أن يكون جميلا فى نظر الجائع كما تبدو المرأة فى الثلاثين فى عين طالب الجامعة ، امرىء المعدة بالطعام . ولكن دع طالب الجامعة sophomore يجوع وسوف تخمد حسته بالجمال حتى لأجمل الغادات إذ سيعتبرها مجرد شىء صالح للأكل . (ولا يزال شىء من هذه الشهوة الأولية باقيا فى جميع حبنا) وفى نظر المؤلف الذى كافح سنين عدة ليشق طريقه

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

إلى المطبعة تبدو أول صفحة ننشرها شيئاً بارع الجمال لن يسئمها أي شعب ذكي للبلى ، ولكن هذه الصفحة نفسها قد تكون ، في نظر فلاح أو صانع له مطامع أصح من تأليف الكتب ، مجرد ورقة مهملة تصلح لأن يمسح بها موسى الحلاقة . فالجميل بناءً على ذلك في أدنى درجته هو المظهر المحسوس لما يشبع الرغبة القوية . الحق أن الجميل لا يختلف عن الدفع إلا في شدة حاجته .

والجميل والقبيح – كما يقول نيتشه – أمران حيويان . فكل ما ثبت ضرره قطعاً يبدو قبيحاً . فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو . ولكننا نعده حلواً لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدراً أساسياً للطاقة . وكل شيء نافع يصبح بعد وقت قصير ، لدينا مقبولا . مثال ذلك أن سكان شرق آسيا يحبون السمك المجفف لأنه الطعام الأروقي الوحيد الذي يتمكنون من الحصول عليه [1] . ويقول سذرلاند Sutherland : « لم تصبح السماء زرقاء لنمتع أعيننا . ولكن عيوننا هي التي أصبحت ملائمة لأن نجد متعة في زرقة السماء . فجميع المبنات وكافة الألوان تحقق لذة طبيعية متناسبة مع كثرة وقوعها في تجارب الحس » . إننا نرى الحشيش الأخضر والسماء الزرقاء جميلان ، ولكن قد كان يمكن بالعادة أن نجد متعة في سماء خضراء وحشائش زرقاء .

ومن الواضح أن الجمال المتميز عن المنفعة مرتبطٌ بضرب قوى من الإشباع يعكس قوة الرغبة . فالمال أجمل منه أن يكون أنفع في نظر البائس . وكل شيء يكتسب جمالا إذ حرك تكائن وبعث فيه القوة ومن ثَمَّ نشأ جمال الضوء والنظم والملمس الرقيق . أما القبح فيعمل على خفض حيويتنا ، واضطراب هضمنا وأعصابنا . وقد يؤدي إلى الصداع أو إثارة النفس [2] . أو تحرك الشعر إلى الحث على الثورة . والجمال – كما يقول سنتايانا – هو لذة المتحققة في موضوع [3] . أو بعبارة ستندال ، دون أن يعلم أنه يتابع هوبس [4] : « الجمال وعد باللذة » .

---

(1) Sutherland, A., Origin and Growth of the Moral Instincts, vol. II, pp. 85-91 ; Fuller, Sir B., Man as He Is, p. 68.

(2) Ellis, H. The Dance of Life, p. 328.

(3) The Sense of Beauty, p. 52.

(4) Cf Encyclopaedia Britannica, eleventh edition, vol. IX, p. 827.

وكما أن الفن لا يظهر فى أمة إلا بعد تجمع الثروة الفائضة عن الحاجة الاقتصادية وظهور طبقة أهل الفراغ ، كذلك الحال فى الفرد ، عندما لا يقلق الجوع باله أو لا يكون شديداً . تزدادعنده الحساسية الحسية وتقبض على إحساس بالجمال . وترتفع قابليته للجمال وتنخفض مع القوة الجنسية وضعفها . والحب يخلق الجمال على الأقل بمقدار ما يخلق الجمال الحب . وكان دون كيشوت يرى فتاته دلكينيا Dulcinea أحلى الغادات [1] . ويقول دى جورمون [2] De Gourmont : « سل ضفدعاً ما الجمال يجبك أنه أنثاه ، ضفدعة ذات عينين مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير ، وذات فم وسع عريض ، وبطن أصفر ، وظهر بنى » .

من الواضح أن الجمال يرتبط بالصلة الجنسية التى تعتمد فى الإنسان على تلك الأعضاء التى تكوّن صفات الجنسية الثانوية ، والتى تظهر عند البلوغ بوساطة الهرمونات التى تتخلل الأنسجة الخلوية ، وهى : الأثداء ، والشعر ، والأرداف ، والسيقان ، والأذرع المستديرة ، والصوت الناعم . ولكى تجمل نساء الأجناس المنحطة أنفسها فى أعين أزواجهن يعملن على تضخيم الهيئات التناسلية ، على حين يصطنع أهل القبائل الأرقى سياسة مقابلة ولكنها مماثلة : وهى إخفاء الأعضاء التناسلية ، لأن الإخفاء يجذب بنجاح كالمغالاة . والملابس (كالعفة) تزيد فى قيمة الجمال لأنها ضرب من المقاومة ، والمقاومة تزيد فى حدة الرغبة . يقول سانتيانا : « لا تمكن للآلهة أن تتعرى لأن صفاتها هى عين ذاتها » [3]. لعل هذه كانت طريقته التى أوحى بها بعناية من أن الزى كان فى الأيام المزيفة والحيوية ضرورياً للجمال .

---

(1) دلكينيا هى معشوقة دون كيشوت ، ويصفها بأن شعرها من الذهب ، وعينيها شمسان متوهجتان ، وخديها وردتان ، وأسنانها من اللؤلؤ ، وهكذا . (المترجم) .

(2) دى جورمون (١٨٥٨ — ١٩١٥) ناقد فرنسى وروائى وشاعر تمتاز آثاره بالتهكم والنزعة الحسية (المترجم) .

(3) Reason in Society, p. 241.

وملاحة المرأة فى نظر الجنس البشرى أعلى صور الجمال . ومنبع جميع الصور الأخرى ومعيارها . يقول خيب بوفنيس Paphnuce فى تاييس : « أنا جمال المرأة فأين تظن أنك تهرب منى أيها الأحمق المجنون ؟ ستجد مثلى فى بهاء الأزهار ورشاقة النخيل ، وفى تحويم الحمام ، ووثب الغزلان ، وفى حرير الجداول ، وفى ضوء القمر الشاحب . وإذا أغمضت عينيك فستجدنى فى داخل نفسك » .

وكان يمكن أن يسود جمال الرجل إحساسنا بالجمال لو سادت المعايير والنزعات الإغريقية . فالصداقة فى اليونان كانت تتحكم فى الحب . وكان مثال الجمال فى إسبرطة وأثينا هو الشاب الممتلىء بالرجولة ، الذى يجمع بين الجمال والشجاعة . ولذلك أضحى الفن الإغريقى تمجيداً للرجل الكامل . ويعكس الميادين الرياضية ، على حين يعكس إحساسنا بالجمال تمجيد المرأة وسلطانها فى قلوبنا وحياتنا . وإذا كان جمال الرجل لا يزال يحرك فى بعض الأحيان فلعله فى ذلك العنصر من عناصر الحب الذى قد يرتفع إلى حد الشغف والإخلاص فى الصداقة ، كما كانت الحال عند الإغريق .

وتصبح المرأة منبع الجمال ومعياره لأن حب الرجل إياها أقوى ولو أنه أقصر من حبها إياه . وتخلق شدة رغبته ملاحتها الفائقة . وتسلم المرأة بحكم الرجل عليها أنها أجمل منه ، إذ ما دامت تهوى أن تكون معشوقة أكثر من حب ثابت ، فهى تتعلم أن تقدر فى نفسها تلك الصفات التى تقوى الرغبة . وفيما عدا ذلك ، لا تنشد المرأة الجمال فى الرجل . وليست فى حاجة إلى تخيله فيمن تهواه . إنها تلتمس فيه القوة . والقدرة على حمايتها هى وصغارها ، وأن يضع تحت قدميها ما استطاع من كنوز العالم .

ومن الدلائل الواضحة على تولد الجمال من الرغبة ، أننا حين نظفر بالشىء المطلوب تفتر فينا حاسة الجمال . وقليل من الناس عندهم من الحكمة ما يجعلهم يشتاقون إلى ما يملكون . وأقل من هذه القلة هم الذين يرون الجمال فيما لم يعد يبعث الرغبة . وبهذا السبب تتعلق معظم الحكايات . ومع ذلك دع الموت يختطف زوجاتنا منا ، أو دع أحد لصوص القلوب يوجه سهام نظراته

إليهن ، وسوف يشتعل لهيب الرغبة من جديد ، ويضيء جذوة الجمال التي انطفأت . وما أعجب أن يصبح نفس الوجه الذى أصبح بالنسبة إلينا مجرد نثر مثال الشعر والإبداع فى عين من لم يخمد التكرار فيه النظر . فلنطلب من الله أن يهبنا القوى على أن نرى زوجاتنا كما يراها الغريب .

٤ — الجمال الثانوى : الطبيعة

الحب إذن هو أب الجمال لا ابنه ، وهو المصدر الوحيد لذلك الجمال الأولى الخاص بالأشخاص لا بالأشياء . ولكن ما الحيلة فى هذا العدد العديد من الأشياء التى تبدو لنا جميلة ، ومع ذلك فليس لها صلة ظاهرة بالحب؟ كيف نفسر جمال العالم الخارجى ذلك الجمال غير المحدود ؟

كما أن كثيراً من ألفاظ معاجمنا لها دلالات ثانية ومنقولة ، ولها دلالات أولية وأصلية ، كذلك لكل غريزة مطلوبات وإشباعات أولية وثانوية ، فغريزة طلب الطعام تصبح غريزة عامة للتملك تشتاق إلى كل ذى قيمة . وغريزة القتال فى سبيل الطعام أو الزوجات تشيع فتضحى غريزة عامة للقتال من أجل لذة القتال . كذلك انفعال الجمال (وهو جزء من « انفعال الحدب » tender-emotion المصاحب للغريزة الجنسية) قد يفيض من الشخص المطلوب على الأشياء المتصلة به ، على أغراضه وهيئاته ، على أحوال سلوكه وأساليب حديثه ، أو على أى شيء آخر فيه أو يمثله وعلى هذا النحو يشارك العالم كله فى بهاء محاسن المرأة .

تأمل الأشياء التى تبدو جميلة الملمس : الأشياء المستديرة ، الناعمة ، المنحنية . لم نسر بها ؟ أذلك لأنها مستديرة أو ناعمة أو منحنية ؟ ومع ذلك قد يكون المربع جميلا فى نظر بعض الناس ، فهو عند أرسطو رمز للعدالة . أو أننا نفضل المستدير والمنحنى والناعم لأن ذكرياتنا تربطها بالاستدارات الناعمة للجنس اللطيف المطلوب ؟

تأمل جمال المشمومات . لم نسر من نظافة الأبدان ، وأريج الأزهار ، وعبق العطور ؟ أذلك لأن الانتخاب الجنسى كان يتم فى الأصل بوساطة الشم ؟ تحتفظ الأزهار بأعضاء التوليد فى النبات ، وكانت عطورنا المحبوبة حتى ظهور

التركيبات الكيموية تستخرج من العناصر التناسلية لأنواع كثيرة من الحيوانات. وفن العطور المثيرة من جملة ما تعرفه كل امرأة.

وتأمل جمال الأصوات. لقد نشأت فى الأصل فكرتنا عما فى الصوت من جمال من أغانى المرأة المطلوبة أو حديثها: «فالصوت الرقيق أبدع شىء فى المرأة»: وقد يمتعنا ويسحرنا أكثر حتى من المفاتن التى نراها بالعين. أما الصوت الأجش فقد يفسد نصف جمال أبهى الأشكال. ويقول مستحانزا Mantegazza «بعض أصوات النساء لا تمكن مقاومتها عند سماعها». ومن جهة أخرى تحب المرأة مايسميه إليس «الصوت الملتحى للرجل a bearded male voice»، لأنها تؤثر على وجه العموم القوة على الجمال، وتحب فى الرجل ذلك الصوت الرنان الذى تطور فى أكبر الظن بوساطة الانتخاب الجنسى للقوة الجسمية كدليل على الحماية والوفرة.

وقد يمكن أن يكون الصوت نفسه قد نشأ كحلية جنسية. ويستطيع الأديب أن يتخيل سماع رنات الموج فى أشعار هوميروس، ويتذكر حيث شكسبير فى نقنقة الضفادع وزقزقة العصافير. ومن الصوت نشأ الغناء الذى يكاد لا ينفصل عن الحب (ولو أن الدين والحرب قد احتلا بعضه). ومن الغناء نشأ الرقص، وهو جزء من شعائر الحب [1]. ومن الغناء والرقص نشأت الموسيقى.

وقد ذاعت الموسيقى وابتعدت فى كل جانب من هذا الأصل الجنسى. ولكنها لا تزال مرتبطة بأمها، فلا تجد فتاة تهوى تعلم الموسيقى. والفتاة التى تعشق الموسيقى قبل أن تلعب البيانو بعد سنوات عدة من زواجها. ودائماً يطلب المرء فتنة حيوان قد وقع فى الأسر واستؤنس؟ أما الرجل الذى كان يزأر ويتلوى أمام خطيبته فإنه يفقد ميوله الموسيقية حين يتفق عليه الزواج بعروضه الفصيحة، ولا يسلم إلا تحت إلحاح الاحتجاجات بالضرورة الاجتماعية لاحتمال ستارفنسكى وشوينبرج، وريتشارد ستراوس.

(١) الحب فى اللغة الإنجليزية love، يفيد العاطفة الروحية والانجذاب الجنسى معاً. وليس فى العربية لفظ يفيد المعنيين جميعاً، فكلمة حب أو مودة تفيد الصلة الحسية فقط، والسفاد خاص بالحيوان. ولذلك فيكون مفهوماً أن استعمل لفظ الحب أريد به الصلة الجنسية كذلك. (المترجم).

ولكن الحب وحده لا يكفى فى تفسير هذه الميادين المشتقة من الجمال السمعى . د تتدخل لذة الوزن rythm كعنصر مستقل . فالشهيق والزفير ، وانقباض القلب وانبساطه ، بل وتماثل البدن من جانبيه ، كل ذلك يهيئنا لارتفاع الأصوات وانخفاضها الموزون . وعندئذ لا نشعر بلذة جنسية فقط ، بل النفس كلها تنتشى بالسرور . إننا نخلق الوزن من دقات الساعة بل من وقع الأقدام عند المشى . إننا نحب المرجحة ، والرقص ، والشعر ، والمتقابلات ، والمتطرفات .

وتهدىء الموسيقى أنفسنا بما فيها من وزن ، وترفعنا على وقعها إلى عوالم أقل فى حيوانيتها مما يوجد على الأرض . قد تخفف الموسيقى الآلام ، وتحسن الهضم ، وتبعث على الحب . وتعين على تهدئة الجنون الثائر . وهى التى يسرت للجزويت فى باراجواى أن يجمعوا ثروة عبيدهم من الهنود ، وزادت فى قدرتهم على العمل . وقد تعين الجندى على الذهاب إلى براثن الموت فى رضى وسرور . وأدى هايدن Haydn لآل هبسبرج خدمة أعظم من أى قائد . ولا يدرى أحد أن الشىء الكثير من بسالة الجيش الروسى إنما يرجع لأغانيهم الوطنية القوية . ويظن ثورو Thoreau أنه لا يوجد شىء أعظم ثورة من الموسيقى ، وتعجب كيف يمكن أن تستغنى بعضها عنها . وإن كان ذلك لأن ثورو كان ثورياً . فالموسيقى قد تخمدنا إلى حد السلبية كما قد ترفعنا وتحركنا إلى العمل . أو كما قال تولستوى لجوركى : « حينما تريد أن تتخذ عبيداً فلتصطنع من الموسيقى بقدر ما تستطيع ، لأنها تبلد أفهامهم » . لقد اتفق النبى الروسى القديم مع أفلاطون الذى ذهب فى فى مدينته الفاضلة إلى أن أحداً بعد السادسة عشرة لا يجب أن يسمع الموسيقى .

وأخيراً تأمل الجمال البصرى . عندما ظهرت القامة المنتصبة ، فقد الشم قوته وزعامته . وأخذ البصر يسيطر على حاسة الجمال . إن جمال المرئيات ، كجمال المسموع ، يبعد كثيراً عن جمال المرأة المحبوبة . وهنا نواجه مرة أخرى لغز مشكلة الجمال : أتكون الخطوط المنحنية ، والنسب المتماثلة ، والوحدة العضوية علة الجمال الشخصى أم نتيجة له ؟ أهى أولية أم مشتقة ؟ أنحب المرأة لأن جسمها يتصف بالتماثل ، والوحدة ، وكل استدارة فاتنة ، أم أن هذه الصور تسحرنا ، فى أى ميدان توجد فيه ، لأنها تذكرنا أو كانت تذكرنا بكمال المرأة ؟

نحن نصفها فنقول : « لها رقبة كالأوزة » وبذلك نتخذ من الأوزة معياراً للرشاقة . ولكن لعل الإنسان كان يشعر فى الأصل بأن « للأوزة لها رقبة فى جمال رقبة المرأة » . فالمليح ما كان فى أول الأمر محبوباً .

ويبدو أن الفن يرجع إلى قصد الحيوان أو الإنسان إلى محاكاة الألوان التى تنميها الطبيعة فى الطير والحيوان فى موسم الزواج ، والتى تخطر بها فى عين الجنس الراغب فى الانتخاب . وقد رأينا كيف يزين الطائر عشه بالأشياء البراقة ، ويزين الرجل بدنه بألوان زاهية تثير الرغبة . فلما ظهرت الملابس انتقلت الألوان من الأبدان إلى الثياب ، للغرض نفسه وهو اجتذاب العين . واحتفظ الناس باللون الأحمر على أنه أشد الألوان إثارة للدماء . والأمر كذلك فى الغناء والرقص والموسيقى والشعر وكثير من صور النحت فإنها تنبت من شجرة الحب . والبناء وحده يبدو مستقلاً ، وربما ذلك لأن سرّ قوته فى الجلال sublime لا فى الجمال

ويتصل الجلال بالجمال صلة الذكر بالأنثى . فاللذة التى نشعر بها من الشىء الجليل لا تنشأ من الملاحة المصبوبة فى المرأة ، بل من القوة التى نعجب بها فى الرجل . وأكبر الظن أن المرأة أشد انفعالاً بالجليل من الرجل ، وأن الرجل أعظم تأثراً بالجمال ، فهو أحرص على استغلاله ، وأعظم شوقاً إلى الرغبة فيه ، وأثبت على حقه . والجليل كما بيّن بيرك Barke ما كان مصدراً للقوة والخطر على الشخص الآمن ولم يعنَ هانيبال وقيصر (على الأقل للحشف) على جلال جبال الألب ، فهى فى نظرهما صخور مخوفة لا مناظر بديعة . ثم انظر فى مقابل استخفافهما الرجولى إلى حساسية روسو الأنثوية ، وكيف كشف للناس عن عظمة الألب حديثاً . ولكن روسو كان آمناً ، ولم يكن عليه أن يقود الجيوش فى تلك المرتفعات الموحشة . ولعل الإغريق (كما ذهب إلى ذلك سرجى Sergi) قصروا فى تصوير المناظر الطبيعية ، لأن الطبيعة كانت لا تزال على فطرتها خطراً على حياتهم ، فلا تبيح لهم الوقوف بإزائها وتأمل عظمتها .

وعند الإعجاب بالمناظر الخلوية ، يقف الجمال بعيداً عن منبعه فى الحب . ذلك أن معظم السرور الذى يملأ النفس من المناظر الطبيعية راجع إلى جلال الرجولة ، وينشأ كثير من ذلك الجلال من الجمال الهادىء الشبيه بالوضع الدافىء

لكل صدر بديع . هذه صورة لكوروت[1] Corot . فيها حقول متموجة ، وظلال شجر البلوط ، وجداول ينساب ماؤها تحت الغصون المتهدلة ؛ فأين يختبىء جمال المرأة فى هذه المتعة الطبيعية ؟ فتش عن المرأة — كما يقال فى المثل الفرنسى Cherchez la femme .

ولا يجب أن نتعجل فى وضع قوانين تحيط بالعالم ، فالطبيعة تستنكر التعميمات التى تتجاهل تنوعها اللانهائى ، وهى على استعداد أن تلقى فى وجه مبادئنا الكلية تلاًّ من الاستثناءات . فلنقنع بالقول بأن الشعور الذى كان أصله جنسياً قد يفيض عن أشياء لا صلة لها بالحب على الإطلاق . فالقوة الجنسية النامية باستمرار قد تصرف ما يفيض عنها فى الإعجاب بالمناظر الطبيعية ، كما تروى جذور الدين والصداقة والمثل الاجتماعية والفن .

ومع ذلك فحتى فى هذا المجال توجد روابط وثيقة . فالطفل فى الغالب الأغلب لا يحس بجمال الأرض والسماء ، ولا يهتز لجمالها إلا بالمحاكاة والتعليم فقط . ولكن دع الحب يفيض بحرارته وعاطفته على النفس ، تجد فجأة أن كل شىء طبيعى يبدو جميلا : فيصبح للحب همه فى الأشجار والمياه الجارية ، ويجد سكينة ممتعة تشرق على فائض عاطفته وسعادته . والأزهار أبدع سائر الأشياء التى وهبتها لنا الطبيعة ، ومع ذلك فتبث الزهور أيضاً هى رمز التوالد ومعناه ، وهى آية للناس على الرقة والإخلاص . وعندما يثقل كرُّ السنين ، وتخمد نار الحب ، يخمد الإعجاب بالطبيعة . فالشيخ الذى كالطفل الرضيع لا يتأثر بفتنة الغابات وعبيرها ، أو بعظمة النجوم وبريقها ، أو بأمواج البحر المتدافعة . ففى كل عظمة فى الأرض والسماء أثر لإله الحب إيروس Eros .

٥ — الجمال الثالث : الفن

هذا الفيض من الحب الذى يمتد من الأشخاص إلى الأشياء ، ويجمل الأرض ذاتها التى نمشى عليها ، يبلغ أخيراً ثورة الفن المبدعة . فمتى عرف الإنسان

(١) Corot (١٧٩٦ — ١٨٧٥) مصور فرنسى مشهور بصوره الطبيعية ، وتصور عنده النزعة الرومانتيكية . وضوء الشمس والضباب . (المترجم) .

الجمال انتقشت صورته فى صفحة ذاكرته . وينسج مما رآه من البدائع جمالا مثالياً يربط ما فى أجزائها من كمال فى منظر واحد .

وينشأ الفن بيولوجياً من غناء الحيوانات المتسافدة ورقصها ، ومن سعيها إلى أن تزيد بالصناعة ازدهار ألوان الزهور وتنوع صورها مما تميز به الطبيعة موسم الحب . وقد ولد الفن عندما بنى طائر البوير أول عش لأنثاه المبتهجة التياهة . ونشأ الفن تاريخياً بالنقش الزخرفى ، أو الثياب ، أو إحداث ندوب فى الجسم عند القبائل المتوحشة . ويذهب جروس Groos إلى أن أهالى أستراليا الوطنيين يحملون على الدوام فى جرابهم زاداً من الطلاء الأبيض والأحمر والأصفر . ويقنع الرجل منهم فى الأيام العادية بقليل من الوشم يضعه على خديه . أما وقت الحرب فإنه يلطخ بدنه برسوم عجيبة تهدف إلى تخويف العدو . وفى الأعياد وحفلات الحب يزين جميع بدنه بالنقوش ليجتذب عيون الفتيات . واللون الأحمر أعز الألوان فى هاتين المناسبتين ، وهما الحرب والحب . والأحمر عند بعض القبائل له من القيمة ما يجعل أهلها يقومون برحلات كبيرة تستمر عدة أسابيع لتجديد مؤونتهم منه . ويكثر الرجال من طلاء أنفسهم أكثر من النساء . وفى بعض الأماكن يمنع العوانس منعاً باتاً من تلوين رقابهن .

ولكن الطلاء سريع الزوال . ولذلك بحث المتوحشون - كالإغريق (الذين كانوا يزدرون النقش لسرعة فساده) عن فن أكثر دواماً . ويلجأ البدائى إلى الوشم ، فينشب جسمه فى آلاف المواضع بإبرة ترسب اللون تحت الجلد . وكثيراً ما يلجأ إلى التندب scarification ، إذ يقطع الجلد واللحم ، ويتسع الندب بالتراب الذى يملأ به الجرح بعض الوقت . وعلى طول جزائر توريس ستراتس Torres Straits يحمل الرجال على أكتافهم مثل هذه الندوب التى تشبه الأشرطة العسكرية . ويسمى البوتوكودو Botocudo كذلك من « البوتوك » ، أو الثقب الذى يجعلونه فى الشفة السفلى أو فى الأذنين منذ الشباب الباكر ، ولا يزالون يوسعونه حتى لقد يبلغ فى سعته أربع بوصات . عندما تقرأ الفتاة المتحضرة هذه الأمور البربرية تهز قرطها فى فزع .

ويظهر أن أول استعمال للثياب كان من أجل الفن لا المنفعة . ويروى

أن دارون أخذته الشفقة على شخص من أهالى فوجيا ، كان يرتعش برداً ، فأعطاه ثوباً أحمر اللون يدثر به بدنه . وأخذ الموطن الثوب فرحا ومزقه شرائط وزعها على أقرانه فزينوا بها أيديهم وأرجلهم . ويتضح من هذه التضحية اللذيذة بالمتعة فى سبيل الجمال أن الفرق ليس كبيراً عند الفتاة العصرية التى تلبس الفراء صيفاً ، وتكشف عن نحرها دون خوف لريح الشتاء

وبعد أن زين الرجل البدائى بدنه بما فيه الكفاية انتقل إلى تزيين الأشياء ، فنقش الأسلحة ليعمى على العدو أو ليخيفه ، كما فعل أخيل بدرعه . وكان يزين الآلات المصنوعة من الصوان أو الحجر ، ولا تزال موجودة حتى الآن من عهد ما قبل التاريخ وكان الإنسان فى العصر الحجرى يزخرف جدران كهفه برسومات عجيبة تمثل الحيوانات التى كان يأمل فى اصطيادها ، أو تلك التى كان يعبدها كطواطم فى قبيلته .

ومع أن الدين ليس منبع الجمال ، فقد كان نصيبه فى نمو الفن أقل من نصيب الحب . وبمقدار ما نعرف نشأ النحت من النصب الغليظة التى كانت توضع علامة على القبر ثم هذبته الصنعة فأخذوا يحفرون طرف النصب على هيئة الرأس ثم أخذوا ينحتون فى عصور متأخرة النصب كله على هيئة إنسان (هرمس فى فن الإغريق البدائى) ثم ازدادت العناية والصبر ، وسعى النحات إلى تهذيب تماثيله ، وإلى أن يبرز فيها ملامح الإله أو الجد الذى يريد تخليده . ولم يعرف النحت الحب إلا فى صوره الراقية . ولذلك كان فيدياس أسبق دائماً من بركستيلس Praxiteles ، وجيوتو Giotto قبل كوريجيو Correggio.

ونشأ فن البناء من المقابر التى كان الموتى يدفنون فيها . وأقدم بناء أثرى فى العالم ، وهو الأهرامات ، عبارة عن مقبرة . وبدأت الكنائس كأضرحة للأموات ، وأماكن لعبادتهم ، ثم أخذوا ينقلون المقبرة بالتدريج إلى المكان المجاور ومع ذلك لا تزال قبور عظماء الأسلاف داخل كنيسة وستمنستر أبى . ومن هذه البدايات نشأت الهياكل الشامخة التى أقامها الإغريق للناس أثينا وغيرها من الآلهة . ومن بدايات مماثلة نشأت تلك الآثار التى تعد أبدع ما شيده الإنسان ، وهى الكنائس القوطية التى تضم مذابحها كتلك المقابر القديمة رفات القديسين .

ويبدو أن الدراما نشأت من الشعائر الدينية واحتفالات الأعياد، وقد ظلت الدراما فى أثينا إلى زمان أوريبيدس الشاك شيئاً مقدساً. ونشأت الدراما الحديثة، وهى أبعد الفنون المعاصرة عن الدين، من القداس. ومن المواكب الدينية التى كانت تصور فى العصر الوسيط حياة المسيح وصلبه. ووجد النحت روقاً جديداً فى زخرفة الكنائس. وبلغ فن النقش ذروته بوحى المسيحية.

وقد أظهر الفن صلته الخفية بالحب حتى وهو يخدم الدين. فثمة عنصر وثنى من روائع البدن يوجد فى أقدس صور عصر النهضة. وأصبحت صور العذراء شبيهة بفينوس، والقديس يوحنا بأدونيس الرقيق. وأصبحت صور القديس سباستيان دراسات صريحة فى العرى. فلما انتقلت النهضة من روما إلى البندقية انتصر العنصر الوثنى، وسلم الفن المقدس للحب الدنيوى.

وكما أنه حتى الفن الدينى يرتوى من ينبوع الحب ليعيش، كذلك الأمر فى كل عنصر آخر يتدخل فى خلق الجمال. فللوزن مدخل، ولكنه يرتبط فى الحال بالحب ليولد الغناء والرقص والشعر. وللمحاكاة مدخل، فتعين على نشأة النحت والتصوير، ولكنه الحب، الثنوى أو الجنسى، الذى سرعان ما يحدد الموضوع الذى تصنعه المحاكاة. ولك أن تجمع بين الوزن والمحاكاة والدافع من الحب فتحصل على تسعة أعشار الأدب. وحتى أغنية داتى الإلهية ولو أنها تهدف إلى أن تكون تمثيلا للحياة الإنسانية، فإنها تصبح فى النهاية أغنية حب.

هذا التيار الباطنى من طاقة الحب هو الذى يعدى عاطفة الفنان المبدعة، وتتخذ العلاقة بين الحب والفن عند بعض الفنانين صورة نمو سريع بالجنس والفن فى آن واحد، وينشأ من هذا الاتحاد الطراز الرومانتيكى للعبقرية. فسافو والإسكندر ولوكريتيوس، وبيرون وشلى وكيتس وسوينبرن، وهوجو وروسو وفرلين، وبترارك، وبرونو، وجيوردينو، وشلر وهينى وبو، وشومان وشوبرت وشوبان وسترندبرج وأرتزباشف، وتشيكوفسكى، هؤلاء هم النموذج الذى يتغلب فيه الخيال على العقل. ويحرق الجنس والفن النابعان بإسراف من الأصل نفسه الفنان ويتركانه ميت الجسم أو الروح قبل أن ينفد شبابه. ولما كانت الرغبة فيهم عداءاً فقد امتازوا بالحساسية، والانفعال، والتألم

الدائم ، والخيال الذى لا يعرف الحدود . ويفتنهم كل متطرف وعجيب وغريب . هؤلاء هم الذين يبدعون الشعر والتصوير والموسيقى والفلسفة والحب ، ويعزهم كل محب .

ولكن الفيضان الجنسى يكبت عند غيرهم من الفنانين ويكاد يتحول تماماً إلى الإبداع ، فيفقد الحب سلطانه ، وتقل أصداء الانفعال ، ويزدهر العقل ويتحكم فى كل شىء . ونشأ من هذا التسامى قدامى العباقرة : سقراط وسوفوكليس وأرسطو ، أرشميدس وقيصر وجاليليو - جيوتو وليوناردو وتيتيان ، بيكون وملتون ونيوتن وهوبس ، باخ وكانط ، وجوته ، وهيجل ، تورجنيف ، وفلوبير ، ورينان ، وأناتول فرانس . وهؤلاء قوم هادئون كبحوا جماح الشهوة ورفعوا قوى أنفسهم إلى نجوم متألقة . إنهم يعملون فى بطء بعزم وصبر أكثر مما يعملون « بالإلهام » والعاطفة ويتحدثون ويتصرفون بحساب وضبط . إنهم ينمون ببطء ، ويكون إبداعهم بعد الثلاثين أفضل منه قبل ذلك . ويحققون الشهرة آخر العمر ، ويعمرون طويلا . إنهم لا يتفوقون على الطراز الرومانتيكى فى تلك الذخيرة من الطاقة الممتازة التى تعد الحاكم العام والأصل فى كل عبقرية . ولكنهم لا ينفقون إلا الشىء القليل من تلك الذخيرة فى الأمور الجسية ويدخرون معظمها لفن . كان ميخائيل أنجلو وبيتهوفن ونابليون من العظماء الممتازين ، لأن النموذجين من العبقرية امتزجا فيهم إلى وحدة تكاد تكون أسمى من الإنسان .

ولقد قال نيتشه : « عبقرية المرء تستنزف دمه » ، لأنها تحرقه فى شعلتها . ولكن هكذا يفعل الحب . فإذ اجتمعا على حرق الإنسان فى وقت واحد تكلم فى حماسة وإشراق ، ولكن صوته سرعان ما يخفت . كل عبقرية ، ككل جمال وكل فن ، تستمد قوتها فى النهاية من ذلك المستودع نفسه للطاقة المبدعة التى تجدد الجنس البشرى باستمرار ، وتحقق للحياة الخلود .

٦ — الجمال الموضوعى

والآن لا يبقى أمامنا سوى من بين ما خلفناه من أسئلة يلح علينا طالبا الجواب . أيكون الجمال شيئاً موضوعياً أم شخصياً فقط ، وهوى ذاتياً ؟

يعتقد إليس الذى تفرض أحكامه الاحترام لأنها مؤسسة على أكثر معارف عصرنا عموماً ، أن الجمال مستقل عن شخص الملاحظ ، وهو يقيم حكمه على ما يبدو له من إجماع جوهرى فى إيثار الجميل بين معظم أجناس العالم ، ولو أننا لا نستطيع إصدار مثل هذا الحكم بناء على موسيقى الصينيين وتشويه أجسام الزولو . فالجمال كالأخلاق يميل إلى التنوع مع اختلاف البيئة الجغرافية . ويروى دارون أن الوطنيين فى تاهيتى يعجبون بالأنف المفرطحة ، وكانوا يضغطون على أنوف أطفالهم وجباههم لتجميلهم ، كما يقولون[1] . ويثقب شعب المايا الأنوف والآذان لتزيينها بالأقراط ، ويقلعون أسنانهم ويرصعونها ، ويبططون رءوس أطفالهم حتى تصبح كقمع السكر ، ويجعلون العين حولاء لأنهم كانوا يظنون أن هذا هو الجمال[2] . ولقد دهش منجو بارك حين سمع سود أفريقية يسخرون من بشرته البيضاء . ولما رأى الأولاد السود فى ساحل شرق أفريقية ريتشارد برتون صاحوا : « انظروا الرجل الأبيض ، ألا يبدو كالقرد الأبيض ؟ » ونحن نظن كذلك أن الزولو يشبه الغوريلا السوداء . أكبر الظن كما قال فولتير أننا جميعاً على صواب .

أو تأمل ما نسميه ثقل أرداف steatopygy بعض الحسناوات فى أفريقية . وفى ذلك يقول دارون : « من المعروف أنه عند كثير من نساء الهوتنتوت يبرز الجزء الخلفى من الجسم بشكل عجيب . . . » ويؤكد السير أندرو سميث أن هذه الخاصية تعجب الرجال إعجاباً شديداً . فقد رأى ذات مرة امرأة تعد مثالا للجمال ، وكانت أردافها متضخمة إلى حد أنها إذا جلست على الأرض لم تستطع أن تنهض ، وكان عليها أن تدفع نفسها إلى الأمام حتى تأتى عند منحدر . وتوجد هذه الصفة الغريبة نفسها عند بعض النساء فى كثير من قبائل الزنوج . ويروى برتون أن رجال الصومال ينتقون زوجاتهم بأن يصفوهن فى صف واحد ، ثم يختارون من كانت أردافها أكثر بروزاً . وليس أبغض عند الزنجى من الهيئة المضادة لها »[3] . ولا مشاحة فى الأذواق .

(١) Descent of Man, p. 665.

(٢) Thorndike, L., Short History of Civilisation, p. 395.

(٣) Descent of Man, p. 660.

وحتى عند الأوربيين يختلف مثال الجمال من شعب إلى آخر ومن عصر إلى عصر . فقد كانت البدانة بدعة فى بعض الأوقات. تأمل السيدات اللاتى صورها روبنز ، والصبايا الممتلئات فى صور رمبراندت . حتى العذراء فى رسوم رفائيل مزدهرات الجسم . ولكن حسناوات رينولدز وجنزبورو ورومنى أكثر من ذلك رشاقة . أما نساء هويسلر فمشوقات القد وبغير أرداف . وفى خلال الجيل الذى نعيش فيه تغير ذوق المرأة فى جسمها من الامتلاء الدورى[1] doric إلى الرشاقة الكورنثية . فهيئات الجسم تتخذ كأزياء الثياب شيئاً من التنويع والقداسة .

فمن الواضح إذن أن ثمة فى تقدير الجمال عنصراً كبيراً شخصياً وجنسياً ودينياً . ويبقى بعد ذلك عنصر موضوعى واحد ، ذلك هو الإيثار العام للرجال السويين للنساء اللاتى تشير هيئتهن بأمومة قوية . والأصل أن كمال الوظيفة الطبيعية هو الذى يبعث اللذة لصاحب الذوق السليم ، ويكون ذلك فى المرأة أولا ثم فى كل شىء . فكل عمل يؤدى على أحسن وجه ، وكل حياة يحسن المرء معيشتها ، وكل أسرة حسنة التربية ، وكل آلة تحسن أداء العمل المهيأة له ، كل ذلك يرغمنا أن نقول : « هذا شىء جميل » . ولو كنا أصحاء بمعنى الكلمة لاعتبرنا المرأة الصحيحة التى ترضع طفلها الصحيح أعلى صورة من صور الجمال فى هذا العالم . وهنا نجد أن فن العصر الوسيط والنهضة وما يمتازان به من صور العذراء والطفل كان أرق وأصح فى ذوقه من فننا . فنحن وقد انحرفنا بالفن إلى الانحلال أصبحنا نشتاق إلى النحاف من النساء اللاتى يشبهن الزنابير لايبدين بمقدار مايلبسن .

لو أن غرائزنا لم تفسدها أدوات الزينة ، ولم تنحرف بالمال ، لبقيت حاسة الجمال فينا سليمة بيولوجيا ، ولكان الحب أفضل السبل لتحسين النسل . ولعاد الحسن كما أرادت له الطبيعة أن يكون فأصبح زهرة الصحة وبشيرها ، والضامن للأطفال الكاملين ، وعمل مرة أخرى لخير الإنسانية لا لإضعافها . وهنا يلتقى الخير بالجمال . فنصل إلى النتيجة التى انتهى إليها أفلاطون من أن : « مبدأ الخير يرتد إلى قانون الجمال »[2] .

(١) نسبة إلى العصر الدورى فى الحضارة اليونانية القديمة (المترجم) .
(٢) Philebus, § 64 ; in Bosanquet, History of Aesthetics, p. 33.

لقد تردد أفلاطون فى هذه المسألة ولم يعرف بالضبط لمن يركع ، ألحكمة أثينا القوية ، أم لملاحة أفروديت المشرقة . لعله كان على حق فى تردده، فالجمال كما رأينا من العسير أن نجعله دعامة الدولة الكاملة وأساسها ولكن ما فائدة الحكمة إذا لم تجعلنا نحب الجميل ونخلق جمالا جديداً أبهى مما تقدمه الطبيعة ؟ الحكمة وسيلة ، والجمال . فى الجسم والنفس ، غاية . والفن بغير علم فقر ، ولكن علم العلم بغير فن بربرية . بل إن الفلسفة الإلهية وسيلة إلا إذا وسعنا آفاقها لتشمل سائر مهام الحياة المتناسقة وآلاتها وقيمها إن الفلسفة إذا لم تحركها ملاحة الجمال فهى غير جديرة بالإنسان .

لقد زال كل شىء عن مصر ما عدا العظمة الفائتة التى رفعتها من الرمال . وفنى كل شىء عند الإغريق وبقيت حكمتها وفنونها . إن الجمال الحى أعظم أنواع الجمال . ولكنه يذبل مع تقدم العمر ويفسده الزمان . والفنان وحده هو الذى يستطيع أن يضع يده على الصورة العابرة ويطبعها فى قالب يغالب الفناء . أو كما قال جوتييه[1] :

كل شىء إلى فنـاء
سوى الفن فإلى بقـاء
ويبقى تمثـال الرخام
وتمضى الدول إلى هباء

* * *

الدينار يكشفه العـامل
من الأرض فى شـقاء
عليـه وجه السلطان
روحه مستقرة فى السماء

* * *

تموت الآلهـة ويبقى
رصين الشـعر إذا يشاء

(١) جوتيه Gautier (١٨١١ – ١٨٧٢) شاعر فرنسى وقصصى مشهور بحسن نظمه ، كان من أعظم أنصار مذهب الفن للفن (المترجم) .

